سلسلة كتب

السيد الشريف الشيخ عبد القادر الجيلاني

تفسير الجيلاني

السيد الشريف الشيخ محيي الدين أبي محمد عبد القادر الجيلاني

الحسني الحسيني

« قدس سره »

بحث وتحقيق

السيد الشريف الدكتور محمد فاضل جيلاني الحسني

الحسيني التيلاني الجمزرقي

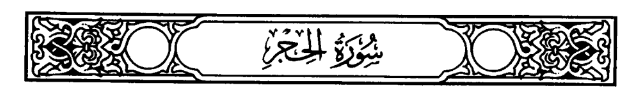
الجزء الثالث

مركز الجيلاني للبحوث العلمية

اسطنبول


تفسير الجيلاني

بسم الله الرحمن الرحيم



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الحجر

لا يخفى على ذوي التمكن والاطمئنان من أرباب التوحيد والعرفان، الواصلين إلى مرتبة التحقيق والإيقان: أن أصحاب التقليد والتلوين، المترددين في مضيق الحسبان والتخمين متى ظهر عندهم ولاح عليهم أمارات تسليم أرباب التوحيد، المفوضين أمورهم كلها إلى الله، وشاهدوا من ظواهر أحوالهم في أوصافهم وأفعالهم أمارات الاعتدال وعلامات الرضا والتسليم، تمنوا أن يكونوا أمثالهم وعلى أوصافهم وأخلاقهم، وأحبوا أن يتدينوا بدينهم ويتخلقوا بأخلاقهم لعدم رسوخهم فيما هم فيه من التقليدات الباطلة والتخمينات العاطلة الموروثة لهم من آبائهم وأسلافهم، ويتفطنوا من أنفسهم التزلزل والتذبذب في ظنونهم وجهالاتهم، إلا أنهم من شدة شكيمتهم وضغينتهم وخبث طينتهم لم يقدموا على قبول الإيمان والتدين بدين الإسلام، مع نزول الآيات الظاهرة الدالة المثبتة لحقية وورود المعجزات الباهرة المبينة لصدقه ومطابقته للواقع.

لذلك خاطب سبحانه حبيبه ﷺ على وجه التنبيه بما يدل على تأييده وتعضيده في أمره، وأوصاه بترك مكالمتهم ودعوتهم، وبشَّره بإهلاكهم وانتقامهم، فقال متيمناً باسمه العظيم:

الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴿٢﴾ ....

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ الموفق لعباده على مقتضى مشيئته ومراده ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ لهم بتبيين دلائل دينه على مقتضى استعداداتهم وقابليّاتهم ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ لهم يوفقهم على الاتصاف به وقبوله.

﴿الٓرۚ﴾ أيها الإنسان الأفضل الأكمل الأليق لأن يفيض عليه سبحانه لطائف رموزات أسرار الربوبية، ولوائح رقائق سرائر الألوهية اللامعة اللائحة من مقر الرحمة العامة والكرامة الكاملة الشاملة ﴿تِلۡكَ﴾ الآيات المذكورة في هذه السورة ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي بعض آيات الكتاب الجامع الناسخ للكتب السالفة ﴿وَ﴾ آيات ﴿قُرۡءَانٖ﴾ فرقان فارق بين الهداية والضلالة والرشد والغي ﴿مُّبِينٖ ﴿١﴾﴾ ظاهر البيان والتبيان لأولي البصائر المتأملين في حكم إيجاد الموجودات سيما الإنسان الكامل المميز الممتاز بأنواع الفضائل والكرامات، سيما العقل المفاض له من العقل الكلي ليتوجه به نحو موجده ويتدبر به أمر مبدئه ومعاده، ومن لم يصرفه إلى ما خُلق لأجله وجبل لمصلحته فقد كفر وضل ضلالاً بعيداً بمراحل عن مرتبة الإنسانية، وذلك من غاية انهماكهم في الغفلة وعمههم وسكرتهم بمزخرفات الدنيا الدنية.

وحين فاقوا عن سكرتهم وعمههم أحياناً

﴿رُّبَمَا يَوَدُّ﴾ أي قلما يحب ويستحسن على وجه التمني ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي ستروا الحق ولم يصرفوا عقولهم إلى كشفه ﴿لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴿٢﴾﴾

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾﴾ ....

مصرفين عقولهم إلى معرفة الله ومفوضين أمورهم كلها إليه ومتوكلين على الله في جميع حالاتهم، لكن من شدة طغيانهم ونهاية غوايتهم وخسرانهم، لم يقبلوا دعوتك، ولم يؤمنوا بك وبكتابك يا أكمل الرسل عناداً واستكباراً، حتى ينجوا من خذلان الدنيا وخسران الآخرة.

﴿ذَرْهُمْ﴾ يا أكمل الرسل وشُغلهم في دنياهم ﴿يَأْكُلُوا۟﴾ من مأكولاتها المورثة لأنواع المرض في قلوبهم ﴿وَيَتَمَتَّعُوا۟﴾ بمزخرفاتها الفانية ولذاتها الوهمية ﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾ ويشغلهم عن الاشتغال بالطاعات ويحرمهم عن اللذات الأخروية مطلقاً ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ قبح صنيعهم وسوء فعالهم حين انكشف الأمر وتبلى السرائر، فحينئذ يتنبهون بما فوتوا لأنفسهم من اللذات الروحانية بإعراضهم عن الله وكتابه ونبيه ﴿وَ﴾ من سنتنا القديمة أنا ﴿مَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾﴾ أي ما أردنا إهلاك قرية من القرى الهالكة إلا وكَتَبْنا أولاً في لوحنا المحفوظ وعلمنا القديم لإهلاكها أجلاً معلوماً ووقتاً معيناً[1] بحيث:

﴿مَّا تَسْبِقُ﴾ وما تتقدم ﴿مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ الذي عين لإهلاكها ﴿وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾﴾ عنه، بل متى وصلوا إليه هلكوا حتماً بحيث لا يسع لهم التقديم والتأخير أصلاً.

---

(١) في المخطوط (أجلاً معلوماً واحداً معينة).

وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ......

﴿وَ﴾ كيف لا نهلكهم ونعذبهم بأشد العذاب ولا ننتقم عنهم، إذ هم ﴿قَالُوا۟﴾ حين دعوتك إياهم وإلقائك إليهم شعائر الإيمان والإسلام، منادين لك، مستهزئين معك متهكمين: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ النبي ﴿ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ﴾ من عند ربه ﴿ٱلذِّكْرُ﴾ أي الكتاب المبين له أمثالَ هذه الكلمات التي نسمع منك ﴿إِنَّكَ﴾ في دعوتك وادعائك النبوة والكتاب ﴿لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾﴾ مخبط مختل العقل يخبطك[1] الجن ويعلمك أمثال هذه الكلمات والحكايات، تخيلت أنهم ملائكة ينزلون إليك بها، وإن اطلعتَ على الملائكة وصاحبت معهم مع أنك بشر مثلنا.

﴿لَّوْ مَا﴾ أي هلا ﴿تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ المنزلين إليك ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾﴾ في دعواك حتى نراهم ونسمع قولهم مثل رؤيتك إياهم، قل لهم يا أكمل الرسل نيابة عنا:

﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾ لكل واحد من البشر، بل لمن نؤتى الحكمة منه له في أصل فطرته واستعداده، وهم الأنبياء والرسل المأمورون بالإرشاد[2] والتكميل، وما ننزلهم ﴿إِلَّا﴾ تأييداً لهم ملتبساً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالدين الثابت المطابق للواقع ؛ ليتدين بدينهم من يتبعهم ويؤمن لهم إطاعة وانقياداً، ولو اطلع الكل[3] على نزولهم ورأوا صورهم لبطل حكمة الإطاعة والإرسال والتكميل، إذ الكل[4]

(١) في المخطوط (يغبطك).
(٢) في المخطوط (بالإرسال).
(٣) في المخطوط (الكمل).
(٤) في المخطوط (الكمل).

وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدۡ
أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ
يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَ

في الرشد والهداية على السواء حينئذ ﴿وَ﴾ أيضاً ﴿مَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾﴾ منتظرين إلى يوم الجزاء، إذ الكل ناجون مهديون في النشأة الأولى.

﴿إِنَّا نَحۡنُ﴾ بمقتضى حكمتنا ﴿نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ﴾ أي الكتب على الأنبياء والرسل على وجه يعجز البشر عن إتيان مثله، لكون ألفاظه ومعلوماته ونظمه واتساقه خارجة عن مقتضيات مداركهم وعقولهم، لذلك ينسبون أكثر الأنبياء والرسل إلى الجنون والخبط ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿إِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ عن تحريف أهل الزيغ والضلال، المنحرفين عن جادة التوحيد.

﴿وَ﴾ لا تحزن يا أكمل الرسل من استهزائهم معك وتكذيبهم، فإنهم من الديدنة القديمة بين أهل الضلال فإنا ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ﴾ رسلاً حين شاع أنواع الفسوق والعصيان ﴿فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾﴾ أي فئتهم وفرقهم.

﴿وَ﴾ هم من خبث طينتهم وشدة شكيمتهم وضغينتهم ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١١﴾﴾ بأنواع الاستهزاء من نسبة الكذب والجنون وأنواع العيوب.

﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ﴾ وندخله ﴿فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ الذين تعلقت(١) إرادتنا ومشيئتنا بإهلاكهم وتعذيبهم على مقتضى أوصافنا القهرية والجلالية، لذلك ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي بالرسول المنزل إليهم ﴿وَ﴾ كيف يؤمن بك يا أكمل الرسل

---

(١) في المخطوط (تعلق).

قَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ
﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى
ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ ....

هؤلاء الكفرة إذ ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾ أي سنة الله في الكفرة الماضين أو سنة كل فرقة من أسلافهم، وهم أيضاً على أثرهم وطبقهم تقليداً لهم.

﴿وَ﴾ من خبث طينتهم وفسوقهم وغفلتهم ﴿لَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾ أي على هؤلاء المستهزئين المنهمكين في الغي والضلال ﴿بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ على خلاف العادة ليؤمنوا بك وبدينك وكتابك ﴿فَظَلُّواْ فِيهِ﴾ وصاروا ﴿يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾﴾ يصعدون منه نحو السماء ويستوضحون ما فيها

﴿لَقَالُوٓاْ﴾ من شدة غيهم وضلالهم: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ﴾ وحيرت ﴿أَبْصَٰرُنَا﴾ بسحر محمد وتلبيسه، وإنما فُعل بنا هذا لنؤمن له ونصدق قوله وكتابه ونقبل دينه ﴿بَلْ﴾ أمرنا كذلك بلا شك وتردد إذ ﴿نَحْنُ﴾ بمشاهدة هذا الفتح والعروج ﴿قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ مغبوطون مخبوطون، لبس علينا الأمرَ هذا الشخصُ بالسحر والشعبذة.

ثم قال سبحانه امتناناً لعباده بتهيئة أسباب معاشهم:

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا﴾ وقدرنا ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ اثني عشر تدور وتتبدل فيها الشمس في كل سنةٍ شتاء وصيفاً، ربيعاً وخريفاً، والقمرُ في كل شهر، تتميماً لأسباب معاشكم وتنضيجاً لأقواتكم وأثماركم ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ أي حسَّنَّا نظمها وترتيبها وهيئاتها وأشكالها ﴿لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾ المتأملين في كيفية حركاتها ودوراتها وانقلاباتها ليستدلو بها على قدرة مبدعها ومتانة أمر صانعها

وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ
﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ
﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ ....

ومخترعها، إلى أن ينكشفوا بوحدة المظهر ورجوع الكل إليه.

﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿حَفِظْنَٰهَا مِن﴾ اطلاع ﴿كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾﴾ على ما فيها من السرائر والحكم المودعة.

﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ﴾ واختلس من الشياطين ﴿ٱلسَّمْعَ﴾ والاستطلاع من سكان السماوات، وتكلف في الصعود والرقي نحوها ﴿فَأَتْبَعَهُۥ﴾ من كمال قهر الله إياه ﴿شِهَابٌ﴾ جذوةُ نارٍ على مثال كوكب ﴿مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ ظاهرٍ عند أولي الأبصار زجراً له ومنعاً عن الاستطلاع بالسرائر.

﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ أيضاً ﴿مَدَدْنَٰهَا﴾ أي مهَّدناها وبسطناها ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ شامخات لتقررها وتثبيتها ولتكون مقراً للمياه والعيون ومعدناً للجواهر ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾ مطبوعٍ ملائمٍ تستحسنها الطباع وتستلذ به.

﴿وَ﴾ إنما ﴿جَعَلْنَا﴾ وخلقنا كل ذلك أي العلويات والسفليات ليحصل ﴿لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ تعيشون بها وتقومون مزاجكم منها؛ لتتمكنوا وتقدروا على سلوك طريق التوحيد والعرفان الذي هو سبب إيجادكم، والباعث على إظهاركم، إذ ما خُلقتم وجُبلتم إلا لأجله ﴿وَ﴾ كذا معايش ﴿مَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾﴾ من أخلافكم وأولادكم وإن كنتم تظنون أنكم رازقون لهم ظناً كاذباً، بل رزقكم ورزقهم ورزق جميع من في حيطة الوجود علينا.

وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ ....

﴿وَ﴾ كيف لا يكون رزق الكل علينا ﴿إِن مِّن شَيْءٍ﴾ أي ما من رطب ولا يابس مما يطلق عليه اسم الشيء ﴿إِلَّا عِندَنَا﴾ أي في حيطة قدرتنا ومشيئتنا ﴿خَزَآئِنُهُۥ﴾ أي مخزونات كل شيء عندنا لا ينتهي قدرتنا دون مقدور، بل لنا القدرة الكاملة بإيجاد الخزائن من كل شيء ﴿وَ﴾ لكن اقتضت حكمتنا أنا ﴿مَا نُنَزِّلُهُۥٓ﴾ ونظهره ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ عندنا وفي حيطة علمنا وأجل مقدر لدينا لا اطلاع لأحد عليه.

﴿وَ﴾ من بدائع حكمتنا وعجائب صنعتنا ﴿أَرْسَلْنَا﴾ من مقام فضلنا وجودنا ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ الهابة في فصل الربيع ﴿لَوَٰقِحَ﴾ أي ملقحات تجعل الأشجار حوامل بالأثمار ﴿فَأَنزَلْنَا﴾ بعد صيرورتها حوامل ﴿مِنَ﴾ جانب ﴿ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ لتربيتها وتنميتها ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ أي وقت الصلاح والحصاد ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ﴾ أي للماء ﴿بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ حافظين أي ليس في وسعكم وطاقتكم حفظه في الحياض والغدائر وكذا إلقاح الأشجار وإنباتها وسقيها وإصلاحها وجميع ما يحتاج إليها، إذ ليس عندكم خزائن كل شيء.

﴿وَ﴾ أيضاً من غرائب مبدعاتنا ﴿إِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ﴾ ونظهر على مقتضى أوصافنا اللطفية البسطية ﴿وَنُمِيتُ﴾ ونعدم على مقتضى أوصافنا القهرية القبضية ﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾ الباقون بعد انتهاء المظاهر وفنائها بعد الطامة الكبرى.

وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ....

﴿وَ﴾ من كمال علمنا وخبرتنا أنا ﴿لَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ المتقدمين في الوجود ﴿مِنكُمْ﴾ أي من أسلافكم بل من شؤونكم ونشأتكم التي في أصلاب آباءكم وأرحام أمهاتكم، بل استعداداتكم في ذرائر العناصر بل حصصكم من الروح الأعظم ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ المتأخرين منكم في الوجود على الوجه المذكور.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿هُوَ﴾ المطلع بسرائر الماضي والحال والمستقبل ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ في المحشر وموعد القيامة والحساب والجزاء وكيف لا ﴿إِنَّهُۥ﴾ في ذاته وأوصافه وأفعاله ﴿حَكِيمٌ﴾ متقن الفعل، متين الصنع ﴿عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ لا يعزب عن حيطة حضرة علمه شيء.

ثم قال سبحانه امتناناً لكم وتنبيهاً على دناءة منشأكم ثم على شرف مكانتكم وعلو شأنكم: أيها المكلفون من الثقلين، القابلون للإيمان والمعارف.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ أي أظهرنا جنسه وقدرنا جسمه ﴿مِن صَلْصَـٰلٍ﴾ أي طين يابسٍ مصوتٍ من غاية يبسه وبقائه على حر الشمس متخذٍ ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾ أي من طين أسود منتن كريه الرائحة يستكره ريحه جميع الحيوانات.

﴿وَٱلْجَآنَّ﴾ أي جنسه أيضاً ﴿خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل إيجاد الإنسان من مادة أدنى أيضاً، إذ هو متخذ ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ أي شديد الحر متناه فيه.

انظروا أيها المعتبرون إلى نشأتكم ومادتكم

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ ....

﴿وَ﴾ اذكروا تشريف ربكم إياكم وقت ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ يا أكمل الرسل خصه سبحانه رسول الله ﷺ بالخطاب للياقته وكمال استحقاقه أن يكون مخاطباً معه، كأنه لجمعية مرتبته عمومَ مراتب بني نوعه، عبارةٌ عن جميعهم ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ على سبيل الإخبار والتعليم ﴿إِنِّي﴾ لمطالعة جمالي وجلالي وجميع أوصاف كمالي على التفصيل ﴿خَٰلِقُۢ﴾ ومقدرٌ ﴿بَشَرًا﴾ أي تمثالاً متخذاً ﴿مِّن صَلْصَٰلٍ﴾ متخذة ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ بعيدٍ بمراحل عن مقاربتي ومقارنتي، إذ هو أخس الأشياء وأدونها. ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ أي عدلته وكملت هيكله وشكله ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ ورششت عليه من رشحات نور وجودي ليكون حياً بحياتي ومرآة لي أطالع فيها جميع أسمائي وأوصافي ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ فعليكم أن تضعوا جباهكم على تراب المذلة عنده تعظيماً له وتكريماً.

ولما سمعوا الأمر الوجوبي القطعي

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بلا طلب مرجح ودليل ﴿كُلُّهُمْ﴾ بلا خروج واحد منهم ﴿أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ مجتمعون معاً بلا تقدم وتأخر، وتردد وتسويف.

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ الذي هو منهم تبعاً لأصالته ﴿أَبَىٰٓ﴾ عن السجود وامتنع ﴿أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾.

ثم لما تخلف إبليس وركن عن أمر الله

قَالَ يَـٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَـٰلٍ مِّنۡ حَمَإٍ مَّسۡنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾

﴿ قَالَ ﴾ سبحانه توبيخاً وتقريعاً: ﴿ يَـٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ ﴾ أيْ أيّ شيء عرض لك يا إبليس ﴿أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾﴾ الخاضعين الواضعين جباههم على تراب المذلة امتثالاً للأمر الوجوبي.

﴿ قَالَ ﴾ إبليس محتجاً على الله طالباً للرجحان والمزية على سبيل الإنكار والتعريض: ﴿ لَمۡ أَكُن ﴾ أي لم يصح مني ولم يستحسن عني ولم يلق لمرتبتي ﴿ لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ ﴾ جسماني ظلماني كثيف ﴿خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَـٰلٍ ﴾ أكشف وأظلم منه، وأخذت الصلصال

﴿ مِّنۡ حَمَإٍ مَّسۡنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾ لا شيء أظلم منه وأبعد عن ساحة عز القبول، والتمثالُ المشتمل على هذه الظلمات المتراكمة لا يليق أن يَخضع ويسجد له الروحاني النوراني.

﴿ قَالَ﴾ سبحانه طرداً له وتبعيداً: إذا تخلفت يا إبليس عن أمري وخرجت عن مقتضى حكمي ﴿فَٱخۡرُجۡ ﴾ أيها المردود ﴿مِنۡهَا﴾ أي من بين الملائكة، ولا تعد نفسك من زمرتهم، فإنهم مقبولون مطيعون، وأنت مردود ومطرود ﴿فَإِنَّكَ ﴾ بتخلفك عن مقتضى أمرنا ﴿رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ بعيد عن رحمتنا وكرامتنا.

وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ
﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ
أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ ....

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ ﴾ والطرد والتخذيل، نازلةٌ مستمرة ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾ مقرك ومقيلك النار المعدة لك ولمن تبعك من عصاة العباد.

ثم لما آيس إبليس عن القبول، وقنط عن رحمة الله.

﴿ قَالَ ﴾ مشتكياً متحسراً متأوهاً: ﴿رَبِّ ﴾ يا من رباني بأنواع الكرم والنعم فكفرت نعمك بمخالفة أمرك ﴿فَأَنظِرْنِيٓ﴾ وأمهلني ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾ ويحشرون لأغوي بني آدم وأنتقم عنهم.

﴿ قَالَ ﴾ سبحانه: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ لتكون عبرة للعالمين.

﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ أي إلى وقت لا يمكن فيه تلافي التقصير وكسب الزاد للمعاد، وتهيئة الأسباب ليوم الميعاد.

قيل: هي النفخة الأولى لحشر الأجساد.

﴿ قَالَ ﴾ إبليس مقسماً مبالغاً: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي ﴾ أي بحق قدرتك التي أغويتني وأضللتني بها وأحطتني عن رفعة منزلتي وأخرجتني من بين أحبتي وإخوتي ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ ﴾ أعمالهم الفاسدة، وأحسن عليهم الأفعال القبيحة ﴿فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ وأغرينهم إلى ارتكاب أنواع المفاسد والمقابح عليها وأصناف الجرائم والآثام المائلة إليهم نفوسهم طبعاً ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ ﴾ وأضلنهم ﴿ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾ بحيث لا يشذ عنهم أحد من ذوي النفوس الأمارة.

إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾
إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ
جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ ....

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ المخلَّصين رقابهم عن ربقة الأمارة، المطمئنين، المتمكنين في مقام الرضا والتسليم.

﴿قَالَ﴾ سبحانه على مقتضى إشفاقه ورحمته: ﴿هَٰذَا﴾ أي إخلاص المخلصين المطمئنين، الراضين بما جرى عليم من قضائي ﴿صِرَٰطٌ عَلَيَّ﴾ وطريق موصل إلى توحيدي ووحدة ذاتي واستقلالي في آثار أوصافي وأسمائي ﴿مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ لا عوج فيه أصلاً، من توجه إليّ عن هذا الطريق، فاز ونجا، بحيث لا يعرضه الضلال والانحراف أصلاً، وكيف يعرضه إذ هو من خلص عبادي.

﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ الذين هم تحت قبابي ﴿لَيْسَ لَكَ﴾ أيها المضل المغوي ﴿عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ أي استيلاء وغلبة ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ الضالين بإغوائك عن منهج اليقين، وهم وإن كانوا من جنسهم صورةً ليسوا منهم حقيقة.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان ﴿لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ أي تابعاً ومتبوعاً.

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾ على عدد مداخلها من الشهوات السبعة المقتضية إياها، المذكورة في كريمة ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ﴾

﴿لِكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ ....

[٣-آل عمران١٤] الآية. ﴿لِكُلِّ بَابٖ﴾ من الأبواب السبعة الجهنمية ﴿مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ أي طائفةٌ مفروزةٌ منهم بالدخول من كل بابٍ وإن كان الكل شريكاً في الكل.

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته المستمرة:

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ المخلِّصين نفوسهم عن وسوسة الشياطين ﴿فِي جَنَّٰتٖ﴾ متنزهاتٍ من العلم والعين والحق ﴿وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾ جاريات من زلال الحقائق والمعارف، صافياتٍ عن كدر الرياء ودرن التقليدات، ويقول لهم الملائكة حين وجدانهم متصفين بحلية التقوى:

﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ أي سالمين عن شدائد الحساب وصعوبته ﴿ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾ عن خوف العذاب والعقاب.

﴿وَ﴾ كيف لا يكونون سالمين آمنين إذ ﴿نَزَعۡنَا﴾ وأخرجنا بنور الإيمان والتوحيد ﴿مَا فِي صُدُورِهِم﴾ وضمائرهم ﴿مِّنۡ غِلٍّ﴾ أي حقدٍ وحسدٍ متمكن في نفوسهم، متعلق لبني نوعهم حتى صاروا ﴿إِخۡوَٰنًا﴾ أصدقاء متكئين ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ﴾ متساوية من الصداقة ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ متناظرين مطالعين كل منهم في مرآة أخيه محامدَ أخلاقه ومحاسن شيمه.

﴿لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ﴾ أي محنة وعناء حتى يشوشوا بها ﴿وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ حتى يخافوا منه، بل هم فيها خالدون مخلدون مستمرون

﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗا قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ ....

ما شاء الله.

ثم قال سبحانه تسلية لعموم عباده وتبشيراً لهم بسعة فضله ورحمته: ﴿۞ نَبِّئْ﴾ أي أخبر وأعلم يا أكمل الرسل المبعوث على كافة الأمم عموم ﴿عِبَادِيٓ﴾ مؤمنهم وكافرهم، مطيعهم وعاصيهم ﴿أَنِّيٓ﴾ من كمال برّي ومرحمتي إياهم ﴿أَنَا ٱلۡغَفُورُ﴾ المبالغ في الستر والعفو لمن استرجع إلي، واستغفر عن ظهر القلب، وأناب عن محض الندم ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ لهم أرحمهم وأقبل منهم توبتهم واعفو عنهم زلتهم.

﴿وَ﴾ نبئهم أيضاً ﴿ أَنَّ عَذَابِي﴾ وانتقامي وبطشي على من أصر على عنادي واستمر على ترك طاعتي وانقيادي ﴿هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ المؤلم المستمر الذي لا نجاة لأحد منه.

﴿وَ﴾ إن أنكروا على إنعامي وانتقامي ﴿نبئهم عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾﴾ تبييناً وتوضيحاً لهم وقت

﴿ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ﴾ جردٌ مردٌ صِباحٌ ملاحٌ ﴿فَقَالُواْ﴾ ترحيباً وتكريماً: ﴿سَلَٰمٗا﴾ أي نسلم عليك سلاماً، ثم لما تفرس إبراهيم بنور النبوة أنهم ملائكة جاؤوا بأمر خطير ﴿قَالَ﴾ على سبيل المخافة: ﴿إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ أي خائفون لأنهم جاؤوا هفوة ودخلوا عليه بغتة بلا إذن واستئذان على عادة المسافرين، ولا يظهر عليهم أثر السفر.

قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ ....

﴿ قَالُواْ ﴾ أمناً له وتسكيناً لخوفه واضطرابه: ﴿لَا تَوْجَلْ ﴾ منا ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ ﴾ من عند ربك ﴿بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾﴾ قابلٍ للنبوة والرسالة والحكمة الكاملة.

﴿ قَالَ ﴾ إبراهيم عليه السلام متأوهاً آيساً مستفهماً على سبيل الاستبعاد: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي ﴾ أيها المبشِّرون في زمانٍ قد انقطع الرجاء فيه عادةً ﴿عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ المانع من الاستيلاد والاستمناء العادي، إذ هو في سنٍ قد انقطعت الشهوة عنه وعن زوجته أيضاً، إذ هما في سن الهرم والكهولة.

﴿ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ ﴾ ملتبساً ﴿بِٱلْحَقِّ ﴾ المطابق للواقع بإذن الحق وعلى مقتضى قدرته الكاملة بإيجاد شيء بلا سبق السبب العادي له ﴿فَلَا تَكُن ﴾ أيها النبي المتمكن في مقام الرضا والتسليم، المسنِد المفوِّض جميع الحوادث الكائنة في عالم الكون والفساد إلى الفاعل المختار بلا اعتبار الوسائل والأسباب ﴿مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾﴾ الجازمين بفقدان الشيء عند فقدان أسبابه العادية.

﴿ قَالَ ﴾ مستبعداً مستوحشاً: ﴿وَمَن يَقْنَطُ ﴾ وييأس ﴿مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ ﴾ التي وسعت كل شيء على مقتضى جوده تفضلاً بلا سبق استحقاق واستعدادِ أسبابٍ ﴿إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ المقيَّدون بسلاسل الأسباب الطبيعية، وأغلال الوسائل الهيولانية ونحن معاشر الأنبياء لا نقول بأمثال هذه الأباطيل الزائغة.

ثم لما جرى بينهم ما جرى

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ ....

﴿ قَالَ ﴾ إبراهيم عليه السلام على مقتضى تفرسه منهم: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ ﴾ أي أمركم العظيم الذي جئتم لأجله ﴿أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ المهيبون.

﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ خارجين عن مقتضى العقل والشرع والطبع، إذ فعلتهم الفاحشة الشنيعة مما يستقبحه ويستكرهه العقول والطباع مطلقاً، فكيف الشرع، فنهلكهم اليوم بالمرة على مقتضى أمر الله وقدره.

﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ﴾ أي أهل بيته ومن آمن له.

﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ لكونهم معصومين مطيعين.

﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ ﴾ المجرمة العاصية ﴿قَدَّرْنَآ ﴾ بإعلام الله وإذنه إياه[1] علينا ﴿إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ الباقين مع الكفرة الهالكين ؛ لكونها باقية على اعتقادهم وعنادهم.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ﴾ ودخل على طريق الضيفان ﴿ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ المرد الصباح الملاح.

﴿قَالَ﴾ لوطاً: ﴿إِنَّكُمْ ﴾ أيها الضيفان ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ أخاف عليكم من قومي وسوء فعالهم وقبح ديدنتهم وعادتِهم، مع أني أخاف من

---

(١) في المخطوط (إياها).

قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَـٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ ....

جيئتكم أيضاً على هذا الوجه بحيث لا أرى عليكم أمارات البَشَر.

﴿ قَالُوا۟ ﴾ أي المرسلون له: لا تخف لا علينا ولا منا، إذ ما جئنا لتخويفك وتوحيشك ﴿بَلْ جِئْنَـٰكَ ﴾ لنسرك ونؤيدك وننصرك على أعدائك ﴿بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾﴾ أي بإثبات ما يشكّون فيه ويترددون، بل يكذبونك فيه مراء، وهو العذاب الذي توعدتَ لهم وادعيتَ نزوله عليهم، وهم يشكّون فيه.

﴿ وَأَتَيْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ المطابق للواقع ﴿وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾﴾ فيما قلنا لك.

والآن وقت إنجاز ما وعد الله لك من إنزال العذاب عليهم

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ أي سر واذهب معهم ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾ أي في طائفة من آنات الليل وساعاته فقدمهم أمامك ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ ﴾ وأثرهم، والعذابُ منزل عليهم عقيب خروجك بلا تراخ وإذا كانوا خلفك أصابتهم منه ﴿وَ﴾ بعدما خرجتم إليهم من بينهم ﴿لَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ خلفه ولا ينظر إلى ما وراءه حتى لا يصيبه ما أصابهم ولا يهوله ولا يفزعه ﴿وَٱمْضُوا۟ ﴾ أيها المأمورون ﴿ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ﴾ أي حكمنا على لوط بالوحي إليه ﴿ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ ﴾ الفظيع

أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾
قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ
نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ ....

الهائل وهو ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ﴾ يعني أن عواقب هؤلاء المسرفين المفرطين مقطوعة مستأصلة بالمرة حال كونهم ﴿مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾ أي حين دخول الصباح عليهم.

﴿وَ﴾ بعد ما بلغ الرسل إلى لوط ما جاؤوا به من قبل الحق ﴿جَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ﴾ وهي سدوم ﴿يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ بأضياف لوط ويستحسنوهم طامعين وقاعهم مسرعين حول بيته.

﴿قَالَ﴾ لهم لوط على مقتضى شفقة النبوة - وإن كان الأمر عنده مقضياً محتماً بلا تردد : ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المسافرين ﴿ضَيْفِى﴾ نزلوا في بيتي ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾﴾ بإساءتهم ؛ لأن إساءتهم وتفضيحهم عين إساءتي وتفضيحي.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ عن ارتكاب محظوراته والركون إلى محرماته ﴿وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾﴾ ولا تخجلوني منهم، إذ فعلتكم هذه معهم، مسقطة للمروءة بالمرة.

﴿قَالُوٓاْ﴾ في جوابه: أتنهانا اليوم عنهم كما نهيتنا عن أمثالهم في ما مضى ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ﴾ من قبل أن لا تمنعنا ﴿عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾﴾ وكن في نفسك زكياً طاهراً مهذباً، ما لك معنا وخبثنا.

قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِى سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٧٢﴾
فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةً
مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾

ثم لما بالغوا في الإصرار والعناد:

﴿قَالَ﴾ لهم لوط ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ النسوان ﴿بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾﴾ فهن أولى بكم وأطهر لقضاء وطركم.

﴿لَعَمۡرُكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿إِنَّهُمۡ لَفِى سَكۡرَتِهِمۡ﴾ المنبعثة من شهوتهم المفرطة المحيرة المدهشة لعقولهم ﴿يَعۡمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ ويهيمون إلى حيث لا يسمعون نصحه فكيف يقبلونه ويفهمون.

ولما لم يتركوا الفضيحة ولم يقبلوا النصيحة:

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ الهائلة المهلكة وقت الصبيحة حال كونهم ﴿مُشۡرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾ داخلين وقت شروق الشمس.

﴿فَجَعَلۡنَا﴾ بالزلزلة ﴿عَٰلِيَهَا﴾ أي عالي المدينة ﴿سَافِلَهَا﴾ وسافلها عاليها، يعني قد قلبنا دُورهم عليهم ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿أَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةً﴾ منعقدة منضمة مركبة ﴿مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾ وهو معرب سنْك وكِل.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الإهلاك والتقليب والإمطار ﴿لَأٓيَٰتٍ﴾ وعبر ﴿لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ المتأملين المتفرسين المتعمقين في أنية الأشياء ولميِّتها حتى ينكشف عليهم أمرها وسمتها، ولا ترددوا ولا تشكوا أيها السامعون المعتبرون في انقلاب تلك المدينة وتخريبها.

﴿وَإِنَّهَا﴾ أي المدينة المذكورة ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ أي جادة ثابتة

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾
فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾﴾

يطرقها الناس ويرون آثارها وأطلالها.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور من قصة إهلاك أولئك الطغاة البغاة الهالكين في تيه الغفلة والشهوات ﴿لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ الخاشعين الخائفين من قهر الله وغضبه، الراجين من عفوه ورحمته.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل للمؤمنين المعتبرين أيضاً قصة قوم شعيب عليه السلام ﴿إِن كَانَ﴾ أي أنه كان ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ أي الغيضة، إذ هم يسكنون فيها ﴿لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ خارجين عن حدود الله الموضوعة للعدالة بين عباده، المتعلقة ببخس المكيال والميزان ونقصهما، وبعد ما بالغوا فيها بعثنا إليهم شعيباً عليه السلام فكذبوه واستهزؤوا معه وأرادوا مقته.

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ مثل ما انتقمنا من قوم لوط ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ أي أصحاب سدوم والأيكة ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾ أي ملتبسين ملتصقين بسبيل واضح وطريق مستقيم مستبين ظاهر لائح، جاء به كل نبي منهم فكذبوه عتواً وعناداً، فأُخذوا بما أخذوا.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ﴾ أيضاً مثل تكذيبهما ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ﴾ وهو وادٍ بين المدينة والشام يسكن فيها ثمود ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾﴾ يعني صالحاً القائم مقام جميع الأنبياء باعتبار اتحاد المرسل به، وهو الدعوة إلى توحيد الحق، وذلك حين بعثنا إليهم بعدما خرجوا عن حدود الله وانحرفوا عن جادة توحيده.

وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ
﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا
خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ ....

﴿وَ﴾ أيدنا أمره بأن ﴿ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ معه ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ الدالة على توحيدنا ﴿فَكَانُوا۟﴾ من نهاية عتوهم وعنادهم ﴿عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾﴾ بحيث لا يقبلونها أصلاً.

﴿وَ﴾ من عادتهم المستمرة بينهم أنهم ﴿كَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ يسكنون فيها ﴿ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾ من اللصوص وأنواع المؤذيات والحشرات.

ولما لم يبالوا بالآيات والرسول وتمادوا على غيهم وضلالهم الذي كانوا عليه انتقمنا منهم.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ الشديدة الهائلة وهم حينئذ ﴿مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ داخلين في الصباح كقوم لوط فأُهلكوا بالمرة ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ﴾ ودفع ﴿عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾ من الأموال والأمتعة والعُدد الكثيرة والحصون المنيعة والأبنية الوثيقة المشيدة شيئاً من عذاب الله ونكاله.

ثم قال سبحانه قولاً دالاً على كمال قدرته ومشيئته ولطفه وقهره وإنعامه وانتقامه، تنبيهاً على ذوي البصائر والاعتبار، المتفكرين في خلق الله وإيجاده وإعدامه واستقلال تصرفاته في ملكه وملكوته:

﴿وَمَا خَلَقْنَا﴾ وقدرنا ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وما فيها من الآثار والمؤثرات العلوية ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ وما عليها من المتأثرات السفلية ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ من الكائنات

إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي ....

والفاسدات الحادثة في الجو باطلاً عبثاً لا عبرة لها ولا اعتبار لإظهارها وظهورها، بل ما خَلَقْنَا مَا خَلَقْنَا ﴿إِلَّا﴾ ملتبساً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ المثبت لأصحاب الدلائل والبراهين وتوحيد الحق الثابت المحقق لأرباب الكشف واليقين ﴿وَ﴾ اعلموا أيها العقلاء المكلفون المعتبرون ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ الموعودة لانقهار التعينات واضمحلال التشكلات ﴿لَآتِيَةٌ﴾ جزماً بلا تردد وشبهة، فيجازي فيها كل على مقتضى ما كسبت في عالم التعينات والتطورات، وإذا كان الكل مجازون بأعمالهم، مسؤولون عنها ﴿فَٱصْفَحِ﴾ يا أكمل الرسل وأعرض عن انتقام من يؤذيك ويرديك ﴿ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾ أي الإعراض المستحسن عند الطباع واحلم معهم وألطف عليهم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي رباك بأنواع اللطف والكرم واصطفاك من بينهم بأصناف الفضائل والكمالات ﴿هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ لهم ولأعمالهم ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾ المميز المبالغ في التمييز بين صالحها وفاسدها، يجازيهم على مقتضى علمه وخبرته.

﴿وَ﴾ لا تبال يا أكمل الرسل بهم وبما عندهم من حطام الدنيا ومزخرفاتها الفانية، ولا تحزن على أذاهم، فإنا من مقام جودنا وفضلنا ﴿لَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ﴾ وأعطيناك تتميماً لتكريمك وتعظيمك ﴿سَبْعًا﴾ أي سبع آيات ﴿مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ أي الفاتحة التي تثنى نزولها، تارة بمكة، وتارة بالمدينة على عدد الصفات

وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ....

السبع الإلهية، ليكون لك حظ من جميعها، والسبع الطباق الفلكية والكواكب السبعة، والأقاليم السبعة الأرضية، والمشتهيات السبعة الدنياوية المذكورة في كريمة: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾ [٣-آل عمران١٤] الآية. لتكون عوضاً عنها، والأدوية السبعة الجهنمية لتكون منجية منهاً، فتكون الفاتحة أعظم وأولى من الدنيا وما فيها ﴿وَ﴾ مع ذلك لا نقتصر عليها بل آتيناك ﴿ ٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ الجامع لفوائد ما في الكتب السالفة، الناسخ لها، المعجز لجميع من أتى بمعارضته ومقابلته، فعليك بعدما اصطفيناك يا أكمل الرسل من بين سائر الأنبياء بأمثال هذه الكرامات أن :

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ نحوهم ولا تنظر نظر متحسر راغب، بل نظر معتبر كاره ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ﴾ من الزخارف ﴿ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾ أي أصنافاً من الأمتعة معطاةً منها للكفرة ابتلاء لهم، بحيث صاروا بها مفتخرين، بطرين بين الناس ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ بعدم اتباعهم لك وإيمانهم بك، إذ هذه المزخرفات الدنية تحجبهم[1] عن الإيمان وتعوقهم عن العرفان ؛ لأنهم مفتونون بها ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ وابسطها كل البسط ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ الذين يتبعونك عن خلاء القلب وصفاء القريحة بلا شوب الرياء والسمعة وشين الأهوية الفاسدة.

(١) في المخطوط (يحجبهم).

﴿وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ ....

﴿وَقُلْ﴾ للمعاندين المنكرين: ﴿إِنِّيٓ﴾ بإذن ربي ووحيه إليّ ﴿أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾ والمنذر المبين أنذركم ببيان واضح، وبرهان لائح نازلٍ علي من ربي: أن العقاب والعذاب سينزل على من لم يؤمن بالله وبوحدة ذاته وصفات كماله.

﴿كَمَآ أَنزَلْنَا﴾ أي مثل العذاب الذي أنزلناه من قبل ﴿عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ وهم الرهط الذي تقاسموا أن يبيتوا صالحاً، والمقتسمون اليوم هم

﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ المعجز لفظاً ومعنى، نصاً ودلالة، اقتضاء ومطلعاً ﴿عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾ أي ذي أجزاء مختلفة بعضها حق لأنه مطابق للكتب السالفة، وبعضها باطل لأنه مخالف لها، وبعضها شِعْر، وبعضها كهانة، مع أن الكل هداية لا ضلال فيها أصلاً، تعالى شأنه وكتابه عما يقولون علواً كبيراً.

﴿فَوَرَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل وعزته وجلاله ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾ أي عن جميعهم على التفصيل ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ أي يقدحون في القرآن وينسبون إليه من المفتريات التي هو بريء منها، بعيد عنها بمراحل.

فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ
يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ
بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن ....

وإذا كان نزول القرآن للهداية العامة والإرشاد الشامل.

﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ واجهر به يا أكمل الرسل وافرق بين الحق والباطل على الوجه المأمور فيه وبين الهداية والضلال ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ واتركهم وأنفسهم، ولا تلتفت إليهم، ولا تتعرض لدفعهم ومنعهم إن استهزؤوا بك ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ﴾ أذى ﴿ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ عنك، وانتقمنا لأجلك منهم بأضعاف ما قصدوا بك من الاستهزاء والسخرية.

وكيف لا ننتقم منهم إذ هم المشركون المسرفون:

﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ﴾ المتوحد في ذاته وأوصافه وأفعاله ﴿إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ﴾ مستحقاً للعبادة ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ عند انكشاف الحجب والأستار قبح ما يفترون وينسبون إلى الله افتراء ومراء.

﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ﴾ منك يا أكمل الرسل ﴿أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ﴾ من كظم غيظك ويقل صبرك على تحمل أذاهم ﴿بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾﴾ مما لا يليق بجنابنا من القدح في كلامنا، وإثبات الشركاء لنا مع وحدة ذاتنا، ومن استهزائهم بك وبمن تبعك من المؤمنين، فعليك أن لا تلتفت إليهم ولا تسمع هذياناتهم، وإنما عليك العبرة منهم وتنزيهنا وتقديسنا عن مقالاتهم.

﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ إذ تسبيحك وتحميدك إيانا خير لك من استماع

مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾

ما تفوهوا به مراء ﴿ وَكُن ﴾ في نفسك في جميع أوقاتك وحالاتك ﴿مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾، الواضعين جباههم على تراب المذلة، على قصد تعظيمنا وتبجيلنا.

﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ ﴾ واجتهد في سلوك طريق المعرفة ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ ويحصل لك الكشف والشهود، ويرتفع عنك حجب الأنانية والوجود.

جعلنا الله من الموقنين المنكشفين بمنه وجوده.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك القاصد لسلوك طريق التوحيد أنجح الله آمالك: أن تبتدئ أولاً بعدما هذبت ظاهرك بالشرائع وباطنك بالجلاء عن الموانع بذكر الله الواحد الأحد الصمد، المتصف بجميع أوصاف الكمال إلى أن يؤدي ذكرك إلى الفكر المورث للمجاهدة والانزعاج والشوق والابتهاج أحياناً، وواظب عليها إلى أن يستوعب جميع أوقاتك وحالاتك، وحينئذٍ ظهرت ولاحت على قلبك مقدمات المحبة والمودة والعشق المزعج المفني، وصرت عليها زماناً إلى أن اشتاق وتعطش قلبك إلى فنائك وانقهارك في محبوبك.

وفي تلك الحالة عرضت عليك الحيرة والحسرة والوحشة والقلق والاضطراب والخوف والرجاء واللذة والألم، وصرت بين بين وأين أين وكيف كيف؟.

وبالجملة كنت في تلوينٍ وتكوينٍ، وإطلاقٍ وتقييدٍ، وما هي سكراتك عند موتك الإرادي واضطراباتك دونها، وحينئذٍ لا يسع لك إلا الرضا والتسليم والتوكل والتفويض، إلى أن جذبك الحق، ووفقك بالتمكين والتسكين، وأطلقك عن التقييد والتعيين، وأفناك عنك، وأبقاك بذاته، وفزتَ بما فزت، وتكون حينئذ ﴿مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾ [٧-الأعراف ١١، ١٥-الحجر٩٨] قد أتاك اليقين والتمكين، وأخلصك عن التردد والتلوين.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة النحل

لا يخفى على ذوي التمكن والتوطين من أرباب المحبة والولاء، الواصلين إلى مقر التوحيد، الناجين المخلصين عن ربقة التلوين والتقليد باستيلاء سلطان الإطلاق المفني للأغيار مطلقاً: أن الأمور الإلهية الجارية على حسب الأوصاف الذاتية مرهونةٌ بأوقات مقدرةٍ وآجال معينةٍ من عنده سبحانه لا يتقدم عليها ولا يتأخر عنها، بل إذا وصل وقتها وقع فيها حتماً حكماً مبرماً، لا تتخلف عنها أصلاً إلا إذا علق الحق بتقديمها وتأخيرها ووقفه في حضرة علمه القديم على أمرٍ من الأمور.

لذلك أمر عباده بالدعاء والمناجاة ربما اتفق عليه ووافق له، فالاستئخار والاستعجال[1] إنما هو من شيم أهل الزيغ والضلال المقيدين بسلاسل الأسباب وأغلال الوسائل، وأما أرباب الإطلاق المتحيرون في بيداء الألوهية، الوالهون في فضاء الربوبية، لا يستقدمون ولا يستأخرون في الأمور الحادثة، بل جريان الأمور كلها عندهم على سبيل التجدد الإبداعي، والأسبابُ والوسائل عندهم إنما هي توهماتٌ باطلة وتخيلات

(١) في النسخة ب: (فالاستخبار والاستعجال).

أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ ....

عاطلة نشأت من الإضافات العدمية والاعتبارات الوهمية الحاصلة من توهم الزمان والمكان، المتفرعَين على الجهات العدمية بالنسبة إلى المحبوسِين في مضيق الأزل والأبد، والأول والآخر، والمبدأ والمنتهى.

لذلك أخبر سبحانه عباده بجريان أمره على مقتضى مراده وقت تعلق إرادته ومشيئته بإظهاره وإيجاده، فقال متيمناً باسمه الأعلى:

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ الذي تجلى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا على ما تجلى من مظاهره ومصنوعاته بلا سبق زمان ومكان ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ الذي دبر أمور عباده على مقتضى مراده بأحسن التدبير في مبدئهم ومعادهم بلا مشاركة ظهير ومشير ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ الذي هداهم إلى سبيل توحيده بالإنذار والتبشير، وأرسل إليهم الأنبياء ليبينوا لهم طريق الرشد ويجنبوهم[1] عن الغي والضلال، وأنزل عليهم الكتب المبينة الفارقة بين الحق والباطل، والحرام والحلال، وأخبرهم فيها عن يوم الحشر والعرض الموعود للجزاء والسؤال عما جرى عليهم في النشأة الأولى من الأحوال، فلهم أن يصدقوه ويؤمنوا له، ولا يسألوا عن وقت قيامه، بل يهيئوا الزاد لأجله، ويشمروا الذيل لوقوعه تعبداً وانقياداً.

لذلك أخبر سبحانه عن إتيانه ووقوعه بالجملة الماضوية تنبيهاً على تحقق وقوعه فقال:

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ أي يومه الموعود الذي انكشفت فيه السدول ولاحت

(١) في المخطوط (ويجتبوهم).

فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ....

الأسرار وارتفعت حجب التعينات والأستار واضمحلت السوى والأغيار، ونودي من وراء سرادقات العز والجلال بعد انقهار الكل: لمن الملك اليوم؟ وأجيب أيضاً من ورائها: لله الواحد القهار ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ أي لا تستعجلوا وقوعه أيها المترددون الشاكون في أمره ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾﴾ له من الآلهة الباطلة، ويدّعون شفاعتها لهم عند الله لدى الحاجة، بل هو الله الواحد الأحد الصمد الذي:

﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ﴾ المقربين عنده ﴿بِالرُّوحِ﴾ أي بالوحي الناشئ ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ توفيقاً وتأييداً ﴿عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ﴾ خلص ﴿عِبَادِهِ﴾ وهم الأنبياء والمرسلون المأمورون ﴿أَنْ أَنذِرُوا﴾ أي بأن خوفوا عباد الله المنحرفين عن استقامة صراطه وجادة توحيده من بطشه وانتقامه إياهم، وقولوا لهم نيابة عن الله: ﴿أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ﴾ يُعبد بالحق ﴿إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ عن مخالفة أمري وحكمي.

وكيف تشركون أيها المشركون ما لا يقدر على خلق أحقر الأشياء وأضعفها للقادر الحكيم الذي:

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ﴾ مع كمال عظمتها ورفعتها ﴿وَالْأَرْضَ﴾ بكمال بسطتها، وإنما خلق ما خلق، وأظهر ما أظهر ملتبساً ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي بانبساط

تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ ....

نور الوجود الكائن الثابت في نفسه، وامتداد أظلال أوصافه وأسمائه عليهما، مع أنه على صرافة وحدته وهما على عدميتهما الأصلية ﴿تَعَـٰلَىٰ﴾ وتقدس ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾﴾ له شيئاً لا وجود له ولا تحققَ سوى الظلية والعكسية، ولا سيما كيف يشركون أولئك الحمقى الضالون للقادر الذي:

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ وأوجده على أحسن صورة وأعدل تقويم ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ دنية مهينة، لا تمييز لها أصلاً ولا شعور، ورباها إلى أن صار ذا رشد وتمييز وكمال وإدراك ودراية ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ مجادل مبالغ في امتياز الحق من الباطل والهداية من الضلال.

﴿مُّبِينٌ ﴿٤﴾﴾ ظاهر البيان بإقامة الدلائل والبراهين القاطعة، وما هي إلا من تربية مبدعها وخالقها القادر المقتدر بالإرادة والاختيار.

﴿وَٱلْأَنْعَـٰمَ﴾ أيضاً ﴿خَلَقَهَا ۗ﴾ وأوجدها طفيلاً للإنسان ليكون ﴿لَكُمْ﴾ أيها المجبولون على الكرامة الفطرية ﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾ تستدفئون به من الألبسة والأغطية المتخذة من أصوافها وأشعارها وأوبارها لدفع الحر والبرد ﴿وَمَنَـٰفِعُ﴾ غير ذلك من الخباء والقباء وغيرهما ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾﴾ لتقويم مزاجكم وتعديلها من لحومها وشحومها وألبانها.

﴿وَ﴾ أيضاً ﴿لَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ وزينة وجاه بين أظهركم ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾

وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا
بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ
لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ....

وتجمعونها إلى المراح من المرعى وقت الرواح مملوءة الضروع والبطون ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾﴾ وترسلونها إلى المرعى وقت الصباح.

﴿وَ﴾ من أعظم فوائدها أنها ﴿تَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ أي أحمالكم التي تستثقلونها ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ﴾ بعيد ﴿لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ﴾ أي لم يحصل لكم بلوغها إليها لولاها ﴿إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ﴾ أي بالمشقة التامة والعسر المفرط، فخلقها سبحانه تيسيراً لكم وتسهيلاً تتميماً لتكريمكم ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ﴾ الذي رباكم بأنواع اللطف والكرم ﴿لَرَءُوفٌ﴾ عطوف مشفق لكم، يسهل عليكم كل عسير ﴿رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ لكم يوفقكم ويهيئ أسبابكم ؛ لتواظبوا على أداء ما أُفترض عليكم من كسب المعارف والحقائق الرافعة لكم إلى أرفع المنازل وأعلى المراتب.

ثم أشار سبحانه أيضاً إلى ما يضركم ويدفع أذاكم ويرفع جاهكم تتميماً لتعظيمكم وتربيتكم فقال:

﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ﴾ إنما خلقها وأظهرها سبحانه ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾ ﴿وَ﴾ تجعلوها ﴿زِينَةً﴾ لأنفسكم بين بني نوعكم ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿يَخْلُقُ﴾ لكم ربكم على مقتضى علمه بحوائجكم ومزيناتكم ﴿ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ وتأملون أنتم لأنفسكم مما يعنيكم ويعينكم في النشأة الأولى والأخرى.

وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ.............

﴿وَ﴾ كما يدبر سبحانه أمور معاش عباده على الوجه الأليق الأحسن بحالهم كذلك له أن يدبر أمور معادكم بل هي أولى للتدبير لذلك:

﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ المصلح لاحوال عباده ﴿قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي إرشادهم وهدايتهم إلى طريق مستقيم موصل إلى توحيده ليصلوا إليه ويفوزوا بما وعدوا عنده ﴿وَ﴾ كيف لا يرشدهم سبحانه إلى سواء السبيل ﴿مِنْهَا﴾ أي من السبيل ﴿جَآئِرٌ﴾ مائل منصرف عن الحق وتوحيده على مقتضى أوصافه الجلالية المذلة المضلة تتميماً للقدرة الكاملة والسلطنة العامة الشاملة لكلا طرفي اللطف والقهر والجمال والجلال ﴿وَلَوْ شَآءَ﴾ وأراد سبحانه هدايتكم ﴿لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾ على مقتضى تجليات الأوصاف اللطفية الجمالية المثمرة للّذة الدائمة والسرور المستمر الغير المنقطعة، لكن اقتضى حكمته البالغة أن يكون جنابه رفيعاً متعالياً عن أن يطّلع عليه واحد بعد واحدٍ، لذلك تجلى على بعض المظاهر بالأوصاف القهرية الجلالية المورثة للحزن الدائم والألم المخلّد.

وكيف لا يدبر سبحانه أمور عباده ؟:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ﴾ وأفاض ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ محيياً لموات الأرض مثل إحياء الروح لأراضي الأجساد ليحصل ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ تشربون منه أو تعصرونه من القصب والفواكه ﴿وَ﴾ يحصل ﴿مِنْهُ شَجَرٌ﴾ أي أنواع

فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ
وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ
ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ....

النباتات المستخرجة من الأرض لرعي مواشيكم إذ ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾﴾ وتُسرحون دوابكم للرعي إلى أن يسمن[1] فيؤكل. وأيضاً:

﴿يُنۢبِتُ لَكُم﴾ أي لقوتكم المقوم لمزاجكم ﴿بِهِ ٱلزَّرْعَ﴾ بأنواعها لتتخذوا منها أخبازاً ﴿وَٱلزَّيْتُونَ﴾ للإدام ﴿وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ﴾ للتفكه والتقوت أيضاً ﴿وَ﴾ بالجملة يخرج لكم به ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ﴾ تتميماً لأمور معاشكم وتقويماً لمزاجكم لتفكروا في آلائه ونعمائه، وتتذكروا ذاته، كي تفوزوا بمعرفته وتوحيده ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي إنعام هذه النعم العظام المذكورة ﴿لَـَٔايَةً﴾ عظيمة وبينة واضحة لائحة ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾ أي يستعملون عقولهم في تفكر آلاء الله ونعمائه ليواظبوا على أداء شكرها.

﴿وَ﴾ من آياته سبحانه المتعلقة لتدبير أحوالكم أنه ﴿سَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ﴾ لتسكنوا فيه وتستريحوا ﴿وَٱلنَّهَارَ﴾ لتعيشوا فيه وتكتسبوا ﴿وَ﴾ أيضاً ﴿ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ﴾ لإنضاج ما تتقوتون وإصلاح ما تتفكهون ﴿وَ﴾ سخر ﴿ٱلنُّجُومُ﴾ أيضاً لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر حال كون كلٍ منها ﴿مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ تابعاتٍ لحكمه وتقديره على تقدير النصب[2]، أو مع أن الكل مسخراتٌ في قبضة قضائه يصرفها حسب إرادته ومشيئته على

---

(١) في المخطوط (إلى يسمن).

(٢) وفي نسخة (على تقدير قراءة النصب).

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ١٣ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ ....

تقدير الرفع ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي التسخير المذكور ﴿لَآيَٰتٖ﴾ أي في كلٍ منها دليلٌ واضحٌ وبرهانٌ لائحٌ ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢﴾ ويستدلون من الآثار إلى المؤثر، ومن المصنوعات إلى الصانع الحكيم.

﴿وَ﴾ سخر لكم أيضاً ﴿مَا ذَرَأَ﴾ وخلق ﴿لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا﴾ ﴿أَلۡوَٰنُهُۥٓ﴾ أشكاله وطبعه على مقتضى أهويتكم وأمزجتكم من الحوائج المتعلقة لحظوظكم وترفهكم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ١٣﴾ ويتفطنون منها إلى كرامة الإنسان من بين سائر الأكوان، وإلى خلافته ونيابته عن الله.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ﴾ لكم ﴿ٱلۡبَحۡرَ﴾ من كمال لطفه وتكريمه إياكم ﴿لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا﴾ وهو السمك ﴿وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ﴾ وزينة من الجواهر النفيسة ﴿تَلۡبَسُونَهَا﴾ وتتزينون بها ترفهاً وتنعماً ﴿وَتَرَى﴾ أيها الرائي ﴿ٱلۡفُلۡكَ﴾ أي السفن ﴿مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ أي جواري مشققات للبحر، مسيرات لمن فيها على الماء ﴿وَ﴾ ما ذلك إلا ﴿لِتَبۡتَغُواْ﴾ وتطلبوا ﴿مِن فَضۡلِهِۦ﴾ وجوده ما يعينكم ويليق بكم من الحوائج والأرباح وغير

وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ
وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾

ذلك ﴿وَ﴾ إنما سخر سبحانه ما سخر عليكم من البر والبحر ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ رجاء أن تواظبوا وتداوموا على شكر نعمه وتصرفوها طلباً لمرضاته.

﴿وَ﴾ من رحمته ولطفه أيضاً ﴿أَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ التي هي مستقركم ومنشؤكم ﴿رَوَٰسِيَ﴾ مخافة ﴿أَن تَمِيدَ﴾ وتتحرك ﴿بِكُمْ﴾ ولا يمكن استقراركم عليها لاضطرابها وتزلزلها، إذ هي في طبعها كرةٌ حقيقيةٌ ملقاةٌ على الماء مغمورةٌ فيه، فلما ألقاها سبحانه عنايةً منه رواسي ثقالاً، صارت متفاوتة الأطراف في الثقل، فاستقرت وتثبتت ﴿وَ﴾ أيضاً أجرى لكم ﴿أَنْهَٰرًا﴾ عليها كي يمكنكم الاستسقاء منها لدى الحاجة ﴿وَ﴾ عين لكم بين الجبال الراسيات ﴿سُبُلًا﴾ نافذات ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ إلى ما تقصدون من البلدان البعيدة.

﴿وَ﴾ نصب لكم ﴿عَلامَاتٍ﴾ دالة على مقاصدكم في البوادي والبراري بالتلال والوهاد ﴿وَ﴾ في البحار ﴿بِالْنَّجْمِ﴾ أي بالنجوم المتعارفة عند البحارين إذ ﴿هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ بها حين وقوعهم في لجج البحار، كل ذلك من الدلائل الدالة على وحدة الفاعل المختار المتصف بجميع أوصاف الكمال، المنزه عن مشاركة الأضداد والأمثال، مبدع المخلوقات من كتم العدم بلا سبق مادة وزمان، ومخترع الكائنات بلا علل وأغراض

أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾

على سبيل الفضل والإحسان.

﴿أَ﴾تشركون مع الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لا شيء في الوجود سواه ولا إله إلا هو يخلق ما يشاء على مقتضى جوده ورحمته من لا يخلق شيئاً، بل هو من أدون المخلوقات ﴿فَمَن يَخْلُقُ﴾ أيها الحمقى ﴿كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ في الرتبه واستحقاق العبادة، ولم يتفطنوا بالفرق بينهما مع جلائه وظهوره، مع أنكم من زمرة العقلاء ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ فطرتكم المجبولة على العلم والتمييز.

﴿وَ﴾ كيف تشركون مع الله المنعم المفضل عليكم مع أنكم ﴿إِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ الفائضة عليكم وآلاءه الواصلة إليكم ﴿لَا تُحْصُوهَا﴾ لكثرتها ووفورها، ومع ذلك أشركتم معه غيره وكفرتم بنعمه، مع أن المناسب لكم الرجوع إليه والإنابة نحوه ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿لَغَفُورٌ﴾ لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ﴿رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ يقبل توبتهم ويتجاوز عن سيئاتهم لو أخلصوا.

﴿وَاللَّهُ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿يَعْلَمُ﴾ منهم ﴿مَا تُسِرُّونَ﴾ في قلوبكم بلا موافقة ألسنتكم[1] ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾﴾ بألسنتكم بلا مطابقة قلوبكم[2]، فعليكم أيها المؤمنون المنيبون أن تنيبوا نحو الحق سراً وعلانية

---

(١) في المخطوط (قلوبهم وألسنتهم).

(٢) في المخطوط (بالاستنهم وقلوبهم).

وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم ....

حتى لا تكونوا من المنافقين المخادعين مع الله.

﴿وَ﴾ اعلموا أيها المشركون المكابرون أن ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ المعبود بالحق آلهةً وتعبدونها إفكاً كعبادته سبحانه مع أنهم لا يستحقون الألوهية إذ ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ حقيراً وكيف بالعظيم، بل ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ مخلوقون، بل هم من أدون المخلوقات لأنهم .

﴿أَمْوَٰتٌ﴾ أي جمادات لا شعور لهم أصلاً لأنهم ﴿غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ أي غير ذي حس وحركة إرادية ﴿وَ﴾ كذلك ﴿مَا يَشْعُرُونَ﴾ شعور الحيوانات ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي إلى أين يحشرون ويساقون من المرعى، فهم في أنفسهم أدنى وأخس من الحيوانات العجم، فكيف تتأتى منهم الألوهية المستلزمة للاطلاع على جميع المغيبات الجارية في العوالم كلها اطلاع حضور وشهود بل.

﴿إِلَٰهُكُمْ﴾ الذي أوجدكم من كتم العدم وأظهركم في فضاء الوجود ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أحدٌ صمد لم يكن له كفؤ ولا شريك، ليس كمثله شيء، إنما يظهر وينكشف توحيده سبحانه لأولي العزائم والنهى من أرباب المحبة والولاء في النشأة الأولى والأخرى ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ المعدة لشرف اللقاء ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ بلقاء الله فيها ﴿وَهُم﴾ من شدة شكيمتهم

مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ
﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم

وكثافة حجبهم مع إنزال الكتب المبينة لأحوالها وأهوالها والرسل المنبهين لهم عليها ﴿مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ مترددون عتواً وعناداً، لذلك:

﴿لَا جَرَمَ﴾ أي حقاً على الله أن يعذبهم مع ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لسرائرهم وضمائرهم ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من الكفر والضلال، فيجازيهم على مقتضى علمه بحالهم ولا يحسن إليهم سبحانه بدل إساءتهم لأنهم مستكبرون ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ لاشتراكهم معه سبحانه في أخص أوصافه، إذ الكبرياء مخصوص به، لا يسع لأحد أن يشارك معه فيه.

﴿وَ﴾ من غاية عتوهم واستكبارهم ﴿إِذَا قِيلَ لَهُم﴾ على سبيل الاستفسار: ﴿مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ على نبيكم ﴿قَالُوا﴾ على سبيل التهكم والاستهزاء: ما أنزل ربه إلا ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ أي الأكاذيب والأرجفة التي سطرها الأولون فيما مضى من تلقاء نفوسهم، وإنما قالوا ذلك وشاعوا به بين الأنام:

﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ﴾ وآثامهم ﴿كَامِلَةً﴾ بلا تخفيف شيء منها ولا نقصانٍ ليؤاخذوا عليها ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ﴾ يحملوا أيضاً ﴿مِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ من ضعفاء الناس بقولهم هذا إياهم مع أنهم خالية الأذهان

بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ ....

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يتعلق منهم بالقرآن وإعجازه، ومع ذلك لا يعذرون لعدم التفاتهم إلى التأمل والتدبر حتى يظهر عليهم حقيته وبطلان قولهم ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ المضلون بضلالهم، والضالون بضلالهم وعدم تأملهم وتدبرهم، مع أنهم مجبولون على التأمل والتدبر.

هذا التكذيب والإضلال والتهكم والاستهزاء من الأمور الحادثة بين أولئك الهالكين في تيه الشرك والطغيان، بل من ديدنتهم القديمة وعادتهم المستمرة إذ :

﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ واحتالوا لإضلال العوام وبنوا أبنية رفيعة للصعود إلى السماء والمقاتلة مع سكانها وإلهها، ثم لما تم بنيانهم وقصورهم ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم﴾ أي أتى أمره سبحانه بإهلاكهم وتعذيبهم بهدم بنائهم ﴿مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ والأعمدة والأساس التي بُنيت عليها البناء، فتضعضعت وتحركت الدعائم ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ وهم تحته متمكنون مترفهون فهلكوا ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿أَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ بغتة ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أماراتها قبل نزوله.

﴿ثُمَّ﴾ بعد تعذيبهم في النشأة الأولى ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ أي يخذلهم الله ويرديهم بتكذيب كلام الله ورسوله ﴿وَيَقُولُ﴾ لهم سبحانه

أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْۖ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ ....

على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ﴾ أيها الضالون المضلون المنهمكون في الغي والضلال ﴿تُشَٰٓقُّونَ﴾ وتعادون ﴿فِيهِمْۚ﴾ أي في حقهم وشأنهم المؤمنين وتعارضون معهم بادعاء الألوهية لأولئك التماثيل العاطلة الباطلة، ادعوهم حتى ينجوكم ويخلصوكم من عذابي وبطشي ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ من الأنبياء والرسل وخلفائهم الذين دعوهم إلى الإيمان فلم يؤمنوا، بل يكذبونهم وينكرون عليهم وعلى دينهم ونبيهم حين أبصروا أخذَ الله إياهم شامتين لهم، متهكمين عليهم: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْيَ﴾ أي الذلة والصغار ﴿ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ﴾ المفرط المجاوز عن الحد نازلٌ ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾ المستكبرين الذين كذبوا الرسل، وأنكروا الكتب واستهزؤوا معهم، وهم:

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الموكلون عليهم حين معارضتهم بالقرآن وتكذيبهم إياه وبمن أُنزل إليه مع كونهم ﴿ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْۖ﴾ ومعرضيها على العذاب الأبدي، ثم لما عاينوا في النشأة الآخرة بحقيته وصدقه ومطابقته للواقع ﴿فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾ أي الانقياد والتسليم مبرئين نفوسهم عن التكذيب والإساءة مع القرآن قائلين: ﴿مَا كُنَّا﴾ في النشأة الأولى ﴿نَعْمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ﴾ أي ما نريد ونعتقد الإساءة في حقه، فيقول الملائكة لهم

بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۞وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ ....

على سبيل التهكم: ﴿بَلَىٰٓ﴾ أنتم لا تسيئون الأدب مع الرسول والقرآن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلع بجميع ما كان ويكون ﴿ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ من الرد والإنكار والتكذيب، فيجازيكم على مقتضى علمه.

ثم قيل لهم زجراً وقهراً:

﴿ فَٱدۡخُلُوٓاْ﴾ أيها المشركون المستكبرون المعاندون مع الله ورسوله ﴿أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ كل فرقة منكم من باب منها على تفاوت طبقاتكم في موجباتها، وادخلوا أنواع عذابها ونكالها حال كونكم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾ مخلدين مؤبدين ﴿فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ جهنم البعد والخذلان التي هي منزل الطرد والحرمان.

﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ ﴾ عن محارم الله وحفظوا نفوسهم عن العرض على المهالك الموجبة لسخط الله وغضبه ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ﴾ على نبيكم لتربية دينكم وتصفية مشربكم عن أكدار التقليدات والتخمينات ﴿قَالُواْ﴾: أنزل ﴿خَيۡرٗاۗ﴾ محضاً في النشأة الأولى والأخرى، أما في الأولى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا﴾ وعملوا الصالحات المقربة إلى الله ﴿ حَسَنَةٞۚ ﴾ كاملة من العلوم والمعارف المثمرة للمكاشفات والمشاهدات ﴿ وَ﴾ أما في الآخرة فا ﴿لَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ المعدة للفوز بشرف اللقاء والوصول

خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ....

إلى سدرة المنتهى ﴿خَيْرٌ﴾ من جميع الكمالات الأقصى والدرجات العليا ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾﴾ المتحفظين نفوسهم عن الالتفات إلى ما سوى الحق دار الآخرة التي هي :

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ ﴾ مصونة عن أمارات الكثرة المشعرة للاثنينية ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ مجردة عن جلباب التعينات العدمية ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ المنتشئة عن التجليات المترتبة على الأوصاف الذاتية الإلهية ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ﴾ من مقتضيات الأوصاف اللطفية الحبية الجمالية ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾﴾ المائلين عن غير الله وسواه مطلقاً، الباذلين مهجهم في سبيله طوعاً، المنخلعين عن مقتضيات أوصاف بشريتهم إرادة واختياراً، الصابرين على ما جرى عليهم من القضاء تسليماً ورضاً، وهم :

﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ الموكلون عليهم في نشأتهم حال كونهم ﴿ طَيِّبِينَ ﴾ طاهرين عن خبائث الإمكان ورذائل الخذلان والخسران، الناشئة من ظلمات الطبائع والأركان ﴿يَقُولُونَ ﴾ أي الملائكة المأمورون لقبض أرواحهم عند قبضها: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ﴾ أيها الصابرون في البلوى، السائرون إلى المولى ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ ﴾ التي هي خير المنقلب والمثوى، وفوزوا بشرف اللقيا ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ في النشأة الأولى من الأعراض عن

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ....

مقتضيات الهوى، ومن الرضا بالقضاء، ومن الصبر على العناء، والشوق الى الفناء.

ثم قال سبحانه توبيخا وتقريعا على المشركين:

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ ﴾ أي ما ينتظرون أولئك التائهون في تيه الغفلة والغرور ﴿ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ المأمورون لقبض أرواحهم الخبيثة ﴿أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ يا أكمل الرسل أي يوم القيامة المعدة لتعذيبهم وانتقامهم ﴿كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل إمهال هؤلاء الهالكين وإهمالهم في أمر الإيمان ﴿فَعَلَ ٱلَّذِينَ ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ ۚ ﴾ في زمن الأنبياء الماضين ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ المجازي لهم على مقتضى إساءتهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ أي يظلمون هم أنفسهم بعرضها على المهالك الموجبة أنواع العذاب والعقاب من تكذيب الرسل وإنكار الكتب وترك المأمورات وارتكاب المنهيات.

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ ﴾ عتواً وعناداً ﴿وَحَاقَ ﴾ وأحاط ﴿بِهِم ﴾ جزاء ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ استكباراً واستنكاراً.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ﴾ من غاية انهماكهم في الغي والضلال وشدة

﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ ....

إنكارهم وشكيمتهم، متهكمين على وجه الاحتجاج: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ الواحد الأحد المستقل في الأفعال بالإرادة والاختيار على زعمكم عدم عبادتنا لآلهتنا وأصنامنا ﴿مَا عَبَدْنَا﴾ البتة ﴿مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ إذ مراده مقضي حتماً ﴿وَ﴾ أيضاً ﴿لَا حَرَّمْنَا﴾ نحن ولا آباؤنا من البحائر وغيرها ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ أي بدون إذنه وإرادته ومشيئته ﴿مِن شَىْءٍ﴾ إذ لا يعارض فعله هذا صورة احتجاجهم واستدلالهم ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل استدلال هؤلاء الطغاة الغواة الهالكين في تيه الغفلة والعناد ﴿فَعَلَ ٱلَّذِينَ﴾ خلوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ فأرسل عليهم رسلاً فكذبوهم وأنكروا عليهم، فأخذهم الله بذنوبهم فأهلكهم بأنواع العذاب والعقاب، لأن إرادة الله لم تتعلق بإيمانهم وهدايتهم ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ﴾ أي ما على الرسل ﴿إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ أي تبليغ ما أرسلوا به ﴿ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾ أي على وجه التوضيح والتبيين، لئلا يبقى لهم شك وتردد في سماعه، وأما قبولهم واتصافهم بها وهدايتهم، فأمرٌ استأثر الله به، ليس لهم أن يخوضوا فيه لأنه خارج عن وسعهم وطاقتهم.

ثم فصل سبحانه ما أجمل بقوله:

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم الهالكة السالفة حين اختل أمور

رَسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ ....

دينهم ﴿رَسُولًا﴾ منهم قائلاً لهم: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ المتصف بالوحدانية والفردانية، المستقل بالوجود والآثار المترتبة عليه، المنزه عن الشريك والأمثال ﴿وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ أي الآلهة المضلة التي أنتم تتخذونها من تلقاء أنفسكم ظلماً وزوراً، ثم لما بلغهم الرسول جميع ما جاء به من عندنا ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ﴾ بأن أراد هدايته فهداه ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ﴾ أي استمرت وثبتت ﴿عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ وتمرنت بقلبه لتعلق مشيئة الله بضلاله وإن ترددتم فيه ﴿فَسِيرُواْ﴾ أيها الشاكون المترددون ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ التي هي مساكنهم ومنازلهم ﴿فَٱنظُرُواْ﴾ واعتبروا من آثارهم وأطلالهم ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ المستهزئين للرسل والكتب.

﴿إِن تَحْرِصْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ﴾ وتريد هدايتهم، إنك لا تهدي من أحببت ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ الحكيم الهادي لعباده على مقتضى علمه باستعداداتهم ﴿لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ أي لا يريد هداية من أراد ضلاله في سابق علمه ولوح قضائه ﴿وَمَا لَهُم﴾ بعد ما أراد الله إضلالهم ﴿مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ ينصرهم على الهداية ويشفع لهم حتى ينقذهم على الضلال.

وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَـٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ

﴿وَ﴾ من خبث طينتهم وشدة بغضهم وضغينتهم ﴿أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾ أي أغلظوا فيها وأكدوا قائلين: ﴿لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ﴾ ولا يحيي مرة أخرى ﴿مَن يَمُوتُ﴾ بأن زال الروح الحيواني عنه، ثم قال سبحانه راداً لهم وتخطئة على أبلغ وجه وآكده أيضاً: ﴿بَلَىٰ﴾ يبعثون إذ وعدَ الله البعث والحشر ﴿وَعْدًا﴾ صدقاً ﴿عَلَيْهِ﴾ سبحانه إنجاز ما وعد ﴿حَقًّا﴾ حتماً وفاء لوعده وإيفاء لحكمه، مع أنه القادر المقتدر بالقدرة الكاملة على كل ما دخل تحت حيطة إرادته ومشيئته ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ حق قدره وقدر قدرته وسطوته وبسطته، وإنما ينجز الوعد الموعود .

﴿لِيُبَيِّنَ﴾ ويوضح ﴿لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ بل يستبعدونه ويستحيلونه ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ له وأنكروا عليه عناداً ومكابرة ﴿أَنَّهُمْ كَانُواْ كَـٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾ في إصرار عدم وقوعه وتكذيبه.

وكيف تستبعدون أيها المنكرون أمثال هذا عن كمال قدرتنا وعلمنا وإرادتنا ؟

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا﴾ وحكمنا حين تعلق إرادتنا ﴿لِشَىْءٍ﴾ أي لإظهار شيء من الأشياء المثبتة في لوح قضائنا وحضرة علمنا، أي شيء كان عظيماً أو حقيراً ﴿إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ﴾ أن يوجد ويتحقق في عالم الشهادة ﴿أَن نَّقُولَ لَهُۥ﴾ على

كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ ....

مقتضى صفتنا القديمة التي هي الكلام فارضين وجوده وتحققه، إذ هو عدم صرف ولاشيءٌ محض: ﴿كُن﴾ كالمكونات الأخر ﴿فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ بلا تراخ و مهلة وامتداد ساعة ولحظة، بل التلفظ بحرف التعقيب بين الأمر الوجودي الإلهي، وحصول المأمور المراد له سبحانه إنما هو من ضيق العطف وضرورة التعبير، وإلا فلا ترتب بينهما إلا وهماً، إذ الترتب إنما يحصل من توهم الزمان والآنِ، وعنده سبحانه لا زمان ولا مكان، بل له شأنٌ لا يسع في زمان ومكان.

ثم أشار سبحانه إلى علو درجة المؤمنين وارتفاع شأنهم ورفعة قدرهم ومكانهم فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ عن بقعة الإمكان حال كونهم سائرين ﴿فِي﴾ سبيل ﴿ٱللَّهِ﴾ بعدما حصل لهم مرتبة التمكن والاطمئنان ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ بتسلط الأمّارة عليهم زماناً ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ﴾ ونمكنهم ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ أي في نشأتهم الأولى ﴿حَسَنَةٗۖ﴾ أي حصة كاملة وحظاً وافراً من المعارف والحقائق إلى حيث انخلعوا عن اللوازم البشرية بالمرة، وماتوا عن أوصاف البهيمية إرادة واختياراً ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿لَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ المعدة لرفع الحجب وكشف الغطاء والسدل ﴿أَكۡبَرُۚ﴾ قدراً وأعظم شأناً وأعم لذة ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ ويفهمون لذته بالذوق لمالوا إليه زيادة ميل، واجتهدوا نحوه زيادة اجتهاد، رزقنا الله الوصول إليه والحصول دونه وأذاقنا لذته، وأيضاً

ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا
نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ
وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ ....

﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾ على ما أصابهم من المصيبات والبليات، مسترجعين إلى الله في جميع الحالات ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ أي لا على غيره من الوسائل والأسباب ﴿يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ في جميع شؤونهم وتطوراتهم.

﴿وَ﴾ كيف يستبعدون رسالتك يا أكمل الرسل أولئك المشركون المعاندون إذ ﴿مَآ أَرۡسَلۡنَا﴾ للرسالة العامة رسلاً ﴿مِن قَبۡلِكَ﴾ مبشرين ومنذرين ﴿إِلَّا رِجَالٗا﴾ أمثالك ﴿نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ﴾ شعائر الدين والإيمان، وننزل عليهم الكتب المبينة لأحكامها، فإن لم يقبلوا منك ولم يعتقدوا صدقك فقل لهم: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ﴾ أيها المكابرون المعاندون الجاهلون بحال من مضى من الأنبياء ﴿أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾ والعلم منكم، وهم الأحبار والقسيسون ﴿إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ صدقه ومطابقته للواقع.

وكما أيدنا الرسل والأنبياء الماضين

﴿ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ الواضحة ﴿وَٱلزُّبُرِۗ﴾ اللائحة ترويجاً لما جاؤوا به، وأرسلوا معه ليبينوا ويوضحوا بها أحكام أديانهم ﴿وَ﴾ كذلك أيضاً ﴿أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿ٱلذِّكۡرَ﴾ أي الكتاب المعجز المشتمل على شعائر الإسلام وأحكامه ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ المتوغلين في الغفلة والنسيان ﴿مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ من عند ربهم على مقتضى أزمانهم وأطوارهم من الأوامر والنواهي

وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾..

والآداب والأخلاق ﴿وَلَعَلَّهُمْ﴾ بعد تبليغك إياهم وتبيينك لهم ﴿يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ في آياته وأحكامه، ويتأملون في حكمه ومرموزاته، كي يتفطنوا إلى معارفه وحقائقه وكشوفاته وشهوداته الموعودة فيه.

ثم قال سبحانه تهديداً على أهل الزيغ والضلال المنحرفين عن طريق الحق عتواً وعناداً:

﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ واحتالوا لهلاك الأنبياء سيما معك يا أكمل الرسل ولم يخافوا ﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ﴾ القادر الغالب على الانتقام ﴿بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ كما خسفنا على قارون ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ بغتة حال كونهم بائتين في مراقدهم ﴿مِنْ حَيْثُ﴾ هم ﴿لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ أماراتها ومقدماتها.

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ﴾ العذاب وهم ﴿فِى تَقَلُّبِهِمْ﴾ وتحركهم دائرين مترددين ﴿فَمَا هُم﴾ حين أخذه ﴿بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾﴾ مقاومين قادرين على دفع قهر الله وعذابه.

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ﴾ العذاب ﴿عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ وتنقص من أموالهم وأولادهم على سبيل التدريج إلى أن يستأصلهم بالمرة ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ﴾ أيها المجترئون على الله ورسوله المسيؤون الأدب معهما ﴿لَرَءُوفٌ﴾ عطوف مشفق لا يعاجلكم بالعذاب ﴿رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ يمهلكم ويؤخر انتقامكم رجاء أن تتذكروا وتتعظوا.

أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ....

﴿أَ﴾ يصرون ويستمرون أولئك المشركون المسرفون على الشرك والنفاق ﴿وَلَمْ يَرَوْاْ﴾ وينظروا نظر العبرة والاستبصار ﴿إِلَىٰ﴾ انقياد جميع ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ﴾ وأوجده وأظهره من كتم العدم إظهاراً إبداعياً لحكمه وأمره ﴿مِن شَيْءٍ﴾ من الأشياء التي ﴿يَتَفَيَّؤُاْ﴾ أي يميل وينقلب ﴿ظِلَٰلُهُۥ﴾ بانقلاب الشمس وحركتها ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ مرة ﴿وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ أخرى على مقتضى اختلاف أوضاع الشمس حال كونهم ﴿سُجَّدًا﴾ ساجدين متذللين خاضعين واضعين جباههم على تراب المذلة إطاعة وانقياداً ﴿لِّلَّهِ﴾ الواحد الأحد المستقل في الألوهية والربوبية ﴿وَهُمْ﴾ في جميع حالاتهم وتقلباتهم ﴿دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ صاغرون ذليلون خائفون من جلال الله وكبريائه، مستوحشون على سطوة قهره وصولة استيلائه.

﴿وَ﴾ كيف يستكبرون أولئك المشركون المنكرون عن انقياد الله وإطاعته، إذ ﴿لِلَّهِ﴾ لا لغيره من الأظلال الهالكة والتماثيل الباطلة ﴿يَسْجُدُ﴾ ويتذلل طوعاً وطبعاً جميع ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ﴿وَ﴾ كذا جميع ﴿مَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ﴾ تتحرك وتخرج من العدم نحو الوجود بامتداد أظلال الأوصاف الإلهية، ورش رشحات زلال وجوده عليها ﴿وَ﴾ خصوصاً ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ المهيمون المستغرقون في مطالعة جمال الله وجلاله

وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾
۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾
وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ....

﴿وَهُمْ﴾ من غاية قربهم وتنزههم عن العلائق المبعدة عن الله وتجردهم عن أوصاف الإمكان مطلقاً ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ عن عبادة الله والتذلل نحوه، فكيف أنتم أيها الهلكى الغرقى المنغمسون في بحر الغفلة والضلال، وإنما يسجد أولئك الساجدون المتذللون لأنهم .

﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم﴾ القادر على الإنعام والانتقام أن يرسل عليهم عذاباً ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾ لأنهم مقهورون تحت قبضة قدرته ﴿وَ﴾ لذلك ﴿يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾ ويجتنبون عما ينهون.

﴿ ۞ وَ﴾ كيف لا تمنعون عن إثبات الشركاء لله الواحد الأحد الصمد أيها المشركون المعاندون بعدما ﴿ قَالَ ٱللَّهُ﴾ عز شأنه وجل بركاته : ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ ﴾ أيها المكلفون بالإيمان والعرفان ﴿إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ مستحقين للعبادة والانقياد، فكيف الزيادة، ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ يعبد بالحق يرجع نحوه في الوقائع، ويُفوض إليه الأمور كلها وما هو إلا أنا ﴿فَإِيَّٰيَ﴾ لا إلى غيري من مخلوقاتي ومصنوعاتي ﴿فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ أي خصوني بالخوف والرجاء، وارجعوا إليّ عند هجوم البلاء ونزول القضاء، إذ لا راد لقضائي إلا فضلي وعطائي.

﴿وَ﴾ كيف لا يرجع إليه ويستغاث منه مع أن ﴿لَهُۥ﴾ ومنه ﴿مَا﴾ ظهر ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي عالم الأسماء والصفات التي هي الفواعل والمفيضات

﴿وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ ....

المؤثرات ﴿وَ﴾ ما ظهر في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ أي عالم الطبيعة من الاستعدادات التي هي القوابل المتأثرات من العلويات ﴿وَلَهُ﴾ لا لغيره من الأسباب والوسائل العادية ﴿ٱلدِّينُ﴾ أي الإطاعة والانقياد والتوجه والرجوع ﴿وَاصِبًاۚ﴾ دائماً حتماً لازماً ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ المحيط للكل إحاطة شهود وحضور ﴿تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾﴾ وتحذرون أيها الجاهلون بحق قدره، مع أنه لا ضار سواه، ولا نافع غيره.

﴿وَ﴾ واعلموا ايها المجبولون على التكليف أن ﴿مَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ﴾ واصلة لكم، نافعة لنفوسكم، مسرة لقلوبكم ﴿فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ المصلح لأحوالكم وصلت إليكم امتناناً عليكم وتفضلاً، إذ لا نافع إلا هو ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ المشوش لنفوسكم القاسي لقلوبكم ﴿فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ تتضرعون وتستغيثون ليدفع عنكم أذاكم، إذ لا ضار أيضاً إلا هو.

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ﴾ بعد استغاثتكم ورجوعكم نحوه، إذ لا كاشف سواه ﴿إِذَا فَرِيقٌ﴾ أي فجاء [في الحاشية لعله: فأجاء، وفي نسخة: فأجاءت] طائفة ﴿مِّنكُم بِرَبِّهِمْ﴾ الذي يدفع أذاهم ويكشف ضرهم ﴿يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ له غيره من الأصنام والتماثيل العاطلة التي لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً فكيف لغيرهم، وإنما فعلوا ذلك وأشركوا .

لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ فَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ....

﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ﴾ من النعم ولم يقوموا بشكرها عناداً ومكابرة بل أسندوها إلى ما لا شعور لها أصلاً ظلماً وزوراً ﴿فَتَمَتَّعُواْۖ﴾ أيها المشركون بنا، الكافرون لنعمنا ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾ ما تكسبون لنفوسكم من العذاب المخلد والعقاب المؤبد.

والعجب كل العجب ينكرون بنا مع أنا متصفون بجميع أوصاف الكمال، منعمون لهم بالنعم الجليلة الجزيلة.

﴿وَيَجْعَلُونَ﴾ ويعينون ﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لآلهتهم التي لا يعلمون ولا يفهمون منهم حصول الفائدة لهم وجلب النفع إليهم أصلاً، إذ هي جمادات نحتوها بأيديهم ﴿نَصِيبًا﴾ أي حظاً كاملاً ﴿مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْۗ﴾ وسقنا نحوهم جهلاً وعناداً، ومع ذلك خيلوا أنهم لا يسألون عنها، ولا يؤاخذون عليها، بل يثابون بها على زعمهم الفاسد ورأيهم الكاسد ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ﴾ أيها المسرفون ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ علينا بإثبات الشركاء وإسناد نعمنا إليهم افتراء ومراء.

﴿وَ﴾ من جملة مفترياتهم بالله المنزه عن الأشباه والأولاد أنهم ﴿يَجْعَلُونَ﴾ ويثبتون ﴿لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ﴾ حيث يقولون: الملائكة بنات الله، مع أنهم يكرهونها لأنفسهم ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ وتعالى عما يقولون علواً كبيراً

وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ....

﴿وَلَهُم﴾ أي يثبتون لأنفسهم ﴿مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾ من البنين.

﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ﴾ أي بولادتها ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ أي صار وجهه أسود من غاية الحزن والكراهة ﴿وَهُوَ﴾ حينئذٍ ﴿كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ ممتلئ من الغيظ والبغض على الزوجة والوليدة، وصار من شدة الغم والهم إلى حيث :

﴿يَتَوَٰرَىٰ﴾ ويستتر ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾ استحياء ﴿مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ أي الوليدة المبشرة بها، وتردد في أمرها ﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾ أي هوان ومذلة ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ﴾ ويخفيه ﴿فِى ٱلتُّرَابِ ۗ﴾ غيرة وحمية ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ لأنفسهم ما يشتهون، ولله المنزه عن الولد ما يكرهون.

ثم قال سبحانه:

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ المعدة لعرض الأعمال على الله والجزاء منه على مقتضاها ﴿مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ﴾ في حق الله المنزه عن الأهل والولد، سيما نسبتهم إليه ما يستقبحه نفوسهم من إثبات البنات له، تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ هو الغني عن العالم، وما فيها فكيف الزواج والإيلاد واللذين هما من أقوى أسباب الإمكان المنافي

وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ ...

للوجوب الذاتي الذي هو من لوازم الألوهية والربوبية ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب المتفرد المنيع ساحة عزته عن الاحتياج إلى غيره مطلقاً، فكيف إلى الزوجة والولد ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ المتصف بكمال الحكمة المتقنة، كيف يختار لذاته ما لا يخلو عن وصمة النقصان.

ثم قال سبحانه:

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ﴾ الحكيم المتقن في أفعاله ﴿ٱلنَّاسَ﴾ الناسين عهود العبودية على مقتضى عدله وانتقامه ﴿بِظُلْمِهِم﴾ ومعاصيهم الصادرة عنهم دائماً ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ أي على وجه الأرض ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ أي ذي حركة تتحرك عليها، إذ ما من متحرك إلا وينحرف عن جادة العدالة كثيراً ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ ﴾ ويمهلهم على مقتضى فضله وحكمته ولطفه ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي سمّاه الله وعينه في علمه لموتهم ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ المسمى المبرم المقضى به ﴿لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي لا يسع لهم الاستئخار والاستقدام، بل لا بد أن يموتوا فيه حتماً مقضياً.

﴿وَ﴾ من خبث باطنهم ﴿يَجْعَلُونَ﴾ وينسبون ﴿لِلَّهِ﴾ المنزه عن الأنداد والأولاد ﴿مَا يَكْرَهُونَ﴾ ما يستقبحون لنفوسهم وهو إثبات البنات له سبحانه ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿تَصِفُ﴾ وتقول ﴿أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ تصريحاً

أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ....

وتنصيصاً: ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي بأن لهم المثوبة العظمى والدرجة العليا عند الله بل ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي حقاً عليهم وحتماً ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ أي جزاؤهم مقصورٌ على النار، مخلدون فيها ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾ في العذاب، مقدَّمون على جميع العصاة والطغاة الداخلين في النار المجزيين بها، لاستكبارهم على الله ورسله.

﴿تَٱللَّهِ﴾ يا أكمل الرسل ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَآ﴾ رسلاً ﴿إِلَىٰٓ أُمَمٍ﴾ مضوا ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ حين فشا الجدال والمراء بينهم، فانحرفوا عن جادة الاعتدال، وأيدنا الرسل بالكتب المبينة لطريق العدالة والاستقامة، فبينوا لهم على أبلغ وجه ﴿فَزَيَّنَ﴾ وحسّن ﴿لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ المغوي المضل ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ التي كانوا عليها، فأصروا على أعمالهم فلم يقبلوا قول الأنبياء، لذلك نزل عليهم من العذاب ما نزل في الدنيا، وسينزل في الآخرة بأضعافه وآلافه ﴿فَهُوَ﴾ أي الشيطان ﴿وَلِيُّهُمُ﴾ أي متولي أمور هؤلاء عنهم ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ لذلك لم يقبلوا قولك ولم يسمعوا بيانك، بل أصروا على ما عليه أسلافهم من الغواية والضلالة ﴿وَلَهُمْ﴾ أيضاً مثل أسلافهم بل أشد منهم ﴿عَذَابٌ﴾ في النشأة الأولى والأخرى ﴿أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ مؤلم أشد إيلام، لأن بيانك وتبليغك أكمل من بيان سائر الأنبياء.

وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا﴾ من مقام جودنا وفضلنا ﴿عَلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾ الجامع لما في الكتب السالفة مع زيادات خلت عنها تلك الكتب ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ﴾ وتوضح ﴿لَهُمُ﴾ أي للناس الأمر ﴿ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ﴾ أي التوحيد الذاتي وأحوال النشأة الأخرى والمكاشفات والمشاهدات الواقعة فيها ﴿وَ﴾ أنزلناه أيضاً ﴿هُدًى﴾ أي هادياً يهديهم إلى التوحيد ببيان براهينه وحججه الموصلة إليه بالنسبة إلى أرباب المعاملات والمجاهدات من الأبرار السائرين إلى الله بارتكاب الرياضات القالعة لدرن الإمكان ورين التعلقات ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي كشفاً وشهوداً بالنسبة إلى المجذوبين المنجذبين نحو الحق، المنخلعين عن جلباب ناسوتهم بغتة؛ بلا صنعٍ صدر عنهم، وأمرٍ ظهر منهم، بل جذبهم الحق عن بشريتهم، وبدَّلهم تبديلاً كل لذلك ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾ ويوقنون بتوحيد الله وصفاته الذاتية، ويتأملون في آثار مصنوعاته تأملاً صادقاً، ويعتبرون منها اعتباراً حقاً إلى أن ينكشفوا ويفوزوا بما فازوا وينالوا بما نالوا، وليس وراء الله مرمى ولا منتهى.

﴿وَٱللَّهُ﴾ الهادي لعباده إلى زلال توحيده ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي الطبيعة الهيولانية ﴿مَآءً﴾ أي معارف وحقائق وعلوماً لدنية ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ أي الطبيعة الهيولانية ﴿بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ﴾ أي بعدما كانت عدماً صرفاً، فاتصفت بالعلوم والإدراكات الجزئية، وترقت منها متدرجاً إلى أن وصلت إلى

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ ....

مرتبة التوحيد المسقط للإضافات مطلقاً ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ التبيين والتذكير ﴿لَآيَةً﴾ دلائل وشواهد دالة على توحيد الحق ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾ سمع قبول وتأمل وتدبر.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ﴾ أيضاً أيها المتأملون المتدبرون ﴿فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ لو تعتبرون بها وتتفكرون فيها حق التفكر والتدبر لانكشفتم بعجائب صنعنا وكمال قدرتنا ومتانة حكمتنا وحيطة علمنا وإرادتنا إذ ﴿نُّسْقِيكُم﴾ ونُشربكم ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ أي مما في بطون بعض الأنعام مستخرجاً ﴿مِن بَيْنِ فَرْثٍ﴾ أي أخلاط وفضلات مستقرة في كرشها ﴿وَدَمٍ﴾ نجس سائل سارٍ في العروق والشرايين ﴿لَّبَنًا﴾ طاهراً ﴿خَالِصًا﴾ صافياً عن كدرات كلا الطرفين بحيث لا يشوبه شيء منهما لا من لون الدم ولا من ريح الفرث ﴿سَائِغًا﴾ سهل المرور والانحدار هنيئاً مرئياً ﴿لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ بلا تعسر لهم في شربه ولا كلفة.

﴿وَ﴾ نسقيكم أيضاً أيها المعتبرون ﴿مِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ﴾ بحيث ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ﴾ أي من عصير كلٍ منهما ﴿سَكَرًا﴾ خمرا يترتب على شرب السكر المسكر، وهو وإن كان حراماً شرعاً، إلا أنه تدل على عجائب صنع الله وبدائع حكمته و غرائب إبداعه واختراعه ﴿وَ﴾ تتخذون من كل منهما ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ كالتمر والزبيب والدبس والخل وأنواع الأدم

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الاتخاذ ﴿لَآيَةً﴾ دالة على كمال قدرة الله وحكمته ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ أي يستعملون عقولهم بالنظر والتفكر في آلاء الله ونعمائه كي يتفطنوا إلى وحدة ذاته.

﴿وَ﴾ من عجائب المبدعات وغرائب المخترعات التي يجب العبرة والاعتبار عنها أنه ﴿أَوْحَىٰ﴾ وألهم ﴿رَبُّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ الضعيف المنحول المستحقر إظهاراً لكمال قدرته وحكمته ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى﴾ أي بأن اتخذي ـ أنّثها باعتبار المعنى وأن كان لفظ النحل مذكراً ـ ﴿مِنَ﴾ شقوق ﴿ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ تأوين إليها ﴿وَ﴾ كذا ﴿مِنَ﴾ شقوق ﴿ٱلشَّجَرِ﴾ في الآجام ﴿وَ﴾ كذا ﴿مِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾ ويبنون لك من الأبنية والأماكن، واصنعي فيها بإلهام الله إياكِ بيوتاتٍ من الشمعة المتخذة من أنواع الأزهار والنباتات التي لا علم لنا بتعيينها وإحصائها كلها مسدسات متساويات الأضلاع والزوايا بحيث لا تفاوت بين أضلاعها وزواياها أصلاً، بحيث عجز عن تصويرها حذّاق المهندسين، فكيف عن تحقيقها وكنهها، تاهت في بيداء ألوهيته أنظار العقل وآراؤه.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما تم بناؤك ﴿كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ التي ألهمناك أكلها ﴿فَٱسْلُكِى﴾ في اتخاذ العسل منها ﴿سُبُلَ رَبِّكِ﴾ أي السبل التي ألهمك ربك بسلوكها على وجهها بلا انحراف واعوجاج ﴿ذُلُلًا﴾ مسخرة في

﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ﴾

حكمه بلا تصرف صدرت عنك.

ثم لما عملتْ على مقتضى ما أُوحيت وأُلهمت ﴿يَخْرُجُ﴾ لكم أيها المكلفون بالإيمان والمعارف ﴿مِنْ بُطُونِهَا﴾ أي بطون البيوتات ﴿شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ أبيضُ وأسودُ وأخضرُ وأصفرُ ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ عن الأمراض البلغمية بالأصالة، وعن غيرها بالتبعية ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الإلهام والوحي والخطاب على الزنبور الضعيفة بأوامر عجزت عنه فحول العقلاء الكاملين في القوة النظرية والعلمية، وامتثالها وصنعها على الوجه المأمور بلا فوت شيء منها ﴿لَآيَةً﴾ أي دليلاً واضحاً وبرهاناً قاطعاً لائحاً على قدرة القادر العليم والصانع الحكيم الذي ألهمها وأوصاها ما أوصاها ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ ويتدبرون في الأمور ويتعمقون فيها متدبرين في أنيتها، كي يصلوا إلى لمِّيتها.

ثم قال سبحانه:

﴿وَاللَّهُ﴾ القادر المقتدر للإحياء والإماتة ﴿خَلَقَكُمْ﴾ وأظهركم من كتم العدم إظهاراً إبداعياً وإيحاءً اختراعياً مقدراً مدةً معينةً لبقائكم في النشأة الأولى ﴿ثُمَّ﴾ بعد انقضاء المدة المقدرة ﴿يَتَوَفَّاكُمْ﴾ أي يميتكم ويفنيكم ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ﴾ يقدر لبقائه في هذه النشأة مدةً متطاولةً بحيث ﴿يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ وأخسِّه وأسوئه، وإنما يرد بعض الناس إليه ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ﴾ ويفهم

بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ ....

﴿بَعْدَ﴾ تعلق ﴿عِلْمٍ﴾ منه بمعلوم مخصوص ﴿شَيْـًٔاۚ﴾ من أحوال ذلك المعلوم، يعني يرجع إلى مرتبة الطفولية بعد كمال العقل، وإنما رده سبحانه إظهاراً للقدرة الكاملة، وتذكيراً وعبرةً للناس، لئلا يطلبوا من الله طول الأعمار وبُعد الآجال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المدبر لأمور عباده ﴿عَلِيمٌ﴾ بمصالحهم ومفاسدهم ﴿قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ مقدر مقتدر للأصلح لهم تفضلاً وامتناناً.

﴿وَٱللَّهُ﴾ المقدر لمصالحكم أيضاً ﴿فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِۚ﴾ بأن قدر للبعض غنىً، وللبعض فقراً، وللبعض كفايةً، على حسب تفاوت مراتبهم واستعداداتهم في علم الله ولوح قضائه، وقدر البعض مالكاً للبعض والبعضَ مملوكاً له ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ﴾ بسعة الزق والبسطة من الموالي والملاك ﴿بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ﴾ أي بعض ما رزقهم الله ﴿عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ من المماليك بأن يقدّر للماليك في قسمة الله رزقٌ، بل ﴿فَهُمْ﴾ أي المماليك والموالي ﴿فِيهِ﴾ أي في تقدير الرزق وقسمته ﴿سَوَآءٌۚ﴾ أي كما قدّر للمُلّاك قدر للمماليك أيضاً، غاية ما في الباب أن الرزق المقدر للمماليك إنما يصل إليهم من يد الموالي ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾ ينكرون ويكفرون بإسناد أرزاق المماليك إلى الموالي، لا إلى الله الرازق لجميع العباد.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ ....

﴿وَاللَّهُ﴾ المدبر المصلح لأحوال عباده ﴿جَعَلَ لَكُم﴾ تفضلاً عليكم ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي من جنسكم وبني نوعكم ﴿أَزْوَاجًا﴾ نساءً تستأنسون بهن وتستنسلون منهن ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ﴾ ليخلفوا فيكم ويحيوا أسماءكم ﴿وَ﴾ جعل لكم من أبنائكم وبناتكم ﴿حَفَدَةً﴾ يسرعون إلى خدمتكم وطاعتكم ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿رَزَقَكُم﴾ الله تفضلاً عليكم وامتناناً ﴿مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ المقوية المقومة لأمزجتكم وبنيتكم، لتواظبوا على طاعة الله، وتداوموا الميلَ إلى جنابه، وتلازموا شكرَ نعمه ﴿أَ﴾تتركون متابعة الحق الحقيق بالتبعية وهو القرآن المعجز والرسول المبين له ﴿فَبِالْبَاطِلِ﴾ الذي هو الأصنام والأوثان ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ يصدقون ويعبدون ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾ المنعِم المكرِم بأنواع الكرم ﴿هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ حيث صرفوها إلى خلاف ما أُمروا بصرفها، إذ إعطاء النعم إياهم إنما هو لتقوية طاعة الله وكسب معارفه وحقائقه، لا لعبادة الأصنام والأوثان الباطلة.

﴿وَ﴾ من خبث باطنهم وثمرة كفرانهم نعم الله أنهم ﴿يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ المالك لأزمة الأمور الجارية في خلال الزمان والدهور ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا﴾ معنوياً روحانياً فائضاً ﴿مِّنَ السَّمَاوَاتِ﴾ أي عالم الأسماء والصفات

وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَـٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ ....

على مقتضى الجود الإلهي ﴿وَ﴾ لا رزقاً صورياً جسمانياً معنوياً لاكتساب المعارف الروحانية مستخرجةً من ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ أي عالم الهيولى والطبيعة ﴿شَيْـًٔا﴾ ﴿وَ﴾ هم أيضاً ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾﴾ لأنفسهم فكيف لغيرهم.

﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟﴾ ولا تثبتوا أيها الجاهلون بقدر الله وعلو شأنه ﴿لِلَّهِ﴾ المنزه عن الأنداد والأشباه ﴿ٱلْأَمْثَالَ﴾ إذ لا مثل ولا شبه ولا كفء، فكيف يشاركون له دونه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلع لجميع الكوائن والفواسد ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري جميع أحوالكم وأحوال معبوداتكم وما جرى عليكم وعليهم ﴿وَأَنتُمْ﴾ أيها الغافلون الجاهلون بحق قدره ﴿لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ منه شيئاً، فكيف تضربون له مثلاً. بل:

﴿۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ﴾ العالم بجميع السرائر والخفايا ﴿مَثَلًا﴾ لنفسه ولمن أثبت المشركون له سبحانه شريكاً من الأصنام والأوثان مثّل سبحانه شركاءهم ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ رقيقاً لا مكاتباً ﴿لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ من التصرف في مكاسبه بغير إذن مولاه، ﴿وَ﴾ مثّل سبحانه نفسه ﴿مَن رَّزَقْنَـٰهُ مِنَّا﴾ يعني من أحرارنا لأرقائهم تفضلاً وإحساناً ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ حلالاً وافراً ﴿فَهُوَ يُنفِقُ﴾ ويتصرف ﴿مِنْهُ﴾ أي من رزقه وكسبه ﴿سِرًّا﴾ بحيث لا يطلع على إنفاقه أحدٌ حتى الفقراء المستحقون ﴿وَجَهْرًا﴾

هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهةُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ....

وعلانية على رؤوس الملأ ﴿هَلْ يَسْتَوُۥنَ﴾ الأحرار المتصرفون في أموالهم بالاستقلال والاختيار، وأولئك العبيد المعزولون عن التصرف رأساً ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ما أعطانا عقلاً نجزم به عدم المساواة بين الفريقين، ونميز به الحق عن الباطل والهداية عن الضلال ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ الفرق بين كلا الفريقين، لعدم صرفهم نعمة العقل إلى ما خُلق لأجله، وهو الامتياز المذكور.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ وَهُوَ﴾ أيضاً ﴿مَثَلًا﴾ لنفسه ولتلك المعبودات الباطلة فقال: مثَلُنا ومثَلُهم مثلُ ﴿رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ﴾ أي أخرس وأصم ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ من التفهم والتفهيم ﴿وَ﴾ كيف يقدر على النفع للغير إذ ﴿هُوَ﴾ في نفسه ﴿كَلٌّ﴾ ثقلٌ ﴿عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ أي حافظِه ومولى أموره ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّهةُّ﴾ ويصرفه لطلب المهام ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ نجحٍ ونيلٍ، وهو مثل الأصنام العاطلة الكليلة التي لا خير فيها أصلاً ﴿هَلْ يَسْتَوِى﴾ أيها العقلاء المميزون ﴿هُوَ﴾ أي هذا الموصوف بالأوصاف المذكورة ﴿وَمَن﴾ هو ذو منطق فصيح معرب ﴿يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ وينال بالخير والحسنى أينما توجهه بنفسه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ معتدلٍ مائلٍ

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾

عن كلا طرفي الإفراط والتفريط المذمومَين، وهو مثلٌ لله الواحدِ الأحدِ الصمدِ المتصرفِ المستقلِ في ملكه بالإرادة والاختيار.

ثم أشار سبحانه إلى علو شأنه وسمو برهانه وتخصصه باطلاع المغيبات التي لا اطلاع لأحدٍ عليها فقال:

﴿وَلِلَّهِ﴾ خاصةً واستقلالاً ﴿غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي ما فيها من جنود الله ومخلوقاته ﴿وَ﴾ غيب ﴿ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ أي ما عليها أيضاً من جنوده، لا اطلاع لأحدٍ منا عليها ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الموعودة وقصة وقوعها وقيامها بالنسبة إلى قبضة قدرته ﴿إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ أي كرجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها في القرب والدنوِّ ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ﴾ أي بل هو أقرب من رجع الطرف، إذ الآن فيه متحققٌ في سرعة نفوذ قضاء الله بعد تعلق إرادته، الآن موهومٌ مخيلٌ، إذ لا تراخي بين الأمر الإلهي ووقوع المأمور المراد له إلا وهماً على ما مر في تفسير قوله سبحانه: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [٢-البقرة: ١١٧،٣-آل عمران:٤٧-٥٩، ٣٦-يس:٨٢]، ولا يستبعد عن الله سبحانه أمثال هذا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المتصف بجميع أوصاف الكمال ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ داخلٍ في حيطة حضرة علمه وقدرته ﴿قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾ لا ينتهي قدرته دون مقدورٍ أصلاً.

﴿وَ﴾ كيف ينتهي قدرته إذ ﴿ٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ وأنتم

لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ
﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا
ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ

خاون عن العلوم كلها بحيث ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ من المعلومات أصلاً ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾ أسباباً وأدواتٍ تعلمون بها أنواعاً من العلوم، هيأ لكم ﴿ٱلسَّمْعَ﴾ لإدراك المسموعات الجزئية ﴿وَٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ لإدراك المبصرات الجزئية ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ لإدراك الكليات والجزئيات والمناسبات والمباينات الواقعة بين العلوم والإدراكات، كل ذلك بقدرة الله وإرادته وفضله وجُودِه ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ يعني رجاء أن تعدُّوا نِعمَ منعمكم عليكم في شؤنكم وتطوراتكم، وتواظبوا على شكرها، كي تعرفوا ذاته وتصلوا إليه.

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾ ولم ينظروا ﴿إِلَى﴾ جنس ﴿ٱلطَّيْرِ﴾ كيف صارت ﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾ مذللاتٍ للطيران والسيران بريشاتٍ واضحةٍ ﴿فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي في الهواء المتباعد عن الأرض ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ بلا علاقةٍ ودعامةٍ ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ المتفرد بالقدرة التامة الكاملة على أمثال هذه المقدورات ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الشؤون والتطورات المختلفة والتسخيرات والتذليلات للطير ﴿لَـَٔايَـٰتٍ﴾ دلائلَ قاطعاتٍ على كمال علم الله وقدرته وإرادته ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾ بتوحيد الله، ويعتقدون اتصافه بجميع أوصاف الكمال.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم﴾ أي من جملة مقدوراته المتعلقة بأمور معاشكم أنه جعل لكم ﴿مِّنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ التي بنيتم بأيديكم بإقدار الله وتمكينه وتعليمه

سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ

إياكم ﴿سَكَنًا﴾ أي مسكناً تسكنون فيها كالبيوت المتخذة من الحجر والمدر والآجرّ والخشب ﴿وَجَعَلَ لَكُم﴾ أيضاً ﴿مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ أي تحملونها وتنقلونها ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ وترحالكم من مكانٍ إلى مكانٍ ﴿وَ﴾ كذا ﴿يَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ﴾ وحَضَركم ﴿وَ﴾ جعل لكم أيضاً ﴿مِنْ أَصْوَافِهَا﴾ هي للضائنة والغنم ﴿وَأَوْبَارِهَا﴾ هي للإبل ﴿وَأَشْعَارِهَآ﴾ هي للمعز ﴿أَثَٰثًا﴾ أي ما يُلبَس ويُفرَش ﴿وَ﴾ صار ﴿مَتَٰعًا﴾ لكم تتمتعون بها ﴿إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾ أي إلى مدةٍ متطاولةٍ من الزمان.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم﴾ أيضاً ﴿مِّمَّا خَلَقَ﴾ من الأبنية والشجر والجبال وغيرها ﴿ظِلَٰلًا﴾ تتفيؤون وتستظلون به من حرِّ الشمس ﴿وَجَعَلَ لَكُم﴾ أيضاً ﴿مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ أي كنوناً[1] تسكنون بها لدفع البرد ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ﴾ أيضاً ﴿سَرَٰبِيلَ﴾ أي أثواباً وأكسيةً وأغطيةً متخذةً من الصوف والقطن والكتّان والحرير وغيرها ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ أي تحفظكم من شدة الحر ﴿وَسَرَٰبِيلَ﴾ أي الدروع والجواشن والسربالات ﴿تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ﴾ عند الحراب والقتال ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ما ذُكر من

---

(١) وفي نسخة (كهوفا).

يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ
﴿٨٢﴾ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوۡمَ
نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴿٨٤﴾

أنواع النعم ﴿يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ﴾ الفائضة ﴿عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ أي تنقادون وتطيعون وتسلِّمون أموركم كلها وتتخذونه وكيلاً.

﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ وأعرضوا عن حكم الله بعد ما تلوتَ عليهم يا أكمل الرسل ما تلوتَ من أوامره وأحكامه، ولم يقبلوا منك الحق، لا تبالِ بهم وبإعراضهم ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٨٢﴾﴾ الموضِح وقد بلَّغتَ وعلينا الحسابُ والجزاءُ بالعذابِ والعقابِ.

وكيف لا يحاسبون ولا يعاقبون أولئك المشركون أنهم

﴿ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ﴾ التي عدَّها وهيأها لهم ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ من خبث بواطنهم بإسنادها إلى شركائهم وشفعائهم ﴿وَأَكۡثَرُهُمُ﴾ أي عرفاؤهم وعقلائهم الذين يعرفون النعمة والمنعم ثم ينكرون إنعامه، وأتباعُهم أي ضعفاؤهم في العقل والتمييز كلهم هم ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾ الجاحدون لله وإنعامه يجازَون على مقتضى جحودهم وإنكارهم.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل ﴿يَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا ﴾ وهو نبيهم القائم بأمرهم، المشرف الناظر بحالهم من قِبل الحق يشهد لهم وعليهم بالإيمان والكفر ويوم العرض والجزاء ﴿ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ لا يُمهلون للاعتذار، ولا يُقبل منهم إن اعتذروا ﴿وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴿٨٤﴾﴾

وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا
رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا
نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ
يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ ....

ويسترضَون من العتبى، وهي الرضا.

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أنفسهم بالعرض على المهالك بالخروج عن حدود الله الموضوعة فيهم ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ الموعود لهم بألسنة الرسل والكتب ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ أي يتيقنوا أو يتحققوا أن لا مخلصَ لهم منه، ولا تخفيفَ عنهم بشفاعة أحدٍ ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ يُمهلون ليتداركوا ما فوتوا من الإيمان والإطاعة.

﴿وَ﴾ كذا ﴿إِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ﴾ حين يأسوا وقنطوا من شفاعتهم ومعاونتهم وعاينوهم أنهم هلكى أمثالهم ﴿قَالُوا۟﴾ متضرعين إلى الله نادمين: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا بأنواع اللطف والكرم، فكَفَرنا نِعمك وبك وبأوامرك ونواهيك الجارية على ألسنة رسلك ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الهلكى الغاوون ﴿شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ﴾ عناداً ومكابرةً، وبواسطة هؤلاء الضُلاّل رَدَدْنا قول أنبيائك ورسلك وكتبك، ثم لما سمع شركاؤهم منهم قولهم هذا ﴿فَأَلْقَوْا۟﴾ وأجابوا ﴿إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ﴾ ما تَدْعُون وما تعبدون أيها الضالون الظالمون إلا أهويتكم وأمانيكم ﴿إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾﴾ مقصورون على الكذب والزور في دعوى إطاعتنا وعبادتنا.

﴿وَ﴾ حين اضطر أولئك المشركون الضالون ﴿أَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ﴾

وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ....

أي الاستسلام والانقياد بعدما تعنتوا واستكبروا في النشأة الأولى وما ينفعهم حينئذ انقيادهم وتسليمهم ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي خَفِي عليهم وضاع عنهم ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾على شركائهم من الشفاعة لدى الحاجة، حتى تبرؤوا منهم وكذّبوهم، ثم قال سبحانه:

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأعرضوا عن الحق بأنفسهم ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿صَدُّوا﴾ ومنعوا ضعفاء الأنام ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الموصِل إلى توحيده وهو الشرع الشريف المصطفوي ﴿زِدْنَاهُمْ﴾ في النشأة الأخرى بسبب ضلالهم وإضلالهم ﴿عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ الغير عن متابعتك يا أكمل الرسل، ويفسدون في أنفسهم.

﴿وَ﴾ اذكر لهم ﴿يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وهو نبيهم ورسولهم ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ الغواة البغاة المنهمكين في بحر الإعراض والإضلال ﴿وَ﴾ الحال أنا قد ﴿نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ المشتمل لفوائد جميع الأديان والكتب وجعلناه ﴿تِبْيَانًا﴾ موضحاً مفصلاً ﴿لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ يُحتاج إليه في أمور الدين من الشعائر والأحكام والأركان والآداب والأخلاق والمندوبات

وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ....

والمحظورات والمواعظ والتذكيرات والقصص التي يعتبر منها المعتبرون المسترشدون بالنسبة إلى عوام المؤمنين ﴿وَهُدًى﴾ إلى معارفَ وحقائقَ يهديهم إلى طريق التوحيد المنجِي عن غياهب التقليدات والتخمينات بالنسبة إلى خواصهم ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي كشفاً وشهوداً مترتبةً على الجذبة والخطفة والخطوة بالنسبة إلى خواص الخواص ﴿وَ﴾ بالجملة ما هو إلا ﴿بُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ المنقادين لله بسرائرهم وظواهرهم، مفوضين أمورهم كلها إليه بلا تلعثمٍ وتذبذبٍ، وكيف لا يسلمون ويفوضون؟!

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المدبر لمصالح عباده ﴿يَأْمُرُ﴾ أولاً عباده ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾ أي القِسط والاعتدال في جميع الأفعال والأقوال والشؤون والأطوار ﴿وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ ثانياً لأنهم ما لم يعتدلوا ولم يستقيموا لم يتأتَ لهم التخلق بأخلاق الله التي هي كمال الإحسان والعرفان ﴿وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ثالثاً أي إيصال ما حصل لهم من المعارف والحقائق والمكاشفات والمشاهدات إلى مستحقهم من ذوي القربى من جهة الدين، المتوجهين نحو الحق عن ظهر القلب، الراغبين إليه عن محض المحبة والوداد، المتعطشين إلى زلال توحيده ؛ لأنهم ما لم يتمكنوا ويتقرروا في مرتبة الإحسان، لم يتأت منهم الاستكمال والاسترشاد، وكما يرغِّب سبحانه عباده بموجبات الإيمان والتوحيد ومعظِّمات أصوله وأركانه ينفِّرهم أيضاً عن غوائلهم ومهلكاتهم

وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ....

ومغوياتهم فقال: ﴿وَيَنْهَىٰ﴾ أولاً ﴿عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ أي إفراط القوة الشهوية الموجبة لرذالة النفس وسقوطها عن المروءة والعدالة المقتضية للتخلق بالأخلاق المرضية الإلهية، وخروجها عن الحدود الشرعية الموضوعة لحفظه حكمةُ الزواج والتناسل؛ بمتابعة القوى البهيمية الناشئة عن طغيان الطبيعة الهيولانية الناسوتية المنافية لصفاء القوى الروحانية اللاهوتية ﴿وَ﴾ عن ﴿ٱلْمُنكَرِ﴾ ثانياً إذ كل من رُكّب على جموح القوة الغضبية وأخذ سيف الهذيانات المثيرة لأنواع الفتن والبليات وعمل بمقتضاها ونبذَ الحلم والرحمةَ وراء ظهره، فهو بمراحل عن مرتبة الإحسان، بل لا يرجى منه إلا الخذلان والخسران ﴿وَ﴾ عن ﴿الْبَغْيِ﴾ ثالثاً لأن من تمكن وتمادى على مقتضى كلتا القوتين الشهوية والغضبية فقط، سقط عن المروءة والعدالة اللتين هما من أقوى أسباب الكمال المستلزم للإرشاد والتكميل، ومتى سقطتا عنه فقد استكبر على خلق الله وتجبر وبغى وظلم، ألا لعنة الله على الظالمين، إنما ﴿يَعِظُكُمْ﴾ الله المصلح لأحوالكم بما يعظكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ رجاء أن تتعظوا وتتمثلوا بما أمروا، وتجتنبوا عما نهوا كي تصلوا إلى صفاء توحيده المسقط للمنافرات رأساً.

﴿وَ﴾ من علامة اتعاظكم وتذكركم الوفاء بالعهود والمواثيق ﴿أَوْفُوا۟﴾ أيها الطالبون لمرتبة العدالة ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ وميثاقه الذي عهدتم مع الله

إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ
عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى
نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ
أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ ....

بألسنة استعداداتكم في بدء فطرتكم وكذا بجميع العهود والمواثيق ﴿إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ مع إخوانكم وبني نوعكم ﴿وَ﴾ أيضاً ﴿لَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ سيما ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ وتغليظها ﴿وَ﴾ كيف تنقضونها إذ ﴿قَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ﴾ الرقيبَ ﴿عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ وكيلاً لتلك البيعة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلع لضمائرهم ومخايلهم ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ من نقض الأيمان وأماراتها.

﴿وَ﴾ بعد ما علم الله منكم ما فعلتم ونقضتم من الأيمان ﴿لَا تَكُونُوا۟﴾ في نقضها وعدم وثوقها ﴿كَٱلَّتِى﴾ أي كالمرأة التي ﴿نَقَضَتْ﴾ ونفشت ﴿غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ أي بعد ما غزلتها وفتلتها قويةً محكمةً نقضتها ﴿أَنكَٰثًا﴾ بلا غرضٍ يترتب على نقضها سوى الجنون والحزن، فأنتم كذلك في نقضكم أيمانكم الوثيقة بذكر الله وعلمه بلا غرضٍ منكم يتعلق بنقضها سوى أنكم ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ أي نقضها ﴿دَخَلًۢا﴾ أي خديعةً ومكيدةً واقعةً ﴿بَيْنَكُمْ﴾ محفوظةً إلى ﴿أَن تَكُونَ﴾ وتقعَ ﴿أُمَّةٌ﴾ قويةٌ ﴿هِىَ أَرْبَىٰ﴾ أي أقوى وأزيد عَدَداً وعُدَداً ﴿مِنْ أُمَّةٍ﴾ أنتم تحلفون معهم، فتنقضون حلف الأمة الضعيفة وتتبعون القوية بعد نقض العهود واليمين،

إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾
وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن
يَشَآءُۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ
فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ ....

وما هذا إلا مكرٌ وخديعة مع الله ومع عباده ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ﴾ ويختبركم ﴿ٱللَّهُ بِهِۦۚ﴾ أي بازدياد القوية لكي يظهر: أتمسكون إيمانكم أم تنقضون؟ ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ﴾ ويوضح ﴿لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾ فيثيبكم بالوفاء ويفضحكم ويعاقبكم بالنقض.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ القادر على جميع المقدورات هدايتكم جميعاً ﴿لَجَعَلَكُمْ﴾ وخلقكم ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ متفقةً على الهداية والإسلام ﴿وَلَٰكِن﴾ حكمته تقتضي خلاف ذلك ولذلك ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ على مقتضى قهره وجلاله ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۚ﴾ على مقتضى لطفه وجماله ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ﴾ وتحاسبنَّ كل منكم في يوم الجزاء ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وبعدما أشار سبحانه إلى قبح المكر والخديعة باليمين والحلف ترويجاً لما في نفوسهم من الظلم والعدوان أصرحَ بالنهي تأكيداً ومبالغةً ليحترز المؤمنون عن أمثاله فقال:

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَيْمَٰنَكُمْ﴾ ومواثيقكم ﴿دَخَلًۢا﴾ أي مفسدةً مبطنةً مخفيةً ﴿بَيْنَكُمْ﴾ ترويجاً لكذبكم ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ﴾ أي قدم كل منكم

بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ
﴿٩٤﴾ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ
تَعۡلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ

عن شعائر الإيمان ﴿بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ واستقرارها فيها ﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ﴾ العذاب في النشأة الأولى ﴿بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ أي بسبب ميلكم وانحرافكم عن طريق الحق الذي هو الوفاء بالعهود والمواثيق ﴿وَلَكُمۡ﴾ بارتكاب المنهي ﴿عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٩٤﴾﴾ في النشأة الأخرى بأضعاف ما في الأولى.

﴿وَ﴾ أيضاً ﴿لَا تَشۡتَرُواْ﴾ ولا تستبدلوا وتأخذوا أيها المؤمنون ﴿بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ أي بنقض عهده والارتداد عن دينه ﴿ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ﴾ أي حطاماً دنياوياً ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ لوفائكم بعهده وثباتكم على دينه أجرٌ عظيمٌ أخرويٌ ﴿هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ لبقائه وعدمِ زواله ودوامِ لذّته ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٩٥﴾﴾ خيريته لاخترتم البتة.

وكيف لا يكون ما عند الله خيراً ؟. إذ:

﴿مَا عِندَكُمۡ﴾ من حطام الدنيا ومزخرفاتها ﴿يَنفَدُ﴾ أي يزول ويضمحل ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من اللذات الأخروية والمعارف اليقينية ﴿بَاقٖۗ﴾ بقاءً أبدياً سرمدياً إلى ما شاء الله، لا حول ولا قوة إلا بالله. ثم قال سبحانه:

﴿وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ﴾ على ما فوتوا من الأعراض الدنياوية بسبب ثباتهم وتقررهم على الأمور الأخروية، ولم ينقضوا العهود والمواثيق المتعلقة بالدين، ولم يستبدلوا الأعلى الباقي بالأدنى الفاني، ولحقهم

أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ....

بذلك ما لحقهم من المحن والشدائد القاحلة، وضاع عنهم ما ضاع من لذاتها وشهواتها، فصبروا على جميع ما أعطيناهم ﴿أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ أي لنجزينهم ونثيبنهم بجزاءٍ أحسنَ من مقتضى عملهم لوفائهم على عهودنا ومواثيقنا، وجريهم على مقتضى أمرنا ونهينا.

﴿ مَنْ عَمِلَ ﴾ منكم عملاً ﴿صَالِحًا﴾ لقبولنا ناشئاً ﴿مِّن ذَكَرٍ﴾ منكم ﴿أَوْ أُنثَىٰ وَ﴾ الحال أنه ﴿هُوَ﴾ في حين العمل ﴿مُؤْمِنٌ﴾ موحِّدٌ بالله، مصدقٌ للرسل والكتب المنزلة إليهم، ممتثلٌ بجميع ما جاء به الرسول ﷺ، طالبٌ للترقي من العلم إلى العين ثم إلى الحق ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ﴾ بعد فنائه عن لوازم بشريته وموته وانخلاعه عن مقتضيات أوصاف بهيميته بإرادته واختياره ﴿حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ معنويةً خالصةً عن وصمة الموت والفوت مطلقاً، خاليةً عن شوب الزوال والانقضاء، صافيةً عن الكدورات المتعلقة للحياة الصورية ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿لَنَجْزِيَنَّهُم أَجْرَهُم﴾ أي أجر عملهم وصبرهم عن مقتضيات القوى البشرية والحياة الصورية ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ أي أحسن وأوفر من جزاء عملهم الذي جاؤوا به حين كانوا سائرين إلينا، طالبين الوصول إلى صفاء توحيدنا.

ومن جملة الأعمال الصالحة المثمرة للحياة الطيبة المعنوية بل من أجلّها: قراءة القرآن المشتمل على المعارف والحقائق والمكاشفات

فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ ....

والمشاهدات المترتبة على سلوك طريق التوحيد والعرفان.

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي قصدتَ قراءته أيها القارئ الطالب لاستكشاف غوامض مرموزاته ومعضلات إشاراته ﴿فَٱسْتَعِذْ﴾ والتجأ أولاً ﴿بِٱللَّهِ﴾ المتجلي بصفة الكلام المعجز لقاطبة الأنام، الحفيظ لِخُلَّص عباده من جميع ما لا يعنيهم من المعاصي والآثام ﴿مِنَ﴾ وساوس ﴿ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ المطرود والمبعَد عن ساحة عزِّ الحضور برجوم آثار الأوصاف القهرية الإلهية، ومن غوائله وتسويلاته التي هي جنود الهوى والغفلة والتخيلات الباطلة والتوهمات المثيرة لأنواع الأماني والشهوات.

﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ﴾ أي استيلاءٌ وغلبةٌ ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بتوحيد الله وأيقنوا بحقية كتبه ورسله وباليوم الموعود وما فيه من العرض والجزاء ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ ومربيهم لا على غيره من الأسباب والوسائل العادية ﴿يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ ويُسلمون ويُسندون جميع أمورهم إليه أصالةً.

وكيف يكون للشيطان استيلاءٌ على المؤمنين الموقنين؟! إذ هم يعادونه عداوةً شديدةً، ويخاصمون معه مخاصمةً مستمرةً.

﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ﴾ واستيلاؤه ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ ويحبونه ويقبلون

وَالَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ ....

قوله ويسمعون غوايته ويطيعون أمره ﴿وَالَّذِينَ هُم بِهِۦ﴾ أي بسبب إغوائه وإغرائه ووسوسته ﴿مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ بالله الواحد الأحد، المنزه عن الشريك والولد.

ثم قال سبحانه:

﴿وَ﴾ من كمال قدرتنا ووفور حكمتنا نسخُ بعض الآيات وتبديلُها بالنسبة إلى بعض الأعصار والأزمان فإنا ﴿إِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً﴾ ناسخةً ﴿مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ منسوخةٍ لحكمةٍ ظهرت علينا، ومصلحةٍ لاحت لدينا، فلا بد أن لا نُسأل عن نسخنا وتبديلنا، بل عن جميع أفعالنا مطلقاً، ولا يُسند فعلنا إلى غيرنا مطلقاً ﴿وَ﴾ كيف يُسند فعله سبحانه لغيره إذ ﴿اللَّهُ﴾ المطلع لجميع ما كان ويكون اطلاعَ حضورٍ وشهودٍ ﴿أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ بحسب الأوقات والأزمان، فله نسخ ما ثبت وإثبات ما نسخ ﴿قَالُوٓا﴾ أي المشركون المعاندون حين ظهر في القرآن نسخُ بعض الآيات المثبتة وإثبات بعض المنسوخات القديمة متهكمين طاعنين: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ أي ما أنت أيها المدعي للرسالة والوحي إلا مفترٍ كذابٍ، قلتَ بقولٍ من تلقاء نفسك، ثم ظهر لك ما فيه بدلتَ بأخرى على مقتضى أهوائك وأمانيك ونسبتَه إلى ربك افتراءً ومراء مع أنك أخبرت أن ربك يقول: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [٥٠-ق:٢٩] كل ذلك أي

بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞ ....

النسخ والتبديل والإنزال من عندنا لحكمةٍ ظهرت علينا ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ حكمة النسخ والتبديل في الأحكام فينكرونها.

﴿قُلۡ﴾ لهم يا أكمل الرسل ما أنا مفترٍ في هذا النسخ والتبديل بل ﴿نَزَّلَهُۥ﴾ أي القرآن ﴿رُوحُ ٱلۡقُدُسِ﴾ أي جبرائيل عليه السلام عليّ هكذا وهو منزه عن جميع النقائص فكيف عن الافتراء وأوصاني أنه منزل ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ الذي رباك بأنواع التربية وأيدك بهذا الكلام المعجز ملتبساً ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ والصدق المطابق للواقع بلا شائبة شك وتردد، وإنما أنزله ﴿لِيُثَبِّتَ﴾ ويقرر ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تثبيتاً وتقريراً في مرتبة اليقين العلمي ﴿وَهُدٗى﴾ أي هدايةً ورشداً للعارفين المتحققين في مرتبة اليقين العيني ﴿وَبُشۡرَىٰ﴾ أي بشارةً وتمكيناً لأهل الكشف والشهود في مرتبة اليقين الحقي كل ذلك ﴿لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ المسلّمين أمورهم كلها إلى الله طوعاً ورغبةً.

ثم أخبر سبحانه عن مطاعن المشركين بالقرآن والرسول فقال:

﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ﴾ لا يسلّمون نزول القرآن منا وحياً وإلهاماً ويكذبونك يا أكمل الرسل في نسبتك إنزاله إلينا بل ﴿يَقُولُونَ﴾ ما هو إلا مفترٍ ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ﴾ هذا ﴿بَشَرٞ﴾ أي عبدٌ روميٌّ، أو رجلٌ من العجم، أو رجالٌ آخر

لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ
﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ ....

على ما قالوا، وكيف يقولون وينسبون أولئك المكابرون المعاندون هذا إلى القرآن إذ ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ﴾ أي يميلون وينسبون ﴿إِلَيْهِ﴾ عناداً ﴿أَعْجَمِىٌّ﴾ معلقٌ غير بيّنٍ وأنت عربي لا تفهم لغتهم ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ﴾ فصيحٌ ﴿مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ واضحٌ بليغٌ في أعلى مراتب البلاغة، بحيث عجزت عن معارضته مصاقع الخطباء مع كمال تحديهم، ومع ظهور إعجازه واعتراف الكل بأنه معجزٌ لم يقبلوا حقيته، ولم يصدقوا أنه كلام الله.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالة على وحدة ذاته وكمال أوصافه وأسمائه طبع الله على قلوبهم وختمها بحيث ﴿لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ المضلُّ المذلُّ إلى حقية كتابه ورسوله الذي أنزل إليه بل ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ في النشأة الأولى والأخرى، ثم قلّبَ سبحانه ما افتروا برسول الله ﷺ وأعاده عليهم فقال:

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ﴾ على الله بنسبة كلامه إلى غيره ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ولا يصدقون ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ﴾ الدالة على كمال توحيده ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المفترون المسرفون ﴿هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ المقصورون

مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ ....

على الكذب والافتراء والمراء من شدة قسوتهم وخبث باطنهم.

﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ ﴾ المستحق للإيمان والعبودية سيما ارتد ﴿مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ أي بعد ما آمن له ـ العياذ بالله ـ فقد استحق غضب الله وقهره ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ﴾ على الكفر وهُدِّدَ بالقتل وأنواع العقوبات حين العجز، فأجرى كلمة الكفر على لسانه ﴿وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ متمكنٌ فيه، راسخٌ غير متزلزلٍ بلا مطابقةٍ وموافقةٍ بلسانه فهو باقٍ على إيمانه، ولا غضب عليه بل له الأجر الجزيل ؛ لأن العبرة في الإيمان والكفر بالقلب لأنهما فعلان له أصالةً ﴿وَلَٰكِن﴾ من المغضوبين ﴿مَّن شَرَحَ﴾ وملأ ﴿بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾ اعتقاداً أو رضاءً مستحسناً له مستطيباً إياه ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ﴾ وقهرٌ نازلٌ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ المنتقم الغيور ﴿وَلَهُمۡ﴾ في النشأة الأخرى ﴿عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾﴾ لعظم جرمهم الذي هو الارتداد - العياذ بالله-.

وما ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي تحسينهم الكفر واستطابتهم به إلا ﴿بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ﴾ واستطابوا ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي الحياة الصورية المستعارة الزائلة ﴿عَلَى﴾ حياة ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ التي هي الحياة المعنوية الحقيقية السرمدية التي لا زوال لها أصلاً ﴿وَ﴾ أيضاً بسبب ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلع على استعدادات عباده

﴿لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠٧ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ
وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٠٨ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي
ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٠٩ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ ...﴾

﴿لَا يَهۡدِي﴾ إلى الإيمان والتوحيد ﴿ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠٧﴾ المجبولين على الكفر والعناد بحسب أصل فطرتهم واستعدادتهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المجبولون على الكفر هم ﴿ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ﴾ وختم ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ إلى حيث لا يفهمون ولا يتفطنون بسرائر الإيمان والتوحيد أصلاً ولا يتلذذون بلذاتها لغلظ حجبهم وكثافتها ﴿وَ﴾ على ﴿سَمۡعِهِمۡ﴾ إلى حيث لا يسمعون ولا يقبلون دلائل التوحيد وأماراتها من أرباب الكشف واليقين ﴿وَ﴾ على ﴿أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ إلى حيث لا ينظرون نظر عبرةٍ وبصارةٍ إلى المظاهر والآثار المترتبة على الأوصاف الذاتية الإلهية ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ البعداء المطرودون عن عزِّ الحضور ﴿هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٠٨﴾ المقصورون على الغفلة والنسيان، التائهون في تيه الضلال والطغيان.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ﴾ بسبب طردهم وخذلانهم ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٠٩﴾ المقصورون على الخسران والنقصان.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما سمعت أحوال أولئك المقهورين المطرودين ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي رباك بأنواع الكرامات وأوصلك إلى أعلى المقامات يجزي خير الجزاء تفضلاً وإحساناً ﴿لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ عن بقعة الإمكان

مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١١١﴾ ....

حين كوشفوا بما فيها من الخذلان والخسران وأنواع الرذائل والنقصان وذلك ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ﴾ بأنواع الفتن والمحن باستيلاء جنود الأمارة بالسوء عليهم ﴿ثُمَّ جَٰهَدُواْ﴾ معها بترك مألوفاتها وقطع تعلقاتها وصرفها عن مشتهياتها ومستلذاتها ﴿وَصَبَرُوٓاْ﴾ على متاعب الرياضات ومشاق المجاهدات إلى أن صارت أماراتهم مطمئنةً راضيةً مرضيةً ثم، بعدما قطعوا مسالك السلوك ومنازل التلوين والتزلزل ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ المفضلَ المحسنَ إليك يا أكمل الرسل و إلى من تبعك من خيار المؤمنين ﴿مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ أي بعد المجاهدات والرياضات ﴿لَغَفُورٞ﴾ يسترُ أنانيتهم ويغنيهم عن هوياتهم مطلقاً ﴿رَّحِيمٞ ﴿١١٠﴾﴾ لهم يمكنّهم في مقام الرضا والتسليم مطمئنين مرضيين.

هب لنا من لدنك رحمةً يا ذا القوة المتين.

واذكر يا أكمل الرسل المبعوث إلى كافة الأنام:

﴿۞ يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ﴾ عاصيةٍ أو مطيعةٍ ﴿تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا﴾ أي ذاتها وتهتم لشأنها بلا التفاتٍ منها إلى شفاعةِ غيرها إذ هي رهينةٌ ما كسبت من خيرٍ وشرٍ ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ﴾ جزاءَ ﴿مَّا عَمِلَتۡ﴾ طاعةً ومعصيةً ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾ في جزائهم وأجورهم لا زيادةً ولا نقصاناً على مقتضى

وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن
كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا
كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ....

العدل الإلهي.

﴿وَ﴾ بعدما أراد سبحانه أن ينبه على أهل النعمة وأرباب الرخاء والرفاهية أن لا يبطروا ولا يباهوا بما في أيديهم من النعم، ويداوموا على شكرها وأداء حقها خوفاً من زوالها وفنائها وانقلابها شدةً ونقمةً ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ﴾ المدبِّر لأمورهم ﴿مَثَلًا﴾ تعتبرون منها وتتعظون ﴿قَرْيَةً﴾ هي مكة أو أيلة ﴿كَانَتْ﴾ نفوس أهلها ﴿ءَامِنَةً﴾ عن الخوف من العدو والجوع من نقصان الغلات والأثمار ﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾ بما عندهم من الحوائج بلا ترددٍ ومشقةٍ إذ ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا﴾ على الترادف والتوالي ﴿رَغَدًا﴾ واسعاً وافراً ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ من البلاد التي في حواليها ونواحيها، وصاروا مترفهين متنعمين إلى أن باهوا وبطروا ﴿فَكَفَرَتْ﴾ أهلها ﴿بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ الواصلة إليهم، وأسندوها إلى غير الله عناداً ومكابرةً، وخرجوا على رسول الله وطعنوا في كتاب الله ﴿فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ بعد خَلْعِ خِلَعِ الأمن والاطمئنان أي مسار الجوع والخوف في سائر أعضائهم وجوارحهم سريانَ أثر المذوقات ونفورها إلى حيث لا ينجو عن أثرهما جزءٌ من أجزاء البدن، كل ذلك ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ من الكفران والتكذيب والطعن والعناد والاستكبار.

وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ ....

﴿وَ﴾ كيف لا يأخذهم ولا يذيقهم ﴿لَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾ أفضل وأكمل من جميع الرسل مع كتابٍ أكمل وأشمل من سائر الكتب ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أشد تكذيبٍ وأنكروه أقبح إنكارٍ ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ العاجل وهو الجدب الواقع بينهم أو وقعة بدر ﴿وَ﴾ الحال أنهم في تلك الحالة ﴿هُم ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾ خارجون على الله وعلى رسوله، والعذابُ الآجل سيأخذهم في النشأة الأخرى بأضعاف ما في النشأة الأولى.

وإذا سمعتم أيها المؤمنون المعتبرون من أحوال أولئك الأشقياء المغمورين في بحر الغفلة والغرور البَطِرين بما عندهم من اللذة والسرور، وسمعتم أيضاً أحوالهم وأهوالهم ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا﴾ مباحاً بحسب الشرع ﴿طَيِّبًا﴾ مما كسبتم بيمينكم على مقتضى سنة الله من خلق الأيدي والأرجل للمكاسب، أو مما اتجرتم وربحتم وهو من الكسب أيضاً ﴿وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ الذي أقدركم ومكّنكم على الكسب ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾ أي تطيعون وتقصدون عبادته برفع الوسائل والأسباب العادية عن البَيْن.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾ أي اعلموا ما حرَّمَ عليكم ربكم في دينكم إلا الميتة المائتة حتف أنفه بلا تزكيةٍ وتسميةٍ ﴿وَٱلدَّمَ﴾ المسفوح

وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ....

السائل من الحيوانات المباحة ﴿وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ وسُمِّي عليه من أسماء الأصنام ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ منكم أيها المؤمنون إلى أكل هذه المحرمات حال كونه ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ خارجٍ على السلطان العادل المقيم للشرائع والأحكام ﴿وَلَا عَادٍ﴾ مجاوزٍ عن الحدود الشرعية لغرضٍ فاسدٍ من أنواع المعاصي وقطع الطريق والإباق ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلع على سرائر عباده وضمائرهم ﴿غَفُورٌ﴾ يستر زلتهم الاضطرارية ﴿رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ يقبل توبتهم عنها.

ثم نهاهم سبحانه عن التقول بالأقوال الفاسدة من تلقاء أنفسهم ومقتضى أهوائهم، كما يقول المشركون المسرفون فقال:

﴿وَلَا تَقُولُوا۟﴾ أيها المتدينون بدين الإسلام المنزل على خير الأنام ﴿لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ أي شيء تصف ألسنتكم إياه الوصف الكذب بلا ورود وحيٍ وإذنِ شرعٍ، بل من تلقاء أنفسكم افتراءً ومراءً بأن تقولوا: ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ وتنسبوه إلى الله ﴿لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ تزييناً لقولكم الباطل وترويجاً له كما قالوا: ﴿مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ [٦-الأنعام:١٣٩] الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ﴾ وينسبون ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ المنزه عن مطلق الأباطيل ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ ظلماً وزوراً

لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ....

﴿لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ ولا يفوزون بخير الدارين، إذ نفعهم فيما يفترون ويكذبون.

﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ ومنفعةٌ صغيرةٌ لا اعتداد بها ﴿وَلَهُمْ﴾ بسبب ذلك في النشأة الأخرى ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ مؤلمٌ مؤبدٌ لا نجاة لهم منه أصلاً.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ في سورة الأنعام حيث قلنا: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ [٦-الأنعام:١٤٦] الآية ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ في تحريم ما حرمنا عليهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾ أي هم يظلمون أنفسهم بارتكاب المعاصي والمناهي وترك المأمورات والمندوبات، لذلك عُوقبوا وأُخذوا بما أُخذوا.

﴿ثُمَّ﴾ بشَّر سبحانه على عموم أصحاب المعاصي والآثام بالعفو والمغفرة والشفقة عليهم بعدما تابوا وندموا عما هم عليهم مخلصين فقال لحبيبه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي بعثك يا أكمل الرسل إلي كافة البرايا بشيراً ونذيراً يحسن ويرحم ﴿لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ﴾ أي الفعلة القبيحة والديدنة الشنيعة المذمومة في الشرع مع كونهم في حين ارتكابها ملتبسين ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ ناشئةٍ من عدم التدبر والتأمل بوخامة عواقبها شرعاً مع تدينهم وقبولهم بأحكام الشريعة، وكانوا ممن لا يؤمن ولا يقبل ما ورد به الشرع

﴿ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾
إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا
لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ ....

﴿ثُمَّ تَابُوا۟﴾ وندموا ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾ ارتكاب ﴿ذَٰلِكَ﴾ السوء ﴿وَأَصْلَحُوٓا۟﴾ بالتوبة والاستغفار ما أفسدوا على نفوسهم بالفساد والإصرار ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ المحسن المفضل على التائب المخلص ﴿مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أي بعد التوبة والندم ﴿لَغَفُورٌ﴾ يستر ذلتهم ﴿رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾ يقبل توبتهم.

ثم أشار سبحانه إلى فضائل خليله صلوات الرحمن عليه وسلامه وكمال كرامته ونجابة فطرته وطهارة أصله وطينته وعلو شأنه ورتبته وارتفاع قدره ومنزلته فقال:

﴿إِنَّ﴾ جدَّكَ يا أكمل الرسل ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ الذي اختاره الله لخلته واصطفاه لرسالته ﴿كَانَ أُمَّةً﴾ أي إماماً مقتدىً لائقاً للقدوة بالأمور الدينية لأنه كان ﴿قَانِتًا﴾ مطيعاً ﴿لِّلَّهِ﴾ راغباً إلى امتثال مأموراته واجتناب منهياته ﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً عن الأديان الباطلة والآراء الفاسدة ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ في حالٍ من الأحوال، بل هو رأس الموحدين، ورئيس أرباب التحقق واليقين.

﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ أي صارفاً لنعم الله إلى ما خلقه سبحانه لأجله على الوجه الأعدل الأقوم بلا تبذيرٍ وتقتيرٍ، طالباً فيه رضاء الله بلا شائبةٍ من الرياء والسمعة، لذلك ﴿ٱجْتَبَىٰهُ﴾ واختاره للرسالة العامة ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾ موصلٍ إلى توحيده بلا عوجٍ وانحرافٍ.

وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ....

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ من لدنا تفضلاً عليه وإحساناً ﴿حَسَنَةً﴾ صورية إلى حيث لا تنقطع آثار إنفاقه وجُوْدِه إلى يوم القيامة ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ لقبولنا، الواصلين إلى صفاء توحيدنا.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما ما أشرنا إليك يا أكمل الرسل كمال استحقاقه ولياقته للاقتدار والمتابعة ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ تكريماً لك وله ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ﴾ في إيصال الدعوة وتبليغ الرسالة وإظهار الدين والأحكام والرفق والتليين مع الأنام والحكم والتواضع معهم على أبلغ وجه وأكمل نظام ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي خصلة جدك عليك وعليه الصلاة والسلام، إذ كان ﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً عن كلا طرفي الإفراط والتفريط في جميع الأطوار والأخلاق والأفعال والأقوال ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ المستكبرين في خُلُقٍ من الأخلاق، ووصفٍ من الأوصاف، بل كان على مقتضى صرافة التوحيد وعدالة اليقين والتحقيق، لذلك صار إماماً للموحدين إلى قيام الساعة.

ثم قال سبحانه تعييراً على المشركين وتقريعاً لهم:

﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ﴾ أي قُدر وفرض لحوق وبال يوم السبت وأنواع العقوبات والمسخ ﴿عَلَى﴾ المشركين ﴿ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ وجادلوا مع نبيهم في تعيينه واختياره، إذ أمَرَهم موسى عليه السلام

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

بتعظيم يوم الجمعة واتخاذها عيداً، فأبوا معللين أن الله قد فرغ من خلق السموات والأرض في السبت، فنحن نوافقه، ونتخذه عيداً، فألزمهم الله تعظيم السبت وتحريم الصيد فيه، فاحتالوا فيه، فاصطادوا بالمكر، فمسخهم الله، ولحقهم من الوبال ما لحقهم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ ويجادلون مع الرسل فيجازيهم ويعاقبهم على مقتضى ما صدر عنهم.

ثم أشار سبحانه إلى تتميم تكريم حبيبه ﷺ، وتعظيم رتبته، وتهذيب أخلاقه، وتكميل حكمته ورسالته، وتعميم رأفته ورحمته إلى جميع البرية وكافة الخليقة، إذ هو مبعوثٌ على الكل بالرحمة العامة، وهو خاتم الرسالة والنبوة، ومكمل أمر التشريع والتكميل، إذ العلة الغائية في مطلق التشريع والإنزال والإرسال إنما هي ظهور مرتبته ومكانته التي هي الدعوة إلى التوحيد الذاتي، ومتى ظهرت فقد كملت وتمت ؛ لذلك نزل في شأنه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [٥-المائدة:٣] الآية.

وهو آخر آية نزلت من القرآن، وقال ﷺ: «بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ»(١)، فقال مخاطباً له خطاب تمكينٍ وتكريمٍ:

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى [١٠/ ١٩١باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها]، ومالك في الموطأ [٢/ ٩٠٤ رقم / ١٦٠٩/ باب: ما جاء في حسن الخلق]، وقال: (حسن الأخلاق) بدل (مكارم الخلاق) وأحمد في المسند [٢/ ٣٨١ رقم / ٨٩٣٩/] وقال: (صالح الأخلاق) بدل (مكارم الأخلاق)، ورواه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول [٤/ ٨٥] وقال: (محاسن الأخلاق) بدل (مكارم الأخلاق) وغيرهم بألفاظ مختلفة.

ﭐدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ....

﴿ ٱدۡعُ ﴾ يا أكمل الرسل ﴿إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ أي إلى طريق توحيد مربيك الذي أرشدك إلى معارج عنايته، وهداك إلى كمال كرامته كافة البرايا وعامة العباد ﴿بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ البالغة المكيفة لقلوبهم عن صلابة التقليدات الراسخة الموروثة لهم عن أسلافهم، المصفية نفوسهم عن الحمية الجاهلية المتمكنة فيها، الخالية عن توهم السطوة والاستيلاء، المثيرة لأنواع الأعراض النفسانية المترتبة على البشرية، المزيلة لأنواع الشبه والتخيلات الناشئة من الأسباب والوسائل العادية المقنعة، ملائمةً للفطرة الأصلية التي فطر الناس عليها، رجاء أن يتفطنوا ويتنبهوا بمقتضى جِبِلَّتهم وفطرتهم ﴿وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ الموروثة لهم يقظاناً من سِنَة الغفلة ونوم النسيان، المحصلة لهم شوقاً وسروراً إلى مُبدئهم ومُنشئهم، المُرغِّبة لهم إلى اللذات الروحانية الدائمة الباقية المستمرة بلا ورود زوالٍ وانقطاعٍ، المنفِّرة عما هم عليه من العوائق والعلائق العائقة من اللذات الوهمية المنقضية المنقطعة المورِثة لأنواع المحن والأحزان ﴿وَ﴾ إن احتجت يا أكمل الرسل في دعوتهم إلى المجادلة معهم والمكالمة ﴿جَادِلْهُم بِٱلَّتِي﴾ أي بالطريق التي ﴿هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ الطرق وأسلمها وأعدلها من المقدمات المعتدلة الدالة على المساواة من كلا الجانبين برفقٍ وتليينٍ ومسكنةٍ وإرخاء عنانٍ، خالٍ عن السطوة والتهور والغضب والتجبر، وعن التمسخر والضحك والاستهزاء والتجهيل والتسفيه والتشنيع الشنيع، كما

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ ....

يفعله عوام العلماء في محاوراتهم ومناظراتهم، إذ هي بعيدةٌ عن الحكمة بمراحلَ، مثيرةٌ لأنواع الفتن والخصومات، فلك أن لا تبالغ في إهدائهم وإيمانهم، ولا تتشوش وتتحزن عن ضلالهم وطغيانهم، إذ ما عليك إلا تبليغ ما أُرسلتَ به، وأما حصول الهداية والضلالة فيهم فأمرٌ خارجٌ عن وسعك وطاقتك ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ المطلع على استعدادات عباده وقابلياتهم ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ الموصل إلى توحيده ﴿وَهُوَ﴾ أيضاً ﴿أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ إذ قدَّر في سابق قضائه هدايتهم وضلالهم، وكذا جميع ما جرى عليهم في شؤونهم وتطوراتهم على التفصيل، بحيث لا يشذّ عن حيطة حضرة علمه شيء منها.

وبعدما أمر سبحانه حبيبه بما أمر من آداب الدعوة وأخلاق الرسالة والنبوة ومراعاة حقوق الأنام والمداراة معهم، أشار إلى المجازاة والمحاذاة والقصاص والعقوبات الواقعة في أمر الرسالة ووضعِ التشريع والتبليغ، إذ هي مبنيٌّ على الأمر بترك المألوفات وترك العادات والاعتقادات[1] وترك التخمينات والتقليدات، لذلك لا يخلو عن المنازعات والمخاصمات المؤدية إلى أنواع الجنايات، فقال سبحانه مخاطباً له ولمن تبعه من المؤمنين:

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ أيها المؤمنون منتقمين عنهم ﴿فَعَاقِبُوا۟﴾ أي فعليكم

(١) قال في حاشية المخطوط: عطفٌ على الأمر بترك، لا على المألوفات..

بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ....

أن تعاقبوا ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ لا أزيد منه، إذ الزيادة منافيةٌ لاعتدال الإيمان والتوحيد ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ﴾ أيها المؤمنون على ما أصابكم من العقوبات وأعرضتم عن الانتقام صفحاً وكظمتم الغيظ كظماً ﴿لَهُوَ﴾ أي العفو والكظم ﴿خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ الذين صبروا على ما أصابهم من المكروهات، مسترجعين إلى الله، منزلين إنزاله إليه سبحانه بلا رؤية الوسائل في البين بل يعدون العناءَ عطاءً، والترحَ فرحاً، والنقمة نعمةً، والمحنةَ منحةً لصدورها من الله.

وبعدما خاطب وأوصى سبحانه للمؤمنين بالصبر والعفو على وجه العموم وترك الانتقام، خص رسوله ﷺ بالخطاب لكونه أحق وأولى بامتثال أمثاله إذ هو جامع جميع مراتب الكمال بالاستحقاق والاستقلال فقال:

﴿وَٱصْبِرْ﴾ أيها المتحقق المتمكن في مقر التوحيد المسقط لجميع الإضافات على ما جرى عليك من الأذيات المترتبة على بشريتك وناسوتك ﴿وَمَا صَبْرُكَ﴾ وكظمُك بعد فنائك عن بشريتك ﴿إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ المتجلي عليك بالإطلاق إلى أن انخلعتْ عنك لوازم ناسوتك، وما بقيت لك[1] إلا لوازم لاهوتك، وظاهرٌ أنه لا يجري فيها المكروه والمنكر ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي على المؤمنين بما لحقهم من المنافرات والمشوشات

(١) وفي نسخة (وما بقيت فيك).

وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

﴿وَلَا تَكُ﴾ بعد انشراح صدرك بالتوحيد الذاتي ﴿فِي ضَيْقٍ﴾ ضيقِ صدرٍ وحزنٍ وكآبةٍ ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ أولئك الماكرون المعاندون المكابرون.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المختبر لأنبيائه وأوليائه وخواص عباده بأنواع الأذى والمحن الجسمانية ﴿مَعَ﴾ الصابرين ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ وأَحْذروا عن الانتقام وقت الغدرة طلباً لمرضاة الله وجرياً على مقتضى توحيده ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ على من أساء إليهم رفقاً لهم، وتلطيفاً إياهم، ابتغاءً لمرضات الله وتثبيتاً في طريق توحيده.

أذقنا حلاوة توحيدك، وأصبرنا على ما جرى علينا من المحن والعطاء والعناء طلباً لمرضاتك، إنك على ما تشاء قدير.

خاتمة السورة

عليك أيها المسترشد الخبير البصير أرشدك الله إلى امتثال ما سمعتَ في هذه السورة سيما في الكريمة المذكورة آنفاً، ورزقك الاتصاف بما فيها من الحِكَم والآداب والأخلاق المرضية والسجايا الفاضلة: أن تتأمل فيها حق التأمل والتعمق، حالَ كونك خالياً صافياً عن الكدورات العارضة من طغيان القوى البهيمية والحميّة الجاهلية، تاركاً بما عرض عليك من الأغراض النفسانية المترتبة على الأمور العادية المستلزمة فيه لأنواع الضلال والفساد من التفوق على الأقران، والترفع على الإخوان، والتكبر على ضعفاء الأنام، والتلذذ بالسمعة والرياء المثيرة لأصناف الأهواء الفاسدة والآراء الباطلة التي لا يمكن قلعها وقمعها أصلاً.

سيما تمرنتَ ورسختَ، فلك أن تراجع وجدانك بأي شيء أردت الترفع، وقصدت التفوق والتفضل، أما ترى أن منشأك ماذا؟ أما استحييت التفوه من هذا وهذا؟

وأمّا قصة كرامتك وخلافتك التي هي من المواهب الإلهية والعطاءات الغيبية، فإنما هي مبنية على محض التذلل والتواضع والخضوع والانكسار مع كل ذرةٍ من ذرائر الكائنات، إذ مبناه على الحكمة المتقنة المتشعبة من أسرار سرائر الرسالة والنبوة، وهي عبارة عن اعتدال جميع الأوصاف وتزكية النفس عن جميع الرذائل، بل هي مبنيٌ على إفناء مقتضيات الأوصاف البشرية رأساً، إرادةً واختياراً.

وبالجملة من أنصف على نفسه أدرك أن جميع ما في نفسه سوى التذلل والانكسار والمسكنة والافتقار حال كونه خالياً عن شوب الرياء والسمعة والعُجب والجَرْبَزَةِ، إنما هي رعونات صدرت من طغيان القوى البهيمية المؤيدة بالعقل المستعار، المموه بتمويهات الأوهام الباطنة، وتزيينات الخيالات الكاذبة.

هب لنا من لدنك جذبةً تنجينا من أنانيتنا، ولذةً تلجئنا إلى سلوك طريق الفناء الموصل إلى البقاء السرمدي، إنك أنت الوهاب.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الإسراء

لا يخفى على من سلك نحو توحيد الحق سلوكاً تدريجياً طالباً أرباب الولاء الطالبين للعروج إلى معارج التوحيد معراجاً مخصوصاً ومقصداً معيناً ومشرباً خالصاً مقدراً عند الله ، مثبتاً في لوح قضائه وحضرة علمه، وإن كان مقصد الكل بسحب الذات واحداً إلا أنه وقع التفاوت والتفاضل في المعارج لِحِكَمٍ ومصالحَ لا يعلمها إلا هو.

فلا بد للسالك المسترشد أن يستكمل ويسترشد إلى أن يَصِل إلى معراجه المعيَّن المقدَّر له من عنده سبحانه، فإذا وصل إليه وحصل دونه، فقد أدرك معراجه ونال مقره ومقصده من التوحيد، وعند ذلك انقطع سيره وتم سلوكه، وبعد ذلك سار وسلك فيه لا به وإليه، إلى أن حَارَ وفني، وليس وراء الله مرمىً ومنتهىً.

وأشرفُ المعارج وأكملُها وأتمُّ المراقي وأعلاها وأشملُها: معراج نبينا ﷺ، إذ انكشف له التوحيد الذاتي إلى حيث شهد الحقّ شهوداً عينياً حقياً وتكلم معه كلاماً تفصيلياً بلا كيفٍ وأينٍ وبلا وضعٍ وجهةٍ، لا مقابلةً ولا مقارنةً، ولا قربٍ ولا بعدٍ، بل حضورٌ وسرورٌ، وحصولٌ ووصولٌ، لا يفهمها

سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ....

إلا ذوو الأذواق الصحيحة والمشارب الصافية من أرباب العناية الفائزين بالفوز العظيم بمتابعته ﷺ، وذلك بعد انخلاعه عن جلباب ناسوته وتشرفه بخلعة لاهوته، لذلك أسند سبحانه إسراءه ﷺ ليلة المعراج إلى نفسه تفضلاً عليه وتكريماً، فقال متيمناً باسمه العظيم:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ الذي تجلى لحبيبه على مقتضى ذاته المستجمع بجميع أوصافه لذلك صار مرتبته جامعةٌ لجميع المراتب وغايةٌ لجميع شؤن الحق وتطوراته ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ له يوصله إلى ذروة معارج عنايته ظاهراً ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ له يخرجه عن بقعة الإمكان ويهديه إلى فضاء الوجوب باطناً.

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ ﴾ نزّه سبحانه ذاته بما يجب تنزهه عنه في حضرة علمه وأبهم اسمه على مقتضى تعاليه وترفعه عن إفهام عباده، وأوصله بالإسراء الحقيقي الذي هو عبارة عن إخراج العبد من ظلمة الإمكان الذي هو الليل الحقيقي إلى نور الوجوب الذي هو النهار الحقيقي ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ يعني حبيبه محمد ﷺ بعدما أخلع عنه كسوة ناسوته، وألبسه خلعة لاهوته، بحيث تجرد عن مقتضيات بشريته مطلقاً، وارتفعت عنه حجب تعيناته جملةً، وانكشفت سدل الغفلة والغشاوات عن بصيرته وبصره وحينئذٍ انطوت المسافات مطلقاً ﴿لَيْلًا ﴾ أي في قطعةٍ منه، صرح به وإن كان الإسراء في اللغة عبارةٌ عن السير في الليل، ليُعلم أن ابتداؤه وانتهاؤه كان فيه ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ الذي حُرمت ما أبيحت في الأماكن الأخر من الصيد وغيره، ألا وهو قلب الإنسان

إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ....

الكامل الذي هو بيت الله الأعظم حقيقةً، إذ حرمت فيه التوجه إلى الغير والسوى مطلقاً، وإن كان مبنياً في بقعة جسدانية إمكانية ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ أي كثَّرنا فيه الخير والبركة على زوارها وساكنيها، ألا وهو البيت المعمور الأبدي الأزلي الذي هو الوجود المطلق المفيض على كافة المظاهر وحواليه عبارةً عن مقتضيات الأوصاف والأسماء الإلهية، وزوارُها استعداداتُ المظاهر وقابلياتها المستفيدةُ [في الحاشية لعله المستفيضة] منها، الناشئةُ عن أظلال أوصافها وإنما أسريناه ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ الدالة على كمال قدرتنا وحكمتنا ووفور جودنا وكرامتنا ﴿إِنَّهُۥ﴾ بعد تجرده عن جلباب تعيينه وهويته ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ بسمعنا فيسمع بنا منا ﴿ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ ببصرنا فيبصر ببصرنا عجائب صنعنا وغرائب مبدعاتنا.

﴿وَ﴾ كما أيّدنا حبيبنا بما أيدناه من الإسراء به وإراءة عجائب صنعنا وقدرتنا إياه بأن أسريناه من مكة في ساعةٍ إلى بيت المقدس، ثم فيها إلى فوق السموات السبع، ومثَّلنا له أرواح الأنبياء والأولياء، فتكلم معهم، ثم منها إلى ما شاء الله ، وأخبر عنه سبحانه بقوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [٥٣-النجم: ٨ - ٩] وسمع كلاماً لا من جنس الأصوات والحروف كذلك ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ تأييداً له وتنفيذاً لأمرنا إلى أن خصصناه بتكليمنا إياه، وكرمناه بأنواع الكرامات ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي هادياً لهم يهديهم

أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ ....

إلى توحيدنا وتقديس ذاتنا عن الأشباه والأنداد وأمرناهم فيه ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن﴾ أيها المتحيرون في الأمور والوقائع ﴿دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾﴾ أي شريكاً لي وكفؤاً تتكلون إليه في أموركم غيري، إذ ليس في الوجود سواي، فعليكم أن تتخذوني وكيلاً وتفوضوا أموركم كلها إليّ، إذ لا معبود لكم غيري.

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا﴾ بمقتضى جودنا ﴿مَعَ نُوحٍۚ﴾ حين استولى الطوفان على وجه الأرض، فهلك من عليها إلا مَن آمن لنوحٍ ودخل معه في السفينة، فأنجيناه أصالةً ومن معه تبعاً ﴿إِنَّهُۥ﴾ يعني نوحاً ﴿كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ مبالغاً في أداء الشكر مواظباً عليه وجهَ الخضوع والخشوع، فلكم أن تقتفوا أثر أسلافكم الذين هم أصحاب سفينة نوح عليه السلام، وهم مؤمنون مصدقون له، ولكم أن تؤمنوا بمن أُرسل إليكم لإصلاح أحوالكم وتصدقوا كتابه.

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي أوحينا إليهم ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ المنزل عليهم على وجه الإيذان والإعلام تنبيهاً وتذكيراً واللهِ ﴿لَتُفْسِدُنَّ﴾ أنتم ﴿فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ مرةً بمخالفة أحكام التوراة وقتل شعياء ومرةً بقتل يحيى وزكريا، وقصدِ قتل عيسى عليهم السلام والكل من أعظم الجرائم عند الله ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿لَتَعْلُنَّ﴾ وتستكبُرنَّ عتواً وعناداً على الأنبياء استهانةً واستخفافاً وسخريةً واستهزاءً ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾﴾ بحيث لا تبالونهم ولا تعدونهم من العقلاء،

فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْۖ

لذلك تسفهونهم تارةً وتكذبونهم أخرى، فاعلموا أيها المسرفون: أنا ننتقم منكم في النشأة الأولى لكلّ جريمةٍ صدرت عنكم من الجريمتين العظمتين.

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ﴾ انتقام ﴿أُولَىٰهُمَا﴾ أي أولى الجريمتين ﴿بَعَثْنَا﴾ وسلَّطنا ﴿عَلَيْكُمْ﴾ حين أردنا الانتقام والأخذ عليها ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ منتقمين عنكم من قبلنا ﴿أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ وشوكةٍ عظيمةٍ وصَوْلَةٍ قويةٍ وإذا دخلوا عليكم ﴿فَجَاسُواْ﴾ أي تجسسوا وترددوا لطلبكم ﴿خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ﴾ ووسطها للقتل والاستئصال ﴿وَكَانَ﴾ ما ذُكر من الانتقام ﴿وَعْدًا﴾ من الله ﴿مَّفْعُولًا ﴿٥﴾﴾ حقاً عليه إنجازُه وإيقاعه، وذلك حين استولى بُخْتُنَصَّر عليهم، فقتل كبارهم وسَبَى صغارهم ونهبَ أموالهم وخرب بلدانهم وحرق التوراة وخرب الأقصى.

﴿ ثُمَّ﴾ بعدما ضعفناكم وأخذناكم ﴿رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ﴾ الدولة والغلبة والصولة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي على أعدائكم ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ﴾ عظام ﴿وَبَنِينَ﴾ معاونين ناصرين ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ﴾ في الكرَّة الثانية ﴿أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾﴾ من الكرَّة الأولى أي أكثر عسكراً وجنوداً منها.

وبالجملة ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ﴾ لبني نوعكم خالصاً لوجه الله وآمنتم لتزكية نفوسكم ﴿أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْۖ﴾ إذ فوائد الإيمان والإحسان عائدةٌ إليكم

وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ ....

﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ﴾ لهؤلاء وكفرتم بالله وبرسله ﴿فَلَهَا﴾ أي وبال إساءتكم عليها، إذ الله في ذاته غنيٌ عن إحسان المحسن وإساءة المسيء ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ أي وقت انتقام الجريمة الأخيرة بعثنا عليكم أيضاً عباداً لنا أولي بأس شديد وبسطةٍ قويةٍ وبطشٍ شديدٍ: طيطوس الرومي، وقيل ملك الفرس اسمه: جودرز، وقيل: حردوس، وإنما بعثناهم عليكم ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾ أي ليسوؤوا معكم بحيث ظهرت آثار إساءتهم من وجوهكم ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ وخربوه ﴿كَمَا دَخَلُوهُ﴾ وخربوه ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ في استيلاء بخت نَصّر وأحرقوا الكتب كما أحرقوا، ﴿وَلِيُتَبِّرُوا﴾ وليهلكوا ﴿مَا عَلَوْا﴾ وقدروا عليه وغلبوا ﴿تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾ هلاكاً كلياً بحيث لا ينجو منهم أحد.

قيل: دخل صاحب الجيش فذبح قرابينهم، فوجد فيه دماً يغلي، فسألهم عنه فقالوا: دمُ قربان لم يُقبل منا، فقال: ما هو إلا كذبٌ.

فقتل ألوفاً منهم عليه، ثم قال: إن لم تُصْدِقُوني ولم تبينوا لي دم من هو هذا ما تركت منكم أحداً؟ فلما اضطروا قالوا: إنه دم يحيى النبي عليه السلام قتلناه ظلماً.

فقال: لمثل هذا ينتقم الله منكم، ثم قال ملتفتاً إلى الدم: يا يحيى! قد علم ربي وربك ما أصاب قومَك من أجلك، فأسكن من الغلي قبل أن لا أُبقي أحداً منهم، فسكن ولم يقتل بعد هذا.

عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ....

ثم قال سبحانه:

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾ يا بني إسرائيل ﴿أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ بعد المرة الثانية إن تبتم عن معاصيكم وجرائمكم ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ إليها ثالثاً ﴿عُدْنَا﴾ إلى الانتقام والعذاب ثالثاً وهكذا رابعاً وخامساً وقد عادوا في النوبة الثالثة بتكذيب [سيدنا] محمد ﷺ وقصدوا قتله فأعاد الله عليهم الخزيَ بأن سلط المسلمين عليهم فقتلوهم وأسروهم وضربوا الجزية على باقيهم وصاروا مهانين أذلاء صاغرين إلى قيام الساعة هذا في النشأة الأولى ﴿وَ﴾ في النشأة الأخرى ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان والطرد والحرمان ﴿لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾ محبساً ومضيقاً لا ينجون منها أبد الآباد، ومن أراد نجاة الدارين وخير النشأتين، فعليه الامتثال والانقياد بما في القرآن المنزل على خير الأنام.

﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ﴾ الفارق بين الهداية والضلال والحق والباطل والحلال والحرام ﴿يَهْدِي﴾ ويرشد ﴿لِلَّتِي﴾ أي للطريق التي ﴿هِيَ أَقْوَمُ﴾ الطرق وأعدلُه وأوضحُ السبل وأبينُه إلى التوحيد المنجي عن ظلمات النشأتين ﴿وَيُبَشِّرُ﴾ أيضاً ﴿الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ المأمورة منه، المقربة إلى التوحيد ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ هو الفوزُ بشرف اللقاء والتحققُ عند سدرة المنتهى.

وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ ....

﴿وَ﴾ يخبر القرآن أيضاً ﴿أَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ ولم يقصدوا ما فيها من الحساب والعقاب والصراط والسؤال وجميع ما فيها ﴿أَعْتَدْنَا﴾ وهيأنا ﴿لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾ مؤلماً محزناً لرؤيتهم المؤمنين متنعمين مترفين في الجنة مترفهين.

﴿وَ﴾ من جملة الأخلاق المذمومة والديدنة القبيحة ﴿يَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ مسرعاً مستعجلاً ﴿بِٱلشَّرِّ﴾ الملحق له من غير علم بشريته ووخامة عاقبته ﴿دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ أي مثل دعائه بالخير أي لسرعته ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ في جبِلّته خُلِق ﴿عَجُولًا ﴿١١﴾﴾ مسرعاً مستعجلاً على ما يميل إليه، وإن كان مضراً له.

﴿وَ﴾ من كمال رحمتنا وإشفاقنا ﴿جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ ذا نورٍ وإضاءةٍ ﴿لِّتَبْتَغُوا۟﴾ وتطلبوا ﴿فَضْلًا﴾ وعطايا ناشئةٍ ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ لتعيشوا بها وتقوِّموا أمزجتكم منها ﴿وَلِتَعْلَمُوا۟﴾ بتجدد الملوين ﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾ المتداولة بينكم في معاملتكم وحراثتكم وتجارتكم ﴿وَ﴾ بالجملة في ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ تحتاجون إليه في أمور معاشكم ومعادكم ﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾ أي بيّناه وأوضحناه لكم وعلّمنا طريق وصولكم ونيلكم إليها ﴿تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ وتبييناً واضحاً لائحاً، فعليكم أن

وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ ....

تتخذوني وكيلاً في جميع حوائجكم الدنيوية والأخروية.

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ﴾ أي بعدما رتبنا أمور معاش الإنسان ومعاده على ما ينبغي ويليق بحاله، كتبنا جميع ما صدر عنه من الأعمال الصالحة والفاسدة في مكتوبٍ جامعٍ لها محيط بها وعلقناه في عنقه تعليقاً لازماً، شبّهَ الأعمال بالطائر لأن الإنسان يطير ويميل نحو السعادة، والشقاوة بما صدر عنه من الأعمال، كأن الأعمالَ جناحٌ له ﴿وَ﴾ بعد انقضاء النشأة الأولى المعدَّة للاختبار والاعتبار ﴿نُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا﴾ جامعاً لجميع ما صدر عنه في دار الابتلاء ﴿يَلْقَىٰهُ﴾ وينال إليه ﴿مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾ على رؤوس الملأ والأشهاد تكريماً وتعظيماً، أو تفضيحاً وتقريعاً، وحين إلقائه إليه يقال له:

﴿ ٱقْرَأْ ﴾ أيها المكلّف في دار الابتلاء بأنواع التكليفات والمأمورُ فيها بامتثالِ الأوامر وتركِ المنهيات ﴿كِتَٰبَكَ﴾ أي مكتوبك المشتمل على جميع ما صدر عنك إذ ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ﴾ أي كفى نفسك اليوم ﴿عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ أي كافياً وشهيداً بلا احتياجٍ لك إلى محاسبٍ آخر.

﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ في النشأة الأولى بمتابعة ما أُمر ونُهي ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى﴾ ويفيد ﴿لِنَفْسِهِۦ ۖ﴾ إذ نفعُ الهداية هو الوصول إلى مرتبة الخلافة والنيابة التي

وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ

جُبل الإنسان عليها عائدٌ إلى الموحِّد نفسه بلا سرايةٍ إلى غيره إلا على وجه الإرشاد والتنبيه ﴿وَ﴾ كذا ﴿مَن ضَلَّ﴾ عن طريق الحق وانحرف عن مسلك التوحيد بترك المأمورات وارتكاب المنهيات ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ﴾ أي إنما لايعود ويرجع وبال ضلالها إلا على نفسها بلا سرايةٍ إلى غيرها إلا تسبباً وإضلالاً ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿لَا تَزِرُ﴾ ولا تحمل نفسٌ ﴿وَازِرَةٌ﴾ آثمةٌ عاصيةٌ ﴿وِزْرَ﴾ نفسٍ ﴿أُخْرَىٰ ۗ﴾ مثلها بل كل نفسٍ رهينةٌ ما كسبت سواءً كان خيراً أو شراً ﴿وَ﴾ بعدما قرر سبحانه أن الهداية والضلالة لا تسري إلى الغير أراد أن يبين سبحانه أن الأخذَ على الضلال إنما هو بعد الإرشاد والتنبيه فقال: ﴿مَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ﴾ لأهل الضلال ﴿حَتَّىٰ نَبْعَثَ﴾ ونرسل إليهم ﴿رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ منهم حين ظهر عليهم علامات الفسوق والعصيان وأمارات الضلال والطغيان ؛ ليبين لهم طريق الهداية ويرغِّبهم إليها ويجنبهم عن الضلال وينفرهم عنها.

وبعد بعثِنا وإرسالِنا إن لم يقبلوا قول الرسل ولم يمتثلوا بما أمروا على ألسنتهم ونهوا عليها بل أصروا على ما هم عليه من الضلال، أُخذوا وعُذبوا.

﴿وَ﴾ كذلك جرت سنتنا أنا ﴿إِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ﴾ ونستأصل ﴿قَرْيَةً﴾ مستحقةً للإهلاك والاستئصال ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ أي متنعميها بالإطاعة والانقياد ﴿فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ وخرجوا عن مقتضى الأمر ولم يبالوا به ﴿فَحَقَّ﴾ أي

عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾

ثبتَ واستقرَ ﴿عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ أي على أهل القرية العذابُ الموعود والمعهود ﴿فَدَمَّرْنَـٰهَا﴾ وأهلكنا أهلها بسبب فسقهم وخروجهم عن الإطاعة والامتثال بالمأمور ﴿تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ أي هلاكاً كلياً واستئصالاً حقيقياً إلى حيث لم يبقَ منهم ومن عمرانهم وزراعاتهم شيءٌ.

ليس أمثال هذا الإهلاك ببدعٍ منا، بل:

﴿وَكَمْ﴾ أي كثيراً ﴿أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ الماضية ﴿مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ﴾ كعادٍ وثمودَ لعتوّهم وعنادهم مع رسول الله ﴿وَ﴾ لا يحتاج لإثبات ضلال أولئك الضالين المضلين إلى شاهدٍ ومبينٍ بل ﴿كَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾ أي كفى ربك يا أكمل الرسل ﴿بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ﴾ وخروجهم عن إطاعته وانقياده ﴿خَبِيرًۢا﴾ إذ هو عالمٌ بما في سرائرهم وضمائرهم بل ما في استعداداتهم ﴿بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ بما هو في ظواهرهم وعلنهم.

﴿مَّن كَانَ﴾ منهم ﴿يُرِيدُ﴾ اللذات ﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾ والشهوات الفانية الزائلة ﴿عَجَّلْنَا﴾ وأعطينا ﴿لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ أي في النشأة الأولى ابتلاءً له واختباراً وتلبيساً عليه واغتراراً، مطلعون على ما في سره وضميره ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا﴾ وهيأنا في النشأة الأخرى ﴿لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾ منزل الطرد والحرمان حال كونه ﴿يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا﴾ مشؤوماً محروماً ﴿مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾ مطروداً مقهوراً.

وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ....

﴿ وَمَنْ أَرَادَ﴾ منهم بامتثال الأوامر المتعلقة لمصالح الدين وباجتناب نواهيه ﴿ ٱلْآخِرَةَ ﴾ أي اللذة الأخروية الأبدية ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا ﴾ أي حق سعيها على مقتضى الأمر الإلهي ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُوَ﴾ في حال السعي والاجتهاد ﴿مُؤْمِنٌ ﴾ موقنٌ مصدقٌ بوحدانية الله وبما جاء من عنده على رسله بلا شوبِ تزلزلٍ وترددٍ ﴿ فَأُولَٰٓئِكَ ﴾ السعداء المقبولون ﴿كَانَ سَعْيُهُم﴾ واجتهادهم في امتثال الأوامر واجتناب النواهي ﴿ مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ مقبولاً مستحسناً، وعملهم مبروراً، وجزاؤهم موفوراً، وهم صاروا في دار الجزاء مغفوراً مسروراً.

﴿ كُلًّا نُّمِدُّ ﴾ أي كل واحد من الفريقين المطيع والعاصي نُيسّر ونوفق على مقتضى ما يهوى ويريد ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ المؤمنين المطيعين نوفقهم على الطاعات ونجنبهم عن المعاصي ﴿وَهَٰٓؤُلَآءِ ﴾ الكافرين العاصين نيسر لهم ما تميل إليه نفوسهم من الأهوية الفاسدة والآراء الباطلة إذ كل ميسر لما خلق له، كل ذلك ﴿مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ﴾ يا أكمل الرسل الذي رباك وجميع عباده بأنواع اللطف والكرم ﴿وَ﴾ كيف لا ييسر لهم سبحانه ولا يوفقهم، إذ لا رازقَ لهم سواه، ولا معطيَ لهم غيره لذلك ﴿مَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ ممنوعاً عن الكافر لكفره وعصيانه، موفوراً على المؤمن لإيمانه، بل

ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ﴿٢١﴾ لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ

لا يعلَّل فعلٌ بالأعراض والأعواض مطلقاً، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد إرادةً واختياراً.

والتفاوت الجاري بين عباده إنما هو لحكمةٍ ومصلحةٍ استأثر الله به في غيبه لا اطلاعَ لأحدٍ عليه لذلك قال:

﴿ ٱنظُرۡ ﴾ أيها الناظر المعتبر ﴿كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ ﴾ في النشأة الأولى بالمال والجاه والثروة والرئاسة ﴿عَلَىٰ بَعۡضٖۚ ﴾ مبتلىً بالفقر والمسكنة وأنواع المذلة والهوان ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ ﴾ المعدةُ للذات الروحانية والحقائق والمعارف والمكاشفات والمشاهدات ﴿أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ ﴾ لبقاء ذاتها أبد الآباد ﴿وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ﴿٢١﴾ ﴾ من فضل المستعار الفاني الزائل بسرعة.

ومتى اعتبرتَ أيها المعتبر وتأملت ما فيه من العبر.

﴿ لَّا تَجۡعَلۡ ﴾ ولا تتخذ ﴿مَعَ ٱللَّهِ ﴾ الواحد الأحد المتعزز برداء الفردانية ﴿إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ كفؤاً له يُعبد بالحق مثله، وكيف تجعل وتأخذ رباً سواه، إذ ليس في الوجود إلا هو ﴿فَتَقۡعُدَ ﴾ بعد جعلك واتخاذك إلهاً سواه خائباً خاسراً بل ﴿مَذۡمُومٗا ﴾ عند الملائكة وجميع النبيين ﴿مَّخۡذُولٗا ﴿٢٢﴾ ﴾ عند الله يوم العرض الأكبر.

﴿ ۞ وَ ﴾ كيف تتخذ إلهاً سواه مع أنه ﴿ قَضَىٰ رَبُّكَ ﴾ وحكم حكماً مقطوعاً مبرماً ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ ﴾ أي بأن لا تعبدوا أيها البالغون لحد التكليف

إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ....

﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ إذ لا مستحق للعبادة والانقياد سواه، إذ هو المستقل بإيجادكم وإظهاركم بلا مشاركةٍ ومعاونةٍ، فعليكم أن تعظّموه وتوقّروه، وتذللوا نحوه غاية التذلل والخضوع ﴿وَ﴾ أن تحسنوا ﴿بِالْوَالِدَيْنِ﴾ الذين هما السبب الظاهري لتربيتكم وظهوركم ﴿إِحْسَٰنًا﴾ سلساً طلقاً فرحاناً بلا شوب المنة والأذى سيما ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ﴾ أي أن يبلغن ﴿عِندَكَ﴾ أيها الولد ﴿ٱلْكِبَرَ﴾ أي سن الكهولة بحيث عجز عن خدمة نفسه ﴿أَحَدُهُمَآ﴾ أي أحد الوالدين ﴿أَوْ كِلَاهُمَا﴾ معاً ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ﴾ في جميع الأحوال سيما عند الكبر والكهولة: ﴿أُفٍّ﴾ أي صوتاً شديداً دالاً على تضجرهما وردعهما ﴿وَ﴾ إن خرجا عن مقتضى العقل و فَعَلا فعلاً يجب لك صرفهما عنه ﴿لَا تَنْهَرْهُمَا﴾ ولا تقهرهما زجراً عليهما ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿اخْفِضْ﴾ وابسط ﴿لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ والتواضع والمسكنة ﴿مِنَ﴾ كمال ﴿ٱلرَّحْمَةِ﴾ والشفقة عليهما ﴿وَ﴾ لا يقتصر على الخفض والشفقة الدنياوية بل ﴿قُلْ﴾ لهما ولأجلهما مناجياً مع الله : ﴿رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾ على مقتضى رحمتك الواسعة وجودك الشامل ﴿كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ أي ارحمهما بفضلك مثل رحمتهما وتربيتهما إياي في حال صغري وطفولتي[١].

(١) في المخطوط (طفوليتي).

رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾

فعليكم أن تكونوا في دعائهما على العزيمة الصحيحة والمحبة الخالصة، بحيث يكون بواطنكم موافقة لظواهركم مثل تربيتهما إياكم حالة صغركم، ولا تتمنوا موتهما في قلوبكم إذ:

﴿رَّبُّكُمْ﴾ المطلع على سرائركم ﴿أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ من ابتغائكم موتهما أو برهما وتكريمهما، فالله سبحانه يعفو عنكم ويقبل توبتكم ﴿إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ مصلحين ما فوّتم وأفسدتم على نفوسكم من حق تعظيمهما وتوقيرهما ﴿فَإِنَّهُ﴾ سبحانه من كمال جوده وفضله ﴿كَانَ لِلْأَوَّابِينَ﴾ الرّجاعين إليه سبحانه، النادمين بما صدر عنهم من المعاصي، سيما ما يتعلق بعقوق الوالدين ﴿غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾ يغفرهم ويتجاوز عنهم.

﴿وَ﴾ لا تقتصر أيها الولد على تعظيم والديك فقط، بل عليك تعظيم كل من ينتمي إليك من قِبلهما لذلك ﴿ءَاتِ﴾ وأعط ﴿ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾ أي حق تواضعهم وتوقيرهم إن كانوا أغنياء، وأنفِق عليهم إن كانوا فقراء ﴿وَ﴾ آت من زكاة أموالك وفواضل صدقاتك ﴿الْمِسْكِينَ﴾ الذي لا يقدر على قوته وقوت عياله ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ أيضاً الذي يبعد عن بلده، وليس معه مؤنة معاشه، وكن في إنفاقك مقتصداً معتدلاً ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ أي لا تسرف إسرافاً مفرطاً خارجاً عن حد الاعتدال، سيما في ما لا يعني وينبغي، إذ التبذير والتقتير كلاهما مذمومٌ عقلاً وشرعاً، لذلك قال سبحانه:

إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ....

﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ﴾ المسرفين أموالهم رياءً وسمعةً ﴿كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أي أشباههم وأتباعهم في صرف الأموال الموهوبة من الله إلى غير المصرف وغير المستحق من المصارف، بل صرفوها إلى المحظورات والمكروهات بإغواء الشياطين وإغرائهم ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ الغاوي الطاغي ﴿لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ لِنعم الله ، فيغري أتباعه إلى الكفران أيضاً.

ثم قال سبحانه:

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ أي إن تحقق إعراضك ومنعك عن هؤلاء المستحقين المذكورين سيما بعدما سألوا عنك العطاء ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ﴾ أي طلب رحمةٍ وشفقةٍ مرجوةٍ ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ حال كونك ﴿تَرْجُوهَا﴾ أي الرحمة لهم لعلمك بأنهم صرفوها إلى القبائح والمعصية، فعليك أن تمنعهم وتردهم هيناً ليناً بلا تشددٍ وغلظةٍ ﴿فَقُل لَّهُمْ﴾ حين دفعهم: ﴿قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾ سهلاً إلى حيث لا ييأسوا ولا يحزنوا، مثل أن تقول: سهل الله علينا وعليكم، ويسر لنا ولكم من فضله وجوده.

وبعد ما نهى سبحانه عن التبذير صريحاً والإعراض عن صرف النعمة إلى المعصية، نهى عن مطلق البخل والتبذير المذمومَين تأكيداً ومبالغةً فقال:

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً﴾ معقودة ﴿إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ بحيث لا يسع لك إعطاء

وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ....

شيءٍ مما رزق الله لك على مستحقه شُحاً وبخلاً، إذ هو إفراطٌ وتقتيرٌ ﴿وَ﴾ أيضاً ﴿لَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ بحيث لا قرارَ لك عندها أصلاً، فهذا تفريطٌ وتبذيرٌ، وكلاهما مذمومان شرعاً وعقلاً، فعليك بالاقتصاد الذي هو عبارةٌ عن الكرم والجود، وهو صراط الله الأعدل الأقوم ﴿فَتَقْعُدَ﴾ بعد اتصافك بالبخل والتقتير ﴿مَلُومًا﴾ عند الله وعند الملائكة والناس أجمعين، واتصفت بالتبذير والإسراف تقعد ﴿مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ نادماً متحسراً قلقاً حائراً في نظم معاشك.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ الصوري والمعنوي ويوسعه ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ من عباده على مقتضى علمه بحالهم وسعة استعدادهم وقابلية حوصلتهم ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي يقبض ويضيّق لمن يشاء منهم، على مقتضى علمه بضيق صدرهم وقلة تمكنهم ووقارهم، إذ الله الحكيم المتقِن في أفعاله لا يتجاوز عن مقتضى حكمته ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ﴾ عليماً ﴿خَبِيرًۢا﴾ عن بواطنهم وضمائرهم، وما يؤول إليهم أمورهم ﴿بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ بظواهر أحوالهم وتقلباتهم في شؤونهم وتطوراتهم.

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟﴾ أيها البالغون لرتبة التكليف الإلهي ﴿أَوْلَٰدَكُمْ﴾ الحاصلة من أصلابكم سواءً كانوا بنين أو بنات، بلا رخصةٍ شرعيةٍ سيما ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾

﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا ٣١ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ٣٢ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ﴾

أي فقرٍ وفاقةٍ إذ ﴿نَّحۡنُ﴾ من سعة جودنا ووفور رحمتنا ﴿نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ﴾ إذ لا رازق لكم ولهم سوانا ﴿إِنَّ قَتۡلَهُمۡ﴾ إن صدر عنكم ﴿كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا ٣١﴾ أي ذنباً عظيماً.

﴿وَ﴾ عليكم أيها المؤمنون المتدرجون في مسالك التحقيق أن ﴿لَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ﴾ بترتيب مقدماتٍ تترتب عليها تلك الفعلة القبيحة، فكيف الإتيان بها - العياذ بالله - ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الزنا ﴿كَانَ فَٰحِشَةٗ﴾ مسقطةً للعدالة، مزيلةً للمروءة، مبطلةً لحكمة التناسل التي هي المعرفة الإلهية، إذ ولد الزنا لا يبلغ مرتبة الولاية والعرفان أصلاً ﴿وَسَآءَ سَبِيلٗا ٣٢﴾ لقضاء الشهوة المعدة لسر الظهور والإظهار من لدن حكيم عليم.

﴿وَ﴾ عليكم أيضاً أيها الموحدون القاصدون إلى معارج التوحيد أن ﴿لَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ قتلها إذ هي بيت الله وتخريب بيته من أعظم الكبائر ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾ أي إلا برخصةٍ شرعيةٍ من قصاصٍ وَحَدٍّ وردَّةٍ، إلى غير ذلك من الأمور التي عيّنها الشرع ﴿وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا﴾ بلا رخصةٍ شرعيةٍ ﴿فَقَدۡ جَعَلۡنَا﴾ بمقتضى عدلنا ﴿لِوَلِيِّهِۦ﴾ أي لمن يلي أمر المقتول بعده ﴿سُلۡطَٰنٗا﴾ سطوةً وغلبةً على القاتل الظالم مع معاونة الحكام له ﴿فَلَا يُسۡرِف﴾ أي الولي المنتقم ﴿فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ﴾ لقصاص المقتول المظلوم

إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٤﴾ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ ....

بأن يقتل غير القاتل بدله أو يُقتل هو مع غيره، وكيف لا يُقتل الظالم بدل المقتول المظلوم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ﴾ أي المظلوم ﴿مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾ عند الله وعند جميع الخلائق.

﴿وَ﴾ عليكم أيضاً أيها المتوجهون نحو الحق بالعزيمة الصحيحة والقصد الخالص أن ﴿لَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ﴾ الذي لا متعهد له من الأبوين ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ بحالهم من ازدياد أموالهم وتنميته وحفظه وتعميره على وجه العدالة والمروءة ﴿حَتَّىٰ يَبۡلُغَ﴾ اليتيم ﴿أَشُدَّهُۥ﴾ أي رشده وبلغ إلى سن التمييز والتصرف، فلكم أيها المتعهدون المتحفظون لأموال اليتامى ردها إليهم بعد اختبارهم وامتحانهم مراراً، و بالجملة لكم أيها الموحدون الإيفاء والوفاء بالعهود والمواثيق مطلقاً سواءً كانت مما بينكم وبين الله، أو بين المؤمنين من عباده ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ﴾ والميثاق ﴿كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٤﴾﴾ في النشأة الأخرى، وناقضُه مؤاخذاً، وموفيه مأجوراً.

﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ﴾ أي عليكم إيفاء الكيل ﴿إِذَا كِلۡتُمۡ﴾ لغيركم ﴿وَزِنُواْ﴾ أيضاً إذا زنتم ﴿بِٱلۡقِسۡطَاسِ﴾ أي الميزان، وهو لفظٌ سريانيٌّ ﴿ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ﴾ الذي لا ميل له إلى جانبٍ، بل صار كفتاه على السوية بلا ميل ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي إيفاؤكم واستقامتكم في المكيال والميزان ﴿خَيۡرٞ﴾ جالبٌ لأنواع الخيرات في الدنيا

وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ ....

﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾ أي عاقبةً ومآلاً في العقبى.

﴿وَلَا تَقْفُ﴾ أي لا تتبع أيها المؤمن الموقن الطالب للوصول إلى مرتبة التوحيد ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ﴾ أي ما لم يتعلق علمك به تقليداً أو تخميناً، إذ أنت يوم الجزاء مسؤول عما رُمته بلا علمٍ وأقدمتَ عليه بأي عضوٍ وجارحةٍ وقلتَهُ رجماً بالغيب ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ﴾ قدمه لأنه نُسبتْ إليه أكثر المفتريات والكواذب ﴿وَٱلْبَصَرَ﴾ لأن النفس تقع في أكثر الفتن والمهالك برؤية البصر ﴿وَٱلْفُؤَادَ﴾ الذي هو أصلٌ في إنشاء الكواذب والمزوَّرات ﴿كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي كل واحدٍ من القوى الثلاثة ﴿كَانَ﴾ يوم القيامة ﴿عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ فتقرُّ أولئك القوى بعدما سُئل عما صدرت منها من المعاصي، فيفتضح صاحبها على رؤوس الأشهاد.

﴿وَلَا تَمْشِ﴾ أيها الطالب لعدالة التوحيد والعرفان ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ التي أعدت للتذلل والانكسار والتواضع والخشوع ﴿مَرَحًا ۖ﴾ ذا كبرٍ وخيلاءٍ، فكيف تختال وتتكبر أيها المهان المخلوق من المهين ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ بشدة قوتك ووطأتك ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ﴾ باستعلائك واستكبارك ﴿طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ أي مدةً متطاولةً حتى تستعليَ بها على من دونك، وبالجملة لا تتكبر ولا تتجبر أيها العاجز الضعيف مع ضعفك وقصير عمرك.

كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ
ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ
رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ ....

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ من النواهي المذكورة من: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء:١٧-٢٢] إلى هنا، ﴿كَانَ سَيِّئُهُۥ﴾ أي ثبتَ وتحققَ كونه سيئةً وإنما ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ لذلك كان ﴿مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ منهياً عنه، مبغوضاً عليه.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الأحكام المتقدمة من أول السورة إلى هنا ﴿مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ﴾ يا أكمل الرسل تربيةً لك وتأييداً لأمرك ﴿مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ﴾ المتقنة التي يجب الامتثال والاتصاف بها على من أراد سلوك سبيل التوحيد المبنيِّ على عدالة الأخلاق والأطوار والشؤون ﴿وَ﴾ معظم المنهيات والمحظورات الشرك بالله ـ العياذ بالله منه ـ لذلك كرره تأكيداً ومبالغةً وبالغَ في الاحتراز عنه حبيبه حيث قال: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ﴾ المتوحد المتفرد في ذاته المعبود بالحق والاستحقاق ﴿إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ يُعبد له كعبادته وإن اتخذتَ إلهاً سواه ﴿فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان حال كونك ﴿مَلُومًا﴾ تلوم نفسك بأنواع الملومات بما ضاع عنك من التوحيد المنجي عن جميع المضائق والمهالك ﴿مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ مبعَداً عن رحمة الله وسعة فضله وإحسانه.

﴿أَ﴾ تزعمون أيها المشركون المستبكرون أن الله المتعزز برداء العظمة والكبرياء فضَّلكم على نفسه ﴿فَأَصْفَاكُمْ﴾ أي خصصكم واجتباكم ﴿رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ الذين هم أكرم الأولاد وأشرفها ﴿وَٱتَّخَذَ﴾ لنفسه أولاداً

مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ ....

﴿مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾ نواقص عقلاً وديناً ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها المسرفون بإقدامكم واجترائكم على الله بأمثال هذه الهذيانات الباطلة ﴿لَتَقُولُونَ﴾ في حق الله ﴿قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ بهتاناً وزوراً تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، إذ نسبة الأولاد إلى الصمد المنزه عن الأنداد في نهاية الشناعة والفساد، وأشنعُ منه نسبة الإناث إليه، ثم نسبة الملائكة الذين هم من أفضل عباد الله وأشرفهم إلى الأنوثة المستحقرة المذمومة شرعاً وعقلاً، هذا مع غاية الإفراط في حق الله، والتفريط في خلّص عباده، لذلك وصف سبحانه هذا القول الشنيع بالعظمة.

ثم قال سبحانه توبيخاً لهم وتقريعاً وإشارةً إلى تناهيهم في الضلال والطغيان:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ وكررنا مراراً شناعةَ هذا القول أي نسبة الولد إلى الله الصمد المنزه في ذاته عن الأهل والولد ﴿فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ المنزل لهداية أهل الغي والضلال ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ أي ليتذكروا ويتعظوا ويتفطنوا إلى وخامة عواقبه ومآله، ومع ذلك لم يتذكروا ولم يتفطنوا بل ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ التكرار والمبالغة ﴿إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾ إعراضاً عن الحق وإصراراً على ما هم عليه من الباطل.

﴿قُل﴾ لهم يا أكمل الرسل إلزاماً وتبكيتاً: ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ﴾ أمثاله

كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ ....

﴿كَمَا يَقُولُونَ﴾ وتدعون أيها المشركون هم معبودون بالحق، مستحقون للعبادة كما زعتم ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟﴾ ولطلبوا ﴿إِلَىٰ﴾ معاداة ﴿ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ ليغلبوا عليه ويستولوا على ملكه، كما يفعل الولاة بعضهم مع بعض، إذ لو عجزوا عن مماراته ومقابلته، لم يكونوا مثله فلم يستحقوا للعبادة المطلقة مثله.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أي نزه سبحانه ذاته تنزيهاً بليغاً وقدس تقديساً متناهياً في القدس والنزاهة ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ أي تَرَفَّع وتعاظم ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ هؤلاء الظالمون المسرفون المفرطون في شأنه من إثبات الشريك المماثل له والكفؤ المتكافئ معه ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ أي تعالياً وتباعداً في غاية البعد والاستحالة، إذ لا موجود سواه، ولا إله غيره.

وكيف تغفلون وتذهلون عن دلائل توحيد الحق وشواهده أيها الضالون المضلون، مع أنكم مجبولون على فطرة المعرفة والتوحيد، ومع ذلك

﴿تُسَبِّحُ لَهُ﴾ وتُقَدِّسُ ذاته عن الشريك والولد والكفؤ والنظير ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ﴾ المطبقة المعلقة المنضودة المنظومة على أبلغ النظام وأعجبه مع ما فيها من الكواكب المختلفة الألوان والأشكال والمنازل والحركات والآثار المترتبة عليها، ومع ما فيها من عجائب المخلوقات وغرائب المبدعات والمخترعات التي لا علم لنا إلا بأنياتها دون لمياتها، كل ذلك يدل على وحدة مظهرها وبارئها ﴿وَٱلْأَرْضُ﴾ وما عليها من أنواع النباتات والمعادن

وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ....

والحيوانات التي عجزت عن إحصائها ألسنة أولي البصائر والنهى، المعتبرين المتأملين في مصنوعات الحق وعجائب مخترعاته ﴿وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ من الملائكة والثقلين، المجبولين على عبادة الحق وعرفانه ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿إِن مِّن شَيْءٍ﴾ أي ما من شيءٍ مما يطلق عليه اسم الشيء ويمتد عليه ظلُّ الوجود ﴿إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي ينزهه ويقدسه عن شوب الحدوث والإمكان، بعضها بالحال، وبعضها بالمقال، سيما عن أقوى أمارات الإمكان التي هي الإيلاد والاستيلاد ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ﴾ تفهمون أيها المنهمكون في الغيِّ والضلال ﴿تَسْبِيحَهُمْۗ﴾ لعدم اشتغالكم بالتدبر والتأمل في مصنوعات الحق والتفكر في آياته، بل تنكرونها وتصرون على القدح فيها عناداً ومكابرةً، وتشركون بالله ـ العياذ بالله منه ـ أنداداً، وبذلك استوجبتم أشدَّ العذاب والنكال، فأمهلكم الله ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾ لا يعاجل بالانتقام والعقوبة رجاءَ أن تتعظوا وترجعوا نحوه بالتوبة والندم على وجه الإخلاص، فيغفر زلتكم كلها إنه كان ﴿غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ للأوابين التوابين الرجاعين إليه بكمال الندم والإخلاص، وإن عظمت زلتهم وكثرت معصيتهم.

﴿وَ﴾ من كمال لطفنا معك يا أكمل الرسل وغاية حفظنا وحراستنا إياك ﴿إِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ واستغرقت في لجج رموزه وإشاراته، وخضتَ في تيار بحاره لِطَلَبِ فرائد فوائده، وصرتَ من غاية استغراقك وتلذذك بها إلى أن غبتَ عن محافظة نفسك ومراقبة حالك ﴿جَعَلْنَا﴾ وصيرنا ﴿بَيْنَكَ وَبَيْنَ﴾

ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾

القوم ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ ولا يوقنون بالأمور المترتبة عليها فيها ﴿حِجَابًا﴾ غليظاً وغشاءً كثيفاً ﴿مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ يسترك عن أعين أعدائك القاصدين لك سوءاً، مع أنهم لا يرون الحجب أيضاً.

روى سعيد بن جبير رضي الله عنه أنه لما نزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [١١١-المسد:١] السورة جاءت امرأته بحجرٍ لترضخ به رأس رسول الله ﷺ، وهو جالس مع أبي بكر رضي الله عنه، فسألت: أين صاحبك لقد بلغني أنه هجاني؟ فقال أبو بكر: ما نطق صاحبي بالشعر. ثم قال أبو بكر: ما رأتك يا رسول الله! فقال ﷺ: «لَمْ يَزَلْ مَلَكٌ بَيْنِيْ وَبَيْنَ أَعْدَائِيْ أَنَا أَرَاهُمْ وَلَا يَرَوْنَنِيْ»(١).

﴿وَ﴾ كيف لا يكون الكافر محجوباً مستوراً عن سرائر القرآن ومرموزاته إذ ﴿جَعَلْنَا﴾ أي غطَّينا ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ غشاوةً كثيفةً تمنعهم ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ ويفهموا معناه ﴿وَ﴾ جعلنا ﴿فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي حمماً وثقلاً يمنعهم عن استماع ألفاظه، حتى يتأملوا ويتدبروا في معناه ﴿وَ﴾ من غلظ غشاوتهم وكثافة أكنتهم ﴿إِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ﴾ منفرداً بلا ذكر آلهتهم ﴿وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ﴾ معرضين كارهين ﴿نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ متنفرين، ساخطين عليك.

---

(١) والمشهور أنه «جاءت امرأة أبي لهب ومعها حجر والنبي ﷺ مع أبي بكر فلم تره فقالت لأبي بكر: أين صاحبك لقد بلغني أنه هجاني فقال والله ما ينطق عن الهوى ولا ينطق بالشعر ولا يقوله فرجعت وهي تقول: قد كنت جئت بهذا الحجر لأرضخ برأسه فقال أبو بكر: ما رأتك يا رسول الله. قال: لا لم يزل ملك بيني وبينها يسترني» رواه البغوي في تفسيره [٣/ ١١٧] والقرطبي في تفسيره [١٠/ ٢٦٩] والثعلبي في تفسيره [٦/ ١٠٤] وابن أبي شيبة في مصنفه [٦/ ٣٢٣].

نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ﴿٤٨﴾ ....

ولا تبال يا أكمل الرسل بهم وبسماعهم واستماعهم وعدمه، ولا تلتفت نحوهم إذ ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ أي يفرضون المتعلق باستماعهم الذي هو الاستهزاء والسخرية وقت ﴿إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَ﴾ كيف لا يكونون مستهزئين مستسخرين ﴿هُمۡ﴾ حين استماعهم كلامك ﴿نَجۡوَىٰٓ﴾ أي ذوو مناجاة، يضمرون في نفوسهم مقتك وهلاكك، وأقله الاستهزاء معك، اذكر ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ منهم على سبيل العناد والمكابرة لأهل العدل والتوحيد: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ أي ما تتبعون أيها الضالون ﴿إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴿٤٧﴾﴾ سُحِرَ به فجن فاختلط كلامه وذهب عقله وتكلم من تلقاء نفسه كلاماً يشبه كلام العقلاء.

﴿ٱنظُرۡ﴾ أيها الناظر بنور الله المؤيد من عنده ﴿كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ الحشو والبتراء من غاية اضطرابهم وتهالكهم، مرةً يقولون: إنك شاعرٌ، ومرة: ساحرٌ، ومرة: كاهنٌ، ومرة: مجنونٌ ﴿فَضَلُّواْ﴾ عن طريق الحق في جميع ما نسبوا إليك وإلى ما جئت به من الكلام المعجز في أعلى مراتب الإعجاز ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ إلى مقتك وقدح كتابك ﴿سَبِيلٗا ﴿٤٨﴾﴾ واضحاً موجهاً، بل خبطوا في جميع ما نسبوا خبط عشواء، فضلّوا عن السبيل السواء.

وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ ....

﴿وَ﴾ من غاية انهماكهم في الغي والضلال ونهاية إنكارهم بحقية القرآن ﴿قَالُوٓاْ﴾ مستبعدين متعجبين على سبيل التهكم والاستهزاء: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا﴾ أي أُنبعث ونحيي بعدما صرنا عظاماً باليةً رميمةً ﴿وَرُفَٰتًا﴾ أي غباراً مرفوتاً تذروه الرياح ﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾ محشورون من قبورنا ﴿خَلۡقًا﴾ آخر ﴿جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ معاداً للخلق الأول لا مثلاً له، بل عيناً، بلا مغايرةٍ أصلاً، كلا وحاشا، من أين لنا هذا؟!.

﴿۞ قُلۡ﴾ يا أكمل الرسل في جوابهم تبكيتاً لهم وإلزاماً: لا تستبعدوا أيها الضالون المعاندون أمثال هذا البعث والإحياء عن قدرة الله في الأشياء التي عهدوا حياتها من قبل، إذ لا بُعْدَ ولا غرابة فيها بل ﴿كُونُواْ حِجَارَةً﴾ أبعد بمراحل عن قبول الحياة ﴿أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾﴾ هو أشد بعداً.

﴿أَوۡ خَلۡقًا﴾ آخر مثلاً هو ﴿مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ﴾ ويستحيل في نفوسكم اتصافه بالحياة، فالله المقتدر بالقدرة الكاملة والقوة الشاملة قادرٌ على إحيائها وإيجادها إن تعلقتْ إرادته ومضت مشيئته على تكوينه وإظهاره، ثم بعدما أُفحموا من سماع الحجة القوية وانحسرت عقولهم عن المقابلة معها ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ مستفهمين عن تعيين الحق المبدئ المعيد على سبيل الإنكار: ﴿مَن يُعِيدُنَاۖ﴾ بعد موتنا وصيرورتنا عظاماً ورفاتاً؟

﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ ....

﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ﴾ وأظهركم من كتم العدم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ إظهاراً إبداعياً وإيجاداً اختراعياً بلا سبق مادةٍ ومدةٍ، فإعادتكم أهون عليه من إبدائكم وإبداعكم، وبعدما سمعوا منك قولك: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ﴾ ويحركون ﴿إِلَيْكَ﴾ أيها المؤيد من عند الله لإلزام أولئك الغواة الطغاة الهالكين في تيه المكابرة والعناد ﴿رُءُوسَهُمْ﴾ على وجه الاستبعاد والاستهزاء ﴿وَيَقُولُونَ﴾ مستسخرين: ﴿مَتَىٰ هُوَ﴾ مع أن الأنبياء الماضين يدَّعون مثلك قيامها، فلم تقع بعدُ، وأنت أيضاً تدَّعي فلا تقع، وما هي إلا مجرد الدعوى منكم، ومنهم بلا وقوعٍ ولا ورودٍ ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾﴾ أي بعدما ختم أمر الرسالة والتشريع، وكمُل بناء الدين، قَرُبَ وقوعها، فانتظروا أيها المؤمنون المصدقون ليوم البعث والحشر مترصدين مترقبين.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ الله للبعث والحشر ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ﴾ طائعين راغبين ملتبسين ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ معترفين على كمال قدرته، ووفور حوله وقوته ﴿وَ﴾ تذكروا من طول ذلك اليوم وشدة أهواله وإفزاعه حيث ﴿تَظُنُّونَ﴾ وتعتقدون فيه ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ أي ما لبثتم وأقمتم في النشأة الأولى ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ أي تستقلون وتستقصرون مدة لبثكم فيها من كثرة شدائدها وأهوالها.

﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا۟ ٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ ....

﴿وَقُل﴾ يا أكمل الرسل على سبيل العظة والتذكير وتهذيب الأخلاق وتصفية الباطن ﴿لِّعِبَادِي﴾ يعني المؤمنين الموقنين لشؤوني وظهوري على سبيل تجلياتي في النشأة الأولى والأخرى، إذا أرادوا إهداء التائهين في بحر الغفلة والضلال: ﴿يَقُولُوا۟﴾ كل منهم وقت تذكيرهم وتنبيههم رفقاً لهم وتليناً لقلوبهم بالكلمة ﴿ٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ﴾ الكلمات وألينُها وأتمُّها نفعاً، وأقربُها للقبول، لا بالتي هي أخشن وأغلظ لتكون مدخلاً للشيطان ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ المضل المغوي ﴿يَنزَغُ﴾ أي يُوقِع الفتنة بين المرشد والمسترشد ويهيجها ويثيرها إلى أن أدى الأمر إلى المشاجرة والمقاتلة وأنواع الخصومات المخلة للحكمة المقصودة من أمر النبوة والرسالة، والكلمةُ الغليظةُ كثيراً ما يفضي إليها، فيفوت الغرض الأصلي ﴿بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ﴾ في أصل جبلته وفطرته خُلق ﴿لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾ ظاهراً العداوة ومستمر الفتنة بحيث لا يرجى دفع عداوته أصلاً.

فلكم أيها الهادون الناصحون أن لا تغلظوا ولا تخشنوا في دعوة الناس إلى طريق الحق ولا تبالغوا أيضاً في إرشادهم وإهدائهم، إذ ما عليكم إلا تبليغ ما أُمرتم بتبليغه وليس في وسعكم وطاقتكم رشدهم وهدايتهم البتة.

إذ هو مبين على العلم باستعداداتهم وقابلياتهم، ولا علم لكم أيها الناصحون عليها بل ﴿رَّبُّكُمْ﴾ الذي رباكم أيها الناس المجبولون على فطرة

أَعْلَمُ بِكُمْۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ ....

المعرفة والإيمان ﴿أَعْلَمُ بِكُمْۖ إِن يَشَأْ﴾ هدايتكم ﴿يَرْحَمْكُمْ﴾ على مقتضى جوده ويوفقكم على قبول الإيمان وحصول العرفان عنايةً منه وفضلاً ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْۚ﴾ أي يبقيكم ويغويكم في تيه الحرمان والخذلان خاسرين خائبين بمتابعة الشيطان ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ يا أكمل الرسل وأفضل البرايا مع أنك لولاك ما خلقت الأفلاك، إذ كل من في العالم منوطٌ بمرتبتك المحيطة الجامعة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي على الناس ﴿وَكِيلًا ﴿٥٤﴾﴾ أي ليكون أمورهم موكولاً إليك، بحيث إذا أرت هداية بعض وضلال آخرين فيقع مرادك بلا خلف، بل إنما أرسلناك مبلغاً بشيراً ونذيراً، وما عليك إلا البلاغ وعلينا الإصلاح والإفساد، إذ نحن بكمال استغنائنا عن مطلق مظاهرنا ومصنوعاتنا، مستقلون في تدبيرات أمور ملكنا وملكوتنا وشهادتنا وغيبنا وجبروتنا ولاهوتنا.

﴿وَرَبُّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ أي باستعدادات الملائكة السماويين والأرضيين وقابليات الثقلين السفليين ﴿وَ﴾ لعلمنا باستعدادات جميع عبادنا ﴿لَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ﴾ لسُنّةٍ سنيةٍ وخصلةٍ حميدةٍ مثل تفضيلنا إبراهيم بالخلة وكمال الحلم وكثرة التأوه، وموسى بالتكليم، وعيسى بأنواع الإرهاصات والكرامات من الارتقاء

وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ ....

نحو السماء والتكلم في غير أوانه ووجوده بلا أب، و[سيدنا] محمد ﷺ بشق القمر وبالمعراج، وسليمان بالمُلك العظيم ﴿وَ﴾ من جملة تفضيلنا أنا ﴿ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾ مشتملاً على أنواع الحكمة وفصل الخطاب، سيما على ألقاب خاتم الرسالة [سيدنا] محمد ﷺ وظهورِه ونسخه جميع الأديان والكتب، وكون أمته أشرف الأمم، ودينه أكمل الأديان.

﴿ قُلِ ﴾ يا أكمل الرسل للمشركين الذين يدعون آلهة غير الله ويعبدونهم كعبادته على سبيل التعجيز والتقريع: ﴿ٱدْعُوا۟﴾ عند نزول البلاء وهجوم المحن والعناء شركاءكم ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ آلهةً ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ أي من دون الله حتى ينقذوكم من الشدة والبأس وإن بالَغْتُمْ في الدعاء والتوجه نحوهم والالتجاء إليهم ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ﴾ أي لا يقدرون ولا يستطيعون وآلهتكم ﴿كَشْفَ ٱلضُّرِّ﴾ فكيف ﴿عَنكُمْ﴾ بل عن أنفسهم ﴿وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾ أي دفعاً وترديداً منكم إلى غيركم. إذ:

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ الفقراء الضعفاء ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ إليهم وتدعونهم آلهة كالملائكة وعيسى وعزير عليهما السلام ﴿يَبْتَغُونَ﴾ ويطلبون من غاية افتقارهم واحتياجهم ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمُ﴾ الذي أوجدهم وأظهرهم من كتم العدم ﴿ٱلْوَسِيلَةَ﴾ المقربة إليه من الأعمال الصالحة والأخلاق المرضية المقبولة

أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ ....

عند الله ليظهر لهم ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ إليه وأقبل عنده ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿يَرْجُونَ﴾ في مناجاتهم وخلواتهم ﴿رَحْمَتَهُۥ﴾ على مقتضى لطفه وفضله ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ على مقتضى قهره وعدله ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ واجب الحذر لكل من دخل تحت حيطة التكليف، سواءً كان نبياً أو ولياً. ثم قال سبحانه:

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي ما من قريةٍ من القرى الهالكة ﴿إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بالخسف والكسف والزلزلة والطاعون وغير ذلك ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ كالقتل والنهب والأسر وأنواع البليات والأذيات والمصيبات ﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ الإهلاك والتعذيب ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ الذي هو عبارة عن حضرة علمنا ولوح قضائنا ﴿مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾ على التفصيل الذي وقع بلا مخالفةٍ أصلاً.

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ﴾ أي ما صرفنا عن إرسال الآيات المقترحة عنك يا أكمل الرسل والإتيان بها ﴿إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا﴾ وبأمثالها ﴿ٱلْأَوَّلُونَ﴾ أي الأمم الماضون بعد إتيان ما اقترحوا عتواً وعناداً، فاستأصلناهم بتكذيبهم، إذ من سنتنا القديمة وعادتنا المستمرة استئصال المقترحين المكذبين على

﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ ....﴾

أنبيائنا بعد إتيانهم بمقترحاتهم، فلو حصل مقترحات هؤلاء المقترحين أيضاً لَيكذبوك البتة، فلزم علينا حينئذٍ إهلاكهم واستئصالهم على مقتضى سنتنا المستمرة، لكن مضى حكمنا أن لا ننتقم من مكذبيك في النشأة الأولى ؛ لأن منهم من يؤمن ومنهم من يُولِد مؤمناً، لذلك ما جئنا بمقترحاتهم ﴿وَ﴾ اذكر لهم إن كانوا شاكين مترددين فيما ذكرنا بعض قصص الأمم الماضية المشهودة في الآفاق وذكِّرهم كيف ﴿ءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ﴾ المقترَحة حين اقترحوا على نبينا صالح عليه السلام بإخراجها من الحجر المعيَّن، فأخرجها منه بإذن الله وقدرته حال كون أعينهم ﴿مُبْصِرَةً﴾ خروجها منه ومع ذلك ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ﴾ أي بالناقة بعدما أمرهم سبحانه بمحافظتها ورعايتها على لسان صالح، فكذبوه فعقروها، واستأصلناهم لأجلها وأمثالها من الأمم الهالكة بتكذيبهم بعد إتيان ما اقترحوا أكثر من أن يحصى ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَا نُرْسِلُ﴾ ونأتي ﴿بِٱلْءَايَٰتِ﴾ المقترحة ﴿إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ من نزول العذاب المهلِك المستأصِل على المقترحين.

﴿وَ﴾ اذكر للمؤمنين وقت ﴿إِذْ قُلْنَا﴾ موحياً ﴿لَكَ﴾ مسلياً عليك: لا تحزن من كثرة عدَدَ عدوك وعُدَدهم ولا تخفْ من شوكتهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي اصطفاك من البرية للرسالة العامة قد ﴿أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ﴾ إحاطة الظل بأظلالها، فهم مقهورون تحت قبضة قدرته يفعل بهم حسب إرادته ومشيئته، فامضِ على ما أُمرتَ بلا خوفٍ وترددٍ فلك الاستيلاء والغلبة

وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ

﴿وَ﴾ أيضاً ﴿مَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ﴾ حين نزولك ماء بدر، وأصبحت تقول مشيراً بإصبعك: «هَذَا مَصْرَعُ فُلَان، وَهَذَا مَصْرَعُ فُلَان»[1] فأُخبر قريشٌ بقولك وإشارتك إلى مصارعهم فاستهزؤوا معك، واستبعد بعض المؤمنين أيضاً ﴿إِلَّا فِتْنَةً﴾ واختباراً ﴿لِّلنَّاسِ﴾ هل يؤمنون بك ويصدّقون قولك، أم يكذبونك وينكرون بك.

ثم لما وقع الأمر على الوجه الذي أُريت في منامك اطمأن المؤمنون وازدادوا يقيناً وإخلاصاً، وجحد الكافرون وازدادوا شقاقاً ونفاقاً، ونسبوا أمرك هذا إلى السحر والكهانة والرجم بالغيب عناداً ومكابرةً.

﴿وَ﴾ أيضاً ما جعلنا ﴿الشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ﴾ المكروهة التي يلعنها كل من يذوقها ويطعمها، وهي الزقوم المنبت على أودية الجحيم، لذلك لُعنت ﴿فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ حتى يحترز المؤمنون عن الأعمال المقربة إليها الموجبة لأكلها إلا فتنةً وابتلاءً للناس، لذلك لما سمعت قريش شجرة الزقوم، جعلوها منشأ الهزل والسخرية مع الرسول ﷺ حتى قال أبو جهل: إن محمداً يخوفنا عن[2] نار تحرق الحجارة، ويزعم أنها تنبت الشجرة، وقد علمتم أن النار تحرق الشجر، وما هي إلا فرية بلا مرية.

(١) جزء من حديث طويل رواه مسلم في صحيحه [٣/ ١٤٣ رقم / ١٧٧٩ / باب: غزوة بدر] وابن حبان في صحيحه [١١ / ٢٤ رقم / ٤٧٢٢ /] وأبو داوود في سننه [٣/ ٥٨ رقم / ٢٦٨١ / باب: في الأسير ينال منه ويضرب ويقرن] وغيرهم وللحديث روايات وألفاظ متعددة أنظر مجمع الزوائد ومنبع الفوائد [٦/ ٨٠/ باب: غزوة بدر].

(٢) :أي : من.

وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ

ثم اعلم أن الأمور الدينية كلها تعبدي، فلو ظهر لها وجه عقلي فيها ولو لم يظهر، لزم الإطاعة والانقياد على سبيل التعبد والتسليم من الصادق المصدوق، مع أن نبت الشجر في النار، مما لا يمتنع عقلاً أيضاً ؛ لأن وجود الحيوان في النار، أبعد من وجود النبات فيها.

وحكاية الدويبة التي يقال لها: السمندل[1]، هي تعيش في النار كالسمك في الماء متى خرجت منها ماتت، واتخاذ الناس من شعرها منديلاً متى اتسخت، طرحت على النار فأحرقت، وأخرجت سالمة نظيفة منها، مشهورة معروفة، لا شك في وقوعها.

وأعجب من ذلك ابتلاع النعامة الجمرة والجذوة والحديدة المحماة المحمرة في النار ولا تضرها أصلاً ﴿وَ﴾ من قساوة قلوب أولئك الغواة وغلظ حجبهم ﴿نُخَوِّفُهُمْ﴾ بأنواع المخاوف الدنيوية والأخروية ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ تلك التخويفات الهائلة ﴿إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾ متجاوزاً عن الحد غاية التجاوز لشدة عمههم وعتوهم.

﴿وَ﴾ ليس طغيانهم وإصرارهم عليه إلا بتسويلات الشياطين وتغريراتهم على مقتضى العداوة القديمة والخصومة المستمرة بين الشيطان وبني آدم. اذكر وقت ﴿ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ بأجمعهم بعدما جاؤوا بما جاؤوا من الحجج والدلائل الدالة على عدم لياقة آدم بالخلافة والنيابة إلى أن أُفحموا وأُلزموا: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ وتذللوا عنده ولا تجادلوا في حقه إنا قد اخترناه

(١) في المخطوط (السمندر) وفي القاموس المحيط: السمندر والسميدر: دابة.

فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ ....

لخلافتنا ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ سجود تواضع وتكريم امتثالاً للأمر الوجوبي بعدما ما تمادوا في إيراد الحجج استحياء منه سبحانه ورهبة من سطوة قهره بالإعراض عن أمره وما خالف أمر الله منهم ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ فإنه أصر على الإنكار ولم يرغب إلى امتثال المأمور بل زاد على الجدال والنزاع حيث ﴿قَالَ﴾ مستبعداً مستنكراً: ﴿ءَأَسۡجُدُ﴾ وأتذلل مع نجابة أصلي وشرف عنصري ﴿لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ﴿٦١﴾﴾ أي لمن أنشأته وصورته من طين منتن مذموم لا شرف له ولا نجابة، وما هو إلا تفضيل المفضول وتكريم المرذول.

ثم لما طرده الحق من ساحة عز الحضور، وأخرجه من بين الملائكة، ولعنه لعنة مؤبدة إلى أن آيس عن القبول مطلقاً:

﴿قَالَ﴾ إبليس معترضاً على الله مسيئاً الأدب معه سبحانه مستفهماً على سبيل الاستبعاد والاستنكار: ﴿أَرَءَيۡتَكَ﴾ أي أخبرني أن ﴿هَٰذَا﴾ القالب المستحقر المسترذل ﴿ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ﴾ وأمرتني بسجوده وطردتني لأجله طرداً مخلداً بناءً على أنه يعبدك ويعرفك ويوحدك حق توحيدك ويقدسك حق تقديسك وتنزيهك ويتفطن على حق قدرك وقدر حقيتك، واللهِ وبحق عظمتك وجلالك ﴿لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ﴾ وأبقيتني فيما بينهم ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ المعدة لتنفيذ الأعمال وعرضها على جنابك ﴿لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ أي أضلنهم وأغوينهم بالإغواء والإغراء إلى حيث أمحونَّ أسماءهم عن

إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ ....

دفتر المؤمنين فكيف عن العارفين المكاشفين المشاهدين، لأن تركيبهم وبنيتهم هذا مقتضى أنواع الفسادات وأصناف العصيان والضلالات، ولي فيهم مداخل كثيرة أوسوسهم وأغريهم إلى حيث أضلهم عن منهج الرشاد ومسلك السداد ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ منهم فإنهم ثابتون على ما جُبلوا لأجله لا أقدر على إغوائهم، لكونهم مؤيدين من عندك، موفقين بتوفيقك.

ثم لما سمع سبحانه منه ما سمع:

﴿ قَالَ ﴾ سبحانه ساخطاً عليه مغاضباً طارداً له أشد طرد وتبعيد: ﴿ ٱذْهَبْ ﴾ يا ملعون فقد أمهلناك فيما بينهم إلى قيام الساعة، فلك أن تفعل بهم ما تفعل ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ ﴾ بعدما جبلناهم على فطرة التوحيد والمعرفة، ومع ذلك أرسلنا عليهم الرسل المنبهين المرشدين لهم طريق الرشاد، وأنزلنا عليهم الكتب المبينة لهم أحوال المبدأ والمعاد، ومع ذلك يتركون متابعة الكتب والرسل، ويتبعون لك ويقتفون أثرك فهم حينئذٍ خارجون عن زمرة عبادنا الصالحين، لاحقون بك، مستحقون بما استحققت أنت وأعوانك من الجزاء ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ﴾ الطرد والحرمان وأنواع المذلة والخذلان حينئذٍ ﴿ جَزَآؤُكُمْ﴾ تابعاً ومتبوعاً ضالاً ومضلاً ﴿جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾ أي مستوفياً وافراً وافياً، لا مزيد عليها[1] مؤبداً مخلداً.

(١) أي عليه

وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ....

﴿وَ﴾ بعدما سمعت جزاءك وجزاء من تبعك منهم ﴿اسْتَفْزِزْ﴾ أيها المطرود الملعون أي حرِّك وزلزل عن موضع ثبوتهم وقرارهم على جادة التوحيد ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم﴾ وتمكنت على إضلالهم عن طريق الحق ﴿بِصَوْتِكَ﴾ أي بمجرد أن تصوت عليهم فينحرفوا من غاية ضعفهم في الإيمان ﴿وَ﴾ إن لم تقدر ولم تظفر عليهم بمجرد صوتك لرسوخهم وتمكنهم في الجملة ﴿أَجْلِبْ﴾ أي سِح وصوّت ﴿عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ﴾ أي بركبان أعوانك وجنودك ﴿وَرَجِلِكَ﴾ أي بمشاتهم ورجالهم، و بالجملة تمم وأوفر جميع حيلك ومكرك مهما أمكنك حتى تستفزهم وتضعفهم من مقر الإيمان والعرفان ﴿وَ﴾ إن شئت اتحادهم وإخاءهم ﴿شَارِكْهُمْ فِى﴾ جميع ﴿ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ أي علّمهم السرقةَ والغصب وقطعَ الطريق والربا والحيلَ المشهورة المعروفة في هذا الزمن بالحيل الشرعية التي وضعها المتفقهة المتفسقة خذلهم الله من تلقاء نفوسهم الخبيثة الدنية ﴿وَ﴾ شاركهم أيضاً في ﴿الأَوْلادِ﴾ أي علمهم طريق الإباحة والاستباحة وتحليل المحرمات المؤدية إلى تخليط الأنساب وامتزاج المياه كما ابتدعها أهل التلبيس والتدليس من المتشيخة الذين هم من جنودك، أهلكهم الله وقهر عليهم ﴿وَ﴾ إن شئت ﴿عِدْهُمْ﴾ بالمواعيد الكاذبة التي مالت إليها نفوسهم واقتضت شهواتهم من ترك التكاليف والأعمال الشاقة من الفرائض والسنن والآداب والنوافل المقربة نحو الحق والإنكار على النشأة الآخرة، وما يترتب عليها

وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ....

من الأمور المسؤولة عنها والمؤاخذة عليها والجنة والنار ﴿وَ﴾ معلوم أن ﴿ مَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ المغوي المضل ﴿إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾ أي تزييناً وتحسيناً للباطل بصورة الحق وادعاء الحقية والحقيقة لهم، ليغريهم بها، ويضلهم عن طريق الحق.

وبالجملة: افعل بهم أيها الحريص على إضلالهم ما شئت من المكر والحيل والخداع، وهم إن كانوا من زمرة أرباب الاطمئنان والإيقان المقررين في مقر التوحيد والعرفان، الموفقين عليه من عندنا، لا يتبعونك ولا يقبلون منك وساوسك وهذياناتك، وليس لك عليهم سلطان أصلاً.

وإن كانوا من المطبوعين المختومين من عندنا، المجبولين على الضلال والغواية، فيتبعوك ويقتفوا أثرك، فلحقهم ما لحق بك، وهم من جنودك وأتباعك، وبالجملة من لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

ثم قال سبحانه:

﴿ إِنَّ ﴾ خلص ﴿عِبَادِى ﴾ أضافهم سبحانه إلى نفسه لكمال إخلاصهم واختصاصهم ﴿لَيْسَ لَكَ ﴾ أيها المضل المغوي ﴿عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ أي حجة واستيلاء تغلبهم بها بعدما اتخذوني خليلاً وأخذوني كفيلاً ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ حفيظاً يتوكلون عليه مخلصين، ويستعيذون نحوه من إغرائك وإغوائك أيها الطاغي ملتجئين.

رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ
بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا
نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ ....

وكيف لا يحفظكم سبحانه ولا يعيذكم أيها المؤمنون المخلصون عما يؤذيكم ويقصد مقتكم:

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى﴾ يُسري ويُجري ﴿لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾ الجارية ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾ بتيسيره وتسهيله عنايةً منه إياكم ﴿لِتَبْتَغُوا۟﴾ وتطلبوا ﴿مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ ما يوسع لكم طريق المعاش من أنواع التجارات والأرباح واستخراج الجواهر منها وغير ذلك ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه من كمال جوده وسعة رحمته ﴿كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾﴾ مشفقاً عطوفاً، سيما بعد اتكالكم عليه سبحانه على وجه الأرض.

﴿وَ﴾ مما ارتكز في نفوسهم ورسخ في قلوبكم أنكم ﴿إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ بأن عرض لمركبكم ما يوجب كسرها وغرقها، وصرتم فيها حيارى سكارى بحيث ﴿ضَلَّ﴾ وغاب عنكم ﴿مَن تَدْعُونَ﴾ وتستغيثون منه لو كنتم في البر وما معكم من الأمتعة والبضاعات ﴿إِلَّآ﴾ استعانتكم واستغاثتكم ﴿إِيَّاهُ﴾ سبحانه، فإنه بذاته لا يغيب عنكم، ولا يفارقكم، إذ هو أقرب إليكم من حبل وريدكم ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ﴾ وخلّصكم سبحانه من تلك المضائق الهائلة ﴿إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ عنه سبحانه وصرتم متعلقين بما معكم من الأمتعة والأعراض ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ في أصل فطرته خُلق ﴿كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾

أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ
وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ
ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ....

لأنعم الله، هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً نحو الحق و إذا مسه الخير كفوراً منوعاً معرضاً عنه منكراً له.

﴿أَ﴾ أعرضتم عنه سبحانه بعد إنجائه وخلاصه إياكم ﴿فَأَمِنتُمْ﴾ عن قهره وسخطه حين وصلتم إلى البر، مع أنه سبحانه قادر على إهلاككم في البر أيضاً، أما تخافون ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ أي يقلب عليكم الأرض كما خسفها على قارون ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ﴾ ريحاً شديداً ﴿حَاصِبًا﴾ ترميكم وترجمكم بحجارة كما رجمنا قوم لوط ﴿ثُمَّ﴾ بعدما أخذناكم في البر بأمثال هذه البليات ﴿لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾ حفيظاً يحفظكم عن أمثال هذه المصيبات، أو يشفع لكم بتخفيفها وكشفها.

﴿ أَمْ أَمِنتُمْ﴾ أيها القاصرون عن إدراك قدر الله وكمال قدرته ﴿أَن يُعِيدَكُمْ﴾ ويلجئكم إلى الرجوع ﴿فِيهِ﴾ أي في البحر ﴿ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ بأسباب ووسائل لا تخطر ببالكم ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ﴾ في الكرة الأخرى لأخذكم وانتقامكم ﴿قَاصِفًا﴾ كاسراً ﴿مِّنَ ٱلرِّيحِ ﴾ لتكسر مركبكم ﴿فَيُغْرِقَكُم ﴾ فيه ﴿بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ في الكرة الأولى ﴿ثُمَّ﴾ بعد إرجاعنا إلى البحر، وإغراقنا فيه على نحو إنعامنا وإنجائنا من قبل ﴿لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾ أي لا تجدوا ناصراً ومعيناً لكم، فيظهر علينا بأخذكم وانتقامكم، ويطالب منا

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ ....

قصاص ما فعلنا بكم، إذ لا رادّ لفعلنا، ولا معقب لحكمنا، نفعل ما نشاء ونحكم ما نريد.

ثم قال سبحانه على سبيل الإنعام والامتنان:

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا ﴾ وفضلنا ﴿بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ بأنواع الكرامة والتفضيل على سائر المخلوقات من حسن الصورة والسيرة واعتدال المزاج واستواء القامة، والعقل المفاض المتشعب من العقل الكل الذي هو حضرة العلم الحضوري الإلهي، وكذا بالقدرة والإرادة وسائر الصفات المترتبة على الصفات الذاتية الإلهية يشعر بخلافته ونيابته ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿حَمَلْنَاهُمْ فِى ٱلْبَرِّ﴾ بركوب النجائب من الخيل والبغال والبعير وغير ذلك ﴿وَ﴾ في ﴿الْبَحْرِ﴾ بركوب الجواري والسفن ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي الأطايب التي يكسبونها بأيديهم على مقتضى إقدارنا إياهم، وإعدادنا أسباب مكاسبهم معهم، وأبحنا لهم ما تستلذ به نفوسهم وتشتهي قلوبهم على وفق ما نطق به رسلهم وكتبهم ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿فَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ والقليل المستثنى هم الملائكة المقربون المهيمون المستغرقون بمطالعة جمال الله وجلاله، وإن كان الوالهون الهائمون من الإنسان في ولاء الله ومحبته، المكاشفون بسر الخلافة والنيابة التي أخبر بها الحق، الواصلون إلى مرتبة الفناء بالموت الإرادي، أفضل منهم أيضاً،

يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ

وأرفع رتبة ومكانة.

وإنما كرمناهم وفضلناهم بما فضلناهم لحكمةٍ ومصلحة تقتضيها ذاتنا، وهي أنا نريد أن نطالع ذاتنا المتصفة لجميع أوصاف الكمال ونعوت الجمال والجلال في مظهر تام كامل لمراتبنا [كذا، وفي نسخة: لمرآتيتنا، ولعله: لمرآتنا] وخلافتنا، وكرّمناه لأجل هذه الحكمة العزيزة، فمن لم يبلغ منهم إلى هذه المرتبة العلية والدرجة السنية بسلوكه الذي أرشدناه وعلمناه بإرسال الرسل وإنزال الكتب، فهو نازلٌ كل التنازل عن درجة الاعتبار، ساقطٌ عن رتبة ذوي الألباب والأبصار.

بل أولئك البعداء الضالون عن منهج الرشاد كالأنعام بلا شعور إلى ما جبلوا لأجله بل أضل سبيلاً منها وأسوأ حالاً ومآلاً، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

اذكر يا أكمل الرسل للمكرمين المفضلين على سائر المخلوقات:

﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ﴾ نحشر ﴿كُلَّ أُنَاسٍ﴾ منهم لنسألهم ونطلب عنهم ما اكتسبوا وحصلوا من المعارف والحقائق والأعمال المقربة إلينا باقتدائهم ﴿بِإِمَٰمِهِمْۖ﴾ الذي نرسل إليهم وننزل عليهم من الرسل والكتب لإرشادهم وإهدائهم مع أنا كتبنا منهم خيرهم وشرهم اللذَّين جاء كل منهم بهما في صحيفةٍ، ونعطيهم اليوم صحائف أعمالهم ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ﴾ منهم ﴿بِيَمِينِهِۦ﴾ فهو دليل خيرية أعماله وطيب أحواله ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المقبولون

يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ ....

﴿يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ﴾ فرحين بما فيها، مسرورين فيجازون على مقتضى ما كُتب بل أضعافها وآلافها، عنايةً منا وفضلاً ﴿وَ﴾ هم ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ ولا ينقصون من أجور أعمالهم ﴿فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾ مقدار ما في ظهر النواة من الخط الأسود أو بين الأصابع من الوسخ المفتول.

﴿وَ﴾ من أوتي كتابه بشماله فهو علامة شرّيّة أعماله ووخامة حاله ومآله، فأولئك الأشقياء المردودون ينظرون إلى كتابهم، فيجدون ما فيها من أنواع المعاصي والآثام، فيغمضون عيونهم عن قراءتها آيسين محزونين، فيجازون على مقتضى ما كتب مثلاً بمثل عدلاً منه سبحانه إذ ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ﴾ النشأة ﴿أَعْمَىٰ﴾ عن مطالعة آثار الأوصاف الذاتية الإلهية وملاحظة عجائب صنعه وغرائب حكمته وبدائع تجلياته وتطوراته لحظة فلحظة ﴿فَهُوَ فِي﴾ النشأة ﴿ٱلْآخِرَةِ﴾ أيضاً ﴿أَعْمَىٰ﴾ إذ النشأة الأولى[1] مزرعات الخيرات، والأخرى وقت حصاده، فمن لم يزرع فيها، فهو وقت الحصاد خاسر مغبون أعمى عن وجدان الخيرات ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ لفوات أسباب التدارك والتلافي عنه، فيبقى متحيراً مدهوشاً قلقاً حائراً ضالاً مستوحشاً.

ثم قال سبحانه مخاطباً لحبيبه على وجه التنبيه والتأديب بعدما ظهر عليه مخايل الميل والركون عن الحق بمخادعة أهل الكفر والنفاق:

---

(١) في المخطوط (الأخرى).لما ورد في الأثر (الدنيا مزرعة الأخرة)

وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ ....

﴿ وَإِن كَادُواْ ﴾ أي أنهم أي الكفرة قاربوا ﴿لَيَفْتِنُونَكَ ﴾ يا أكمل الرسل ويوقعونك في الفتنة الشديدة بالميل والصرف ﴿عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ وأنزلنا في كتابك من الأوامر والنواهي والأحكام المتعلقة بتهذيب الظاهر والباطن ويرغبونك ﴿لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ﴾ أي غير ما أوحينا إليك ﴿وَإِذًا ﴾ أي حين افترائك وانتسابك إلينا غير ما أوحينا إليك من الأمور التي تشتهيها نفوسهم وترتضيها قلوبهم ﴿لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾﴾ وآمنوا بك بواسطة انتسابك هذا.

نزلت في ثقيف حين قالوا: لا نؤمن بك حتى تخصنا بخصالٍ نفتخر ونباهي على سائر العرب، لا نضن ولا نُحشر ولا نُجبى في صلواتنا، وكّل رِباً لنا فهو لنا، وكل رِباً علينا فهو موضوع عنا، وأن تمتعنا باللات سنة وأن تحرم وادينا كما حرمت مكة، فإن قالت العرب لم فعلت معهم هذا؟ فقل: إن الله أمرني وأوصاني بها، وانتظر أن تنزل آية فيها، فإن فعلتَ بنا هذه نؤمن بك ونصدقك ونتخذك خليلاً، فتردد ﷺ وقرب أن يميل ويركن لشدة ميله إلى إيمانهم واتباعهم، فجاء جبريل عليه السلام فمنعه عن هذا الرأي لذلك قال سبحانه:

﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ ﴾ أي ولولا إثباتنا وتثبيتنا إياك يا أكمل الرسل في مقر صدقك وتمكينك ﴿ لَقَدْ كِدتَّ ﴾ وقربت ﴿ تَرْكَنُ ﴾ وتميل

إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ ....

﴿إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ أي صرت في صدد الميل والركون إلى إنجاز ما أرادوا.

﴿إِذٗا﴾ أي حين إنجاحكم سؤلهم ومأمولهم ﴿لَّأَذَقۡنَٰكَ﴾ في نشأتك هذه ﴿ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ﴾ أي ضعف عذاب من جاء بمثله في النشأة الأولى ﴿وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ﴾ أي ضعف عذاب من جاء بمثله في النشأة الأخرى، يعني نعذبك في الدنيا والآخرة بضعف عذاب من جاء به من سائر الناس، لأن جزاء الأبرار لو أتوا بالمعاصي والآثام ضعف جزاء الأشرار، بل أكثر، إذ لا يتوقع منهم الانصراف عن منهج الرشاد أصلاً، ولو انصرفوا أُخذوا بضعف من يتوقع منهم الانحراف والانصراف ﴿ثُمَّ﴾ بعد أخذنا إياك إنتقامنا منك ﴿لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا ﴿٧٥﴾﴾ أي لا تجد ظهيراً لك نصيراً يظهر علينا بنصرتك، ويطالبنا بإنقاذك عن عذابنا.

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ﴾ أي وإن قاربوا ليحركونك ويضطرونك بالنقل والجلاء ﴿مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ التي استقررتَ وتمكنتَ فيها يعني مكة ﴿لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ﴾ معللين بأن الأنبياء والرسل إنما بعثوا في أرض الشام وأرض المقدسة، خصوصاً أجدادك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وأولادهم وأسباطهم صلوات الله عليهم كلهم بُعثوا فيها، فلك أن تخرج

وَإِذَا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ الَّيْلِ

إليها حتى نؤمن لك ونصدق برسالتك، وما ذلك إلا حيلةٌ وخديعةٌ معك ليخرجوك من مكة حتى تبقى رئاستهم معهم ﴿وَ﴾ لا تغتم يا أكمل الرسل ولا تحزن بالخروج منها، فإنك لو خرجت منها ﴿ إِذَا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا ﴾ زماناً ﴿قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾ وقد جرى الأمر على مقتضى وعد الله سبحانه، فإنهم بعدما هاجر صلى الله تعالى عليه وسلم قُتلوا ببدرٍ بعد مدةٍ يسيرةٍ.

وليس إخراجك يا أكمل الرسل عن مكة وهلاكهم بعد خروجك منها ببدعٍ منا مستحدث بل من سنتنا القديمة وعادتنا المستمرة إهلاكُ الأمم الذين أَخرجوا نبيهم المبعوث إليهم من بين أظهرهم عتواً وعناداً بل صار ذلك:

﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾ المبعوثين إلى الأمم الماضية أي من سنتنا الموضوعة فيهم بالنسبة إلى أقوامهم، فكذلك حالك مع هؤلاء المعاندين المكذبين ﴿وَ﴾ بعدما استمر منا هذه السُّنة السَّنية ﴿لَا تَجِدُ﴾ أنت وغيرك أيضاً ﴿لِسُنَّتِنَا﴾ المنبعثة من كمال حكمتنا ﴿تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ أي تغييراً وتبديلاً، إذ لنا فيها حِكمٌ ومصالحُ مخفيةٌ استأثرنا بها لا اطلاع لك عليها، وإنما عليك التوجه والتقرب في جميع أوقاتك وحالاتك سيما في الأوقات المكتوبة.

﴿ أَقِمِ الصَّلَوٰةَ ﴾ وأدم التوجه ﴿لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ أي حين زوالها من الاستواء ﴿إِلَىٰ غَسَقِ الَّيْلِ﴾ أي ظلمته بغروبها إلى حيث لم يبق من بقية آثار

﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ ....

ضوئها شيءٌ أصلاً، فيسع في المحدود المذكور: الظهر والعصر والمغرب والعشاء على ما عينه الشرع لكل منها وقتاً معيناً ﴿وَ﴾ طوِّل ﴿قُرْءَانَ﴾ صلاة ﴿ٱلْفَجْرِۖ﴾ وأطِلِ القيام فيها مع القراءة ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ الذي هو وقت الانكشاف والانجلاء الصوري المنبئ عن الانكشاف المعنوي والانجلاء الحقيقي الذي هو عبارةٌ عن إشراق نور الوجود واضمحلال الأظلال والعكوس المشعرة بالكثرة والغيرية لذلك ﴿كَانَ﴾ قراءة القرآن المبين لسرائر الوحدة الذاتية وكيفية سريانها على صفائح المكونات فيه ﴿مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ لخواص عباد الله من الملائكة والثقلين، بل لجميع الحيوانات من الوحوش والطيور، إذ الكل في وقت الفجر متوجهون نحو الحق، مسبحون مهللون حالاً ومقالاً.

﴿وَ﴾ إن شئت ازدياد القرب والثواب اسهر واستيقظ قطعةً ﴿مِنَ ٱلَّيْلِ﴾ واترك النوم فيها طلباً لمرضات الله ﴿فَتَهَجَّدْ بِهِۦ﴾ أي صلِّ فيها صلاة التهجد بتطويل القراءة لتكون ﴿نَافِلَةً﴾ زائدة ﴿لَّكَ﴾ على فرائضك مزيدةً لقربك وكرامتك ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ﴾ ويقيمك ﴿رَبُّكَ﴾ بسعيك واجتهادك في تهجدك ﴿مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ أي مقاماً من مقامات القرب ودرجات الوصال مسمىً بالمقام المحمود ؛ لأن كل من وصل إليه يُحمد له، إذ لا مقام أرفع منه وأعلى رتبة ومكانة.

﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِی مُدۡخَلَ صِدۡقٍ وَأَخۡرِجۡنِی مُخۡرَجَ صِدۡقٍ وَٱجۡعَل لِّی مِن لَّدُنكَ سُلۡطَـٰنًا نَّصِیرًا ۝٨٠﴾ ....

وبعدما وصلت أيها السالك الناسك إليها لم يبق لك درجة الاستكمال والاسترشاد، بل صرت كاملاً رشيداً وإن أُلهمت وأُذنت من عنده سبحانه صرتَ مرشداً مكملاً لأهل النقصان، شفيعاً لهم عند الله بإذنه لتنقذَهم من لوازم الإمكان المفضي إلى دركات النيران، وتوصلَهم إلى فضاء الجنان بتوفيق الله إياك وإياهم.

﴿وَ﴾ بعد وصولك لسعيك وجهدك وأنواع تهجدك وإقامتك في خلال الليالي بتوفيق الله وتيسيره على ما وصلت من المقامات العلية والمراتب السنية ﴿ قُل﴾ مناجياً إلى ربك ملتجئاً نحوه طالبَ التمكن والتقرر في المقام الذي وصلت إليه بتوفيقه وتأييده: ﴿ رَّبِّ﴾ يا من رباني بأنواع اللطف والكرم ﴿أَدۡخِلۡنِی﴾ بفضلك وجودك ﴿مُدۡخَلَ صِدۡقٍ﴾ ومنزلَ قرارٍ، وهو مقر التوحيد المسقط لأنواع الإضافات والكثرات وخلدني فيه بلا تذبذبٍ وتلوينٍ ﴿وَأَخۡرِجۡنِی﴾ عن مقتضيات أنانيتي وهويتي إلى فضاء الفناء الموصل إلى شرف البقاء واللقاء ﴿مُخۡرَجَ صِدۡقٍ﴾ بلا تلعثم وتزلزلٍ ﴿وَٱجۡعَل لِّی﴾ حين معارضة أنانيتي معي واستيلاء أمَّارتي علي ﴿مِن لَّدُنكَ سُلۡطَـٰنًا﴾ أي برهاناً قاطعاً وكشفاً صريحاً وشهوداً تاماً ليكون ﴿نَّصِیرًا ۝٨٠﴾ لمن ينصرني على أعدائي، ويخلصني من أيديهم حين هجومهم علي.

وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ....

﴿وَقُل﴾ بعدما تحققتَ وتمكنتَ في مقر الكشف والشهود: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ الصريح الثابت ولاح شمس الذات ﴿وَزَهَقَ﴾ أي تلاشى واضمحل ﴿ٱلْبَٰطِلُۚ﴾ أي العكوس والأظلال الهالكة الباقية على عدماتها الأصلية ﴿إِنَّ﴾ العدم ﴿ٱلْبَٰطِلَ﴾ الزائل الزاهق الظاهر على صورة الحق ﴿كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ في نفسه، مضمحلاً في ذاته، باقياً على عدمه، وإن أُوهم وخُيِّل أنها موجوداتٌ متأصلاتٌ في الوجود، إلا أنها ما شُمَّ في رائحةٍ منه[1] سوى أن أشعة التجليات الوجودية الإلهية لاحت عليها فيتراءى ما يتراءى، فظن المحجوب بأنها موجود، ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور.

ومتى تحققتَ وتمكنتَ بمقامك المحمود وفزتَ، فزتَ من الحوض المورود ﴿وَنُنَزِّلُ﴾ عليك تعظيماً لشأنك وتأييداً لأمرك ﴿مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ المبيِّن الموضِّح لمراتبك العليّة من التوحيد ﴿مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ لمرض القلوب بسموم الإمكان في مضيق الحدثان ومحبس الملوين من الموفقين بشرف متابعتك ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ نازلةٌ ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ بك المصدقين بدينك وكتابك ليسترشدوا ويستشكفوا بما فيه من الرموز والإشارات قدر قابلياتهم واستعداداتهم كي يتفطنوا أو يتنبهوا بما فيه من السرائر المودعة المتعلقة بسلوك مسالك التوحيد ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الخارجين عن مقتضى حدوده وأحكامه استنكاراً له واستكباراً ﴿إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ ووباراً لأخسارٍ أعظم

(١) إنه يصف الباطل تارة ومظاهره أخرى.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾﴾

منه، وهو إبطالهم الحكمة التي جبلهم الحق لأجلها، ألا وهي المعرفة والتوحيد وما ينتمي إليها من الأعمال الصالحة والأخلاق المرضية المقبولة عند الله .

ثم أخبر سبحانه عن تمايل الإنسان وتلوينه وعدم رسوخه وتمكنه بحالٍ من الأحوال وعدم فطنته وذكائه بذاته، وكيفية افتقاره واختياره واحتياجه إلى الحق، وعدم تأمله في أمر مبدئه ومعاده، وكيفية ارتباطه بالحق في النشأة الأولى والأخرى فقال:

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا﴾ وأعطينا من كمال فضلنا وجودنا ﴿عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ المجبولين على الكفران والنسيان ووسَّعنا له طرق معاشه ﴿أَعْرَضَ﴾ عنا وانصرف عن شكرنا وعن الالتجاء والارتجاء بنا عناداً واستكباراً ﴿وَ﴾ صار من إفراط عتوّه إلى حيث ﴿نَـَٔا﴾ وتباعد ﴿بِجَانِبِهِۦ﴾ أي طوى كشحه ولوى عطفه عنا، كأنه مستغنٍ في ذاته، مستقلٌ في أمره، بحيث لا يخطر بباله احتياجه إلينا، ولهذا تجبر واستعلى وبالغ في الجدال والمراء إلى أن قال: أنا ربكم الأعلى ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ وأزعجه البلاء وهجم عليه الشدة والعناء وترادفت عليه الوقائع والمصيبات ﴿كَانَ﴾ من قلة تصبره وضعف يقينه وتدبره ﴿يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾﴾ عن رَوح الله ، شديد القنوط عن سعة لطفه ورحمته، والطرفان أي: إفراط الاستغناء والاستكبار، وتفريط اليأس والقنوط، كلاهما مذمومان محظوران عقلاً وشرعاً.

قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ....

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل كلاماً ناشئاً عن محض الحكمة منبئاً عن الاستقامة والعدالة مبنياً عليهما: ﴿كُلٌّ﴾ من المحق والمبطل، والضال والمهدي ﴿يَعْمَلُ﴾ ويعتدي ﴿عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ وطريقته التي تشاكل وتشابه حاله ووقته إياها، إذ كل ميسر موفق من عندنا لما خلق له، سواءً كان من رشدٍ أو غيٍ، أو ضلالةٍ أو هدايةٍ، ولا علم لكم يا بني آدم على حقيقة الأمر والحال ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ﴾ وأقوم ﴿سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾ وأوضح منهجاً وأسدّ طريقاً، فيوفقه على جهته ووجهته.

ثم قال سبحانه تأييداً لحبيبه ﷺ وتعليماً:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ يا أكمل الرسل فرق النصارى واليهود وجميع أهل الزيغ والضلال ﴿عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ المتعلق بالأجساد، المحيي لها ومحركها بالإرادة والاختيار، وإذا انفصل وافترق عنها مات ولم يتحرك وانقطع الشعور والإدراك عنها، أي يسألونك عن لِميَّه وكيفية تعلقه وارتباطه بالأجسام وكيفية انفصاله عنها ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ﴾ نفسه وكيفية تعلقه بالأجسام وكيفية انفصاله عنها كلها صادرةٌ ناشئةٌ ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ أي مما حصل بأمره الدالّ على تكوين المكونات وهو قول: «كن» الدال على سرعة نفوذ قضائه، وأما كمية المقضي وكيفية حصوله وانفصاله، فأمرٌ استأثر الله به في غيبه، ولم يُطلع أحداً عليه لذلك قال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم﴾ يا بني آدم ﴿مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾

إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ ....

المتعلق بالروح ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ وهو أنيته وتحققه دون لميته وحقيقته، لأن اطلاع الإنسان على الأشياء إنما هو بقدر قابليته واستعداده، وليس في وسعه وطاقته أن يعلم حقيقة الخردلة وكيفية حصولها وتكونها، فكيف حقيقة الروح، وكيفية تعلقه في البدن.

غاية ما في الباب: أن المكاشفين من أرباب الأذواق ينكشفون في البدن، ويتفطنون منها أن ظهور الأشياء وحياتها ومنبع نشأتها ونمائها إنما هي تلك السراية.

هذا نهاية ما يمكن التكلم والتفوه عنه، وأما الاطلاع على كنهها، فأمرٌ لا يسعه مقدرة البشر.

ثم قال سبحانه:

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي والله إن شئنا وأردنا إذهاب القرآن المرشد لقاطبة الأنام لحككناه من المصاحف ومحوناه من الصدور والخواطر ﴿ثُمَّ﴾ بعد إذهابنا ومحونا ﴿لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾﴾ أي لا تجد ظهيراً مُعيناً لك يطالبنا بمجيئه.

﴿إِلَّا رَحْمَةً﴾ ناشئة ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل نازلةً إليك إن سألت منه سبحانه ردّه يردّه إليك تلطفاً وعطفاً ﴿إِنَّ فَضْلَهُ﴾ سبحانه ﴿كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾ مثل اصطفائك من بين البرية، وإرسالك إلى كافة الناس،

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾ ....

وتأييدك ونصرك في عموم الأوقات، وغير ذلك.

ثم لما قال بعض المعاندين من الكفار الطاعنين في القرآن: لو شئنا لقلنا مثل هذا القرآن الذي جئت به يا محمد، ونسبته إلى الله افتراء، نَزَل:

﴿قُل﴾ لهم يا أكمل الرسل في جوابهم مقسماً مؤكداً: والله ﴿لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾ واتفقوا معارضين ﴿عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ الجامع لأحوال النشأتين، الواقع في أعلى مراتب البلاغة والفصاحة لما حصل لهم الإتيان بمثله وهم فرادى بل ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ في الجامعية والبلاغية واتساق اللفظ والمعنى ومتانة النظم والفحوى ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ أي ولو كانوا متظاهرين متعاضدين في إتيانه، لم يتأت أيضاً منهم الإتيان، لكونه خارجاً عن طوق البشر.

﴿وَ﴾ الله ﴿لَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ وكررنا ﴿لِلنَّاسِ فِى﴾ حق ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ المعجز لفظاً ومعنىً ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ موضحٍ لهم إعجازه، وخروجه عن معرض معارضة البشر، وارتفاع شأنه عن القدح والطعن فيه ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ وامتنعوا عن قبوله ولم يتفطنوا لإعجازه، ولم يزيدوا في حقه مع ظهور الدلائل والشواهد المكررة ﴿إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾ جحوداً وإنكاراً بدل القبول واليقين بحقيته.

﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ ....

﴿وَ﴾ مع ظهور هذا المعجز المشتمل لما في العالم غيباً وشهادة، إجمالاً وتفصيلاً ﴿قَالُوٓاْ﴾ تعنتاً اقتراحاً: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ ونصدّق بكتابك ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ﴾ وتشقق ﴿لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي أرض مكة ﴿يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ أي عيناً جارية نشرب منه ونزرع ونغرس على وجه العموم.

﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ﴾ عليها على وجه الخصوص ﴿جَنَّةٌ﴾ أي بستان مغروسة مملوءة ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ﴾ سهل السقي ﴿فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا﴾ أي أواسطها ﴿تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾﴾ سهلاً يسيراً، بحيث لا تكلف في سقيها أصلاً.

﴿أَوْ﴾ تأتي بآيةٍ ملجئةٍ لنا إلى الإيمان بأن ﴿تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ﴾ ونسبته إلى ربك بقوله: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [٣٤- سبا:٩] ﴿عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ أي قطعةً بعد قطعةٍ حتى نؤمن لك ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ﴾ الذي ادعيت الرسالة والنبوة عنه، تعالى عن ذلك، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي وتأتي بالملائكة الذين ادعيت وساطتهم ورسالتهم بينك وبين ربك ﴿قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾ أي تأتي بهم بجماعةٍ أو مقابلاً عياناً مشاهداً محسوساً.

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ﴾ متخذٌ ﴿مِّن زُخْرُفٍ﴾ أي ذهبٍ وفضةٍ مكللةٍ بجواهرَ

أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ ....

نفيسةٍ ﴿أَوْ تَرْقَىٰ﴾ وتصعد على رؤوس الأشهاد ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ بلا أسبابٍ ووسائلَ ﴿وَ﴾ بعد صعودك وعروجك ﴿لَنْ نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ أي لن نؤمن لك ونصدق بمجرد رقيك وعروجك ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا﴾ أي مكتوباً من عند ربك مشتملاً على أسامينا ودعوتك إيانا إلى الإيمان وتصديقنا بك ﴿نَّقْرَؤُهُۥ﴾ بين أظهرنا ونؤمن بك بأجمعنا ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما سمعت منهم هذه المقترحات التي ليس في وسعك وطاقتك متعجباً متنزهاً مستبعداً: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ وتعالى من أن يشارَك في قدرته فإن أمثال هذه المقترحات، إنما تصدر منه سبحانه وتعالى أصالةً، أو في خلقه وإظهاره في بعض عباده إن تلعق إرادته، ولم يخلق فيّ بل ﴿هَلْ كُنتُ﴾ أي ما كنتُ ﴿إِلَّا بَشَرًا﴾ ضعيفاً كسائر الناس، غاية الأمر أني بوحي الله وإلهامه عليّ صرت ﴿رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ كسائر الرسل، وقد كانوا أيضاً لا يتأتى منهم كل ما اقترح عنهم أقوامهم، بل ما يسّر الله ومكّنهم عليه، وما لي أيضاً إلا ما يسّر الله لي.

﴿وَمَا مَنَعَ﴾ وصرف ﴿ٱلنَّاسَ﴾ عن ﴿أَن يُؤْمِنُوٓاْ﴾ ويهتدوا وقت ﴿إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي الرسول الهادي المرشد إياهم يرشدهم إلى طريق التوحيد والعرفان ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ أي قَوْلُهُمْ هذا[1] على سبيل الاستبعاد

(١) في المخطوط (أقولهم هذا).

أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ
مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ
بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ ....

والاستنكار: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ﴾ العليم الحكيم المتقن في أفعاله ﴿بَشَرًا﴾ متصفاً بأنواع الجهالات، منغمساً بأنواع الكدورات ﴿رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ إلى بشرٍ مثلهم ليهديهم إلى الكمال ويهذبهم عن النقصان؟! كلا وحاشا بل إن أرسل الله رسولاً إلى هداية عباده، فالمناسب إرسال الملَك لكونه صافياً عن الكدورات الجسمانية مطلقاً.

﴿قُل﴾ لهم يا أكمل الرسل نيابةً عنا: لا بد بين المفيد والمستفيد من المناسبة والملاءمة المصحِّحة لأمر الإفادة والاستفادة ﴿لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ﴾ سماويون نازلون منها إليها لمصلحة ﴿يَمْشُونَ﴾ عليها ﴿مُطْمَئِنِّينَ﴾ متمكنين ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم﴾ حين احتياجهم إلى الإرشاد والتكميل ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا﴾ مجانساً لهم ﴿رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ إياهم ويرشدهم ويهديهم بمقتضى مجانستهم ومناسبتهم.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل بعدما آيست عن إيمانهم وصلاحهم: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ أي كفى الله ﴿شَهِيدًۢا﴾ مثبتاً لرسالتي عليكم بإظهار أنواع المعجزات علي يدي قاطعاً للنزاع الواقع ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ﴾ سبحانه بذاته وبحضرة علمه ﴿كَانَ بِعِبَادِهِۦ﴾ وبجميع ما صدر عنهم من الأعمال على التفصيل ﴿خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾ ذا خبرةٍ وبصارةٍ كاملةٍ، بحيث لا يشذّ

وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ ....

من أحوالهم شيءٌ من علمه وخبرته، فيجازيهم بكمال قدرته على مقتضى علمه وخبرته.

﴿وَ﴾ بعد ما ثبتَ أن أمرهم موكولٌ إلى الله وحالهم محفوظٌ عنده ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ ﴾ الهادي وتعلَّقَ إرادتُه بهدايته ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ أي هو مقصورٌ على الهداية لا يتعداها أصلاً ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ اللهُ وتعلَّقَ مشيئتُه بضلاله ﴿فَلَن تَجِدَ ﴾ يا أكمل الرسل ﴿لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي من دون الله يوالونهم ويظاهرون عليهم وينقذونهم من بأس الله وبطشه بعدما أخذتهم العزة بإثمهم ﴿وَ﴾ لذلك ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ ونبعثهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ بعد تنقيد أعمالهم منكبين منكوسين ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾ تنفيذاً لأحكامنا يعني: يُسحبون ويجرون نحو جهنم البعد والخذلان ﴿عُمْيًا﴾ لكونهم في النشأة الأولى أعمى[1] من رؤية الحق في المظاهر والأعيان ﴿وَبُكْمًا﴾ لكونهم صامتين ساكتين عما ظهر لهم من دلائل التوحيد عناداً ومكابرةً ﴿وَصُمًّا ﴾ لكونهم أُصْمِيْنَ عن استماع كلمة الحق من ألسنة الرسل وورّاثهم أي العلماء، لذلك صار ﴿مَّأْوَىٰهُمْ ﴾ ومنزلهم ﴿جَهَنَّمُ﴾ الطرد والحرمان المسعَّر بنيران الخذلان والخسران، وصارت من كمال سعرها إلى حيث ﴿كُلَّمَا خَبَتْ ﴾ وسكنتْ لهبُ نارها بعدما أكلتْ جلودهم ولحومهم ﴿زِدْنَـٰهُمْ ﴾ جلوداً ولحوماً مثل جلودهم

(١) في هامش المخطوط (أعْمَيْنَ).

سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا
وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ قَـادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ

ولحومهم، بل عينه يعني كلما انمحت جلودهم ولحومهم نعيدهم على ما كانوا لتصير ﴿سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ ذا شررٍ والتهابٍ مفرطٍ، بعدما وجدتْ ما تأكل، والسر في تكرارها وإعادتها إنكارُهم للحشر وإعادة المعدوم بعينه.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي سمعت من العذاب ﴿جَزَآؤُهُم﴾ أي جزاء المنكرين الكافرين وإنما عذبناهم بها ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي بسبب أنهم ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ الدالّة على الحشر الجسماني ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ منكرين مستبعدين: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَ﴾ صرنا ﴿رُفَاتاً﴾ أي هباءً وغباراً ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا﴾ أي مخلوقاً موجوداً ﴿جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾ مثل المخلوق الأول؟! كلا وحاشا.

﴿۞ أَ﴾ ينكرون الحشر وإعادة المعدوم بعينه ويصرون على الإنكار أولئك المعاندون ﴿وَلَمْ يَرَوْاْ﴾ ولم يعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ القادر المقتدر ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ خلقاً إبداعياً اختراعياً بلا سبقِ مادةٍ وزمانٍ ﴿قَـادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ بعد إعدامهم وموتهم، مع أن الإعادة أسهل وأيسر من الإنشاء والإبداء ﴿وَ﴾ لم يعلموا كيف ﴿جَعَلَ﴾ أي صيّر وقدر ﴿لَهُمْ أَجَلًا﴾ معيناً ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ متى وصلوا إليه ماتوا بحيث لا يسمع لهم طلب التقديم والتأخير أصلاً، ومع وضوح هذه الدلائل والشواهد ﴿فَأَبَىٰ﴾ وامتنع ﴿ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ الخارجون عن مقتضى العقل والنقل عن قبول الحق وتصديق

إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ

الحق المطابق للواقع، وما يزيدهم وروده ووضوحه ﴿إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ أي جحوداً وإنكاراً للحق لخبث طينتهم ورداءة فطرتهم، متوهمين نفاد قدرة الله عند مراده وانقضاء تمكينه واقتداره لدى المقدور.

﴿قُل﴾ للمنكرين المتوهمين نفاد قدرة الله وانصرام حوله وقوته عن مراده: لا تقيسوا الغائب على الشاهد، ولا تتوهموا الشح والبخل والعجز والاضطرار في حق الله بل الكل هو من أوصافكم وخواصكم، إذ ﴿لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ﴾ مع سعتها وعدم نفادها وتناهيها أصلاً ﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ﴾ وبخلتم ﴿خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ﴾ أي مخافة النفاد بالانفاق بلا وضع شيءٍ بدل ما ينفق ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ خُلق في أصل فطرته ﴿قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾ ممسكاً لازدحام لوازم الإمكان والافتقار فيه، إذ هو أحوج المظاهر وأبعدهم عن الوحدة الذاتية لأنه آخر نقطة قوس الإمكان، وهي نهاية الكثرة وصار أول نقطة قوس الوجوب إن انخلع عن ملابس الإمكان وتجرد عنها بالمرة بلا شوب شينٍ ونقصانٍ.

﴿وَ﴾ من جملة كفورية الإنسان وفتوريته أنا ﴿لَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾ من سعة رحمتنا وكمال حولنا وقدرتنا ﴿مُوسَىٰ﴾ المؤيد من عندنا ﴿تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ﴾ أي معجزاتٍ ﴿بَيِّنَٰتٍ ۖ﴾ واضحاتٍ دالةٍ على صدقه في رسالته وحقيته في نبوته، وهي: العصا واليد البيضاء والجراد والقمل والضفادع والدم وانفجار الماء

فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا
﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى
لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ ....

من الحجر وانفلاق البحر ونتق الجبل فوقهم، وإن شئت يا أكمل الرسل زيادة إيضاحِ وإلزامِ المشركين اليهود ﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي بقية أحبارهم ليخبروك وقت ﴿إِذْ جَآءَهُمْ﴾ موسى ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ﴾ بعد ما رأى منه ما رأى من الخوارق بدل الإيمان والإطاعة ﴿إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ بعدما جئت بسحرٍ عظيمٍ وكيدٍ كبيرٍ، وهو وإن كانَ من العقل والدراية: أعتقدُك ﴿مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾ مجنوناً مخبطاً مختلّ العقل بادعائك الرسالة والنبوة من خالق السماء ونزول الملَك والمصحف إليك من عنده مع انسداد الطرق وانعدام السبل.

ثم لما سمع موسى من فرعون ما سمعَ آيس من إيمانه وقنط

﴿قَالَ﴾ موبخاً مقرعاً: والله ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ يقيناً أن ﴿مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الآيات القاهرة الباهرة إليّ ﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لكونها خارجةٌ عن وسع غيره مطلقاً، وعلمتَ أيضاً أنه ما أنزله إلا ﴿بَصَآئِرَ﴾ أي بيناتٍ وشواهدَ دالةٍ على صدقي في دعواي لتُبْصِرَك وتوقظكَ عن مقام غفلتك وتتفطن بها لأصل فطرتك وجبِلّتك ﴿وَإِنِّى﴾ بعدما بالغتُ في تبليغ ما جئتُ من الهداية والإرشاد ﴿لَأَظُنُّكَ﴾ واعتقدك ﴿يَٰفِرْعَوْنُ﴾ المتناهي في الغفلة والغرور ﴿مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ مصروفاً عن الخير كله،، مطروداً عن ساحة عز الحضور،

فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

مجبولاً على الشر ودواعيه.

وبعدما رأى فرعون من موسى ما رأى من المعجزات الواضحات، خافَ أن يميل إليه قومه ويؤمنوا له.

﴿فَأَرَادَ﴾ فرعون ﴿أَن يَسْتَفِزَّهُم﴾ أي بني إسرائيل ويستأصلهم بأن يحركهم أولاً ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي أرض مصر، ويفرقهم بحيث لا يتأتى منهم المقاومة معه أصلاً، ثم يأمر بقتل كل فرقةٍ منهم مكراً منه وكيداً، فمكرنا له قبل مكره إياهم ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن﴾ كانوا متفقين ﴿مَّعَهُۥ﴾ في مكره وكيدهِ ﴿جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾﴾ حين أمرنا موسى ومن معه بالفرار ليلاً، فأُخبر وأتبعَ أثره، فلقي موسى البحر وهو على عقبه، فأمرنا موسى بضرب البحر بالعصا، فضربه فانفلق وافترق وتشعب، فمر به موسى وأصحابه سالمين، فلقي فرعون على البحر الفور، فرأى البحر مفترقاً فاقتحموا مغرورين، فأغرقناهم أجمعين بعد ما أمرنا البحر بالخلط والاجتماع على ما كان.

﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي انقراض فرعون وانقضائه ﴿لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ على سبيل التوصية والتذكير في كتابنا المنزل عليهم وهو التوراة ﴿ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ التي أراد فرعون أن يستفزكم منها بالقهر والغلبة آمنين صالحين مؤمنين بما أرسل إليكم وأنزل عليكم، عاملين بمقتضى أوامرنا ونواهينا ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ وقيام الساعة ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ ملتفين مختلطين سعداؤكم

وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿١٠٥﴾ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ﴿١٠٦﴾ قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ..........

مع أشقياءكم، فنميز بينكم، وندخلكم منزل الشقاوة والسعادة.

ثم قال سبحانه في حق القرآن ونزوله وعظم قدر من أنزل إليه:

﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ أي ما أنزلنا القرآن إلا ملتبساً بالحق المطابق للواقع بلا عروض الباطل عليه أصلاً ﴿وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ﴾ أي ما نزل فيه من الأحكام والأوامر والنواهي والعبر والأمثال والرموز والإشارات والمعارف والحقائق كلها نزل بالحق الصريح الثابت الخالص عن توهم الباطل مطلقاً ﴿وَ﴾ أيضاً ﴿مَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ يا أكمل الرسل على كافة البرايا ﴿إِلَّا مُبَشِّرٗا﴾ بالحق للمؤمن المطيع بأنواع الخيرات واللذات الروحانية المعنوية ﴿وَنَذِيرٗا ﴿١٠٥﴾﴾ بالحق للكافر الجاحد عن أنواع العذاب والعقاب الجسمانية والروحانية، وأرسلناك عليهم لتكون داعياً لهم إلى التوحيد والعرفان، تالياً لهم.

﴿وَقُرۡءَانٗا﴾ فرقاناً بين الحق والباطل والهداية والضلال ﴿فَرَقۡنَٰهُ﴾ أي فرقنا إنزاله مفرقاً منجماً ﴿لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ لدى الحاجة ﴿عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾ مهلٍ وتؤدةٍ، فإنها أسهل وأيسر للحفظ والفهم ﴿وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ﴿١٠٦﴾﴾ على حسب الوقائع ومقتضى الزمان والمورد في عرض عشرين[1] سنة.

﴿قُلۡ﴾ يا أكمل الرسل للطاعنين في القرآن، المائلين عن حقيته جهلاً وعناداً على سبيل التهديد والتوبيخ: ﴿ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ﴾ أي سواء

---

(١) في ثلاث وعشرين سنة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾

منكم الإيمان بالقرآن وعدم الإيمان به ؛ لأنكم جهلاء عما فيه من الحقائق والمعارف، غفلاء عن الرموز والإشارات المودعة فيه، فتصديقكم وتكذيبكم لا يجدي نفعاً، ولا يورث ضراً، إنما العبرة لذوي الخبرة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ من لدن حكيم عليم بحقية ما فيه، وما في جميع الكتب الإلهية وهم الأنبياء والأولياء المجبولون على فطرة التوحيد والعرفان، كانوا يؤمنون به ويصدقون به ﴿مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي قبل نزوله، وبعد نزوله كذلك ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ﴾ ويسقطون ﴿لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾ متذللين، واضعين جباههم وأذقانهم على تراب المذلة تعظيماً لأمر الله ، وشكراً له لإنجازه وعده.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ في حين سجودهم منزِّهين مسبِّحين: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ وتعالى عن أن يأتي الخُلْف فيما عهدنا، أو عن أن يعجز عن إتيان ما وَعَدَنا ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾ أي أنه كان وعد ربنا الذي وعدنا به في الكتب السالفة من إرسال رسولٍ بأوصافٍ مخصوصةٍ مع كتابٍ جامعٍ لما في الكتب السالفة، ناسخٍ لها، خاتمٍ للرسالة العامة والتشريع الشامل، لذلك صار دينه ناسخاً لجميع الأديان، فقد أنجز سبحانه وعده بإرسال هذا النبي الأمي الموعود.

﴿ وَيَخِرُّونَ﴾ أيضاً العالمون العارفون بحقية القرآن[1] بعد تأملهم وتوغلهم في حِكَمِه وأحكامه وحقائقه ومعارفه ﴿لِلْأَذْقَانِ﴾ حال كونهم ﴿يَبْكُونَ﴾

(١) في هامش المخطوط (بحقية القرآن) وفي المخطوط (بحقيقة القرآن).

وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ ....

من خشية الله ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿يَزِيدُهُمْ﴾ التأمل والتدبر فيه على وجه التدقيق والتعمق ﴿خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ وخضوعاً لاطلاعهم على سرائرَ شهِدَت بها أذواقهم، وذاق حلاوتَها وجدانُهم وسرائرُهم.

﴿قُلِ﴾ يا أكمل الرسل للمحجوبين الغافلين عن سر سريان الوحدة الذاتية الإلهية في المظاهر كلها والمجالي برمتها: ﴿ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي سمُّو الذات الأحدية باسم الله المستجمع لجميع الصفات إجمالاً ﴿أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ أي سموه باسم الصفات التي اتصفت بها الذات الأحدية تفصيلاً ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟﴾ وتسَمُّوا من أسماء الذات والصفات ﴿فَلَهُ﴾ أي لله المنزه عن سِمَة الكثرة والحدوث مطلقاً ووصمة الشركة والتعدد رأساً عن[1] ﴿ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الكاملة الدالة على أحدية ذاته، غايته في الباب أنها باعتبار شؤنه وتجلياته، إذ الاسم والمسمى كلاهما يتحدان عن سقوط الإضافات ورفع التعينات، إذ لا يتصور التعدد دون جنابه إلا وهماً واعتباراً ﴿وَ﴾إذا كان الكل من المسميات راجعة إلى الذات الأحدية بعد رفع التعينات وسقوط الإضافات ﴿لَا تَجْهَرْ﴾ أيها العارف المتمكن في مقام التوحيد، الراشح فيه بلا تلوين وتقييد ولا تعلق ﴿بِصَلَاتِكَ﴾ وميلك نحو الحق بَوحاً وشطحاً، ولا تقل في حال صحوك إفاقتك كلامَ أرباب السكر والحيرة ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ أيضاً خيفةً وشحاً على ذوي الاستعداد والاسترشاد ﴿وَٱبْتَغِ﴾ واختر يا

(١) في هامش المخطوط لعله زيادة من الكاتب لفظ (عن).

بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى
ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾

صاحب التمكين ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ مقتصداً معتدلاً مائلاً عن كلا طرفي الإفراط والتفريط، إذ الخير في كل الأمور أوسطها وأعدلها.

﴿وَقُلِ﴾ بعدما تحققتَ وتمكنتَ في مقر التوحيد شكراً لما أنعمك الحق الوصول إليه، وأمكنك التحقق دونه والورود عليه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى﴾ توحد بذاته وتقدس بأسمائه وصفاته، وتفرد بألوهيته، واستقل بوجوده وربوبيته إلى حيث ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ يخلف عنه لكونه صمداً قيوماً أزلياً أبدياً سرمدياً لا يعرضه الفناء ولا يعتريه الانصرام والانقضاء ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ والملكوت يظاهره أو يزاحمه ويخاصمه، إذ لا شيء في الوجود سواه ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ﴾ يولي أمره ويعين[1] عليه حين ما لحقه ﴿مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ المسقطِ لعزه الأصلي وعِظَمِهِ الحقيقي الأزلي، إذ لا تغيرَ ولا تبدلَ في ذاته أصلاً ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾ ذاتياً حقيقياً وعظِّمه تعظيماً صورياً ومعنوياً، إذ لا وجود للغير معه حتى يتصور هناك النسبة والإضافة، بل هو أجل وأكبر لذاته بلا توهم الإضافة فيه.

اهدنا بفضلك سواء سبيلك إلى توحيدك، واجعلنا من زمرة أرباب تمييزك وتمجيدك.

---

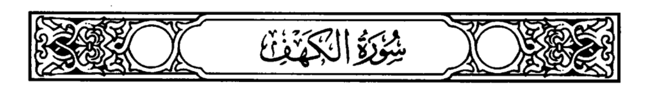
(١) أي يعينه.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المحقق في مقام تمجيد الحق وتحميده، مكّنك الله بما أوصاك إليه وقررك دونه: أن تعظمَ الحقَ غاية التعظيم، وتكبره كمال التكبير والتكريم، واعلم أن تعظيمه إنما هو بتعظيم مظاهره ومجاليه، إذ ما من ذرةٍ من ذرائر الكائنات إلا وقد ظهر الحق فيه، وتجلى عليه بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، فلك أن تتواضع وتتذلل عند المظاهر طوعاً ورغبةً، ولا تتكبر عليها، ولا تتعظم دونها، إذ التكبر والتفوق على ذرةٍ صغيرةٍ من أمارات عدم الوصول إلى مرتبة اليقين الحقي ومقرِّ التوحيد الحقيقي.

وذلك إنما يحصل لك بعد رفع مقتضيات أوصافك البشرية بموتك الإرادي الاختياري، وهو إنما يحصل بالرياضات الشاقة القالعة لدرن الهوى والغفلات، وترك العادات الراسخات في نفوس أصحاب الجهالات، والركون إلى العزلة والخلوات، والانقطاع عن رسوم أصحاب التخمينات والتقليدات، والتبتل نحو الحق في عموم الأوقات والحالات.

وفقنا الله وإياكم سلوك طريق التوحيد، ورزقنا الوصول إلى منزلة التجريد والتفريد، وجعلنا من زمرة أهل المحبة والولاء الوالهين في مقام التمجيد والتحميد، إنك قريب مجيب حميد مجيد.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الكهف

لا يخفى على المتحققين المحمديين في مقام المعرفة والتوحيد بمتابعته ﷺ، المسترشدين من القرآن المنزل عليه، المفصِّل لمرتبته ﷺ، الموضِّح لشأنه في المعارف والحقائق والمكاشفات والمشاهدات وعروجه إلى معارج العنايات الإلهية وسلوكه في مسالك توحيده على الاستقام والاعتدال بلا عوج وانحراف: أنّ من وُفق من عند الله على سلوك طريق التوحيد من أرباب العناية، ظهرَ عليه ولاح دونه استقامة القرآن المنزَّل على العدالة والقسط الإلهي وبراءته عن العوج والانحراف.

وكذا اعتدال أخلاق النبي ﷺ ومقابلته ومطابقته إياه في الاستقامة والاستواء، إذ هو منزَّلٌ من عند الله سبحانه على مقتضى استعداده ﷺ على وفق مرتبته الجامعة لجميع مراتب الأنبياء والرسل الهادين المهديين، إذ هو مبدأ جميع المراتب ومنتهاه أيضاً.

لذلك كَمُل ببعثته وإرساله أمر الدين، وخُتم بإقامته ﷺ باب الرسالة والتشريع، وبإنزال القرآن عليه باب التنزيل والتبيين.

لذلك وجب له ﷺ ولجميع من آمن له واقتفى أثره مواظبة حمد الله

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ ....

والإقامة بأداء شكره على إنعام هذه النعمة الجليلة التي هي نعمة القرآن الفارق بين أرباب اليقين والعرفان، وأصحاب الزيغ والطغيان.

لذلك أخبر سبحانه بالحمد على إنزاله تعليماً له ﷺ ولأمته فقال سبحانه متيمناً باسمه العلي العظيم:

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ الذي تجلى بذاته باعتبار اتصافه بجميع أوصاف الكمال لعبده الذي انتخبه واصطفاه من بين عباده على مقتضى الكرم والإفضال ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ لعموم عباده بإرسال هذا العبد رسولاً إليهم، هادياً لهم إلى درجات الكمال ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ لهم يوصلهم بإرشاد حبيبه صلى الله عليه وسلم إلى زلال الوصول[1].

﴿ ٱلْحَمْدُ ﴾ المشتمل المتضمن على عموم الأثنية والتوصيف بالأوصاف الجميلة حقيقٌ لائقٌ ﴿لِلَّهِ﴾ أي للذات المستجمع لجميع مراتب الكمال المستحق لجميع المحامد استحقاقاً ذاتياً ووصفياً لأنه ﴿ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ﴾ المستجمع لجميع مراتب الكمال، المستظل بظلّ الألوهية، المستحق لرتبة الخلافة والنيابة عنه سبحانه بالأصالة يعني محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ الجامع لجميع أوصاف الكمال إجمالاً وتفصيلاً، المشتمل لعموم الأحكام المتعلقة لها، المترتبة عليها في النشأة الأولى والأخرى، مع كونه محتوياً على ما في الكتب السالفة من الأوامر والنواهي، مع زياداتٍ خلت عنها تلك الكتب من الرموز والإشارات المتعلقة بالتوحيد الذاتي المسقِط لعرق

(١) في حاشية المخطوط لعله (الوصال).

وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ
ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾

الإضافات والكثرات مطلقاً ﴿وَ﴾ بيَّن لهم فيه طريق التوحيد الذاتي على الوجه الأبلغ الأقوم بحيث ﴿لَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾ وانحرافاً في تبيينه، بل جعله.

﴿قَيِّمًا﴾ مستقيماً معتدلاً بين طرفي الإفراط والتفريط المذمومين عقلاً وشرعاً، وإنما أنزله إلى عبده وحبيبه ﷺ ﴿لِّيُنذِرَ﴾ بإنذاراته الكافرين الذين كفروا بالله وجحدوا في توحيده وعملوا السيئات المبعِدة عن طريق النجاة ﴿بَأْسًا شَدِيدًا﴾ وعذاباً أليماً عظيماً صادراً ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي من عند الله العزيز المنتقم بطشاً لهم وانتقاماً منهم ﴿وَيُبَشِّرَ﴾ أيضاً بتبشيراته ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الموحدين ﴿ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ المقربة لهم إلى مرتبة التوحيد الصادرة عنهم على مقتضى يقينهم وعرفانهم ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ أي بأن لهم ﴿أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾﴾ هو التحقق بشرف اللقاء والفوز بمطالعة جمال الله والاستغراق بملاحظة وجهه الكريم.

﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ﴾ أي في الأجر الحسن دائمين ﴿أَبَدًا ﴿٣﴾﴾ مؤبداً مخلداً بلا تبديلٍ وتغييرٍ، مزيدين المحبة واللذة والشوق، متعطشين إلى زلال التفريد بلا رواءٍ أصلاً، كما أخبر سبحانه عن حال أولئك الوالهين بقوله: «أَلَا طَالَ شَوْقُ الأَبْرَارِ إِلَى لِقَائِيْ»[1].

---

(١) مسند الفردوس بمأثور الخطاب ٢/ ٢٤٠ رقم / ٨٠٦٧/] من حديث أبي الدرداء ولم يذكر له ولده في مسند الفردوس إسنادا.

وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ
كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ

﴿ وَيُنذِرَ﴾ أيضاً أشدّ إنذارٍ بأسوأ عذابٍ ووبالٍ ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ﴾ من فرط إسرافهم في الشرك والجحود وهم اليهود والنصارى: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ﴾ الواحد الأحد الصمد، المنزه عن الأهل والولد ﴿وَلَدًا ﴿٤﴾﴾ حيث قال اليهود: عزيرٌ ابن الله، والنصارى: المسيح ابن الله، مع أنه:

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ﴾ بالله باتخاذه ولداً ﴿مِنۡ عِلۡمٖ﴾ يقينٍ أو ظنٍ متعلقٍ به وبمعناه وبما يترتب عليه من النقص المنافي لوجوب الوجود، إذ اتخاذه إنما هو للإخلاف والمظاهرة والتزيين، وكلاهما محالان على الله لا يليقان بجنابه تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً ﴿وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ﴾ يعني وإن ادعوا في إثبات الولد لله تقليد الآباء والاسلاف، فليس لهم أيضاً علمٌ بنقصه وعدم لياقته بجناب الحق المنزه المقدس في ذاته عن أمارات النقصان وعلامات الإمكان، وبالجملة ﴿كَبُرَتۡ﴾ أي جلَّت وعظُمت في الكفر وسوء الأدب مع الله ﴿كَلِمَةٗ﴾ أي مقالتهم هذه مع أنها ﴿تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ﴾ هفوةً بلا علم وتأملٍ بل ﴿إِن يَقُولُونَ﴾ أي ما يقولون ويقصدون بقولهم هذا ﴿إِلَّا كَذِبٗا ﴿٥﴾﴾ وافتراء يفترونه على الله، وينسبونه إلى كتابهم ظلماً وزوراً.

وبعد ما كان حالهم في الافتراء والمراء على هذا المنوال، وشدة غيظهم وشكيمتهم مع الله على هذا المثال:

﴿ فَلَعَلَّكَ﴾ يا أكمل الرسل بمحبتك ومودتك إيمانهم وانقيادهم وبرجائك

بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ

وتحننك إلى بيعتهم ومتابعتهم ﴿بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ﴾ أي قاتلها ومهلكها ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾ عندما انصرفوا عنك وذهبوا ﴿إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ﴾ أي إن هم لم يؤمنوا ولم يصدِّقوا ﴿بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾ أي القرآن ﴿أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ يعني أهلكت نفسك بكثرة التأسف والتحزن على ذهابهم وانصرافهم عنك وعدم إيمانهم وانقيادهم، بك وإنْ بعثك وحَداك إلى إيمانهم وأتباعهم غناهم ورئاستُهم وترفههم وجاههم وثروتهم وسيادتُهم بين الناس، فاعلم أنه لا اعتداد لها ولا اعتبار بما يترتب عليها.

﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ من الأصول الثلاثة التي هي الحيوان والنبات والمعدن وما يتفرع عليها من أنواع اللذات والشهوات الجسمية الوهمية ﴿زِينَةً لَّهَا﴾ أو زخرفةً عليها ﴿لِنَبۡلُوَهُمۡ﴾ ونختبرهم أي أرباب التكاليف والتدابير، المجبولين على فطرة المعرفة والتوحيد ﴿أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ وأتم رشداً وعقلاً في الإعراض عنها وعدم الالتفات إليها والاجتناب عن لذاتها الوهمية التي هي على التقضي والانصرام، وشهواتها المورثة لأنواع الحزن والآلام وأمانيها، المستلزمة لأصناف الجرائم والآثام، مع أن الضروري منها كِنّ حجْرة، ولبْس خِرقةٍ، وسدّ جوعة، وباقيها حطام ليس لها دوام، مورثة لآثام وآلام.

﴿وَ﴾ متى علمت أن ما في الأرض ليس إلا زينةً وزخرفة ستفْنى وتفوت عن قريبٍ فاعلم يقيناً ﴿إِنَّا﴾ بشدة حولنا وقوتنا، وكمال قدرتنا وسطوتنا ﴿لَجَٰعِلُونَ﴾

مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ ....

أي مصيّرون مبدّلون جميع ﴿مَا عَلَيْهَا﴾ من الذخائر والزخارف ﴿صَعِيدًا﴾ تراباً مرتفعةً أملسَ ﴿جُرُزًا ﴿٨﴾﴾ خاليةً منقطعةً عن النبات بحيث لا تنبت أصلاً.

أَعَجِبْتَ واستبعدت عن كمال قوتنا وقدرتنا بجعل ما على الأرض صعيداً جرزاً؟!.

﴿ أَمْ حَسِبْتَ﴾ وشككت ﴿أَنَّ أَصْحَابَ ٱلْكَهْفِ﴾ أي قصتهم وشأنهم ـ والكهف هو الغار الواسع في الجبل ـ ﴿وَٱلرَّقِيمِ﴾ هو اسم الجبل الذي فيه الغار، أو اسم الوادي الذي فيه، أو اسم قريتهم، أو كلبهم، أو لوحٌ رصاصي أو حجريٌ، رُقِمَ[1] أو رُقِمت فيه أسماؤهم وجُعل على باب الكهف، أوأصحابُ الرقيم قومٌ آخرون على اختلاف الأقوال والروايات، وبالجملة ﴿كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا﴾ الدالة على كمال قوتنا وقدرتنا ﴿ عَجَبًا ﴿٩﴾﴾ أي آيةً يتعجب منها الناس ويستبعدون وقوعها مع أنه لا شك في وقوعها، إذ بلغت من التواتر حداً لا يتوهم فيها الكذب قطعاً، إذ أمثال هذا في جنب قدرتنا الكاملة وقوتنا الشاملة سهلٌ يسير.

ولو رفعتَ أيها المعتبر المتأمل الإلْفَ والعادةَ عن البين وطرحتَ تكرر المشاهدة والمؤانسة عن العين، لكان ظهور كل ذرةٍ من ذرائر العالم في

---

(١) أي كُتِبتْ فيه أسماؤهم.

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ ....

التعجب والاستبعاد وكمال الغرابة والبداعة مثل هذا بل أغرب وأعجب من هذا، فلك أن تراجع وجدانك وتتأمل أمرك وشأنك حتى تجد في نفسك عجائب وغرائب يدهش منها عقلك وينحسر رأيك وفهمك ويكلّ إدراكك، وبالجملة استغرقتَ في بحر الحيرة والدهشة من نفسك فكيف من غيرك.

أذقنا بلطفك حلاوة مطالعة مبدعاتك ومشاهدة مخترعاتك بنظر العبرة والحضور.

اذكر يا أكمل الرسل قصة أصحاب الكهف وقت ﴿إِذْ أَوَى﴾ أي التجأ ورجع ﴿ٱلْفِتْيَةُ﴾ الخمسة أو السبعة أو الثمانية من أشراف الروم ورؤسائهم، دعاهم ملكهم دقيانوس إلى الشرك، وهم موحّدون في أنفسهم، فأبَوا وهربوا منه ﴿إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ ملتجئين ﴿فَقَالُوا۟﴾ مناجين مستغيثين من الله: ﴿رَبَّنَآ﴾ يا من ربانا بأنواع اللطف والكرم وفقّنا بشرف توحيدك وتقديسك ﴿ءَاتِنَا﴾ بفضلك وجودك ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ لا بسبب أعمالنا ومقتضياتها ﴿رَحْمَةً﴾ تنجينا عن يد عدونا وعذابه وعن وبال ما دعانا إليه من الكفر والعصيان ﴿وَهَيِّئْ لَنَا﴾ أسباب معاشنا حين كنا فارّين من العدو وملتجئين إليك، مستعيذين بكنفك وجورك ووفق علينا ﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾ الذي نعمل لمرضاتك ولوجهك الكريم ﴿رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ أي هدايةً توصلنا إلى زلال توحيدك، آمنين فائزين بلا خوفٍ وخطرٍ، فاستجبنا لهم مناجاتهم وأعطيناهم حاجاتهم.

فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ ....

وبعدما دخلوا الكهف ملتجئين بنا متضرعين.

﴿ فَضَرَبْنَا ﴾ وختمنا ﴿عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ ﴾ حين كانوا راقدين ﴿فِي ٱلْكَهْفِ ﴾ حجاباً غليظاً يمنعهم سماع الأصوات مطلقاً، وأنمناهم على هذا الوجه ﴿ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾ بلا طعامٍ ولا شرابٍ ولا شيءٍ من أسباب المعاش.

وهم أحياء في صور الأموات، منقطعين عن لوازم الحياة مطلقاً سوى الأنفاس تجيء وتذهب.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ ﴾ وأيقظناهم من منامهم بعثَ الموتى للحشر ﴿لِنَعْلَمَ ﴾ أي نجرّب ونميّز ﴿أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾ المختلفين بعدما اختلفوا في مدة لبثهم ﴿أَحْصَىٰ ﴾ أي أضبط وأحفظ ﴿لِمَا لَبِثُوٓاْ ﴾ من المدة ﴿أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾ يعني أيهم أحفظ ضبطاً لمدة رقودهم في الكهف، فكلا الفريقين أي اليهود والنصارى لا يعلمان مدة لبثهم حقاً مطابقاً للواقع بل:

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ﴾ من مقام فضلنا وجودنا ﴿عَلَيْكَ ﴾ يا أكمل الرسل ﴿ نَبَأَهُم ﴾ أي خبرَ مدة لبثهم ملتبساً ﴿بِٱلْحَقِّۚ﴾ الثابت الصحيح المطابق للواقع ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ﴾ أي شبّان من أرباب الفتوة والمروءة وُفقوا من عند الله بالعقل الكامل والرشد التام إلى أن ﴿ءَامَنُواْ ﴾ وأذعنوا ﴿ بِرَبِّهِمْ ﴾ أي بتوحيد مربيهم باستعمالهم عقولهم الموهوبة لهم إلى دلائل توحيده ﴿وَزِدْنَٰهُمْ ﴾

هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ....

من لدّنا بعدما أخذوا بالتأمل والتدبر في آياتنا الدالة على عظمة ذاتنا وكمال أوصافنا ﴿هُدًى ﴿١٣﴾﴾ وزيادةَ رشد تفضلاً وامتناناً.

﴿وَ﴾ ثبتناهم في الهداية والتوحيد بأن ﴿رَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ محبة الإيمان والعرفان، واذكر يا أكمل الرسل وقت ﴿إِذْ قَامُوا﴾ بين يدي دقيانوس الظالم الطاغي حين دعاهم إلى الشرك والكفر على رؤوس الملأ، وبعدما سمعوا منه دعوته ﴿فَقَالُوا﴾ بلا مبالاةٍ له ولسطوته وشوكته: ﴿رَبُّنَا﴾ الذي أظهَرنا من كتم العدم وأوجَدنا في فضاء الوجود ﴿رَبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي هو رب العلويات والسفليات والغيب والشهادة والظاهر والباطن، أوجد الكل بوحدته واستقلاله في التصرف والاستيلاء بلا مشاركةِ مشيرٍ ومظاهرةِ ظهيرٍ، هو مستحق للألوهية والربوبية ﴿لَن نَّدْعُوَا﴾ ونعبد ﴿مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾ باطلاً إذ لا مستحق للعبادة إلا هو، واللهِ لئن دعونا وعبدنا إلهاً سواه ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾ أي قولاً ذا بعدٍ عن الحق والتحقيق بمراحلَ، وصرنا حينئذٍ مغمورين في الشرك والكفر وأنواع الضلال والطغيان، عصمنا الله منها.

ثم قالوا على وجه التعريض والتسفيه:

﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الضالون عن منهج الرشاد ومسلك السداد ﴿قَوْمُنَا اتَّخَذُوا﴾ من غوايتهم وضلالهم ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ سبحانه ﴿ءَالِهَةً﴾ باطلةً

لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا
﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ
رَبُّكُم مِّن ....

أي أصناماً وأوثاناً يعبدونها لعبادة الله ﴿لَّوۡلَا﴾ أي هلا ﴿يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ﴾ أي بحجةٍ واضحةٍ وبيّنةٍ لائحةٍ ومعجزةٍ باهرةٍ صادرةٍ من قِبلهم دالةٍ على لياقتهم الألوهية والربوبية، فإن لم يأتوا فهم حينئذٍ مفترون على الله بإثبات الشريك له ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾ وأطغى وأضل ﴿مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الواحد الأحد المستقل بالألوهية بإثبات الشريك له، سيما أمثال هذه التماثيل العاطلة ﴿كَذِبٗا ﴿١٥﴾﴾ مخالفاً للواقع، بلا مستند عقلي أو نقلي، بل ظلماً وزوراً.

﴿وَ﴾ بعدما جرى بينهم وبين دقيانوس ما جرى قال بعض الفتية لبعضهم: قد وجب علينا الآن الاعتزال منهم ﴿إِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ﴾ وهجرتموهم ﴿وَمَا يَعۡبُدُونَ﴾ أي معبوداتهم من الأصنام والأوثان التي يعتقدونها آلهةً شركاءَ مع الله يعبدونها كعبادته ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ الواحد الأحد الحق الحقيق بالعبادة، وأخلصتم العبادة له سبحانه بلا خوفٍ منهم ودهشةٍ، كان أولى وأليقَ بحالكم، وبالجملة اتفقوا على الاعتزال واختيار الغربة والفرار من بينهم، فاعتزلوهم منهم وخرجوا من أظهرهم ﴿فَأۡوُۥٓاْ﴾ وانصرفوا ﴿إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾ المعهود، ملتجئين إلى ربكم من خوف عدوكم، متوكلين عليه في رزقكم ومعاشكم ﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم﴾ سبحانه ويبسط عليكم ﴿مِّن﴾ سعة

رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ ....

﴿رَّحْمَتِهِۦ﴾ وجوده ما تعيشون وتبقون بسبب أن تعلق مشيئته بإبقائكم ﴿وَ﴾ بعدما التجأتم إلى الله، وتوكلتم عليه، مفوضين أموركم كلها إليه ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم﴾ ويسهل عليكم ﴿مِّنْ أَمْرِكُم﴾ الذي اخترتم لرضا الله ورعاية جانبه ﴿مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾ أي ما ترتفقون وتنتفعون به من اللذات الروحانية بدل ما فوّتم لأنفسكم[1] من اللذات الجسمانية.

﴿ ۞ وَ﴾ من كمال رفق الله إياهم ورأفته معهم أيها الرائي ﴿تَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت﴾ من مشرقها في مدة الصيف حين ازدياد حرارتها ﴿تَّزَٰوَرُ﴾ أي تنقلب وتميل ﴿عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ أي جانب يمين الغار ؛ لئلا تؤذيهم بشعاعها وحرارتها ﴿وَإِذَا غَرَبَت﴾ أي زالت ومالت عن الاستواء نحو المغرب ﴿تَّقْرِضُهُمْ﴾ أي تقطعهم وتنصرف عنهم ﴿ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أي جانب يسار الغار لحفظهم عن حرها ﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي والحال أنهم في متسع الغار ووسطه لا في زواياه، بحيث لو لم يكن رعاية الله وحفظه إياهم وصرف شعاع الشمس عنهم لكانت متشعشعة عليهم إلى وقت الغروب ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي نشر الرحمة وتهيئة الرفق والرأفة وصرف أذى الشمس، وكذا جميع المؤذيات عنهم ﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالة على قبوله سبحانه إياهم ورضاه عنهم كونهم مهتدين إلى توحيده، موفقين من عنده، مبتغين لرضاه،

(١) أي على أنفسكم.

مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾
وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلْبُهُم

متوكلين عليه في جميع الأمور، راضين بقضائه في كل الأحوال، مخلصين له في جميع الأعمال ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ وأراد هدايته في سابق علمه وقضائه، ومضى عليه حكمه ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ﴾ الموفق على الهداية والفوز بالفلاح المقصور عليها، وإن لم يصدر ولم يسبق من الأعمال الصالحة ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ اللهُ وتعلق مشيئته بضلاله في سابق قضائه، فهو الضال المقصور على الضلالة وإن صدرت عنه الأعمال الصالحة، لا يتبدل ضلالها أصلاً، وبعدما أراد سبحانه ضلاله ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا﴾ يولي أمره بالشفاعة لينقذه من الضلال الفطري ويخرجه عن الوبال الجبلي ﴿مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾ يهديه ويرشده إلى طريق الرشاد ومنهج السداد.

﴿وَ﴾ من كمال لطف الله إياهم ورأفته معهم لو رأيتهم أيها الرائي في مضاجعهم ومراقدهم ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا﴾ متيقظين لانفتاح عيونهم وورودهم أنفاسهم وعدم نتنهم وانفساخهم ﴿وَهُمْ رُقُودٌۚ وَنُقَلِّبُهُمْ﴾ عنايةً منا إياهم وقت احتياجهم إلى التقلب ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ﴾ كي لا تؤثر الأرض بأضلاعهم وجوانبهم ﴿وَكَلْبُهُم﴾ هو كلبٌ مرُّوا عليه حين إوائهم إلى الغار، معتزلين فلحقهم، فطردوه، فأنطقه الله فقال: أنا أحب أولياء الله وأحباءه دعوني أقتف أثركم فدعوه فتبعهم.

وقيل: كلب راع مضوا عليه فأطعمهم وحكوا عليه حالهم، فتبعهم وتبعه

بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ
مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ
كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ

كلبه، وقراءة من قرأ: ﴿وكالبهم﴾ يؤيد هذا.

﴿ بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ ﴾ أي في الباب أو العتبة أو الفناء ﴿ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ أيها الرائي ورأيت هيئة رقودهم في ذلك الغار المهيب ﴿ لَوَلَّيۡتَ ﴾ أي استدبرت ورجعت قَهْقَرى هرباً وهولاً ﴿ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا ﴾ أي من هيبتهم ﴿ وَلَمُلِئۡتَ ﴾ وأملأت صدرك ﴿ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ﴿١٨﴾ ﴾ خوفاً من رقودهم منفتحة العيون عظيمة الأجسام في غارٍ مُهيبٍ في خلال جبال عوالٍ بعيدةٍ عن العمران.

﴿وَ﴾ كما أرقدناهم وأنمناهم على هذا الوجه العجيب والطرز الغريب ﴿كَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ﴾ وأيقظناهم ﴿لِيَتَسَآءَلُواْ﴾ ويتقاولوا ﴿ بَيۡنَهُمۡۚ ﴾ ويستطلعوا عن مدة رقودهم ولبثهم في الغار ليطلعوا على كمال قدرة الله ووفور جوده ورحمته عليهم، ليزدادوا تعيناً واطمئناناً واعتماداً أو وثوقاً على كرم الله وفضله ولطفه، وبعدما قاموا من هجعتهم ﴿ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ ﴾ راقدين في هذا الغار ﴿ قَالُواْ﴾ على سبيل الظن والتخمين لأن النائم لا اطلاع له على مدة نومه: ﴿لَبِثۡنَا يَوۡمًا﴾ تاماً ﴿ أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ ﴾ لأنهم دخلوا على الغار غدوة وانتبهوا في الظهيرة، فظنوا أنهم في يومهم أو الذي بعده، ثم لما شاهدوا طول أظفارهم وأشعارهم ﴿ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ ﴾

﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا﴾

إذ هو قائمٌ حاضرٌ في كل حالٍ بلا تبدلٍ واختلالٍ، ونحن نائمون لاشعور لنا بمدة رقودنا ولا همَّ لنا بتعيينها بل أهم أمورنا أن نُطعم ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم﴾ إلى المدينة مصحوباً ﴿بِوَرِقِكُمْ﴾ أي بعينكم ونقدكم المضروبة المسكوكة، والوَرِق في اللغة: الفضة، سواء كانت مضروبة أم لا، والمراد هنا المضروبة ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ إشارة إلى ما في يد القائل من النقد ﴿إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ وهي طرسوس[1] التي فروا منها من دقيانوس ﴿فَلْيَنظُرْ﴾ الذاهب المرسل وليتأمل ﴿أَيُّهَآ﴾ أي أيُّ طبيخة طبّاخ ﴿أَزْكَىٰ﴾ أي أنظف وأطهر ﴿طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ حتى نطعم إذ نحن جيعان ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ الذاهب مع أهل السوق وليجامل معهم في المعاملة ﴿وَ﴾ ليخرج منها سريعاً حتى ﴿لَا يُشْعِرَنَّ﴾ أي الذاهب ولا يُطلعن ﴿بِكُمْ﴾ أي بحالكم ومكانكم ﴿أَحَدًا ﴿١٩﴾﴾ من أهل البلد.

﴿إِنَّهُمْ﴾ بعد اطلاعهم وشعورهم بحالكم ﴿إِن يَظْهَرُواْ﴾ ويغلبوا ﴿عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ أو يقتلوكم بضرب الأحجار ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ﴾ ويرجعوكم مرتدين ﴿فِي مِلَّتِهِمْ﴾ التي كنتم عليها قبل انكشافكم بالتوحيد ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓاْ﴾ أو تفوزوا بالفلاح والصلاح ﴿إِذًا﴾ أي حين عودكم

(١) طرسوس: مدينة تابعة لمحافظة مرسين في تركيا.

أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ ....

وارتدادكم إليها ﴿أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾ أي لا يرجى فلاحكم بعد ذلك أصلاً.

ثم لما أرسلوا واحداً منهم إلى البلدة فدخل على السوق ودار حول الطباخين واختار طبيخةً زكيةً، وأخرج الدرهم ليشتري الطعام، وكان عليه اسم دقيانوس، فاتهموه بأنه وجد كنزاً، فذهبوا به إلى الملك، وكان الملك نصرانياً موحّداً، فقصّ عليه القصة عن آخرها، فقال بعض الحضّار: إن آباءنا قد أخبرونا أن فتيةً فروا بدينهم من دقيانوس فلعلهم هؤلاء.

فانطلق الملِك وجميع أهل المدينة مؤمنهم وكافرهم، فأبصَروهم وتكلموا[(١)] معهم، ثم قال الفتية نستودعك الله، ونعيذك من شر الجن والإنس.

ثم رجعوا إلى مضاجعهم فماتوا، فدفنهم الملك، وبنى عليهم مسجداً.

﴿وَ﴾ كما أنمناهم نوماً طويلاً شبيهاً بالموت، ورحمناهم بتقلبٍ من جانبٍ إلى جانبٍ وحفظناهم من حر الشمس وأنواع المؤذيات، وبعثناهم من نومهم بعث الموتى للحشر ليزدادوا بصيرة وثقة على الله ﴿كَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا﴾ وأطلعنا ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وعلى من شاهد حالهم وشهد قصتهم من المؤمنين ﴿لِيَعْلَمُوٓا۟﴾ ويتيقنوا ﴿أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ القادر المقتدر بالقدرة التامة الكاملة لكل ما أراد وشاء ﴿حَقٌّ﴾ ثابتٌ لائقٌ له أن ينُجزه بلا خلفه ﴿وَ﴾ يتيقنوا خصوصاً ﴿أَنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ الموعودة التي وعدها الحق بألسنة جميع أنبيائه ورسله آتيةٌ ﴿لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ وارتفع نزاع الناس فيها، ببعث هؤلاء بعد ثلاثمائة وتسع سنين.

(١) في المخطوط (وكلموا).

﴿إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ٢١﴾..................

اذكر يا أكمل الرسل وقت ﴿إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ﴾ المتعلق بدينهم في المحشر والمعاد الجسماني، إذ القادر على حفظهم ورعايتهم في المدة المذكورة وبعثِهم بعدها قادرٌ على إحياء عموم الموتى من قبورهم وإعادة الروح إلى أجسامهم، إذ أمثال هذا سهلٌ يسيرٌ في جنب قدرة الله وإرادته، وبعد ما بعثناهم من مراقدهم وأطلعنا الناس عليهم، فمضوا وتكلموا معهم، وحكوا ما حكوا، وأخبر القوم لهم بمدة رقودهم، واستودعوا مع القوم ورجعوا إلى المراقد فماتوا وانقرضوا، فاختلف الناس في أمرهم، فقال المسلمون: هم منا لأنا موحدون، وقال الكافرون: بل هم منا لكونهم أولاد الكفار، وبالجملة ﴿فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ﴾ قال المسلمون: نحن نبني عليهم مسجداً، وقال الكافرون نحن نبني عليهم كنيسةً، وكلا الفريقين ليسوا عالمين بكفرهم وإيمانهم بل ﴿رَّبُّهُمۡ﴾ الذي رباهم بأنواع التربية ورحمهم بأنواع الرحمة ﴿أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ﴾ وبحالهم فأمرُهم موكولٌ إلى الله مفوضٌ إليه، ثم لما تمادى النزاع بينهم وتطاول جدالهم ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ﴾ بالقدرة والحجة وهم الموحدون المسلمون ﴿لَنَتَّخِذَنَّ﴾ ونبنين ﴿عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ٢١﴾ نتوجه فيه لله، ونتبرك بهم ونجعله محل الحاجات وقضاء المناجاة، فاتخذوه وجعلوه مرجعاً يرجع إليه الأقاصي والأداني.

ثم لما اختلف الخائضون في قصتهم في عددهم، ذكر سبحانه أقوالهم

سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ....

أولاً، ثم بين ما هو أولى وأحق فقال:

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ ﴾ أي مصيرهم أربعةً ﴿ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ ﴾ أي مصيرهم ستةً ﴿كَلْبُهُمْ﴾ كلا القولين، الأول قول اليهود، والثاني قول النصارى صدر عنهم ﴿رَجْمًا﴾ ورمياً ﴿بِالْغَيْبِ﴾ إذ لا مستند لهم من التواريخ وقول الرسل ﴿وَيَقُولُونَ﴾ هم ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ﴾ أي مصيِّرهم ثمانيةً ﴿كَلْبُهُمْ﴾ والواو وإن كان مقحماً، أفاد توكيد لصوق الصفة بالموصوف وشدة اتصاله به، ليدل على صدقه ومطابقته، ومثله في القرآن كثير، منه قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [١٥-الحجر:٤] وغير ذلك، وهي مثل الواو في قولهم: جاءني زيدٌ، ومعه ثوبٌ. هذا قول المؤمنين أخذوا من رسول الله، وهو من جبريل، وجبرائيل من الله سبحانه، فإن شكوا فيه أيضاً ونسبوه إلى الرّمي والتخمين ﴿قُل﴾ لهم يا أكمل الرسل: ﴿رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ إذ لا يعزب عن علمه شيءٌ من أحوالهم من أول أمرهم إلى آخره، لأن علمه بمعلوماته حضوريٌّ، لا يغيب عنه أصلاً وهم ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ﴾ من أحوالهم ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ بالأخبار والتواريخ، وأكثرها غير مطابق للواقع، ولما كان قولهم وعلمهم راجعاً إلى الرجم والرمي بلا

فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ

مستند ﴿فَلَا تُمَارِ﴾ ولا تجادل يا أكمل الرسل ﴿فِيهِمْ﴾ أي في حق الفتية ﴿إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ أي جدالاً خفيفاً مقتصراً على ما أوحينا إليك، لا متعمقاً غليظاً بأن تُجهلهم وتُسفههم وتضحك من قولهم وتنسبه إلى الخرافة والخرق ﴿وَ﴾ أيضاً ﴿لَا تَسْتَفْتِ﴾ ولا تسأل ﴿فِيهِم﴾ أي في حق الفتية وأمرهم ﴿مِّنْهُمْ﴾ أي من أهل الكتاب ﴿أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ يعني لا تستفتِ أحداً منهم عن قصتهم وشأنهم بعدما ظهر عليك أمرهم بالوحي ؛ لأن استفتاءك بعد الوحي، إما سؤالُ تعنتٍ وامتحانٍ، فهو لا يليق بمرتبة الرسالة والنبوة، بعيدٌ عن مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم اللازمة لمرتبة النبوة، وإما سؤال استعلام واسترشاد، فهم قاصرون عاجزون عنها، مع أنه لا معنى للسؤال بعد الوحي.

﴿وَ﴾ لما أمر اليهود لقريش أن يسألوا رسول الله ﷺ سؤال تعنتٍ وامتحانٍ عن الروح وذي القرنين وأصحاب الكهف فسألوا، فقال رسول الله ﷺ: «ائتُوْنِي غَدَاً أُخْبِرُكُمْ عَنْهَا»[1] قاله بلا استثناءٍ وتعليقٍ بمشيئةٍ، أي لم يقل: إن شاء الله، فانسد عليه باب الوحي بضعة عشر يوماً، فشق عليه ﷺ الأمر، وكذّبته قريش وتحزّن حزناً شديداً، فنهاه سبحانه نهياً مؤكداً، وأدّبه تأديباً بليغاً ؛ لئلا يترك الاستثناء في الأمور أصلاً، فقال: ﴿لَا تَقُولَنَّ﴾

---

(١) الحديث بتمامه كما رواه القرطبي في تفسيره، قال العلماء: عاتب الله تعالى نبيه عليه السلام على قوله للكفار حين سألوه عن الروح والفتية وذي القرنين: «غدا أخبركم بجواب أسئلتكم» ولم يستثن في ذلك فاحتبس الوحي عنه خمسة عشر يوماً حتى شق ذلك عليه وأرجف الكفار به فنزلت عليه هذه السورة مفرجة وأمر في هذه الآية ألا يقول في أمر من الأمور إني أفعل غداً كذا وكذا إلا أن يعلق ذلك بمشيئة الله عز وجل تفسير القرطبي [١٠ / ٣٨٥] والثعالبي في تفسيره [٣/ ١٤].

لِشَاْىۡءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ
وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ ....

يا أكمل الرسل البتة ﴿لِشَاْىۡءٍ﴾ عزمتَ عليه وأردتَ أن تفعله ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ﴾ الشيء ﴿غَدًا ﴿٢٣﴾﴾ على سبيل البت والمبالغة.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ أي إلا أن تذكرَ وتجيءَ بالاستثناء بعد عزمك بقولك: إن شاء الله، ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿إِذَا نَسِيتَ﴾ ذكرَ الاستثناء والتعليق على مشيئة الله في خلال الأمور حين القصد والعزيمة والقول بالإصدار، بعدما تذكرتَ نسيانَك تلافياً لما فُوّتَ وتداركاً لما تركتَ، ولو بعد حينٍ بل سنةٍ، وقل: إن شاء الله متذكراً الأمر الذي تركت التعليق فيه قضاءً لِما فات ﴿وَقُلۡ﴾ بعدما كشفنا عليك جواب سؤالهم هذا شكراً له وابتهاجاً عليه وطلباً للمزيد منه سبحانه: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي﴾ وأرجو من فضله وجوده أن يرشدني ويدلني ﴿لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾ أي لأمرٍ هو أقربُ دلالةٍ من أمر أصحاب الكهف وقصتهم إلى الهداية والرشاد، وأوضحُ إيصالاً إلى مسلك الصواب والسداد ؛ تأييداً لنبوتي وتشييداً لرسالتي وهو قد هداه وأرشده بأعظمَ من ذلك: كالإخبار عن بعض الغيوب، وقصص الأنبياء المتباعد عهدهم وزمانهم، وأمارات الساعة وأشراطها، وإنزال القرآن المشتمل على الرطب واليابس الحادثة في العالمين، الجارية في النشأتين.

وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ

﴿وَ﴾ كما اختلف أهل الكتاب في عدد الفتية، اختلفوا أيضاً في مدة لبثهم في الغار راقدين نائمين قال بعضهم: ﴿لَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ﴾ بالسنة الشمسية على ما هو المشهور ﴿وَ﴾ بعضهم ﴿ازْدَادُواْ﴾ عليها ﴿تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾ من تلك السنة أيضاً، وإن كان المراد بالسنة فيه الأولى شمسية والثانية قمرية، كان كلا القولين واحداً ؛ لأن التفاوت بينهما في كل مائة سنة ثلاث سنين، فيكون الزيادة في ثلاثمائة: تسع سنين قمرية.

﴿قُلِ﴾ يا أكمل الرسل بعدما لم يوجد شيءٌ يوثَق به ويُعتمد عليه في تعيين مدة لبثهم في الغار سوى التخمين والحسبان ﴿ٱللَّهُ﴾ المطلعُ لجميع السرائر والخفايا ﴿أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ﴾ أي بمدة لبثهم في كهفهم راقدين إذ ﴿لَهُۥ﴾ سبحانه لا لغيره من مظاهره وأظلاله ﴿غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾ أي الإطلاع على المغيبات الواقعة في العلويات والسفليات اطلاعاً حضورياً شهودياً، بحيث لا يجري في مبصراته ومسموعاته سبحانه من غاية انكشافه وانجلائه له أن يقال: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْۚ﴾ كما يجري في مبصراتنا ومسموعاتنا؛ لاستغنائه وتنزهه سبحانه عن الالتفات والإصغاء، بل المغيباتُ والمحسوساتُ كلُّها في حضوره وحضرة علمه على السواء بلا تفاوتٍ أصلاً، ثم قال سبحانه:

﴿مَا لَهُم﴾ أي لأهل السموات والأرض ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ أي دون الله

مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ....

﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يوليهم ويلي أمورهم، إذ هو مستقلٌ بالوجود والتصرف في ملكه وملكوته بلا مظاهرة أحدٍ ومعاونته ﴿وَلَا يُشْرِكُ﴾ بمقتضى تعززه وكبريائه وسطوته واستيلائه ﴿فِي حُكْمِهِۦٓ﴾ السابق في قضائه إجمالاً، واللاحق في قَدَرِه تفصيلاً ﴿أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ من مظاهره ومصنوعاته، بل له الإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة والتخليق والترزيق، وجميعُ ما ظهر من الآثار المترتبة على الأوصاف والأسماء الذاتية الإلهية، وجميعُ ما حدث من الحوادث الجارية في الآفاق كلُّها مستندةٌ إليه سبحانه وتعالى أولاً وبالذات، بلا تخلل الوسائل والوسائط العادية الناشئة من الأوهام والخيالات الباطلة بالنسبة إلى أولي الأحلام السخيفة، وذوي الحجب الكثيفة المنافية لرؤية الحق وانجلائه في المظاهر كلها.

وأما أرباب الوصول والشهود وهم الذين ارتقوا حجبَ الخيالات وسُدلَ الأوهام والعادات، فلا يرَون في الوجود سواه، ولا إله عندهم إلا هو، لذلك لم يُسندوا شيئاً من الحوادث الكائنة بمقتضى التجليات والشؤن الإلهية إلا له سبحانه، إذ ليس وراء الله عندهم مرمىً ومنتهىً.

﴿وَ﴾ إذا كان مفاتيحُ المغيبات ومقاليدُ العلوم والإدراكات، وكذا جميعُ ما في العالم من المحسوسات والمشاهدات كلُّها مستندةٌ إليه سبحانه، ناشئةٌ من عنده ﴿ٱتْلُ﴾ يا أكمل الرسل على من تبعك من المؤمنين ﴿مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ على الوجه الذي أُنزل إليك بلا تبديلٍ وتحريفٍ، إذ ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ ولا متصرفَ في كلامه سواه ولا تسمع قول

وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ ....

المشركين: ائت بقرآنٍ[1] غير هذا أو بدله، إذ لا يسع لأحدٍ أن يبدله ويحرفه ﴿وَ﴾ إن هممتَ إلى تبديله وتحريفه من تلقاء نفسك ﴿لَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ﴾ سبحانه ﴿مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾ ملجأً تلتجئ إليه عند نزول عذاب الله وحلول أخذه وانتقامه على تبديلك وتغييرك كلامه.

ثم لما طلب صناديد قريش من رسول الله ﷺ إبعاد فقراء المؤمنين وطردهم عن مجلسه، مثل ابن أم مكتوم وأبي ذر وفقراء أصحابه؛ لرثاثة حالهم وشمول الفاقة عليهم حتى يصاحبوه صلى الله عليه وسلم ويجالسوا معهم، فهمّ رسول الله ﷺ على إنجاح ما أرادوا واقترحوا، وأمر بالفقراء أن لا يحضروا معهم في مجلسه، ردّ الله سبحانه على رسوله رداً بليغاً، ونهاه عنه نهياً شديداً، فقال سبحانه مؤدباً له مقرعاً:

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ أي إن التمس قرشيٌّ منك إبعاد الفقراء وبالغوا في طردهم وذبّهم عن صحبتك، لا تُجبهم ولا تُنجح مطلوبهم، بل اصبر ووطّن نفسك المائلة إلى غنائهم وصفاء زيّهم ولباسهم ﴿مَعَ﴾ الفقراء ﴿ٱلَّذِينَ﴾ شأنهم أنهم ﴿يَدْعُونَ﴾ ويعبدون ﴿رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ أي طرفي النهار وما بينهما ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ ويتوجهون نحوه مخلصين بلا ميلٍ منهم إلى الهوى ومزخرفات الدنيا مع غاية فقرهم وفاقتهم ﴿وَلَا تَعْدُ﴾ أي لا تملِ

(١) في المخطوط (قول المشركين بقرآن).

عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ....

ولا تُصرف ﴿عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ لرثاثة حالهم وخلقِ ثيابهم إلى الأغنياء وزيّهم البهيّ حال كونك ﴿تُرِيدُ﴾ وتقصد ﴿زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالالتفات إليهم، والميل إلى مصاحبتهم ومجالستهم، والركون إلى جاههم وثروتهم ﴿وَلَا تُطِعْ﴾ ولا تتفق معهم في طرد الفقراء بمجرد ميلك إيمان أولئك الأغنياء البعداء عن روح الله ورحمته، ولا تلتفت التفاتَ متحننٍ متشوقٍ إلى ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ﴾ وختمنا عليه بالإعراض ﴿عَن ذِكْرِنَا﴾ ختماً لا يرتفع عنه أصلاً ﴿وَ﴾ لذا صار من العتو والعناد إلى أن ﴿ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ وأتخذه إلهاً واجتنب عن مولاه ونبذه وراءه ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ﴾ في الاتباع والاتخاذ ﴿فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ ميلاً وتقدماً نحو الباطل وإعراضاً عن الحق ونبذاً له وراءه ظهرياً.

﴿وَقُلِ﴾ على سبيل الإرشاد والتبليغ بلا مراعاةٍ ومداهنةٍ: ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الصريحُ الصحيحُ الثابتُ ما نزل ونشأ ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ الذي أنشأكم وأظهركم من كتم العدم وأصلح حالَكم بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وبلّغْ ما أوحي إليك بلا تبديلٍ وتغييرٍ، إذ ما عليك إلا البلاغ والتبليغ ﴿فَمَن شَآءَ﴾ منهم الفوز والفلاح ﴿فَلْيُؤْمِن﴾ بالله وكتبه ورسله على مقتضى ما بلغّتَ ﴿وَمَن شَآءَ﴾ منهم الوبالَ والنكالَ في الدارين ﴿فَلْيَكْفُرْ﴾ فاعلم أنه سبحانه لا يبالي بكفرهم وإيمانهم، إذ هو منزهٌ عن إيمان عباده وكفرهم.

إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ....

ثم قال سبحانه على سبيل التهديد والتنبيه:

﴿إِنَّآ﴾ من مقام عدلنا وقهرنا من أعرض عنا من عبادنا وانصرف عن مقتضى أوامرنا ونواهينا ﴿أَعۡتَدۡنَا﴾ وهيأنا سيما ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ الخارجين عن مقتضيات أحكامنا ﴿نَارًا﴾ ذاتَ التهابٍ واشتعالٍ إلى حيث ﴿أَحَاطَ﴾ أي احتوى واشتمل ﴿بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ﴾ أي لهبُها التي هي كالفسطاط في الإحاطة والشمول، والفسطاطُ: المتخذُ من الشعر ﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ﴾ من شدة العطش ونهاية حرقة الكبد والزفرة ﴿يُغَاثُواْ﴾ ويُجابوا ﴿بِمَآءٖ﴾ في اللون ﴿كَٱلۡمُهۡلِ﴾ وهو الحديدُ المذابُ، وفي الحرارة إلى حيث ﴿يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ﴾ ويحرقها وقتَ تقريبه إلى الفم للشرب وبالجملة ﴿بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ﴾ شرابُ المهل ﴿وَسَآءَتۡ﴾ جهنم وأوديتها المملوءة بنيران الحرمان والخذلان ﴿مُرۡتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ منزلاً ومسكناً، تسكنون فيها أبداً مخلداً.

ثم اتبع سبحانه الوعيد بالوعد على مقتضى سنته المستمرة فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بوحدة ذاتنا وكمال أوصافنا وأسمائنا وبإرسالنا الرسل وإنزالنا الكتب المبينة الموضحة لأحكامنا الصادرة منا على مقتضى الأزمان والأدوار ﴿وَ﴾ مع الإيمان والإذعان ﴿عَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ المأمورةِ لهم في الكتب وألسنة الرسل واجتنبوا عما نهيناهم عنها فجزاؤهم علينا

إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن
تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ
وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ....

نجازيهم ونضاعف لهم بأضعاف ما يستحقون بأعمالهم وإخلاصهم فيها ﴿إِنَّا﴾ من مقام فضلنا وجودنا ﴿لَا نُضِيعُ﴾ ونهمل ﴿أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾ وأخلص نيةً، وأتم قصداً وأكمل عزيمةً.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ السعداء المحسنون المخلصون ﴿لَهُمْ﴾ في النشأة الأخرى ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ أي متنزهاتُ إقامةٍ وخلودٍ من مراتب العلم والعين والحق ومع ذلك ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي أنهار المعارف والحقائق، متجددةً بتجددات التجليات الإلهية والنَّفَسات الرحمانية المترشحة من رشاشات بحر الذات الأزلية الأبدية، ومع ذلك ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ ويزينون ﴿فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ﴾ وخلاخل متخذةٍ ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ جزاء ما هذَّبوا أخلاقهم وجوارحهم بمقتضى الأوامر الإلهية في النشأة الأولى ﴿وَيَلْبَسُونَ﴾ فيها ﴿ثِيَابًا خُضْرًا﴾ مصنوعةً ﴿مِّن سُندُسٍ﴾ وهو ما رقَّ من الديباج ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ هو ما غلظ منه جزاء ما يتصفون في النشأة الأولى بزي التقوى ولباس الصلاح، ومن كمال تنعمهم وترفههم يكونون ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِۚ﴾ والسررِ، متمكنين عليها جزاء ما حملوا من المتاعب والمشاق في مواظبة الطاعات وملازمة العبادات، وبالجملة ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ﴾ والجزاء جزاءُ أهل الجنة وثوابُهم ﴿وَحَسُنَتْ﴾ المتنزهات الثلاثة ﴿مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾ يرتفقون وينتفعون فيها أهل الكشف

﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾ ....

والشهود، بما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطرَ على قلب بشر.

ثم أمر سبحانه حبيبه ﷺ بضرب المثل لتوضيح حال المؤمن والكافر، ومآل أمرهما فقال:

﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مَّثَلًا﴾ بيّناً موضّحاً كان ﴿رَّجُلَيْنِ﴾ من بني إسرائيل هما أخوان أحدهما مؤمنٌ موحدٌ والآخر كافرٌ مشركٌ مات أبوهما، وورثا منه أموالاً عظاماً فاقتسما، فصرف المؤمن ماله في سبيل الله وأنفق للفقراء واليتامى وأبناء السبيل، واشترى الكافر مكاسبَ ومزارع وكثر ماله إلى أن ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا﴾ أي للكافر ابتلاءً له واختباراً ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ بستانين ﴿مِنْ أَعْنَٰبٍ﴾ وكروم ﴿وَحَفَفْنَٰهُمَا﴾ أي أحطنا كلاً منهما ﴿بِنَخْلٍ﴾ لتزيد حسناً وبهاءً ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا﴾ أي بين الجنتين ﴿زَرْعًا ﴿٣٢﴾﴾ مزرعاً ومحرثاً للحبوب والأقوات من الحنطة والشعير وغيرهما.

﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ﴾ كملتا إلى أن ﴿ءَاتَتْ﴾ وأثمرت كل منهما ﴿أُكُلَهَا﴾ ثمرتها كاملةً وافرةً في كل سنةٍ ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ أي لم تنقص ثمرتها وحاصلهما من كل منهما شيئاً من النقصان كما هو المعهود في سائر البساتين، فإن ثمرها يتوفر في عامٍ وينقص في أخرى ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿فَجَّرْنَا﴾ وأجرينا ﴿خِلَٰلَهُمَا﴾ أي أوساط الجنتين ﴿نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾ ليدوم سقيهما.

وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ....

﴿وَ﴾ مع تينك الجنتين[1] المذكورتين ﴿كَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ أي أموالٌ عظامٌ وأمتعةٌ كثيرةٌ من أنواع الأجناس والنقود والجواهر والعبيد وغير ذلك ﴿فَقَالَ﴾ الأخر الكافر يوماً على سبيل البطر والمباهاة ﴿لِصَٰحِبِهِۦ﴾ أي للأخ المؤمن ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ ويخاطبه بعرض الأموال والزخارف عليه ويشنّع عليه ويعيره ضمناً ويقرّعه تقريعاً خفياً، إلى أن قال بطراً: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا﴾ وبالأموال تقتضى الأماني، وتنال اللذائذ والشهوات ﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾ أبناءَ وعشائرَ وأحشاماً وخَدمةً يظاهرون ويعاونون عليّ لدى الحاجة، ويجالسون ويصاحبون معي في الحضر والسفر.

﴿وَ﴾ من شدة بطره وخيلائه ﴿دَخَلَ﴾ يوماً ﴿جَنَّتَهُۥ﴾ التي ذكر وصفها ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ بعرضها على عذاب الله وأنواع عقابه بكفره بالله وبطره بحطام الدنيا وإعجابه على نفسه اتكالاً على ثروته وجاهه وكثرة أعوانه وأنصاره ﴿قَالَ﴾ من طول أمله وحرصه وشدة غروره وغفلته: ﴿مَآ أَظُنُّ﴾ بل ما أشك وأوهم ﴿أَن تَبِيدَ﴾ أي تنهدم وتنعدم ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ الجنة ﴿أَبَدًا ﴿٣٥﴾﴾ بل هي على هذا القرار والنضارة دائماً.

﴿وَ﴾ أيضاً ﴿وَمَآ أَظُنُّ﴾ وأعتقد ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ الموعودة التي أخبر بها أصحاب الدعاوى من الأنبياء والرسل ﴿قَآئِمَةً﴾ آتيةً كائنةً البتة بلا تردد

(١) في المخطوط (ذلك الجنتين).

وَلَبِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾

وشك حتى تنهدم وتنعدم هذه بانعدام العالم وانقراضها ﴿وَلَبِن رُّدِدتُّ﴾ هبني أن فرضتُ وقدّرتُ قيام الساعة وانقضاء النشأة الدنياوية على ما زعموا وبُعثتُ من قبري على الوجه الذي ادعوا وَرُددتُ ﴿إِلَىٰ رَبِّي﴾ للحساب والجزاء وعرض الأعمال وتنقيدها ﴿لَأَجِدَنَّ﴾ البتة جنةً في العقبى ﴿خَيْرًا مِّنْهَا﴾ أي من هذه الجنة الدنياوية فآخذُها ﴿مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ أي مرجعاً ومنزلاً كما أخذتُ هذه في الدنيا، وإنما يقول ذلك على سبيل الاستهزاء والاستخفاف، يعني أني حقيق حريٌّ بتلك المرتبة في الدنيا والآخرة، إن فُرض وجودها، فأنا حري بذلك فيها أيضاً.

ثم لما تمادى في المباهاة والمفاخرة وتطاول كلامه في الغفلة والغرور والإنكار على الله وكمال قدرته وقوته، وسرعة نفوذ قضائه وحكمه المبرم متى تعلق إرادته

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ﴾ المؤمن ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ على سبيل العظة والتذكير وأنواع التسفيه والتعيير: ﴿أَكَفَرْتَ﴾ وأنكرتَ أيها المفسد الطاغي ﴿بِٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾ أي قدّر أولاً مادتك ﴿مِن تُرَابٍ﴾ خسيسٍ مرذولٍ إلى أن صرتَ بكثرة التبدلات والتغييرات نطفةً مهينةً ﴿ثُمَّ﴾ قدّرها ثانياً ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ دنيئةٍ يستحقرها بل يستخبثها جميع الطباع ﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ﴾ منها وعدلك شخصاً سوياً سالماً ورباك بأنواع اللطف والكرم إلى أن صرتَ ﴿رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾ رشيداً عاقلاً

لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٣٨﴾ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ

بالغاً كافلاً للأمور والوقائع، كافياً لإحداث الغرائب والبدائع، وافياً في جميع المضارّ والمنافع، ثم كلفك بالإيمان والمعرفة والإتيان بالأعمال الصالحة والإذعان بالنشأة الأخرى وما يترتب عليها من العرض والحساب والسؤال والجزاء وجميع المعتقدات الأخروية، فاستنكرتَ واستكبرت إلى أن كفرتَ عناداً ومكابرةً فستعرف حالك فيها أيها الطاغي الباغي المستحقُ لأنواع العذاب والعقاب ﴿لَّٰكِنَّا۠﴾ أي لكن أنا لا أكفر وأنكر مثلك ربي الذي أظهرني من كتم العدم، ولم أك شيئاً مذكوراً، وقدّر مادتي من التراب الأدنى الأرذل من المني الأخس الأنزل، ثم عدَلني وسواني رجلاً رشيداً كاملاً في العقل والرشد ؛ لأعرف ذاتَه فاعبدَه واشكرَ نعمه وأؤدي حقوق كرمه وأتوجه نحوه وأتضرع إليه وأصدقَ رسله وكتبَه وجميع ما فيها من الأوامر والنواهي والمعتقدات التي وجب الاعتقاد بها من الأمور المتعلقة بالنشأة الأولى والأخرى، فكيف أنكره وأكفر نعمه وأنسى حقوق لطفه وكرمه إذ ﴿هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ وربُّ جميع من في حيطة الوجود من الأظلال والعكوس، وهو المستقل في الوجود والألوهية والربوبية وهو المتوحد المتفرد بالقيومية والديمومية ﴿وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ﴾ الذي رباني بأنواع اللطف والكرم ﴿أَحَدٗا ﴿٣٨﴾﴾ سواه، إذ لا شيء في الوجود إلا هو.

﴿وَلَوۡلَآ﴾ أي هلا وقتَ ﴿إِذۡ دَخَلۡتَ﴾ أيها المدبر العاقل ﴿جَنَّتَكَ﴾

قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾
فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾

التي افتخرت بها ﴿ قُلْتَ ﴾ بدل قولك: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ...﴾ [١٨-الكهف:٣٥] ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ أي ما شاء وأراد دوامَها تتأبد وما لم يشأ لم تتأبد إذ ﴿لَا قُوَّةَ ﴾ ولا قدرة للتأبيد والتخريب ﴿إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ﴾ أصالةً وحقيقةً، وأنت أيها الكافر المسرف المنكر ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾﴾ فعيرتني وعرضتَ عليّ أولادَك وزخارفَك بطراً وبوحاً، مع أني أكثر منك إيماناً وعرفاناً وثقةً على الله واتكالاً.

﴿ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ ﴾ وأرجو من كمال فضله وجوده ﴿أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا﴾ أي أزيد حسناً وبهاءً وأكثرَ بركةً ودخلاً ﴿مِّن جَنَّتِكَ ﴾ التي تتفوق وتتفضل بها عليّ، إذ هو القادر على كل ما أراد وشاء ﴿وَيُرْسِلَ ﴾ بغتةً ﴿عَلَيْهَا ﴾ أي على جنتك ﴿حُسْبَانًا ﴾ أي صواعقَ نازلةً ليلاً ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ فحرَّقتْها وخرَّبتْها واستأصلتْها ﴿فَتُصْبِحَ ﴾ أنت وترى ﴿صَعِيدًا﴾ تراباً ﴿زَلَقًا ﴿٤٠﴾﴾ ملساء لا تثبت فيها قدمٌ ولا تنبت فيها نباتاً.

﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا﴾ الجاري في خلالها ﴿غَوْرًا﴾ غائراً عميقاً بحيث لا يمكن سقيها منه أصلاً لغاية غوره وعمقه ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ ﴾ وتقدر ﴿لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾ بالكفر والحيل وأنواع التدابير.

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ ....

فأعطى سبحانه المؤمن[1] ما أمله وأراده تفضلاً عليه وامتناناً له.

﴿وَ﴾ أرسل على بستان الكافر صواعقَ نازلةً من السماء كثيرةً إلى حيث ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ وعمّت الإهلاك والاستئصال جميعَ ما فيها من الثمار فلم يبقَ الانتفاع بها أصلاً وذهب ماؤها وبهاؤها واضمحلت نضارتها وصفاؤها ﴿فَأَصْبَحَ﴾ الكافر ﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ ظهراً لبطن تلهفاً وتأسفاً ﴿عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ أي في تعميرها وإنشائها من الأموال العظام ﴿وَهِيَ﴾ أي الجنة ﴿خَاوِيَةٌ﴾ ساقطةٌ ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي عروشها على الأرض والكروم عليها محرقةٌ جميعها ﴿وَيَقُولُ﴾ الكافر حينئذ بعدما أفاق عن سكر الغرور والغفلة وتفطن على منشأ الصدمة والصولة الإلهية نادماً متحسراً: ﴿يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾ تعنتاً واستكباراً حتى لا يلحق عليّ ما لحقني من الوبال والنكال.

﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ﴾ حينئذ ﴿فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ﴾ على مقتضى مباهاته ومفاخرته بالأعوان والأنصار من بأس الله وأخذِه بل لا ناصرَ له ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي استنصر منه واستغفر عما صدر عنه من الجراءة والجرائم فقد نصرَه وعفا عنه وإن عظمت زلته ﴿وَمَا كَانَ﴾ أيضاً بنفسه على مقتضى استبداده وثروته ﴿مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾ مخلّصاً مُنْجِياً نفسه عن أمثال هذا النكال، بل:

﴿هُنَالِكَ﴾ وفي تلك الحالة وأمثال تلك الواقعة ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾ أي النصر

---

(١) في المخطوط (المؤمل).

لِلَّهِ ٱلْحَقِّۚ هُوَ خَيْرٞ ثَوَابٗا وَخَيْرٌ عُقْبٗا ﴿٤٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمٗا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ....

والاستيلاء والغلبة والاستعلاء والعظمة والكبرياء والتعزز والاستغناء ﴿لِلَّهِ ٱلْحَقِّۚ﴾ الثابتِ القيومِ المطلقِ الحقيقِ بالحقية والقيومية، الجديرِ بالبسط والديمومية ولذلك ﴿هُوَ﴾ سبحانه بذاته وبمقتضى ألوهيته وربوبيته ﴿خَيْرٞ ثَوَابٗا﴾ في النشأة الأخرى لأوليائه، وأفضلُ عطاءً لأحبائه وأُمنائه ﴿وَخَيْرٌ عُقْبٗا ﴿٤٤﴾﴾ لانتقام أعدائه انتصاراً لأوليائه.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم﴾ أي اذكر يا أكمل الرسل للمائلين إلى الدنيا ومزخرفاتها ومستلذاتها الفانية الغير القارة المستتبعة المستعقبة لأنواع الآثام والعصيان، المسلتزمة لغضب الله وسخطه ومثّل لهم ﴿مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وانقضائها وفنائها سريعاً ﴿كَمَآءٍ﴾ أي مثله مثل ماء ﴿أَنزَلْنَٰهُ مِنَ﴾ جانب ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ إظهاراً لكمال قدرتنا وعجائب صنعتنا وبدائع حكمتنا ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ﴾ أي تكاثف وغلظ بسببه ﴿نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ وصار في كمال الطراوة والنضارة والحسن والبهاء إلى حيث يعجب منها إبصار أولي الألباب والاعتبار، ثم يبس من حر الشمس وبرد الهواء ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمٗا﴾ مهشوماً متفرقَ الأوراق متفتتَ الأجزاء إلى حيث ﴿تَذْرُوهُ﴾ أي تثيره وتطيره ﴿ٱلرِّيَٰحُۗ﴾ كيف يشاء ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ القادر المقتدر بالقدرة الكاملة التامة ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ﴾ من مقدوراته ومراداته ﴿مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ كاملاً بحيث لا تنتهي قدرته لدى المراد،

ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴿٤٦﴾ وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ ....

بل له التصرف فيه على ما شاء الله، لا حول ولا قوة إلا بالله.

ومتى سمعتَ وعلمتَ حال حياة الدنيا ومآل أمرها وعاقبتها وانكشفتَ بعدم ثباتها وقرارها فمعظم ما يتفرع عليها:

﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ﴾ إذ هما ﴿زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ الفانية عارضان عليها ومتى لم يكن للمعروض دوامٌ وبقاءٌ فللعارض بالطريق الأولى ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ﴾ التي تبقى معك في أولاك وأخراك ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ المقربةُ إلى الله المقبولةُ عنده المترتبةُ عليها النجاةُ من العذاب والنيلُ إلى الفوز بالفلاح ﴿خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا﴾ أي أجراً وجزاءً حسناً من اللذات الروحانية المودعة لأرباب القبول ﴿وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴿٤٦﴾﴾ أي عاقبةً ومآلاً إذ يُنال بها المعارف والحقائق والمكاشفات والمشاهدات المودعة لأرباب العناية وأصحاب القلوب من الراجين المؤملين شرف لقاء الله والفوز بمطالعة وجهه الكريم.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل للناسين عهودَ الله ومواثيقَه ﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ﴾ ونحركها بالقدرة الكاملة والسطوة الهائلة ونفتت أجزاءها ونحلل تراكيبها ونشتتها إلى أن صارت دكّاً ﴿وَتَرَى﴾ أيها الرائي ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾ المملوءة بالجبال الرواسي الحاجبة عما وراءها ﴿بَارِزَةٗ﴾ ظاهرةً ملساءَ مسوىً لا ارتفاعَ لبعض أجزائها على بعضٍ، مظهرةً لما فيها من الأجساد المدفونة ﴿وَ﴾ بعد ظهورهم منها وبروز الأجداث والأجساد عليها ﴿حَشَرۡنَاهُم﴾

فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ

وجمعناهم بأجمعهم حفاةً عراةً إلى الموقف والموعد المعدّ للعرض والجزاء ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ﴾ ولم نترك ﴿مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾ لا نسوقه إلى المحشر.

﴿وَ﴾ بعدما جمعوا واجتمعوا في المحشر جميعاً ﴿عُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل عرضَ العسكر على السلطان الصوري ﴿صَفًّا﴾ صافين مصفَّفين على الاستواء بحيث لا يحجب أحدٌ أحداً، بل كل واحد في مرأىً منه سبحانه بلا سترةٍ وحجابٍ، ثم يقال لهم من قبل الحق على سبيل الاستيلاء والسطوة وإظهار الهيبة والسلطنة القاهرة الغالبة: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ اليوم حفاةً عراةً ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ كذلك أي في بدء وجودكم وظهوركم ﴿بَلْ﴾ كنتم ﴿زَعَمْتُمْ﴾ وظننتم في ما مضى من شدة بطركم وغفلتكم ﴿أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾ أي لن نقدر على إنجاز ما وعدناكم بألسنة رسلنا من البعث والحشر والعرض والجزاء، بل كذَّبتم الرسلَ وأنكرتم الوعدَ والموعودَ جميعاً، فالآن ظهر الحق الذي كنتم تمترون فيه.

﴿وَ﴾ بعد ما عُرضوا صافين على الوجه المذكور ﴿وُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ المشتمل على تفاصيل أعمالهم وجميع أحوالهم وأطوارهم من بدء فطرتهم إلى انقراضهم من النشأة الأولى المعدَّة لكسب الزاد للنشأة الأخرى بين يدي الله على رؤوس الملأ ﴿فَتَرَى﴾ أيها الرائي ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾

مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً
وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾

حينئذ ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين مرعوبين ﴿مِمَّا فِيهِ﴾ أي في الكتاب قبل القراءة عليهم ﴿وَ﴾ بعد ما قُرئ عليهم وسمعوا جميعَ ما صدر عنهم كائنةً مكتوبةً فيه على التفصيل بلا فوت شيءٍ ﴿وَيَقُولُونَ﴾ متحسرين متمنين الموت، مناجين في نفوسهم، منادين: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا﴾ وهلكتنا أدركينا فهذا وقت حلولك ونزولك ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ﴾ العجيب الشأن الجامع لجميع فضائحنا وقبائحنا بحيث ﴿لَا يُغَادِرُ﴾ ولا يترك فضيحة ﴿صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ فصّلها وعدَّدها بلا فوتِ خصلةٍ منها، روي عن ابن عباس[وفي نسخة عن ابن مسعود] رضي الله عنهما: الصغيرة: التبسم، والكبيرة: القهقهة، ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟﴾ من الخير والشر الذميمة والحميدة ﴿حَاضِرًا﴾ ثابتاً مكتوباً بلا نقصانٍ منها ولا زيادةٍ عليها، وكيف لا يكون كذلك إذ ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ من عباده لا بالزيادة ولا بالنقصان ولو قدر نقيرٍ.

ثم لما كان منشأ جميع الشرور والغرور وأنواع الفتن والغفلات وأصناف الشكوك والكفر والضلالات إبليسَ عليه اللعنة، كرر سبحانه قصة استكباره واستنكاره مراراً تذكيراً للمتعظين وتنبيهاً على الغافلين المغرورين، ليكونوا على ذُكْرٍ منه ـ بضمٍ فسكون أي: تذكُّرٍ وتفكرٍ ـ من غوائله وتسويلاته؛ ليتمكن لهم الحذرُ عن وساوس أعوانه وأنصاره التي هي جنود الأوهام

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾

والخيالات الباطلة والأماني الكاذبة الناشئة من صولة الأمّارة المستولية على القوى الروحانية فقال:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي اذكر لهم وقت قولنا للملائكة المعترضين لنا على اصطفائنا آدم للخلافة والنيابة بعد إفحامنا وإلزامنا إياهم بما ألزمناهم ﴿ٱسْجُدُوا۟﴾ أي تواضعوا وتذللوا على وجه الخضوع والانكسار ﴿لِءَادَمَ﴾ النائبِ المستخلف عنا بعدما ظهر عندكم وعليكم فضلُه وشرفُه واستحقاقُه لأمر الخلافة ﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾ بعد ما سمعوا متذللين امتثالاً للأمر الوجوبي ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ منهم أبى ولم يسجد له معللاً بأنواع العلل والجدالات الباطلة الناشئة من خباثة فطرته على ما سمعتَ غير مرةٍ، وإنما امتنع لأنه ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ في أصل خلقته فلحق بالملائكة لحكمةٍ ومصلحةٍ ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ على مقتضى خِلقته الأصيلة ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ﴾ أيها المغرورون بتغريره والمأملون إلى تلبيسه وتزويره بعدما صدرتْ عنه هذه العداوة الظاهرة ﴿وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ المختلطة معكم المرتكزة في نفوسكم وقواكم اللاتي هي أعدى أعدائكم ﴿أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ بحيث تفوضون أموركم إليها ليوالوها لكم ﴿وَهُمْ﴾ أصلهم وفرعهم ﴿لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ قديمٌ مستمرٌ ﴿بِئْسَ﴾ الشيطان وذريته وولايتهما ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ الخارجين عن مقتضى أوامرنا ونواهينا.

بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا ....

﴿بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ عنا وعن ولايتنا إياهم.

وعن يحيى بن معاذ رضي الله عنه: لا يكون من أولياء الله ولا يبلغ مقام الولاية مَنْ نَظَرَ إلى شيءٍ دونه واعتمد على سواه، ولم يميز بين معاديه ومواليه، ولم يعلم حال إقباله من حال إدباره. انتهى.

فكيف تتخذون أيها الحمقى المسرفون إبليسَ وذريتَه أولياءَ من دوني مع أني:

﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ ﴾ وأحضرتهم إبليسَ وجنودَه ﴿خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي وقت خلقهما وإيجادهما ليُعاونوا ويظاهروا عليّ حتى تتخذونهم أولياء غيري شركاءَ معي في استحقاق العبادة ﴿وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ أيضاً أي لا أحضرُ بعضهم عند خلق بعضٍ منهم ﴿وَ﴾ بالجملة أنا أستقل بالخلق والإيجاد بل في الوجود أيضاً لذلك ﴿مَا كُنتُ ﴾ في خلق الأشياء وإيجادها محتاجاً إلى المعين والظهير أصلاً فكيف ﴿مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ﴾ الضالين عن ساحة عزِّ الحضور ﴿عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾ أعواناً وأنصاراً أعتَضِدُ وأنتصرُ بهم حتى تشاركونهم بي في استحقاق العبادة والإطاعة والانقياد، بل ترجّحونهم عليّ بالولاية والمحبة.

﴿وَ﴾ اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ الله سبحانه على سبيل التعيير والتقريع للكفار والمشركين: ﴿نَادُوا﴾ أيها المنهمكون في الغيّ

شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾
وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ
صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ ....

والضلال ﴿شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أنهم شفعاؤكم اليوم وعبدتم لهم مثل عبادتي بل أحسن منها حتى ينقذوكم من عذابي ويشفعوا لكم عندي ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ صارخين مستغيثين ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ ولم يجيبوا استغاثتهم لأنهم حينئذٍ مشغولون بحالهم، مأخوذون بوبالهم ونكالهم، لذلك لا يلتفتون إليهم ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿جَعَلْنَا بَيْنَهُم﴾ أي بين العابدين والمعبودين ﴿مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾﴾ مهلكاً عظيماً ووادياً غائراً عميقاً من أودية جهنمَ مملوءةٍ بالنار، بحيث لا يمكن تواصلهم أصلاً.

﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾ بعدما عُرضوا أو حُوسبوا وسِيقوا نحو جهنمَ ليُعذبوا فيها كلٌّ على مقتضى ما كسبَ من المعاصي والآثام الموجبة للأخذ والانتقام ﴿فَظَنُّوٓا۟﴾ بل تيقنوا ﴿أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ داخلوها وملاصقوها البتة ﴿وَ﴾ كيف لا يجزمون بالدخول واللصوق أنهم ﴿وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾ أي منصرفاً ومعدِلاً سواها ينصرفون إليه مع أن الموكلين من الملائكة يسوقونهم ويدخلونهم فيها زجراً وقهراً.

﴿وَ﴾ كيف يجدون مصرفاً سواها ومن، أين يتأتى لهم الانصراف اليوم إذْ هم فوتوا على أنفسهم المصرفَ، وسبب الانصراف في النشأة الأولى مع أنا ﴿لَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ وكررنا ﴿فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ المرشد إلى الهداية الصارفِ

لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ
أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ
أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ

عن الضلالة والغواية ﴿لِلنَّاسِ﴾ المنهمكين في الغفلة والنسيان ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍۚ﴾ أي من كل شيءٍ مثلاً موضحاً ينبههم إلى الهدى ويجنبهم عن الغفلة والهوى فلم يتنبهوا ولم يتفطنوا بل قابلوا الباطلَ بالحق وجادلوا ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ المجبول على النسيان والكفران ﴿أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ أي جداله ومكابرته أكثر من جدال سائر المخلوقات، وأن رشده وإيمانه أكثر أيضاً منها أيضاً، ثم قال سبحانه:

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾ عن الإيمان وصَرَفَهُم ﴿أَن يُؤْمِنُوٓاْ﴾ أي يوقنوا ويصدّقوا ﴿إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي النبيُ الهادي المؤيدُ بالكتاب المعجز المرشد ﴿وَ﴾ صرفهم أيضاً أن ﴿يَسْتَغْفِرُواْ﴾ ويتوبوا عن ظهر القلب عقيبَ كل معصيةٍ نادمين عنها بلا إصرارٍ وإدمانٍ ليسقط عنهم الأخذ والانتقام ﴿رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ﴾ وتحيطَ بهم ﴿سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ من الإهلاك والاستئصال بغتةً ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾ أي أنواعاً وأصنافاً منه، مترادفةً متواليةً كالكسف والخسف والمسخ وغير ذلك فيهلكهم على سبيل التدريج.

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ بأنواع الفتوحات والفيوضات الروحانية والكشوفات والشهودات اللدنية النورانية ﴿وَمُنذِرِينَۚ﴾ عن أنواع

وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلْنَا ....

العذاب والعقاب والنكبات والبليات المورثة لأنواع الخذلان والخسران والطرد والحرمان والخلود في النيران إصلاحاً لأحوال الأنام وإرشاداً لهم إلى دار السلام، وحثاً لهم إلى سلوك طريق التوحيد المنجي عن ظلمات الشكوك والأوهام ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿يُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالله ورسله ويخاصمون معهم متشبثين ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ الزائغ الزائل ﴿لِيُدْحِضُواْ﴾ أو ينزعوا ﴿بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ ويزلقوا الثابت المستقر المطابق للواقع عن مقره ﴿وَ﴾ لذلك ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي﴾ الدالة على عظمة ذاتي ووفور حكمتي وكمال قدرتي وقوتي ﴿وَمَآ أُنذِرُواْ﴾ أي ما اشتملت عليه من الإنذارات والتخويفات وأنواع الوعيدات ﴿هُزُوٗا ﴿٥٦﴾﴾ أي موضع استهزاءٍ وسخريةٍ ومحلَ هزلٍ وضحكةٍ، لذلك نسبوها إلى ما لا يليق بشأنها من السحر والشعر والأساطير الكاذبة وغيرها من أنواع الهذيانات والأباطيل الزائغة افتراءً ومراءً.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ على الله وأسوأ أرباباً لنسبته إليه سبحانه ﴿مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ ليتعظ بها ويصلح بسببها ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ وانصرف من سماعها فكيف عن قبولها وامتثالها استنكاراً واستكباراً ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ﴾ أي كسبت واقترفت ﴿يَدَاهُۚ﴾ من الجرائم والآثام وأنواع الكفر والشرك والطغيان، ولو اتعظوا بها وعملوا بمقتضاها لذهبت سيئاتهم، وتضاعفت حسناتهم، وكيف يتذكرون بها ولا يمكنهم التذكر ﴿إِنَّا﴾ بمقتضى قهرنا وسُخْطِنا عليهم ﴿جَعَلْنَا﴾ أي

عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ ....

طبعنا وختمنا ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ التي هي وعاء التذّكر والقبول ﴿أَكِنَّةً﴾ حُجباً غليظةً كثيفةً مانعةً ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي القرآن ويفهموا معانيه ومقاصده فكيف بغوامض رُموزه وإشاراته ﴿وَ﴾ ختمنا أيضاً ﴿فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ﴾ صمماً يمنعهم عن الاستماع والإصغاء إليه فكيف عن فهمه والعمل به.

﴿وَ﴾ من غلظ غشاوتهم وشدة قساوتهم وصممهم ﴿إِن تَدْعُهُمْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ وترشدهم إلى الفلاح والفوز بالنجاح ﴿فَلَن يَهْتَدُوٓا۟﴾ ويفوزوا ﴿إِذًا﴾ أي حين ختم قلوبهم ووقر صماخهم ﴿أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾ في أي حالٍ من الأحوال، إذ لا يُعارض فعلنا ولا يُبدَّل قولنا إلا بأمرنا وتوفيقنا.

وتكذيبُهم الرسل والكتب وإصرارُهم على الكفر والشرك، وإن كان يستدعي نزول العذاب عليهم فجأةً لاستخفافهم بنزوله إلا أنه يمهلهم.

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ﴾ المبالغ في ستر ذنوب عباده وعيوبهم لأنه ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ﴾ الواسعة والحكمة الكاملة لعلهم يتنبهوا بقبح صنيعهم، ويتأملوا في وخامة عواقبهم، فانصرفوا عما هم عليه نادمين إذ ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ﴾ على الفور، لكنْ أمهلهم بمقتضى رحمته وحكمته زماناً لا دواماً رجاء أن يتوبوا ويرجعوا نحوه تائبين آيبين

بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ ....

﴿بَل لَّهُم﴾ أي بل لهلاكهم ﴿مَّوْعِدٌ﴾ لا ينفع فيه التلافي والتوبة وهو يوم الحشر والجزاء، وقيل: يوم بدر ﴿لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾ منجىً ومَخْلصاً بل يُعذبون ويُهلكون فيه حتماً، بحيث لا يسع لهم التقدم والتأخر أصلاً.

﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ التي في مرآك أطلالهم وآثار منازلهم ومزارعهم ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ أي حين خرجوا عن مقتضى حدودنا وأوامرنا ونواهينا المنزلة في كتبنا لرسلنا وكذبوهم وأنكروا عليهم ﴿وَ﴾ من سنتنا القديمة أنا متى أردنا إهلاك قريةٍ من المستوجبين للمقت والهلاك ﴿جَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم﴾ أي هلاكهم وإهلاكهم ﴿مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾ وقتاً معيناً حين وصلوا إليها هلكوا حتماً مقضياً، إذ لا مردّ لقضائنا المبرم، ولا معقّب لحكمنا المحكم.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل قصة موسى الكليم عليه السلام وإعجابه لنفسه حين خطب على المنبر بعد هلاك القبط ودخوله ملك مصر خطبةً عجيبةً بليغةً إلى حيث رقّت القلوب وذرفت العيون، فقيل له: هل في الأرض أعلم منك؟

قال: لا.

فعتب عليه سبحانه لإعجابه، فقال سبحانه: إن لنا في مجمع البحرين عبداً هو أعلم منك.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا ....

فقال موسى عليه السلام: دلني عليه يا رب لأخدمه وأتعلم منه وأستفيد من فتوحات أنفاسه الشريفة.

فقال له سبحانه: خذ حوتاً مملوحاً يكون زاداً لك، واطلبه، فحيث فقدت الحوت فهو ثمة!

فأخذ ومضى على الوجه المأمور.

اذكر وقت:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ ﴾ وهو يوشع بن نون وكان خادمه ﴿لَآ أَبْرَحُ﴾ أي لا أقعد ولا أستريح من السفر ﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ ملتقى بحر فارس والروم وأجد عنده من دلني الله عليه ﴿أَوْ أَمْضِىَ﴾ وأسير ﴿حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾ زماناً طويلاً ومدةً مديدةً إن لم أجده هناك حتى أجده وأستفيد منه، فرمى الحوت المشوي المملوح في مكتلٍ، وحمله يوشع فذهبا، وأوصى موسى لفتاه متى فقدت الحوت، أخبرني.

﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ أي بين البحرين ﴿نَسِيَا﴾ عند المجمع ﴿ حُوتَهُمَا﴾ يعني نسي موسى التفقد والاستخبار من يوشع عنه، ونسي يوشع أن يذكر لموسى ما رأى من أمر الحوت وحياته ووقوعه في الماء، وذلك أنه عزم يوشع التوضؤ عند المجمع وكان على شاطئ البحر صخرةٌ، فتمكن

فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ ....

يوشع عليها ليتوضأ، فانتضح الماء على مكتله، فترشح على الحوت، فوثب من المكتل، ورمى نفسه في البحر ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾﴾ أي صار الماء كالطاق يسري الحوت تحته بسهولةٍ فتعجب يوشع من حياته ووثبته في الماء وسلوكه، فارتحلا متجاوزين من البحر تلك الليلة والغد إلى الظهر فنسي يوشع ذكرَ ما رأى لموسى.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ من الصخرة يوماً وليلةً عَييَا وجاعا ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا﴾ أي الذي سرنا بعد ما جاوزا الصخرة ﴿نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾ تعباً وألماً ما كنا قبل ذلك كذلك.

﴿قَالَ﴾ يوشع متذكراً متعجباً: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ يا سيدي وقت ﴿إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾ ورقدتَ عندها تستريح وأنا أهمّ إلى التوضؤ وأمكن عليها لأتوضأ فانتضح الماء إلى المكتل، فوثب الحوت نحو البحر فاتخذ سبيله سرباً ﴿فَإِنِّى﴾ بعد تيقظك من منامك ﴿نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ وقصته مع غرابتها وندرتها وكونها خارقةً للعادة ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ أي أذكر عنده قصته العجيبة البديعة ﴿وَ﴾ كيف ﴿ٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ﴾ حين رمى نفسه ﴿فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾﴾ أي على وجهٍ يتعجب من جريه الرائي.

ولما سمع موسى من يوشع ما سمع من فَقْدِ الحوت على هذا الوجه سرَّ

قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ ....

وفرح .

﴿قَالَ﴾ على وجه الفرح والسرور: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الأمر الذي وقع ﴿مَا كُنَّا نَبْغِۚ﴾ ونطلب من سفرنا هذا، إذ هو علامة وجدان المطلوب وأمارة حصول الأرب ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا﴾ على الفور فأخذا يقصان ﴿قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾ لإزالة شدة السفر إلى أن وصلا الصخرة المعهودة ﴿فَوَجَدَا﴾ عندها ﴿عَبْدًا﴾ كاملاً في العبودية والعرفان لأنه ﴿مِّنْ﴾ خلّص ﴿عِبَادِنَآ﴾ وخيارهم لأنا من وفور جودنا وإنعامنا عليه ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾ أعطيناه ﴿رَحْمَةً﴾ كشفاً وشهوداً تاماً موهوباً له ﴿مِّنْ عِندِنَا﴾ تفضلاً بلا عملٍ له في مقابلتها يقتضي ذلك ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿عَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا﴾ بلا وسائل الكسب والتعلم والطلب والاستفادة، بل بمجرد توفيقنا وفضلنا إياه امتناناً له وإحساناً عليه ﴿عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ متعلقاً بالغيوب، حيث أخبر بما وقع ويقع وسيقع.

فلما وصلا إليه وتشرّفا بشرف صحبته

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ﴾ على سبيل الاستفادة والاسترشاد وحسن الأدب ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ أيها المؤيد الكامل المتحقق بمراتب اليقين بتمامها الواصلُ إلى بحر الوحدة الخائضُ في لججها ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ وتفيدني ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ﴾

رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ ....

من سرائر المغيبات سوابقها ولواحقها ﴿رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ بالتوراة أي أرشدتني إليها مقدار استعدادي وقدْر قابليتي.

قال: يا موسى كفى بالتوراة علماً، وببني إسرائيل شغلاً.

قال موسى في جوابه: إن الله أمرني بالاستفادة والاسترشاد منك فلا تمنعني، وبعد ما ألحّ موسى ﴿قَالَ إِنَّكَ﴾ يا موسى بكمالك في العلوم الظاهرية المتعلقة بوضوح القواعد الدينية ونصب المعالم الشرعية وانتصاف الظالم من المظلوم وانتقامه لأجله إلى غير ذلك من الأمور السياسية ﴿لَن تَسْتَطِيعَ﴾ وتقدر ﴿مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾﴾ بل لا بدّ لك متى اطلعت على ما يخالف الشريعة والوضع المخصوص الذي جئت به من عند ربك ونزلتْ التوراةُ على مقتضاه، فعليك أن تمنعه أو تعترض عليه على مقتضى نبوتك ورسالتك على سبيل الوجوب، والذي أنا عليه من العلوم المتعلقة بالسرائر والغيوب قد يخالف أصلك وقواعدك فلن تستطيع حينئذٍ معي صبراً، ثم اعتذر وقال: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ﴾ يا موسى ﴿عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ أي علماً وخبرةً واطلاعاً على سرِّه ومآله ﴿قَالَ﴾ موسى ملحاً عليه: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ وتعلق إرادته بصبري ﴿صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾ أي ما أخالفك فيما تفعل وما تريد على جميع ما جئتَ به من المغيبات الخارقة للعادات التي لم أفُز بسرائرها، وهي مخالفةٌ

قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ ....

لظواهر الشرائع والأحكام، وبعدما اضطره موسى إلى القبول ﴿قَالَ﴾ له الخضر على سبيل التوصية والتوطئة: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي﴾ بعدما بالغت ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِي﴾ أي فعليك أن لا تفاتحني بالسؤال ﴿عَن شَيْءٍ﴾ أنكرتَه مني ووجدتَه مخالفاً لظاهر الشرع ﴿حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ﴾ وأبين ﴿لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾ بياناً واضحاً كاشفاً عن إشكالك ودغدغتك بلا سبق سؤالٍ منك.

ثم لما تعاهدوا على هذا

﴿فَٱنطَلَقَا﴾ يمشيان على ساحل البحر لطلب السفينة فمرا على سفينة فاستحملا من أهلها، فحملوهما بلا نولٍ فقربوهما إلى الساحل ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ﴾ على شاطئ البحر فَجرت فلما بلغت اللجة ﴿خَرَقَهَا﴾ أي أخذ الخضر فأساً فقلع منها لوحاً أو لوحين، فلما رأى موسى منه ما رأى أخذ يسد الخرق بثيابه ﴿قَالَ﴾ له موسى حينئذ على سبيل نهي المنكر: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ﴾ بخرقها ﴿أَهْلَهَا﴾ إذ من خرقها يدخل الماء فيها فيغرقها ويغرق أهلها، واللهِ ﴿لَقَدْ جِئْتَ﴾ بفعلك هذا ﴿شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾﴾ أي منكراً عظيماً هو قصدُ إهلاكك جماعةً بلا موجبٍ شرعي.

﴿قَالَ﴾ له الخضر على سبيل التذكير والتشنيع: ﴿أَلَمْ أَقُلْ﴾ لك يا موسى من أول الأمر ﴿إِنَّكَ﴾ باعتيادك بظواهر العلوم ﴿لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾.

قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا
لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾

﴿ قَالَ ﴾ موسى معتذراً متذكراً لعهده: ﴿ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ ﴾ أي بنسياني وغفلتي عن وصيتك وعهدي معك ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي﴾ أي لا تغشّني ولا تحجبني ﴿ مِنْ أَمْرِي﴾ الذي بعثني على متابعتك وهو الاطلاع على سرائر الأمور ومغيباتها ﴿عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾ أي لا تحجبني عن مطلوبي بالمؤاخذة على النسيان عسراً يلجئني إلى ترك متابعتك، فيفوت غرضي ومطلوبي منك.

وبعد ما ألح واقترح معتذراً قَبِل الخضر بالضرورة عذره، ثم لما نزلا من السفينة:

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا ﴾ صبيحاً صبياً لم يبلغ الحلم يلعب مع الصبيان ﴿فَقَتَلَهُ﴾ الخضر فجأة على الفور بلا صدور ذنبٍ منه وجريمةٍ بأن أخذ رأسَه وضرب إلى الجدار إلى أن مات، فاشتدَّ الأمر على موسى وامتلأ من الغيظ ولم يقدر كظمه، ﴿ قَالَ ﴾ على سبيل التقريع والتوبيخ: ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً ﴾ معصومةً بريئةٍ من جميع الآثام ﴿ بِغَيْرِ﴾ إهلاك ﴿نَفْسٍ﴾ صدر منه قصداً ليكون قتله قصاصاً عنه شرعاً، مع أنه لا ولايةَ لك حينئذٍ على قتله وإن صدرَ عنه القتل عمداً، والله ﴿ لَّقَدْ جِئْتَ ﴾ بإتيانك هذا ﴿شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾ في غاية النكارة، إذ قتل النفس من أعظم الكبائر سيّما النفس المعصومة المنزهة عن جميع المعاصي، سيّما بلا جرمٍ أصلاً.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾ ....

وبعدما سمع الخضر منه إنكاره

﴿قَالَ﴾ له على سبيل التشدد والغلظة: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ﴾ وتطيق ﴿مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾ إذ لا مناسبة بيني وبينك، ولا موافقة لعلمي مع علمك، فخلني على حالي ولا تشوشني، وانصرفْ عني وامضِ حيث شئت، فقد بلغت الطاقة.

ثم لما رأى منه موسى ما رأى من الغيظ والحرارة:

﴿قَالَ﴾ معتذراً مستحيياً: لا تحرمني عن صحبتك مما صدر عني من نقض العهد وسوء الأدب ولا تردعني يا سيدي ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ ولا تجعلني رفيقك وصاحبك لأنك ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي﴾ ومن قِبلي وأجلي ﴿عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾ فلا أعتذر لك بعد هذا، بل أفارقك إن وقع مني ما يشوشوك.

عن رسول الله ﷺ أنه قال: «رَحِمَ اللهُ أَخِيْ مُوْسَى اسْتَحَى فَقَالَ ذَلِكَ، لَوْ لَبِثَ مَعَ صَاحِبِهِ لَأَبْصَرَ أَعْجَبَ الأَعَاجِيْبِ»(١).

---

(١) الحديث رواه ابن حبان بلفظ: «عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا ذَكَرَ أَحَدًا مِنَ الأَنْبِيَاءِ بَدَأَ بِنَفْسِهِ، وَإِنَّهُ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى مُوسَى لَوْ صَبَرَ مَعَ صَاحِبِهِ لَرَأَى الْعَجَبَ الأَعَاجِيبَ، وَلَكِنَّهُ قَالَ: إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي».

قال الزيلعي: رواه أبو داود في كتاب القراءات من سننه، والنسائي في التفسير واللفظ له عن حمزة الزيات عن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي بن كعب قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذكر أحداً فدعا له بدأ بنفسه فقال ذات يوم: (رحمة الله علينا وعلى موسى لو لبث مع

فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ ....

﴿ فَانطَلَقَا﴾ بعدما تقاولا في أمر العلوم ما تقاولا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ﴾ هي أنطاكية أو أيلة ﴿ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا﴾ من شدة جوعهما واحتياجهما إلى الطعام ﴿ فَأَبَوۡاْ﴾ وامتنعوا ﴿ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ ويميلوهما إلى نيل الطعام ونوله ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ﴾ أي يميل ويشرف ﴿ أَن يَنقَضَّ﴾ أي يسقط وينهدم ﴿فَأَقَامَهُۥۖ﴾ الخضر وعدَّله وسواه بالعمود وأسقطه وأحكم بنيانه جديداً.

ثم لما رأى موسى منه أمراً مستغرباً مستبعداً وهو أنهما على جناح السفر ولم يكن لهما شغلٌ وغرضٌ متعلقٌ بتعمير الجدار وإقامته ﴿ قَالَ﴾ على سبيل التعريض بأنه فضول: ﴿ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ﴿٧٧﴾﴾ وأخذت جعلاً واكتسبت التقوت والزاد بعدما أبوا عن الضيافة.

ثم لما سمع الخضر من موسى ما سمع:

﴿ قَالَ هَٰذَا﴾ أي سؤالك وتعريضك هذا ﴿ فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ﴾ أي يوجب

صاحبه لأبصر العجب العاجب، ولكنه قال: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً).

ورواه مسلم في فضائل الأنبياء قريبا من هذا اللفظ ولفظه قال رحمة الله علينا وعلى موسى لولا أنه عجل لرأى العجب ولكن أخذته من صاحبه ذمامة فقال: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا ولو صبر لرأى العجب ـ أنظر تخريج الأحاديث والآثار للزيلعي [٢/ ٣٠٥ رقم/ ٧٤٤/ سورة الكهف].

سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا ....

مفارقتي عنك، لكن لا أفارقك في الحال بل ﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾ وأخبرك ﴿بِتَأْوِيلِ مَا﴾ أي بتأويل الأمور التي أنكرتَ عليها واعترضتَ مفتتحاً إياها مستعجلاً بحيث ﴿لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾ حتى أحدّثك وأبينك سرائرها مع أني أوصيتك أولاً ببيانها، ثم فصلها، فقال:

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ﴾ التي خرقتُها بإلهام الله إياي وإلقائه على قلبي ﴿فَكَانَتْ﴾ هي ﴿لِمَسَٰكِينَ﴾ ضعفاءَ لا مكسبَ لهم سواها ﴿يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ بها ويعيشون من نولها ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أي أجعلها ذاتَ عيب ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ ظالمٌ سيئ عليهم وهو ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ صحيحةٍ غير معيبةٍ ﴿غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ ظلماً وزوراً بلا فديةٍ فجعلتها ذاتَ عيبٍ حتى تبقى لهم، وذلك بإذنٍ من الله عنايةً منه سبحانه لضعفاء عباده ورعايةً لحالهم ومصلحتهم.

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ﴾ الذي قتلته على الفور فهو غلامٌ قد جبله الله على الكفر والعصيان وأنواع الشرك والطغيان ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ موحدين مسلمين ﴿فَخَشِينَآ﴾ عليهما من سوء فعاله وقبح حاله ﴿أَن يُرْهِقَهُمَا﴾ ويغشيهما ويغطيهما ﴿طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾ من غاية حبهما له وتحننهما إياه ﴿فَأَرَدْنَآ﴾ وأحببنا بقتله وهلاكه ﴿أَن يُبْدِلَهُمَا﴾ أي يرزقهما ويهب لهما ﴿رَبُّهُمَا﴾

خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ....

الذي رباهما بنعمة التوحيد والإيمان وكرامة العصمة والعفاف ولداً ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ أي طهارةً مطهرةً عن خبائث الكفر والآثام، متصفةً بجبلة الإيمان والإسلام ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ مرحمةً وعطفاً وبراً على الوالدين ولطفاً.

قيل وُلِدَت له جاريةٌ بدل الغلام، فتزوجها نبي من الأنبياء، فولدت نبياً هدى الله به أمةً من الأمم.

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ﴾ الذي أردتُ إقامته وقصدتُ تعميره بإلهام الله ووحيه ﴿فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ ولم يبلغا الحلم ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ مدفونٌ مخزونٌ من ذهبٍ وفضةٍ ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا﴾ رجلاً ﴿صَٰلِحًا﴾ موحداً مسلماً متوجهاً نحو الحق دائماً ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ يا موسى من كمال لطفه وعطفه لليتيمين ورعايةً للأب الصالح ﴿أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ ويدخلا رشدهما ويخرجا عن اليتم، إذ لا يُتمَ بعد البلوغ، ويصيرا ذوي[1] رأيٍ رزينٍ وفكرٍ بيّنٍ ﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿يَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾، وإنما أمرني الله سبحانه بإقامة الجدار وإحكام المخزن ﴿رَحْمَةً﴾ وعطفاً ﴿مِّن رَّبِّكَ ۚ﴾ يا موسى شاملةً إياهما تتميماً لتربيتهما وتقويتهما.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَا فَعَلْتُهُۥ﴾ وأنكرتَ عليه واعترضتَ وتعرضتَ عليه ليس صادراً ﴿عَنْ أَمْرِى ۚ﴾ ورأيي، ناشئاً عن تدبر عقلي وفكري، بل مما ألهمني الله به

---

(١) في المخطوط (ذا).

ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ ....

وهداني عليه وأمرني بفعله، فأنا مأمورٌ والمأمور معذورٌ. ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور على التفصيل ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع﴾ ولم تُطِقْ ﴿عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ حتى ظهر لك سره.

ومما جرى بينهما صلوات الله وسلامه على نبينا وعليهما يتفطن العارف اللبيب والطالب الأريب الأديب: أن شرطَ الاستفادة والاسترشاد ومناطَ الاستكمال وطلب الرشاد، هو أن يميت المريد المسترشد نفسَه عند المرشد الكامل المكمّل بالموت الإرادي بحيث لا يتصدى إلى معارضته ومقابلته، وإن جزم أنّ فعلَ المرشد خارجٌ عن مقتضى العقل والشرع على زعمه، بل حمل فعله على المحمل الأصوب، وسكتَ عن الجدال والمقابلة، إذ بعد ما فوض أمره كله إلى مرشده واتخذه وكيلاً وأخذه ضميناً وكفيلاً، فقد فنيَ فيه وبقي ببقائه، فلم يبق له التصرف أصلاً بمقتضيات قواه وجوارحِه ومداركِه ومشاعرِه.

هب لنا ربنا من لدنك رحمةً تنجينا عن تسويلات نفوسنا.

ثم قال سبحانه على وجه التنبيه لحبيبه محمد ﷺ:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ يا أكمل الرسل أي اليهود المردودون والنصارى المنجوسون المطرودون سؤالَ اقتراحٍ وامتحانٍ مثلَ سؤال أصحاب الكهف والروح ﴿عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ﴾ واطوراه وكيفية سيره وطوافه حول العالم ﴿قُلْ سَأَتْلُوا۟﴾ وأقرأ وأذكر ﴿عَلَيْكُم مِّنْهُ﴾ أي من ذي القرنين وقصته ﴿ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾ قد

إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا ﴿٨٤﴾ فَأَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ وَوَجَدَ عِندَهَا ....

أخبرني به سبحانه بالوحي في كتابه المعجز، وهو الإسكندر الأكبر الرومي ابن الفيلقوس الرومي سُمِّي بذي القرنين لأنه طاف قرني الدنيا أي المشرق والمغرب، اختُلف في ولايته ونبوته، أخبر عنه سبحانه بقوله:

﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا وفضلنا ﴿مَكَّنَّا لَهُۥ﴾ وقدرناه ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ تمكناً تاماً وقدرة كاملة ﴿وَ﴾ ذلك ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ﴾ أعطيناه تأييداً له وتعضيداً ﴿مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا ﴿٨٤﴾﴾ موصلاً إلى مبتغاه، وما أَمِلَه يعني وفَّقنا وهيأنا أسبابه للوصول إلى كل مطلوبٍ قَصَدَه وأراد الوصول ﴿فَأَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ حتى ارتكب أمر الوثوقة واتكاله علينا وبإنجاحنا إياه إلى مبتغاه.

ثم لما أراد أن يسير نحو المغرب فاتبع سببه وسار

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ﴾ أي موضعاً تغيب الشمس فيه يعني لم يبلغه حقيقةً وإنما بلغ قوماً ليس وراءهم أي نهاية حد العمارة من جانب المغرب على ساحل المحيط ﴿وَجَدَهَا﴾ أي الشمس ﴿تَغۡرُبُ﴾ وتغيب ﴿فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ﴾ أي ذات حمأة وهي الطين والماء وقرئ: ﴿حمية﴾، أي حارةٍ ويجوز أن يكون عيناً ذات حماءةٍ وحرارةٍ يعني غروبها في رأي العين على عينٍ صفتها هذه، وإلا فلا تسع الشمس في جميع كرة الأرض فكيف بجزءٍ منها، إذ نسبة كرة الأرض إلى عظم جرم الشمس عند أهل الرصد كنسبةِ جزءٍ من مائةٍ وست وستين جزءاً ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا﴾ أي عند العين الموصوفة

قَوْمًاۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ....

﴿قَوْمًاۗ﴾ كفاراً نافين للصانع الحكيم، لباسُهم جلود الوحوش وطعامهم ما لفظ البحر بالموج من أنواع الحيوانات الميتة، فلما وصل ذو القرنين إليهم ووجدهم كفاراً، خيرناه في أمرهم عنايةً منا بأن ﴿قُلْنَا﴾ له وألهمنا عليه منادياً: ﴿يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ لك الخيار في شأن هؤلاء الكفار ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ أي تهلكهم وتستأصلهم بكفرهم بحيث لا يبقى منهم أحدٌ ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ﴾ وتصنع ﴿فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾﴾ شرعاً وديناً كما في سائر المؤمنين.

ثم لما خُيّر ذو القرنين في أمرهم وفُوِّض أمرُهم إليه:

﴿قَالَ﴾ على مقتضى العدل والإنصاف الذي جبله الحق عليه: ادعوهم أولاً إلى الإيمان وألقِ عليهم كلمة التوحيد والعرفان: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ واستعلى وأبى وأصرّ على ما عليه من الكفر منه والهوى ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ أي نقتله حداً بعد عرض الإسلام ولم يقبل في دار الدنيا ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ في يوم الجزاء ﴿فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾﴾ شديداً مجهولاً لا يعرفه أهل الدنيا ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ﴾ منهم ﴿وَعَمِلَ﴾ على مقتضى الإيمان عملاً ﴿صَٰلِحًا﴾ فنصلح حالهم ونراعيه في الدنيا ﴿فَلَهُۥ﴾ في يوم الجزاء عند واهب العطايا ﴿جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰۖ﴾ والمثوبة العظمى والدرجة العليا والجزاء الأوفى ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا﴾ الذي أمرنا بالتخيير في أمر أولئك الهالكين في تيه الغواية ﴿يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾ سهلاً معتدلاً بين

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ ....

إفراط القتل والاستئصال، وتفريط الإبقاء على الكفر والضلال مداهنةً.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما وضع بين أهل المغرب الشرعَ بالأمر الإلهي ﴿أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾﴾ آخرَ يوصِله إلى المشرق، وسار ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ وموضع شروقه وإضاءته على العالم ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ﴾ وتضيء أولاً ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾﴾ يعني لم نجعل لهم حائلاً كثيفاً وحجاباً غليظاً ليكون ستراً لهم حرّ الشمس وقت طلوعها لا من الجبل ولا من الحجر والشجر وغيرها، بل كلهم عزلٌ عراةٌ لا لباس لهم أصلاً، وهم يحفرون الأرض ويتخذون سراديب وأخاديد بدل الأبنية؛ لأن أرضهم لا تمسك البناء ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي هم أيضاً كفارٌ مثل أهل المغرب وهم أشدُّ الناس في الحروب والمعارك وأجرؤهم على القتال والاقتحام في الوغاء، ولهم آلاتٌ وأسلحةٌ عجيبةٌ وعُدَدٌ بديعةٌ لا كمثل سائر آلات الناس وعُدَدهم وهم أكثرهم أيضاً عدداً.

﴿وَ﴾ مع كثرة عددهم ومكرهم وخداعهم ﴿قَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾ يعني أعلمنا اسكندرَ ومن عنده من الجند والخدمة علماً بحال أعدائهم، فقاتلوا معهم وغلبوا عليهم فوضع عليهم أيضاً شعائر الإسلام مثل ما وضع لأهل المغرب ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾﴾ ثالثاً، وسار على العرض بين المشرق والمغرب.

حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ ....

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ أي بين الجبلين اللذين سدَّ بينهما اسكندر بسدٍ منيعٍ وهما جبلا أرمينية وأذربيجان، وقيل جبلان في أواخر الشمال في منقطع أرض الترك من ورائهما يأجوج ومأجوج ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا﴾ أي عندهما ﴿قَوْمًا﴾ أعجمياً ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ﴾ ويفهمون ﴿قَوْلًا ﴿٩٣﴾﴾ لغةً من اللغات المتداولة.

﴿قَالُوا۟﴾ بلسان الواسطة والترجمان: ﴿يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ نحن أناس ضعفاء مظلومون نحتاج إلى إعانتك وإغاثتك لتنقذنا من يد الظلمة ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ عَلَمَان للقبيلتين من الترك هما ﴿مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي في أرضنا هذه بأنواع الفسادات، قيل: كانوا يخرجون في الربيع فلا يتركون أخضر رطباً إلا أكلوه ولا يابساً إلا حملوه، وقيل: كانوا يأكلون الناس أيضاً ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ جُعلاً نوزع بيننا فيبلغ مبلغاً وافياً ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ﴾ بسطوتك وسلطنتك ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ منيعاً لا يمكنهم الخروج علينا فنأمن شرهم بجاهك.

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ﴾ أي ما جعلني وخصني ربي بفضله وجوده مكيناً من المال والملك خيرٌ مما تجمعون بتوزيعكم وتخريجكم ولا حاجة إلى أموالكم بل إلى إعانتكم وسعيكم أُجراء ﴿فَأَعِينُونِى﴾ في وضع هذا السد ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي عملةٍ وصنَّاعٍ يأخذون مني أجرتهم ويعملون ﴿أَجْعَلْ﴾ بفضل الله

بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ ....

وسعة جوده إن تعلق به مشيئته ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾ حاجزاً حصيناً منيعاً وثيقاً بحيث لا يقبل التخريب إلى انقراض الدنيا.

﴿ءَاتُونِي﴾ وأحضروا عندي أولاً ﴿زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ أي قِطعها الكبيرة، فأَتوا بها فأمرهم بحفر الأرض إلى أن وصل الماء، فوضع الأساس من الصخر والنحاس المذاب حتى وصل وجه الأرض، ثم أمرهم بتنضيد قطع الحديد بأن وضعوا بين كلا قطعتي الحديد فحماً وحطباً، وأمرهم بارتفاعهم هكذا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ أي بين جانبي الجبلين حتى امتلأ بين الجبلين وصار ما بينهما مساوياً للطرفين في الرفعة، ثم أمرهم بوضع المنافخ العظام من كلا طرفي السد، ثم ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿ٱنفُخُوا۟﴾ فنفخوا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ أي جعل المنفوخَ فيه مثل النار في اللون والحرارة، فاحترق الحطب والفحم واتصل بالزُبَر المحماة وبقيت فُرَجٌ صغارٌ إلى حيث لم تصل إلى الملاسة والاستواء ﴿قَالَ ءَاتُونِىٓ﴾ نحاساً مذاباً ﴿أُفْرِغْ﴾ وأصب ﴿عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾﴾ حتى يصير ملساءً مسوىً لا فُرجَ لها ولا يرى أوصالها أصلاً فصَبّ فاستوى فصار أملس كأنه لا فُرجَ فيه أصلاً.

﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟﴾ أي ما قدر يأجوج ومأجوج ﴿أَن يَظْهَرُوهُ﴾ ويصعدوا عليه ويعلوا لارتفاعه وملاسته ﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ لعمقه وغلظه كننه.

قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ

فلما تم السد واستوى

﴿قَالَ﴾ ذو القرنين مسترجعاً إلى الله شاكراً لأنعمه: ﴿هَٰذَا﴾ أي إتمام هذا السد على الوجه الأسَدّ الأحكم ﴿رَحْمَةٌ﴾ نازلةٌ عليّ ﴿مِّن رَّبِّي﴾ إذ لولا توفيقه وتمكينه لما صدر عني بقوتي أمثال هذا ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ وقرُب قيام الساعة، وظهر أماراتها وأشراطها، ومن جملة أماراتها خروج يأجوج ومأجوج ﴿جَعَلَهُۥ﴾ سبحانه هذا السد السديد الرفيع ﴿دَكَّآءَ﴾ أي مدكوكاً مسوىً مفتتاً أجزاؤه بحيث لم يبق له ارتفاعٌ أصلاً وهم حينئذ يخرجون على الناس ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي﴾ بقيام الساعة واستواء الأرض وكونها دكاً بحيث لا عِوجَ لها ولا أمتا ﴿حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾ ثابتاً محققاً لا شبهة فيه.

ثم قال سبحانه:

﴿۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ أي وبعدما جعلنا الأرض مبسوطة مدكوكة بمقتضى قهرنا وجلالنا، وجعلنا السد السديد الرفيع المنيع مسوىً، أخرجنا يأجوج ومأجوج بإقدارنا إياهم بالخروج، وتركنا بعض الناس يموج ويزدحم ويدخل من صولتهم واستيلائهم بعضاً مضطربين مضطرين ﴿وَ﴾ هم في ذلك الاضطراب والتشتت من استيلاء أولئك الظلمة القهارين القتّالين ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ للحشر إلى المحشر وقامت الطامة الكبرى ﴿فَجَمَعْنَٰهُمْ﴾ حينئذ أي جميع الخلائق للعرض والحساب ﴿جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾ مجتمعين في المحشر.

﴿وَ﴾ بعد جمعنا إياهم ﴿عَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم الحشر

لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ ....

﴿ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ المعرضينَ المكذبينَ للرسل والكتب المنكرينَ ليوم العرض والجزاء ﴿عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾ على سبيل الإلزام والتبكيت للقوم ﴿ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ ﴾ في النشأة الأولى ﴿ فِى غِطَآءٍ ﴾ وغشاوةٍ كثيفةٍ ﴿عَن ذِكْرِى ﴾ أي عن آياتي الدالة على ذكري المؤدي إلى التفكر والتدبر في آلائي ونعمائي المؤدي إلى ملاحظة ذاتي المنتهية إلى المكاشفة والمشاهدة للمؤمنين المؤيدين من عندي، المنجذبين نحو توحيدي ﴿وَكَانُوا۟ ﴾ أيضاً ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ ولا يقدرون ﴿ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾ أي إصغاءً والتفاتاً أي استماع كلمة الحق لتعطيلهم من خبث فطرتهم وطينتهم نعمةَ الحق الموهوبة لهم لاستماع كلمة الحق وإصفاء دلائل التوحيد عن مقتضاها.

ثم قال سبحانه على سبيل التقريع والتوبيخ للكفرة المشركين المتخذين آلهةً سوى الله من مصنوعاته ومخلوقاته:

﴿ أَفَحَسِبَ ﴾ وظن القوم ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾ وأشركوا بسبب ﴿ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ ﴾ مثل عزير وعيسى وجميع الأوثان والأصنام ﴿ أَوْلِيَآءَ ﴾ آلهة يعبدونهم كعبادتي أنا لا نأخذهم ولا ننتقم منهم في يوم الجزاء، كلا وحاشا، وكيف لا نأخذهم ﴿ إِنَّآ ﴾ من كمال قهرنا وغضبنا على من أشرك بنا غيرَنا واثبت إلهاً سوانا ﴿ أَعْتَدْنَا ﴾ وهيأنا ﴿جَهَنَّمَ ﴾ البعد والخذلان الممتلئة بنيران الحرمان

لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ

﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ المعرضين عن مقتضيات آياتنا وكتبنا ورسلنا ﴿نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾ أي منزلاً معداً ينزلون فيها يوم الجزاء نزول المؤمنين في جنة الوصال ومقر الآمال.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للمشركين المتخذين أرباباً من دون الله من مصنوعاته يعبدونهم مثل عبادته وينكرون توحيده ويكذبون كتبه ورسله المبينة لأحوال النشأتين ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُم﴾ أي نخبركم ونرشدكم أيها المنهمكون في الخسران والطغيان ﴿بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾﴾ أي العاملين الذين خسروا من جهة أعمالهم مع أنهم زعموا الربح فيها، وهم:

﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ﴾ أي بطل وضاع ﴿سَعْيُهُمْ﴾ الذين سعوا ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بإتيان الأعمال الصالحة والإنفاق وبناء بقاع الخير وغير ذلك، كالرهابنة والقسسين، وكذا عموم أهل العجب والرياء من أي أمةٍ كانت ﴿وَهُمْ﴾ في النشأة الأولى ﴿يَحْسَبُونَ﴾ ويظنون ﴿أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ ينفعهم عند الله، ويتوقعون المثوبة العظمى والدرجة العليا لأجلها، مع أنهم خاسرون خسراناً مبيناً لفقدهم ما هو مبنى الأعمال ومناط العبادات، وهو الإيمان بتوحيد الله والتصديقُ بكتبه ورسله.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ البعداء الأشقياء المجبولون على الكفر والشقاق هم ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وكذبوا ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ الدالة على توحيده وتصديق رسله وكتبه ﴿وَلِقَآئِهِۦ﴾ الموعودة لعباده عند إنجلاء جميعهم وارتفاع أستارهم

فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ ....

﴿فَحَبِطَتْ﴾ أي ضاعت واضمحلت وضلت في النشأة الأخرى ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾ التي جاؤوا بها في النشأة الأولى ولطلب النفع والربح[1] ﴿فَلَا نُقِيمُ﴾ ونضيع ﴿لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ المعدة لجزاء الأعمال وتنقيدها ﴿وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ مقداراً يُنتفع ويُعتد بها لانحباطها وسقوطها عن درجة الاعتبار لدى الملك الجبار، بل:

﴿ذَٰلِكَ﴾ العمل المترتب على الكفر والشرك ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ ونفعهم العائد لهم لأجل أعمالهم في يوم الجزاء ﴿جَهَنَّمُ﴾ البعد والحرمان، وسعيرُ الطرد والخسران ﴿بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟﴾ أي بكفرهم واتخاذهم ﴿ءَايَٰتِى وَرُسُلِى﴾ المؤيدين بآياتي، المبعوثين على تبيين دلائل توحيدي بين عبادي ﴿هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾ محل استهزاء يستهزئون وينكرون عليها عتواً وعناداً.

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته المستمرة من تعقيب الوعيد بالوعد:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وأيقنوا بتوحيد الذات والصفات والأفعال ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ المقربة إلى التوحيد الذاتي، الملائمة المناسبة لشعائره ومناسكه ﴿ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ﴾ وهو وسط الجنة المشرف على أطرافها المرتفع منها، لذلك قال ﷺ: «إِذا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسأَلُوا الفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ وَسَطُ الجَنَّةِ»[2]،

(١) في المخطوط (والريح).

(٢) رواه البخاري بلفظ : «عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: قال رسول اللهِ من آمَنَ باللهِ وَبِرَسُولِهِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَصَامَ رَمَضَانَ، كان حَقًّا على اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ جاهَدَ في سَبِيلِ اللهِ أو جَلَسَ في أَرْضِهِ التي وُلِدَ فيها، فَقَالُوا: يا رَسُولَ اللهِ أَفَلَا نُبَشِّرُ الناس، قال: إِنَّ في الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا الله لِلْمُجَاهِدِينَ

نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادًا ....

وهو بستان الغيب ومهبط الفتوحات الغيبية، وأيضاً هو أعلى مراتب التوحيد، وعند ذلك انتهى السير والسلوك، وبعد ذلك السلوك فيه لا إليه وبه ﴿نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾ أي منزلاً ينزلون إليه ويتمكنون.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ ولصفائها ونضارتها ودوام لَذَّاتها الروحانية وفيوضاتها ﴿لَا يَبۡغُونَ﴾ ولا يطلبون بالطبع والإرادة ﴿عَنۡهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ أي انتقالاً وتحويلاً لكونه مقر فطرتهم الأصلية ومنزل استعداداتهم الحقيقية، إذ فوقه عرش الرحمن المفيض لجميع القوابل والاستعدادات مقتضياتها.

ثم لما طعن اليهود في القرآن وأرادوا أن يثبتوا التناقض في بعض آياته مع بعض حيث قالوا: أنتم تقرؤون في كتابكم تارة: ﴿وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرًا كَثِيرًا﴾ [٢-البقرة:٢٦٩]، وتارة تقرؤون: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [١٧-الإسراء:٨٥] وما هو[1] إلا تناقض صريح، أمر سبحانه حبيبه بقوله:

﴿قُل﴾ لهم يا أكمل الرسل كلاماً يُسقط شبهتهم: إن أنصفوا! نحن لا ندعي أن من أوتي الحكمة فقد أوتي بجميع معلومات الله وعلومه، وكيف ندَّعي هذا وهو ممتنع محالٌ في غاية الامتناع والاستحالة، إذ ﴿لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ﴾ أي جنس البحر وهو جميع كرة الأرض ﴿مِدَادًا﴾ أي ماء يُمدُّ به

في سَبِيلِ اللهِ ما بين الدَّرَجَتَيْنِ كما بين السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فإذا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فإنه أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرحمن وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ» صحيح البخاري [٣/ ١٠٢٨ رقم/ ٢٦٣٧/ باب: درجات المجاهدين] وابن حبان في صحيحه [١٠/ ٤٧٢ رقم /٤٦١١/] والبيهقي في السنن الكبرى [٩/ ١٥ رقم / ١٧٥٤٤/] وغيرهم وللحديث ألفاظ وروايات متعددة.

(١) في المخطوط (هي).

لِكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ
أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا
صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾

القلم للرقم والكتابة ﴿لِكَلِمَٰتِ رَبِّي﴾ أي لثبتها وكتبها ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ﴾ وانتهى البتة لتناهيه وكونه محدداً ﴿قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾ لكونها غير متناهية ﴿وَ﴾ غير محدودةٍ بحدٍ معين، وكيف لا تنفد وتتناهى ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ﴾ أي بمثل جنس البحر بل بأضعاف أمثاله وآلافها ﴿مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ إذ لا مناسبة بين المتناهي وغير المتناهي وإن فرض أضعافاً وآلافاً.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل بعدما بلغت لهم كلمات الله الغير المحصورة كلاماً خالياً عن وصمة التفوق والتفضل المفضي للرعونة ناشئاً عن محض الحكمة والفطنة: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ قابل للعلوم والإدراكات على مقتضى البشرية، لا فرق بيني وبينكم بحسب الفطرة، غاية ما في الأمر أنه ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ ويُفاض إفاضةَ علمٍ وعينٍ وحقٍ ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ﴾ ومعبودكم ومُظهركم ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أحدٌ صمدٌ فردٌ وترٌ، ليس له شريكٌ ولا نظيرٌ ولا وزيرٌ، بل هو مستقلٌ في الوجود والإيجاد والإظهار، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد استقلالاً إرادةً واختياراً، وإنما امتيازي عنكم بهذا ﴿فَمَن كَانَ﴾ منكم ﴿يَرْجُوا۟﴾ رجاءَ مؤملٍ بصيرٍ ﴿لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ مكاشفةً ومشاهدةً ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ قالعاً لأصل أنانيته وهويته، قامعاً لمقتضيات أوصاف بشريته وبهيميته، مزيلاً لذمائم أخلاقه وأطواره ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿لَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ من خلقه أي لا يقصد من عمله

وعبادته الرياءَ والسمعةَ والعُجبَ والنخوةَ.

قال رسول الله ﷺ: «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ». قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: «الرِّيَاءُ»[١].

وقال تبارك وتعالى: «أنا أغنى الشُّركاء عن الشِّركِ، فَمَنْ عَمِلَ عَمَلا أَشْرَكَ فِيْهِ غَيْرِيْ فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ وَهُوَ الَّذِيْ عَمِلَهُ لِأَجْلِهِ»[٢].

وبالجملة يعمل على وجهٍ يسقط الكثرة والاثنينية لا على وجهٍ يؤيدها ويكثرها، بل العامل العارف لا يطلب لعمله الجزاء أيضاً، بل إنما يعمل امتثالاً لأمره سبحانه وطلباً لمرضاته، ولا يخطر بباله شيء سواه.

جعلنا الله ممن تحقق بمقام التوحيد، وأمَّنه عن توهم الرياء والتقليد، وحفظه من كل شيطان مريد.

---

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد [١/ ١٠٢ باب: ما جاء في الرياء]: رواه أحمد في المسند [٥/ ٤٢٨ رقم/ ٢٣٦٨٠/] ورجاله رجال الصحيح، والطبراني في الكبير [٤/ ٢٥٣ رقم/ ٤٣٠١/]: بلفظ: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: يا رسول الله ما الشرك الأصغر؟ قال: الرياء، يُقال لمن يفعل ذلك إذا جاء الناس بأعمالهم اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون فاطلبوا ذلك عندهم»، قال الهيثمي في مجمع الزوائد [١٠/ ٢٢٢ باب: ما جاء في الرياء]: رجاله رجال عبد الله بن شبيب ابن خالد وهو ثقة.

[قلت]: وللحديث رواية أخرى رواها البيهقي في الشعب [٥/ ٣٣٣ رقم/ ٦٨٣١/] نحو هذه الروايات.

(٢) رواه مسلم في صحيحه [٤/ ٢٢٨٩ رقم/ ٢٩٨٥/ في الزهد: باب من أشرك في الله] وابن خزيمة في صحيحه [٢/ ٦٧ رقم/ ٩٣٨/] وابن ماجة في السنن [٢/ ١٤٠٥ رقم/ ٤٢٠٢/ باب:الرياء والسمعة] والطبراني في الأوسط [٦/ ٣٢٤ رقم/ ٦٥٢٩/] وغيرهم وللحديث طرق وألفاظ متعدد.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد القاصد للتحقق في مقام التمكن من التوحيد، قرَّرَك الله في مقعد صدقك ويقينك، وثبّتك في مقر تثبيتك وتمكينك: أن تحفظ أعمالك التي جئت بها متقرباً الوصولَ إلى محل القبول عن مداخل الرياء والسمعة والعجب وأنواع الرعونات، إذ هي كلها شباكُ الشيطان وعقاله، يقيد بها خواص عباد الله ويلهيهم بها عما هم عليه من الرضا والتسليم، ويوقعهم في فتنةٍ عظيمةٍ ومعصيةٍ كبيرةٍ مستلزمةٍ للشرك بالله، العياذ به من غوائل الشيطان وتسويلاته ويخلصها لمحض وجهه الكريم.

فعليك أن تلازم العزلة وتداوم الخلوة حتى لا يلحقك من الخلطة أمثال هذه الأمراض العضال، وأيضاً لك أن تجلي خاطرك وتصفي ضميرك عن هواجسك المتعلقة بأمور معاشك بين بني نوعك، فإن أكثر عروض هذه الأمراض إنما يحصل من الأماني واللذات الوهمية من الجاه والثروة والتفوق على الأقران وغير ذلك.

وإن شئت أن يسهل عليك الأمر فاشغل جوارحك لكسب ضرورات معاشك في بعض الأحيان، واقنع بأقل المعيشة وسدّ الرمق، واحذر عن فضول العيش، فإن أكثر فحول الرجال قد استرق بفضول الأماني والآمال.

وبالجملة: نعم القرين العزلة، والفرار عن تغريرات الدنيا الغدارة المكارة، والخمول في زوايا الكهوف والأغوار عن اختلاط أصحاب الخسار والبوار.

وفِقّنا بفضلكَ وجودكَ بما تحب منا وترضى.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة مريم عليها السلام

لا يخفى على من انكشف بوحدة الوجود، وتحقق عنده امتداده وسريانه على جملة الموجود حسب اقتضاء الصفات الذاتية الإلهية أن اقتضاء بعض المظاهر الإلهية شيئاً من الكمالات اللائقة واستدعاءه إنما هو باعتبار صنعته من الصفات الإلهية المندمجة به باطناً، سيما إذا صدر من النفوس المقدسة عن الكدورات البشرية المنزهة عن العلائق الناسوتية المتخلقة بالأخلاق الملكية المنتخبة لتحمل أعباء الرسالة والنبوة، المستخلفة عن الذات الإلهية النائبةعنها ولا شك أن زكريا صلوات الرحمن على نبينا وعليه من جملة المنتخبين للخلافة والنيابة المنزهين عن غوائل الشيطان وتسويلاته، وما هداه وبعثه إلى طلب الولد إلا الصفة الإلهية التي تقتضي الظهور والنزول من غيب الذات إلى عالم الشهادة.

ولما كان ظهوره وبروزه موقوفاً على طلب زكريا وتحننه لحكمةٍ ومصلحةٍ استأثر الله بها لا اطلاع لأحدٍ عليها، ناجى زكريا بوحي الله إياه مع ربه وناداه نداءَ مؤملٍ ضريعٍ على وجهٍ انكشف بتحقق مأموله وإنجاح مسؤوله حين جذبه الحق إلى نفسه وأخرجه عن قيود تعلقاته مطلقاً.

ثم لما كان ﷺ مبدأ جميع مراتب الأنبياء ومجمعها، أخرج سبحانه له ما

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ ....

ناجى معه عبده زكريا من استدعاء الولد الذي يخلفه ويُحيي اسمه، مع أنه من غرائب صنع الله وبدائع مخترعاته على سبيل خرق العادة، إذ لا استعداد له ولا قابلية لزوجته بحصول الولد منهما لانقضاء أوان التوالد من كلا الطرفين.

فقال سبحانه متيمناً باسمه العلي مخاطباً لحبيبه ﷺ:

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ الذي تجلى على أنبيائه ورسله ببدائع الكمالات الخارقة للعادات ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ لهم يفتح عليهم أبواب المرادات بأسباب السعادة ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ لهم يوصلهم إلى أقصى المقامات وأعلى الكرامات.

﴿ كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾﴾ يا كافي مهام جميع الأنام وهاديهم إلى دار السلام بيد القدرة العلية الصادرة عنك نيابةً عنا. هذه السورة:

﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ الذي رباك كافياً هادياً للمضلين ينبوعاً للعلوم الصافية اللدنية الجارية من قلبك على لسانك بمقتضى الوحي الإلهي والإلهامات الغيبية ﴿ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾﴾ المتوجه نحوه في السراء والضراء، المسترجع إليه عند هجوم البلاء وحلول العناء. اذكر وقت :

﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ نداء مؤملٍ ضريعٍ وناجى معه مناجاة ما يؤنس فجيعٍ ﴿ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾﴾ متمنياً متحسراً، آمراً في ندائه ليأسه وقنوطه لانقضاء وقت الولد وأوانه لئلا يُلام عند الناس لطلب الولد وقت الهرم من كلا الجانبين.

حيث ﴿ قَالَ﴾ مشتكياً إلى الله باثاً شكواه عنده سبحانه: ﴿رَبِّ﴾ يا من

إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي

رباني بأنواع اللطف والكرم ﴿إِنِّي﴾ من غاية ضعفي ونهاية هزالي ونحولي ﴿وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي﴾ أي ضعفت دعائم جسمي وقوائم بدني وأشرفت على الانهدام والانصرام ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ أي اشتعل شيب رأسي وذهب سواده وانقلب إلى البياض المشعر بالانقضاء والزوال مثل ابيضاض النباتات وقت الخريف ﴿وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ﴾ أي لم أكن في كل حالٍ بدعائي إياك ﴿رَبِّ شَقِيّٗا ﴿٤﴾﴾ خائباً خاسراً مردوداً، بل عودتني بفضلك وجودك بالإجابة والإنجاح، وهذا الدعاء وإن كان أبعدَ بحسب العادة من الإجابة، إلا أنه بالنسبة إلى قدرتك وجودك أقرب، وبجنب حولك وقوتك أسهلُ وأيسرُ، سيما ألهمتني به ووفقتني على إظهاره.

﴿وَإِنِّي﴾ يا رب ﴿خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ﴾ أي من أبناء أعمامي الذين يترصدون الولاية والحبورة[1] ﴿مِن وَرَآءِي﴾ وبعد انقراضي وانقضائي أن يغيروها ويضيعوها ويحرفوا مَعَالِم الدين وشعائر الإسلام بين المسلمين، إذ لا يرجى منهم الرشد والصلاح والخير والفلاح، وأنت أعلم بحالهم مني يا رب، وليس لي ولدٌ صالحٌ يخلفني بعدي، ولم يبق لي قوة الاستيلاد لهرمي وضعفي ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا﴾ عقيماً أصلياً لم تلد قط، فلا مرجع لي في أمري سوى بدائع صنعتك وغرائب قدرتك ﴿فَهَبۡ لِي﴾ بمقتضى فضلك

---

(١) أي: مركز الحبر.

مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾
يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾

وجودك ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ لا على طريق العادة ومقتضى الأسباب الصوري ولداً ﴿وَلِيًّا ﴿٥﴾﴾ يولي أمر دينَ[1] بني أمتي بحيث:

﴿يَرِثُنِي﴾ عني نبوتي وحبورتي وولايتي وجميع ما أنزلت عليّ خاصةً من مقتضيات إحسانك إليّ وإنعامك عليَّ ﴿وَيَرِثُ﴾ أيضاً ﴿مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ ما بقي منهم من شعائر الدين ومعالم الهدى واليقين، قيل: كان زكريا أخا يعقوب بن إسحاق[2]. ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿اجْعَلْهُ رَبِّ﴾ بمقتضى كرمك وجودك ﴿رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ راضياً عنك بجميع ما جرى عليه من قضائك، صابراً على نزول عموم بلائك، شاكراً على نعمائك مرضياً عندك وعند عموم عبادك.

ثم لما اشتكى عنده سبحانه بما اشتكى ودعا ما دعا أجاب سبحانه دعاءه وأسرع إجابته منادياً له على سبيل الترحم والتفضل:

﴿يَٰزَكَرِيَّآ﴾ المتضرع المناجي إلينا، المستدعي منا خلفاً يخلفك ويحيي اسمك ﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا ﴿نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ﴾ يُولد منك ومن زوجتك العقيمة العاقرة ﴿ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ ليحيي مراسم دينك وشرعك وحبورتك مع أنه ﴿لَمْ نَجْعَل﴾ ولم نخلق ﴿لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾﴾ بهذا الاسم، بل هو أول من سمّي به.

(١) في المخطوط (ديني).

(٢) يرثني الحبورة من آل يعقوب بن إسحاق عليهما السلام، وقيل يعقوب كان أخا زكريا أو عمران من نسل سليمان عليه السلام.

قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـًٔا ﴿٩﴾ ....

سمع زكريا البشارة من قبل الحق:

﴿ قَالَ ﴾ على سبيل الفرح وبسط الكلام معه سبحانه، وإن كان جميع أحواله حاصلاً عنده سبحانه على التفصيل حاصلاً حاضراً لديه مستبعداً مستغرباً: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ في سني هذا وضعفي ونحولي ﴿وَ﴾ قد ﴿كَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرًا﴾ جِبلّياً ﴿وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ﴾ والكهولة والهرم ﴿عِتِيًّا ﴿٨﴾﴾ يبساً بحيث لا يبقى علي رطوبةٍ في مفاصلي وأركان بدني وقوائم جسمي؟!

﴿ قَالَ ﴾ سبحانه: يا زكريا لا تستبعد من قدرتنا أمثال هذا بل ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك قدّرنا لك ابناً بأن تكون باقياً على كبرك وهرمك وزوجتك أيضاً على هرمها وعقرها، نخرج ونوجد منكما الولد إظهاراً لقدرتنا الكاملة، وأمثال هذا وإن كان عسر عادةً، علينا يسيرٌ وفي جانب قدرتنا سهلٌ، يا زكريا كذلك ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾ اسمع قوله ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أي إخراج الولد منك ومن زوجتك عليّ سهلٌ يسيرٌ وفي جنب حولي وقوتي حقيرٌ ﴿وَ﴾ كيف لا يكون سهلاً إني ﴿قَدۡ خَلَقۡتُكَ﴾ وقدّرت وجودك في ما مضى من العدم ﴿مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـًٔا ﴿٩﴾﴾ ولا مسبوقاً بشيءٍ، بل أوجدتك إيجاداً إبداعياً وأظهرتك من كتم العدم إظهاراً إختراعياً بلا سبق مادةٍ ومدةٍ وسببٍ وعادةٍ،

قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ ....

وهذا هينٌ بالنسبة إلى ذاك.

ثم لما تفطن زكريا بإنجاح مطلوبه، أخذ يطلب العلامة والأمارة لحمل امرأته حيث:

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ﴾ بفضلك ﴿ءَايَةً﴾ علامةً دالةً على حمل امرأتي ﴿قَالَ﴾ سبحانه: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾ أي لا تقدر على المقاولة والمكالمة ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٍ﴾ مع نهارها لا عن عروضٍ عارضةٍ ولحوقِ مرضٍ وخرسٍ بل كنت ﴿سَوِيًّا ﴿١٠﴾﴾ صحيحاً سالماً عن جميع الأسقام، غير أن اشتغالك بالحق شغلك عن الخلق بحيث لا تطيق التكلم معهم في المدة المذكورة إلا رمزاً وإشارة وإيماء.

ثم لما دنا وقت الحمل ولاحت أماراته:

﴿فَخَرَجَ﴾ صبيحة ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ أي الحجرة التي هو فيها في خلوته للصلاة على عادته المستمرة، وكان من عادته أن يأمرهم في كل صبيحة خرج عليهم بالصلاة والدعاء والخشوع والتوجه ﴿فَأَوْحَىٰٓ﴾ أي أومأ وأشار ﴿إِلَيْهِمْ﴾ بلا قدرةٍ له على النطق والتكلم ﴿أَن سَبِّحُوا۟﴾ ربكم ونزهوه عما لا يليق بجنابه ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ أي في الصبيحة التي أنتم فيها والبكرة التي ستجيء إلى العشية الآتي وإلى الصبيحة بعده، أوصاهم كل يوم بذلك على

يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴿١٢﴾ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ﴿١٣﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ

الدوام، وفي تلك المدة ما قدر على التكلم لذلك أشار وأومأ.

ثم لما أومأ سوينا خلقة يحيى وأخرجناه من بطن أمه صحيحاً سوياً، قلنا له تربية وتكريماً:

﴿يَٰيَحۡيَىٰ﴾ الموهوب من لدنا المؤيد من عندنا ﴿خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي التوراة واشرع في ضبطها وحفظها ﴿بِقُوَّةٖۖ﴾ أي بِنيّةٍ خالصةٍ وعزيمةٍ صحيحةٍ ﴿وَ﴾ إنما أمرناه بحفظها وضبطها إذ ﴿آتينَاهُ ٱلۡحُكۡمَ﴾ يعني الحكمة المندرجة فيها وأعطينا فهمها واستنباط الأحكام منها حال كونه ﴿صَبِيّٗا ﴿١٢﴾﴾ لم يبلغ الحلم.

﴿وَ﴾ إنما آتيناه وأعطيناه في حال صغره فهم التوراة ﴿حَنَانٗا﴾ ترحماً وتعطفاً ناشئاً ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾ تكريماً له ولأبيه ﴿وَ﴾ لهذا أيضاً أعطيناه ﴿زَكَوٰةٗۖ﴾ طهارةً عن الخبائث والآثام كلها ﴿وَ﴾ لذلك ﴿كَانَ﴾ مدة حياته من أوان صباه إلى موته ﴿تَقِيّٗا ﴿١٣﴾﴾ حَذِراً عن المناهي والمنكرات، خائفاً عن المعاصي والمحظوارت ﴿وَ﴾ لنجابة طينته ألقينا في قلبه ﴿بَرَّۢا﴾ وإحساناً ﴿بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن﴾ في جميع أوقاته وحالاته ﴿جَبَّارًا﴾ عاقاً لهما مستكبراً عن أمرهما ﴿عَصِيّٗا ﴿١٤﴾﴾ تاركاً حكمهما وأمرهما.

﴿وَ﴾ لسلامته عن جميع الآثام وطهارته عن جميع الخبائث والمعاصي ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡهِ﴾ أي تحيةٌ وتكريمٌ وحفظٌ وتسليمٌ نازلٌ منا عليه على الدوام

يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ ....

﴿يَوْمَ وُلِدَ﴾ يحفظه من شر الشيطان ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ نحفظه من زوال الإيمان ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ نصونه عن الخيبة والخسران ولحوق الحسرة والخذلان.

﴿وَٱذْكُرْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي القرآن المنزل إليك سيدة النساء ﴿مَرْيَمَ﴾ أي قصتها وحالتها العجيبة الشأن التي هي أغرب وأعجب من قصة زكريا، واذكر وقت ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتْ﴾ أي اعتزلت وتباعدت ﴿مِنْ أَهْلِهَا﴾ حين حاضت وطهرت وأرادت الاغتسال على مقتضى طهارتها الفطرية ونجابتها الجبلية، فاختارت للخلوة والتستر ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾﴾ أي في مشرق بيت المقدس، ومع كونه مكاناً بعيداً خالياً عن الناس

﴿فَٱتَّخَذَتْ﴾ وسدلت لكمال الاحتياط والانحفاظ ﴿مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ يسترها ويحفظها عن أعين الناس إن وصلوا بغتة، ثم لما تجردت عن لباسها واشتغلت لأن تغتسل ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ أي حامل روحنا وهو جبرائيل عليه السلام إظهاراً لقدرتنا وحكمتنا، وإنفاذاً لحُكمنا الذي حكمنا به في سابق علمنا ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا﴾ جبرائيل عليه السلام ﴿بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾ صحيحاً صبيحاً أمردَ قططاً مجعدَ الشعر لئلا تستوحش، ومع ذلك استوحشت وارتهبت رهبةً شديدةً، ومن غاية خوفها منه واضطرابها

قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ
لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ
وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ....

﴿قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ﴾ وألوذ ﴿بِٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ الذي كفى لحفظ عباده عن مطلق الشذوذ سيما ﴿مِنكَ﴾ أي من شرِّك ومن شرِّ أمثالك فامتنع أنت بنفسك عني ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾ خائفاً عن الله، حذراً عن بطشه وانتقامه.

ثم لما رأى جبريل عليه السلام من كمال عفتها وعصمتها ما رأى:

﴿قَالَ﴾ مستحيياً معتذراً: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ أرسلني إليك ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ بإذن الله إياي وأمره ﴿غُلَـٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾ طاهراً عن جميع الرذائل والآثام، مترقياً في فنون الفضائل والكمالات إلى أقصى النهايات، مظهِراً لأنواع المعجزات والكمالات والكرامات، وأصناف الإرهاصات الخارقة للعادات.

ثم لما سمعت عليها السلام مقالته، وتفطنت بنور الولاية أنه من قِبل الله ﴿قَالَتْ﴾ مستعجبةً مشتكيةً مستحيةً: ﴿أَنَّىٰ﴾ أي من أين ﴿يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَ﴾ لم يجرِ عليّ أسبابه إذ ﴿لَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾ بالنكاح مساسَ مواقعةٍ موجبةٍ للحمل والحبل ﴿وَلَمْ أَكُ﴾ في مدة حياتي عاصيةً لله فاسقةً خارجةً عن مقتضى حدوده لأكون ﴿بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾ فاحشةً زانيةً يلد مني ولد الزنا.

﴿قَالَ﴾ جبرائيل عليه السلام: ﴿كَذَٰلِكِ﴾ جرى حكم ربك وأمضى عليه في سابق قضائه لا تستبعدي ولا تستعسري إذ ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ الذي رباك

هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ ....

على العصمة والعفاف ﴿هُوَ﴾ أي هبة الولد لك بلا مساس البشر وسبق الأسباب العادية ﴿عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ سهلٌ يسيرٌ، إذ لا يعسر علينا شيء، ولا يعجز عن قدرتنا مقدورٌ، بل إذا أردناه نقول له: كن فيكون بلا سبق سببٍ وعلةٍ ﴿وَ﴾ إنما نظهره ونوجده ﴿لِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ دالةً على كمال قدرتنا وبدائع صنعنا وحكمتنا ﴿وَرَحْمَةً﴾ نازلةً ﴿مِّنَّا﴾ على كافة عبادنا سيما عليك يا مريم ﴿وَكَانَ﴾ خلق عيسى ظهورُه بلا أب في العالم وعروجه إلى السماء ﴿أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ كائناً مثبتاً في لوح قضائنا وحضرة علمنا.

ثم لما سمعت ما سمعت نفخ جبريل عليه السلام في درعها، فوصل أثرها إلى جوفها فحبلت:

﴿۞ فَحَمَلَتْهُ﴾ أي صارت حاملةً بعيسى فجأةً وكبر في بطنها في الساعة وبعد ما ظهر عليها من أمارات الطَّلق ما ظهر ﴿فَٱنتَبَذَتْ﴾ واعتزلت وتباعدت منفردةً ﴿بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾ بعيداً عن العمران استحياءً من أهلها، ومن لوم الناس إياها وتعييرهم عليها بولادتها بلا زوج.

﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ﴾ وظهر أمارة الولادة فألجأها التشبث ﴿إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ اليابسة لتعتمد عليها عند الولادة وتُستر بها عن الناس ﴿قَالَتْ﴾ حينئذ من شدة حزنها وكآبتها ووفور ضجرتها من ألم الملامة والفضاحة

يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا ....

متمنيةً موتها: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ﴾ وعُدمت ﴿قَبۡلَ هَٰذَا﴾ اللوم والفضيحة ﴿وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴿٢٣﴾﴾ متروكاً معدوماً لا التفات لأحدٍ إليّ أصلاً.

ثم لما وضعت حملها واشتد الألم عليها

﴿فَنَادَىٰهَا﴾ أي نادى الوليدُ أمه ﴿مِن تَحۡتِهَآ﴾ بإلهام الله إياه وتنشيطاً: ﴿أَلَّا تَحۡزَنِي﴾ يا أمي ولا يشتد عليك الأمر بواسطة ولادتي وظهوري بلا أبٍ، واعلمي ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ﴾ ولداً ﴿سَرِيّٗا ﴿٢٤﴾﴾ سيداً مطيعاً نقياً سجياً سخياً ذا إرهاصاتٍ وكراماتٍ، من جملتها أنه ظهر لك من تحت رجلك نهراً جارياً لدفع عطشك وتطهير الفضلات عن بدنك وثيابك ﴿وَ﴾ لدفع جوعك ﴿هُزِّيٓ إِلَيۡكِ﴾ أي حرّكي إلى نفسك حين أخذت ﴿بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ التي في جنبك ﴿تُسَٰقِطۡ﴾ أي تتساقط منها ثمارها ﴿عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾﴾ بالغاً في النضج غايته، وحان وقت اجتنائه.

قيل: كانت النخلة يابسة لا رأس لها، والوقت وقت الشتاء، فتغصنت في تلك الحالة وأثمرت ونضجت ثمارها كرامةً لعيسى وإرهاصاً لأمه صلوات الرحمن عليهما.

﴿فَكُلِي﴾ يا أمي من النخلة ﴿وَٱشۡرَبِي﴾ من النهر ﴿وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾ أي نوّري عينك بولدك وطيبي نفسك به ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ﴾ أي إن رأيت ﴿مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا﴾

فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴿٢٨﴾ ....

يسألك عن حالك وولدك ﴿فَقُولِيٓ﴾ في جوابه يعني أشيري إليه: ﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا﴾ أي صمتاً عن التكلم ﴿فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴿٢٦﴾﴾ أي إنساناً.

والحكمة في إلهام الله إياها بالصمت والسكوت حتى لا تجادل مع سفهاء الأنام، إذ ولدها يكفي عن مؤونة جوابها.

ثم لما ظهر أمر ولادتها وشاع بين الأنام قصتُها، فمكثتْ مدة نفاسها في غارٍ هناك وبعدما انقضتْ:

﴿فَأَتَتۡ بِهِۦ﴾ أي بولدها ﴿قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ﴾ أي ولدَها على صدرها، فلما رأوه معها، أخذوا في لومها وتقريعها حيث ﴿قَالُواْ﴾ معيرين منادين بها على سبيل التوبيخ واللوم: ﴿يَٰمَرۡيَمُ﴾ الصالحة العفيفة المشهورة بالعصمة في بيت المقدس ﴿لَقَدۡ جِئۡتِ﴾ بالآخر ﴿شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ﴿٢٧﴾﴾ منكراً بديعاً في غاية الشناعة والفضاحة.

﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ هو رجلٌ صالحٌ نسبوها إليه تهكماً، وقيل: هي من أولاد هارون أخي موسى، نسبوها إليه وإن تطاولت المدة بينهما ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ﴾ منسوبٍ إلى الفواحش والزنا والخروج عن حدود الله ﴿وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴿٢٨﴾﴾ زانيةً فاجرةً بل هما من أصلح القوم وأزكاهم

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ الْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠)﴾ ....

عن الفواحش والفسوق، فكيف أنت ومن أين اكتسبت هذا؟!

وبعد ما تمادى تعييرهم وتشنيعهم

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ أي إلى ولدها، بأن قل لهم في جوابهم ما يفحمون به ويسكتون، بل يتيهون ويتحيرون، ولما رأوا إشارتها إليه وتفويضها الجواب نحوه ﴿قَالُوا﴾ على سبيل الاستهزاء: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩)﴾ رضيعاً ولم يُعهد من مثله التكلم، أنت قد خجلتِ واستحييتِ تدفعينَنَا بهذا الرضيع، مع أنه معصومٌ لا ذنب له.

ولما رأى عيسى اشتداد اللائمين على أمه بالتقرح والتشنيع واضطرار أمه واضطرابها من لومهم، أخذ في الجواب بإلهام الله إياه حيث

﴿قَالَ﴾ مفصحاً معرباً على وجه الفصاحة والبلاغة، مشتملاً على الحكمة البالغة: لا تعيروا أيها الجاهلون عن أمري وعلو شأني في أمي الكاملة المتناهية في العصمة والعفة، ولا ترموها بما لا يليق بعلو شأنها وجلالة قدرها ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ الحكيم المتقن في أفعاله، المستقل في حكمه وآثاره، خصني بالنبوة والرسالة، وأيدني بأنواع الكرامات والمعجزات، وأبدعني من محض جوده من روحه، وأرسلني إلى عباده للهداية والإرشاد إلى توحيده لذلك ﴿ءَاتَىٰنِيَ الْكِتَٰبَ﴾ أي الإنجيل النازل من عنده علي لترويج رسالتي وإرشادي وتتميم تكميلي ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠)﴾ كسائر الأنبياء.

وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا
﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ نفّاعاً كثيرَ الخير والبركة لأهل الصلاح من البرية ﴿أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ وحيثما توطنتُ وجلستُ معهم يَصِل خيري إليهم، ﴿وَ﴾ من كمال تربية الله وتزكيته إياي ﴿أَوْصَانِي﴾ وأمرني ﴿بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ والميلِ التام والتوجه نحوه بالجوارح والأركان ﴿وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ أي التخلية والتطهير عن جميع الرذائل والخبائث المتعلقة بالنفوس البشرية، المنغمسة بالعلائق الدنياوية، المبعدة عن صفاء الوحدة الذاتية ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ بروح الله الذي أبدعني منه خالصاً صافياً عن جميع الكدورات، وأوصاني بما أوصاني من عنايةٍ منه لأكون باقياً على صفائي، وطهارة لاهوتي بلا كدرٍ من خبائث الناسوت.

﴿وَ﴾ جعلني أيضاً ﴿بَرًّا﴾ أي باراً محسناً ﴿بِوَٰلِدَتِي﴾ ممتثلاً بأمرها، قائماً بخدمتها، خافضاً جناح الذل من الرحمة إياها، والحمد لولي الحمد الذي رباني سعيداً على الطهارة والصلاح وأنواع الكرامة والفلاح والتذلل والتواضع مع عموم عباده ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا﴾ متكبراً متجبراً على الناس ﴿شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ بعيداً عن روح الله مستجلباً لعذابه.

﴿وَ﴾ متى سلمني الله وطهرني عن جميع ما يعوقني عن مقتضى صرافة الوحدة الذاتية الإلهية المعبرة عنها بروح الله صار ﴿ٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ﴾ أي سلام الله وحفظه ﴿يَوْمَ وُلِدتُّ﴾ عن أمرٍ يحفظني عن مسِّ الشيطان

وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن ....

﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾ يحفظني عن شرِّه ووسوسته أيضاً ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ﴾ للحشر أكون ﴿حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ بحياة الله وروحه كما كنت قبل هذا.

ثم لما سمعوا من عيسى ما سمعوا، تاهوا وتحيروا في أمره، وصاروا حيارى متعجبين في علو شأنه وشأن والدته وجلالة قدرهما فاختلفوا وتحزبوا، فرقةٌ منهم قالت بألوهيته، وفرقةٌ قالت بإبنيته لله، وفرقةٌ قالت بالأقانيم، ومنهم من رماه وأمه بما لا يليق بشأنهما.

أخبر سبحانه حبيبه بما هو الواقع والحق الصريح فقال:

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي القائل بهذه الكلمات والموصوف بهذه الصفات المذكورة هو ﴿عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ لا ما قاله الغلاة من النصارى، ولا ما قاله طغاة اليهود بل ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ هذا ﴿ٱلَّذِى﴾ ذُكر لك يا أكمل الرسل ﴿فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ ويترددون، مع أنه لا ريب فيه، لا ما قالته النصارى بأنه ابن الله، إذ

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ﴾ أي ما صحَّ وجاز بعلو شأنه سبحانه ﴿أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾ أي هو منزهٌ في ذاته عن الأهل والولد؛ لأنه لا يليق بذاته المعاونةُ والاستظهارُ بهما تعالى عن ذلك، بل من حكمه وشأنه أنه ﴿إِذَا قَضَىٰٓ﴾ وأراد ﴿أَمْرًا﴾ من الأمور الكائنة في عالم الأمر ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ﴾ له حين تعلق إرادته بتكوينه: ﴿كُن﴾ بلا ترتيبٍ في السمع بتقديم الكاف على النون.

فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ....

إذ كلامه القائم بنفسه سبحانه نفسيٌّ ذاتيٌّ لا يُتوهم فيه الحروفُ والأصوات ومقاطعها؛ ليتصور الترتيب بالتقدم والتأخر كما يُتوهم في الألفاظ الصادرة عنا، بل يخلق سبحانه بقدرته الكاملة في لساننا لفظاً معجزاً لا من جنس ألفاظنا ليسع لنا التعبير عن كلامه وقتَ إرادة نفوذِ قضائه، وهو لفظة: كن، وعن حصول المقضي بلفظ: ﴿فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾ أيضاً بلا تراخٍ وتعقيبٍ يُفهم من الفاء، ومَن كان شأنُه هذا من أين يكون له حاجة إلى الأهل والولد وإحبالُ المرأة ووقاعها؟! تعالى عما يقولون علواً كبيراً.

بل هو سبحانه واحدٌ أحدٌ فردٌ وِترٌ صمدٌ لم يتخذ صاحبةً ولا ولداً.

هذا: أي من قوله: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [١٩-مريم:٣٤] إلى هناكلامٌ وقع في البين.

ثم قال سبحانه حكايةً عن عيسى، ومن جملة ما أوحى إليه:

﴿وَ﴾ بعد ما بالغ عيسى في بيان طهارته وعصمة أمه وتكلم في غير أوان التكلم بكلام عجيبٍ غريبٍ، عَلِم بنور النبوة ونجابةِ الفطرة أن بعضهم قد يقولون في شأنه وشأن أمه ويتخذونه إلها، أورد كلاماً نافياً لظنونهم وجهالاتهم دافعاً لغلوهم واتخاذهم فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ﴾ الذي أوجدني وأبدعني بلا أبٍ هو ﴿رَبِّى﴾ الذي رباني وأمي بأنواع الكرامة، وأظهرني من كتم العدم بمقتضى قدرته ﴿وَ﴾ هو سبحانه ﴿رَبُّكُمْ﴾ أيضاً أوجدكم وأظهركم مثلي إيجاداً إبداعياً ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ ووحّدوه ولا تشركوا معه شيئاً

هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ ....

من المخلوقات، وتوجهوا نحوه بالتذلل التام والانكسار، إذ هو المستحق للعبادة لا معبود سواه، ولا إله إلا هو ﴿هَٰذَا﴾ الذي بينت لكم ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ وطريقٌ واضحٌ سويٌّ موصلٌ إلى معرفة الحق وتوحيده، فاتبعوه إن كنتم مؤمنين موقنين بتوحيده.

وبعدما نبههم عيسى صلوات الرحمن عليه بالطريق الأبين الأوضح:

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ أي فِرق النصارى واليهود في شأنه وشأن أمه اختلافاً ناشئاً ﴿مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ بلا سندٍ شرعيٍ وعقليٍ، فأفرط النصارى باتخاذه إلهاً وابناً له، وفرّط اليهود بنسبته وأمه إلى ما لا يليق بشأنهما.

وبالجملة: فاستحق كلا الفريقين بأشد العذاب وأسوأ العقاب:

﴿فَوَيْلٌ﴾ عظيمٌ وعذابٌ شديدٌ أليمٌ ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي ستروا ما هو الحق في شأنه وعدلوا عنه إلى الباطل بلا حجةٍ وبرهانٍ ﴿مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ أي من شهود يوم القيامة وظهوره، وهم يُسحبون فيه على وجوههم نحو النار، ويُكبون عليها صاغرين مضطرين ﴿أَسْمِعْ﴾ أيها المسمع ﴿بِهِمْ﴾ أي بأنينهم وحنينهم [وفي نسخة: حثيثهم في النار] ﴿وَأَبْصِرْ﴾ أيها المبصر بأغلالهم وسلاسلهم ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ للعرض والحساب مضطرين مسحوبين[1] ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الخارجون عن مقتضى أوامرنا ونواهينا ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ الذي في النشأة الأولى ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ وجهلٍ عظيمٍ عن أهوال يوم القيامة وأفزاعه.

(١) في المخطوط (مسجونين).

وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ....

﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾ يا أكمل الرسل مَن عندك فهم ﴿يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ المعدة للجزاء بحيث لا يكون فيها التلاقي والتدارك على ما فات سوى الحسرة والندامة الغير المفيدة ﴿إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ ونزلَ العذاب ومضى زمان امتثال المأمور ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ وغرورٍ عن مضيه ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ ولا يصدقون بإتيان هذا اليوم الموعود على ألسنة الرسل والكتب وكيف لايصدقون هذا اليوم أولئك الكاذبون المكذبون المستغرقون في بحر الغفلة والضلال التائهون في تيه الغرور.

﴿إِنَّا﴾ من مقام قهرنا وجلالنا ﴿نَحْنُ﴾ بانفرادنا ووحدتنا ﴿نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ بعد انقهارها واضمحلال أجزائها وتشتيت أركانها بمقتضى القدرة الغالبة بحيث صار كل من عليها فانٍ، ولم يبق سوى وجهنا الكريم وصفاتنا القديمة، فانقلبت تجلياتنا المتشعشة المتجددة من هذا النمط البديع إلى نمطٍ أبدعَ منه وأكملَ، إذ نحن في كل يومٍ وآنٍ في شأنٍ، ولا يشغلنا شأنٌ عن شأنٍ ﴿وَ﴾ كيف لا نرث من على الأرض الوجودَ وفضاءَ الشهودِ إذ الكل ﴿إِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ رجوع الظل إلى ذي الظل، والأمواج إلى البحر، والأضواء والأظلال إلى شمس الذات، وبعد رجوع الكل إلينا نُودِي من وراء سرادقات عزنا وجلالنا: لمن الملك اليوم؟! وأجيب أيضاً منها، إذ لا يجب الوجود لسوانا: لله الواحدِ القهارِ للأظلالِ والأغيارِ.

وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ ....

﴿وَٱذۡكُرۡ﴾ يا أكمل الرسل ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ المتلوِّ عليك المنزل إليك جدَّك ﴿إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾ أي محامد أخلاقه ومحاسن شيمه لتنتفع بها أنت ومن معك من المؤمنين وتمتثل بأخلاقه أنت وهم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا﴾ صدوقاً مبالغاً في الصدق والصداقة وتصديق الحق وتوحيده ﴿نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾ من خلّص الأنبياء، اذكر أوان انكشافه وإيقاظه من منام الغفلة التي هي عبادة الأوثان والأصنام وقت:

﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ مستنكراً عليه متعجباً من أمره منادياً له رجاء أن يتفطن ويتنبه بما تنبه به هو: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ﴾ وتطيع ﴿مَا لَا يَسۡمَعُ﴾ أي شيئاً لا يقدر على السمع ﴿وَلَا يُبۡصِرُ﴾ أي لا يقدر على الإبصار، والمعبودُ لا بد أن يَرى ويَسمع أحوال عباده وحاجاتهم ومناجاتهم ﴿وَ﴾ إذا لم يسمع ولم يبصر ﴿لَا يُغۡنِي﴾ ويدفع ﴿عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾﴾ من مكروهاتك ولا يعينك، فلا يصلح إذاً للألوهية والربوبية، فلِمَ عبدت واطعتَ له مع أنه نحتَّه بيدك وأظهرتَ أنت هيكله وشكله، والعجب منك كل العجب أنه مصنوعك أخذته إلهاً صانعاً معبوداً مستحقاً للعبادة، مع أنك من ذوي الرشد والعلم، وهو جمادٌ لا شعور له أصلاً.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي﴾ وإن كنت ابنكِ أصغر منك لكن ﴿قَدۡ جَآءَنِي﴾ ونزل عليّ ﴿مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ من قِبل الحق مع صغر سني ﴿مَا لَمۡ يَأۡتِكَ﴾ مع كبرك لأن

فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ
لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ
لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ ....

الفضل بيد الله وبمقتضى إرادته يؤتيه من يشاء ﴿فَٱتَّبِعۡنِيٓ﴾ أي اتبع ما أنزل عليّ من قِبل ربي من خلوص الاعتقاد ﴿أَهۡدِكَ﴾ بتوفيق الله وإرشاده ﴿صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾﴾ موصلاً إلى المعبود بالحق وتوحيده.

﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ بعبادة هذه التماثيل الباطلة والهياكل العاطلة، إذ ما هو إلا بإغوائه وتضليله لأنه عدو لك ولأبناء آدم عداوةً قديمةً مستمرةً ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾ المغوي المضل عن طريق الحق ﴿كَانَ﴾ من الأزل إلى الأبد ﴿لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ المفيض لأصناف الخيرات والسعادات سيما الإيمان والعرفان المنجي عن الحرمان والخذلان عند لقاء الحنان المنان ﴿عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾﴾ عصى هو وانتظر لعصيان غيره وسعى بإضلاله وتسويلاته ليضل أهل الحق عن طريقه.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ﴾ من غاية إشفاقي وعطفي ﴿أَخَافُ﴾ عليك ﴿أَن يَمَسَّكَ﴾ وينزل عليك ﴿عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ المنتقم لأهل[1] الضلال والطغيان بدل الثواب والغفران ﴿فَتَكُونَ﴾ حينئذٍ بشقاوتك وطغيانك ﴿لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾﴾ صديقاً، وللرحمن عدواً ببغيك وعصيانك له ومتابعتك لعدوه.

ثم لما تمادى مكالمة إبراهيم مع أبيه ومحاورته على سبيل النصح والتذكير .

---

(١) أي من أهل.....

قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى
مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾

﴿ قَالَ﴾ أبوه مقرعاً عليه مهدداً له مضللاً إياه: ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ﴾ أي مُعرضٌ بريءٌ ﴿عَنْ ءَالِهَتِى﴾ ومعبوداتي، مع أن عبادتهم أولى وأليق بحالك ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ إذ خير الأولاد أن يتبع آباءه في الدين، سيما وقد سلف أجدادك على هذا وأنت استنكفت عن عبادة آلهتنا، انتهِ عن اعتقادك هذا، واللهِ ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ ﴾ ولم تمتنع ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ وأرميَنَّك بالأحجار على رؤوس الأشهاد حتى تموت، قم من عندي ﴿وَٱهْجُرْنِى ﴾ واتركني ﴿مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ زماناً طويلاً، فإن ندمت عن اعتقادك هذا، ورجعتَ إلى ما كنا عليه ـ يعني عبادة الأصنام ـ فارجع إليّ، وإلا فاذهب لا علاقة بيني وبينك فأنا بريء منك.

ثم لما رأى إبراهيم عليه السلام شدة غيّه وضلاله ورسوخ جهله وطغيانه.

﴿ قَالَ﴾ مسترجعاً إلى الله مودعاً عليه مسلماً: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ أي سلامي عليك يا أبي، أهجرك بإجازتك إلا أني ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ﴾ لينقذك من أوزار الشرك، ويوصلك إلى مرتبة توحيده، شكراً لأبوتك، ورعايةً لحضانتك، وألتجئ نحو الحق، وألوذ به من شرِّك الذي هددتني به، ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ مشفقاً رحيماً يحفظني من شرِّك ومن شرِّ جميع من عاداني.

وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ

﴿وَ﴾ متى لم يُفِدْ لك نصحي ولم ينفع لك تذكيري ووعظي ﴿أَعْتَزِلُكُمْ﴾ وأترككم على حالكم ﴿وَ﴾ أترك أيضاً ﴿مَا تَدْعُونَ﴾ وتعبدون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وأتبرأ عنهم[1] ﴿وَأَدْعُواْ رَبِّى﴾ الذي رباني بفضله بالإيمان، وأوصلني بلطفه إلى فضاء التوحيد والعرفان، وأعبد إياه وأطيعه في جميع أوقاتي وحالاتي ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى﴾ والتوجه نحوه والتحنن إليه ﴿شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ خائباً خاسراً عن رحمته، ذا شقاوةٍ جالبةٍ لسخط الله وغضبه.

﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ﴾ وبَعُدَ عنهم واختار الغربةَ والفرارَ من بينهم ﴿وَ﴾ تركَ عبادة ﴿مَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأوثان والأصنام ﴿وَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾ من مقام جودنا وفضلنا ﴿إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ليؤانس بهم، ويدفع كربة الغربة بصحبتهما ﴿وَ﴾ لنجابة طينتهما وكرامة فطرتهما ﴿كُلًّا﴾ منهما ﴿جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾ مثل أبيهما مهبطاً للوحي والإلهام مثله.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُم﴾ أي لإبراهيم وولديه ﴿مِّن﴾ سعة ﴿رَّحْمَتِنَا﴾ ووفور جودنا الأموالَ والأولادَ والجاهَ والثروةَ، إلى أن صاروا مرجع الأنام وحاكمهم في الأحكام إلى يوم القيامة ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ﴾ أي جعلنا ثناءهم

---

(١) أي منهم.

عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾
وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ
نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ ....

ومدحهم العائد إليهم عن ألسنة البرايا ثناءَ صدقٍ وتحقيقٍ، لا خطابة تحننٍ كثناء سائر الملوك والجبابرة، لذلك صار ثناؤهم ﴿عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ مظهراً لعلو رتبتهم وشأنهم إلى انقراض النشأة الأولى، كل ذلك ببركة دعاء إبراهيم عليه السلام، وإجابة الحق له حيث قال في مناجاته مع ربه: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ [٢٦-الشعراء: ٨٤].

﴿وَٱذْكُرْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ المنزل عليك أخاك ﴿مُوسَىٰٓ﴾ الكليم وقصة انكشافه من الشجرة المباركة ﴿إِنَّهُۥ﴾ من كمال انكشافه وشهوده بوحدة الحق ﴿كَانَ مُخْلَصًا﴾ خلص للتوحيد، وصفا عن أكدار ناسوته مطلقاً ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿كَانَ رَسُولًا﴾ مرسلاً إلى بني إسرائيل للإرشاد والتكميل مؤيداً بالكتاب والمعجزات ﴿نَّبِيًّا ﴿٥١﴾﴾ أيضاً بالوحي والإلهام والرؤيا.

﴿وَ﴾ لكمال إخلاصه ومزيد اختصاصه بنا ﴿نَادَيْنَاهُ﴾ بعد المجاهدة الكثيرة والرياضات البليغة ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ أي ذي اليُمْنِ والبركة وأنواع السعادة لموسى ﴿وَ﴾ بعدما انكشف بالنداء بما انكشف وشهد ما شهد ﴿قَرَّبْنَاهُ﴾ بنا إلى أن صار ﴿نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾ مناجياً بنا متكلماً معنا إذ كنا حينئذ سمعه وبصره وجميع قواه، فبنا يسمع، وبنا يبصر، وبنا يتكلم.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن﴾ كمال ﴿رَّحْمَتِنَآ﴾ وفضلنا إياه تأييداً له وتعضيداً ﴿أَخَاهُ هَٰرُونَ﴾ ليؤيده ويقويه في تنفيذ أحكام النبوة والرسالة ﴿نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ أيضاً ليكون أيضاً على عزيمةٍ صادقةٍ وقصدٍ خالصٍ في إجراء الأحكام الإلهية.

وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ﴿٥٥﴾ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٦﴾ ....

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أيضاً جدك ﴿إِسۡمَٰعِيلَۚ﴾ ذبيح الله الراضي بجميع ما جرى عليه من قضائه ﴿إِنَّهُۥ﴾ من كمال وثوقه واعتماده على الله وتفويضه الأمور كلها إليه ﴿كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾ والعهد عند الله وافياً لميثاقه، صابراً على مصائبه وبلائه، شاكراً لآلائه ونعمائه ﴿وَكَانَ﴾ أيضاً كأبيه وإخوته ﴿رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٤﴾﴾ وإن لم ينزل عليه الشرع، إذ بعض أولاد إبراهيم صلوات الرحمن عليه وعليهم كانوا أنبياء مرسلين جارين على ملة أبيهم وشرعه.

﴿وَ﴾ من خصائله الحميدة أنه ﴿كَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ﴾ أولاً لأنهم أولى بالإرشاد والتكميل وأحق من غيرهم ﴿بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ التي هي التوجه نحو الحق بجميع الجوارح والأركان والتقرب نحوه عن ظهر القلب ومحض الجنان ﴿وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ التي هي تصفية النية وتخلية الطوية عن الميل إلى مزخرفات الدنيا وحطامها الزائلة ﴿وَكَانَ﴾ من كمال تنزهه عن العلائق والعوائق العائقة عن التوجه الخالص نحو الحق ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾ الذي رباه على كمال الرضا والتسليم ﴿مَرۡضِيّٗا ﴿٥٥﴾﴾ لوفائه الوعد، واستقامته فيه، وصبره على ما جرى عليه من البلوى.

﴿وَٱذۡكُرۡ﴾ يا أكمل الرسل ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أيضاً ﴿إِدۡرِيسَۚ﴾ صاحب دراسة التوحيد والعرفان، وقالع أهوية النفس وأمانيها بشدائد الرياضات والمجاهدات في مسالك التصديق والإيقان ﴿إِنَّهُۥ﴾ من كمال رشده وحكمته ﴿كَانَ صِدِّيقٗا﴾ مبالغاً في التصديق والتحقيق ﴿نَّبِيّٗا ﴿٥٦﴾﴾ مبعوثاً إلى الناس كسائر الأنبياء

وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ....

للهداية والتكميل.

﴿وَ﴾ لعلو شأنه وسموّ برهانه وكمال تصفيته وتزكيته عن لوازم البشرية ﴿رَفَعْنَاهُ﴾ تلطفاً إياه ﴿مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ هو أعلى درجات المعرفة والتوحيد. وقيل إلى السماء الرابعة أو السادسة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المذكورون من زكريا إلى إدريس كلهم أنبياء الله وأُمناؤه في أرضه لأنهم ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ بأنواع النعم الظاهرة والباطنة، واصطفاهم من بين البرية للهداية والتكميل، وهم ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ المنتشئين ﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ في السفينة حين ظهر الطوفان على وجه الأرض ﴿وَ﴾ بعضهم ﴿مِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَ﴾ ابنه يعقوب الملقب من عند الله ﴿إِسْرَٰٓءِيلَ وَ﴾ وكلٌ منهم ﴿مِمَّنْ هَدَيْنَا﴾ إلى توحيدنا ﴿وَٱجْتَبَيْنَآ﴾ من بين البرايا للتكميل والتشريع ووضع الأحكام بين الأنام كلهم من كمال يقينهم وعرفانهم وتمكنهم في مقر التوحيد ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ ودلائل توحيده وتجريده ﴿خَرُّواْ﴾ خرورَ تواضعٍ ورهبةٍ ﴿سُجَّدًا﴾ متذللين واضعين جباههم على تراب المذلة والهوان، راجين من سعة رحمته على مقتضى لطفه وجماله ﴿وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ باكين خائفين من خشية الله بمقتضى قهره وجلاله، فإن المؤمن لا بد أن يكون في جميع حالاته بين الخوف والرجاء.

﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴿٦٠﴾ ....

ثم لما ظهر على الأرض التي هي محل الشرور والفتن وأنواع الفسادات ما ظهر من أنواع المكروهات والمنكرات، وهم عند ظهورها واشتهارها بذلوا جهدهم في تنفيذ الأحكام الشرعية المنزلة على مقتضى زمان كلٍ منهم، فكملوا وأرشدوا مقدار جهدهم وطاقتهم.

﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ واستعقبهم ﴿خَلۡفٌ﴾ سوءٌ ـ بالسكون ـ لا خلَف جيد صدق ـ بالحركة ـ قد ﴿أَضَاعُواْ﴾ وأبطلوا ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المقربة نحو الحق مع أنها من أقوى أسباب الإيمان ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ﴾ النفسانية المبعدة عنه الجالبة لأنواع العذاب والنكال، وأباحوها لنفوسهم وأصروا على إباحتها ﴿فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ﴾ في النشأة الأولى ﴿غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ شراً وخسراناً أوعذاباً ونيراناً يترتب على شهواتهم ولذاتهم الفانية.

﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ ورجع عنها نادماً ولم يرجع إليها أصلاً ﴿وَءَامَنَ﴾ أي صدق حرمتها ﴿وَ﴾ بعد التوبة والرجوع ﴿عَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ ليصلح ما أفسد بمتابعة الهوى ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ التائبون الآيبون النادمون عما صدر عنهم من متابعة الهوى بإغواء الشيطان وإغرائه ﴿يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ لسائر المؤمنين المطيعين ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴿٦٠﴾﴾ أي لا يُنقصون شيئاً من درجات المؤمنين الغير العاصين، إن كانت توبتهم على وجه الإخلاص والندامة الكاملة، بل لهم كسائر عباد الله.

جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ
فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ
مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ ....

﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ﴾ تفضلاً عليهم وجزاءً لأعمالهم وإيمانهم ﴿بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾ أي بلوح القضاء ومضي العلم يصلون إليها ويتمكنون فيها ﴿إِنَّهُۥ﴾ من كمال عطفه ورحمته لعباده ﴿كَانَ وَعۡدُهُۥ﴾ الذي وعده إياهم ﴿مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾﴾ أي حاصلاً بلا ريبٍ وترددٍ، ومتى دخلوا في دار السلام:

﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا﴾ من أحدٍ ﴿لَغۡوًا﴾ فضولاً من الكلام ﴿إِلَّا سَلَٰمٗاۖ﴾ من كل جانبٍ تحيةً وتكريماً وترحيباً ﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ﴾ الصوري والمعنوي معداً مهيأً ﴿فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾﴾ أي مستوعباً لجميع الأوقات إذ أكلها دائم.

﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ﴾ الموصوفة الموعودة ﴿ٱلَّتِي نُورِثُ﴾ أي نوطن ونمكن ﴿مِنۡ عِبَادِنَا﴾ فيها ﴿مَن كَانَ﴾ منهم ﴿تَقِيّٗا ﴿٦٣﴾﴾ متصفاً بالتقوى حَذِراً عن الهوى خائفاً.

﴿وَ﴾ بعدما أبطأ الوحي على رسول الله حين سأله المشركون من قصة أصحاب الكهف وأمر الروح وقصة ذي القرنين، فوعد لهم الجواب ولم يستثن، وانقطع الوحي خمسة عشر يوماً، وقيل أربعين، حتى عيّروه واستهزؤوا معه، حيث قالوا: ودّعه ربه وقلاه.

ثم لما نزل جبريل عليه السلام استبطأ ﷺ نزولَه وشكا، قال جبريل عليه السلام في جوابه: نحن معاشر الملائكة ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ﴾ ونوحي إلى أحدٍ ﴿إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ﴾ وإنزاله وإرساله.

لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ ....

إذ التصرف ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ أي عندنا وفي علننا ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ أي في سرنا واستعدادنا، وما غاب عنا وخفي علينا ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ﴾ الطرفين المذكورين وبالجملة مستوعبٌ بنا، محيطٌ لجميع أحوالنا بلا فوت شيءٍ وغيبته عنه، بل الكل حاضرٌ عنده ﴿وَ﴾ حينئذ ﴿مَا كَانَ رَبُّكَ﴾ تعالى شأنه ﴿نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ حتى يُنسب إبطاء الوحي إلى نسيانه، وكيف يتصور نسيانه، إذ هو:

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ لا يعزب ويغيب عن علمه شيء منها لمحةً، وإذ تحققتَ ما تلونا عليك يا أكمل الرسل وتأملتَ في معناه حق التأمل والتدبر ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾ راجياً منه العناية على العبادة وجزاء الخير ﴿وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ﴾ وتحمل لمتاعبها، واثبت عليها، ولا تستعجل بوحيٍ ما قصدتَ وأحببتَ نزوله، ولا تقنط أيضاً، إذ الكل بيده مرهونٌ بوقتٍ، ولا تضطرب من استهزاء الكفرة وسخريتهم وكيف اضطربت ﴿هَلْ تَعْلَمُ﴾ وتسمع ﴿لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ مثلاً مسمىً بالإله المستحق للتوجه والعبودية لإنجاح المطلوب سواه حتى ترجع إليه، فلكَ العبادة والاصطبار وترك الاضطراب والاستعجال، وتفويض جميع الأمور إلى الكبير المتعال.

﴿وَ﴾ من غاية الجهل ونهاية الغفلة عن ربوبيته ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ المجبول

أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ....

على النسيان والكفران بنعم الله وإنكار قدرته على إعادة المعدوم: ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ﴾ وصرتُ عظاماً ورفاتاً ﴿لَسَوْفَ أُخْرَجُ﴾ من الأرض ﴿حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾ سوياً مُعاداً؟! كلا وحاشا هذا محالٌ باطلٌ، وضلالٌ ظاهرٌ.

﴿أَ﴾ ينكر المنكر المصرُّ على قدرتنا ويصرُّ على الإنكار ﴿وَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ المكابر المعاند ﴿أَنَّا خَلَقْنَٰهُ﴾ وأبدعناه ﴿مِن قَبْلُ وَ﴾ والحالُ أنه ﴿لَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾ أي مما يطلق عليه الشيء، ولا مسبوقٌ بشيءٍ، فقدرنا على إيجاده وإظهاره من العدم الصرْف، ولِمَ لَمْ نقدر على إعادته بعد سبق أجزائه. والإعادةُ والإبداءُ وإن كان عندنا على السواء، إلا أن الإعادة بالنسبة إلى فهمهم أسهل وأيسر من الإبداء والإبداع لا عن شيءٍ.

﴿فَوَرَبِّكَ﴾ الذي هو أعظم الأسماء الإلهية وأشملها وبعزته وجلاله ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ أولئك الضالين ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ المضلين لهم معهم، منخرطين في سلسلتهم ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ﴾ مقيدين مغلولين ﴿حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾﴾ باركين على الركب، قائمين على أطراف الأصابع بلا تمكنٍ لهم واطمئنانٍ مثل الجاني الخائف عند الحاكم القاهر القادر على أنواع الانتقام.

ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ....

﴿ثُمَّ﴾ بعد حشرهم وإحضارهم على النار ﴿لَنَنزِعَنَّ﴾ أي ننتخبن ونخرجن ﴿مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ أي فرقةٍ شاعت منهم موجبات العذاب والنكال ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ المفيض لهم أنواعَ الخيرات والبركات ﴿عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾ جراءةً على العصيان له وعلى ترك أوامره وارتكاب نواهيه، ليطرح أولاً على مقر النار، ثم الأمثل فالأمثل إلى انطراح الكل فيها على تفاوت طبقاتهم ودرجاتهم في موجباتها قوةً وضعفاً.

﴿ثُمَّ﴾ بعد انتزاعنا وانتخابنا ﴿لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ﴾ وأحق ﴿بِهَا﴾ أي بدخول النار ﴿صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾ أي دخولاً وطرحاً أولياً سابقاً على الكل، وهم الرؤساء الضالون المضلون، إذ يضاعف عذابهم لضلالهم وإضلالهم.

ثم قال سبحانه مخاطباً لبني آدم بأجمعهم: لا تغتروا بدنياكم ولذاتها وشهواتها:

﴿وَ﴾ اعلموا ﴿إِن مِّنكُمْ﴾ أي ما منكم أيها المتلذذون بزخرفة الدنيا ﴿إِلَّا وَارِدُهَا﴾ أي واردُ النار وواقعُها، ذاق كلٌّ منكم من عذابها مقدارَ ما يتلذذ من الدنيا.

أما المؤمنون المطيعون المتقون الذين يقنعون في الدنيا بسدِّ جوعةٍ ولبسِ خشنٍ وكنٍ ضروري فيمرون عليها وهي خامدةً عبرة لهم منها وشكراً لنعمة النجاة عنها، وأما المؤمنون العاصون التائبون فيذوقون من عذابها مقدار

كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا ....

تلذذهم بالمعاصي، ثم يخرجون على مقتضى عدله سبحانه.

وأما أصحاب الكبائر من المؤمنين الخارجين من الدنيا عليها بلا توبةٍ، وعموم الكفرة والمشركين، فهم الواردون المقصورون على الورود فيها إلا أن المؤمنين تلحقهم الشفاعة، وأما الكفرة فهم الخالدون المخلدون لا نجاة لهم منها أصلاً.

ولا تترددوا أيها السامعون ولا تشكّوا في المذكور إذ:

﴿كَانَ﴾ ورودكم وعرض النار عليكم من جملة الأحكام المبرمة الإلهية التي وجب ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل وجوباً ﴿حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ محققاً بلا شبهةٍ وتخلفٍ أوجبها سبحانه على نفسه لِحِكَمٍ ومصالحَ خص سبحانه في سترها ولم يفش على أحدٍ.

﴿ثُمَّ﴾ بعد الورود والوصول ﴿نُنَجِّي﴾ ونخلص ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ عن محارمنا في النشأة الأولى اتقاءً من سخطنا وطلباً لمرضاتنا ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الخارجين عن مقتضى أوامرنا ونواهينا خالدين ﴿فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ لا يمكنهم الخروج والتجاوز عنها أصلاً، بل صاروا مزدحمين فيها مضيّقين معذَّبين بأنواع العذاب أبد الآباد.

﴿وَ﴾ كيف لا يخلدون في النار وهم من كمال غيّهم وضلالهم ونهاية غفلتهم وقسوتهم ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ في نشأة الاختبار ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ الدالةُ على

بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا ﴿٧٣﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا ﴿٧٤﴾ ....

توحيدنا وكمالِ قدرتنا على الإنعام والانتقام مع كونها ﴿بَيِّنَٰتٖ﴾ واضحاتٍ في الإعجاز بلا ريبٍ وترددٍ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بعدما عجزوا عن معارضتها وأُفحموا عن المقابلة معها، متشبثين بما عندهم من المال والجاه والثروة والرئاسة مفتخرين بها قائلين على سبيل التهكم ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ﴾ أي أنحن الأغنياء المتلذذون بأنواع اللذات المتمكنون بجميع المرادات والشهوات، أم أنتم أيها الفقراء الضعفاء المحتاجون بما تقتاتون في يومكم هذا؟ ﴿خَيۡرٞ مَّقَامٗا﴾ أي مرتبةً ومكاناً عند الله ﴿وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا ﴿٧٣﴾﴾ مجلساً ومنزلاً عنده، ولولا أنا أفضل وأخير منكم عند الله، لما أعطانا ما أعطانا ولما منع عنكم ما منع.

ثم لما افتخروا وتفضلوا على المؤمنين بما عندهم من حطام الدنيا وزخرفتها، ردَّ عليهم وهدَّدهم على الوجه الأبلغ الأتم فقال على سبيل العبرة:

﴿وَكَمۡ﴾ أي كثيراً ﴿أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم﴾ في الأزمنة الماضية ﴿مِّن﴾ أهل ﴿قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ﴾ وأكثر من هؤلاء المفتخرين المعاندين ﴿أَثَٰثٗا﴾ أي من جهة الأمتعة الدنياوية وما يترتب عليها من الجاه والثروة والكبر والخيلاء ﴿وَ﴾ أحسن ﴿رِءۡيٗا ﴿٧٤﴾﴾ أي زينةً وبهاءً.

ثم لما لم يتذكروا بالآيات والنذر ولم يتفطنوا منها إلى توحيد الحق وصفائه، ولم يشكروا نِعَمَه، بل أصروا واستكبروا بما عندهم من المزخرفات

﴿قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ
وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا ٧٥ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ
ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٞ مَّرَدًّا ٧٦﴾

الفانية، فهلكوا واستؤصلوا.

﴿قُلۡ﴾ لهم يا أكمل الرسل نيابةً عنا كلاماً ناشئاً عن محض الحكمة: ﴿مَن كَانَ﴾ منغمساً منهمكاً ﴿فِي ٱلضَّلَٰلَةِ﴾ مجبولاً عليها ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ وليمهله ﴿مَدًّاۚ﴾ مهلاً طويلاً، وليمتعهم تمتيعاً كثيراً أي رغداً واسعاً ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ على ألسنة الرسل والكتب ﴿إِمَّا ٱلۡعَذَابَ﴾ العاجل لهم في النشأة الأولى بأن غلب المسلمون عليهم فقتلوهم وأسروهم وضربوا الجزية عليهم مهانين صاغرين ﴿وَإِمَّا﴾ تأتيهم ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ بغتةً ﴿فَسَيَعۡلَمُونَ﴾ إذاً بالعيان والمشاهدة ﴿مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا﴾ ومقاماً عند الله ﴿وَأَضۡعَفُ جُندٗا ٧٥﴾ أو أقلُّ ناصراً ومعيناً.

﴿وَ﴾ بعد ما صار مَآلُ الكفار وبالاً عليهم ومنالُهم نكالاً لهم ﴿يَزِيدُ ٱللَّهُ﴾ الهادي لعباده المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ﴾ إلى زلال عرفانه وتوحيده ﴿هُدٗىۗ﴾ هدايةً ورشاداً باقياً أزلاً وأبداً بدل ما نقص عنهم من حطام الدنيا الفانية ومتاعها الزائلة الذاهبة ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ المقربة إلى الله، المستتبعة لأنواع الفضل والثواب ﴿خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿ثَوَابٗا﴾ عائدةً وفائدةً ﴿وَخَيۡرٞ مَّرَدًّا ٧٦﴾ أي منقلباً ومآباً؛ لأن مآلَ الأموال والجاه والثروة إلى الحسرة والخسران، ومآلَ العبادات إلى الجنة والغفران.

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ ....

ثم قال سبحانه على سبيل التوبيخ والتقريع للكافر المستكبر:

﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ أيها الرائي الطاغي الباغي ﴿ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ أنكر وأعرض واستكبر ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الدالة على عظمة ذاتنا وكمال أوصافنا وأسمائنا ﴿وَقَالَ﴾ مقسماً مبالغاً على سبل الاستهزاء والسخرية: والله ﴿لَأُوتَيَنَّ﴾ وأعطين في النشأة الأخرى أيضاً إن فُرِضَ وجودُها ﴿مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ مثل ما أُعطيت في هذه النشأة، هذا من غاية اغتراره ونهاية ذهوله وغفلته واعتقاده كبراً وخيلاء أنه حقيقٌ بهذه المرتبة حيثما كان، فردَّ الله سبحانه عليه على أبلغ الوجوه وآكده بقوله:

﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ أي أيدعي هذا الطاغي التائه في تيه الغفلة والجهل علم الغيب واطلاع السرائر ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ﴾ وأخذ ﴿عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي من عنده على لسان نبي من أنبيائه أو مَلَكٍ من ملائكته ﴿عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾ ليعطيه في الآخرة مالاً وولداً؟ إذ لا معنى للجزم بهذه الدعوى وتأكيدها بالحلف إلا بأحدِ هذين الطرفين.

﴿كَلَّا﴾ وحاشا ليس لهذا الجاهل الكذاب لا ذاك ولا هذا بل ﴿سَنَكْتُبُ﴾ ونأمر الحفظةَ أن يكتبوا ﴿مَا يَقُولُ﴾ هذا المسرف المغرور اغتراراً بماله وجاهه ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ﴾ ونزيد عليه يوم الجزاء ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾﴾ أي

وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ
عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ ....

عذاباً فوق العذاب أضعافاً وآلافاً بكفره وإصراره واغتراره على كفره وعتوه على أهل الإيمان واستهزائه إياهم.

﴿وَ﴾ بعدما نهلكه ونميته ﴿نَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ أي نرث ما يقول ويفتخر به من الأموال والأولاد وغيرها ونخلعها عنه ونجرده بحيث لا يبقى معه شيء منها ﴿وَيَأْتِينَا﴾ يوم العرض والجزاء ﴿فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾ صفراً خالياً بلا أهلٍ ولا مالٍ ولا إيمانٍ ولا عملٍ.

﴿وَ﴾ من غاية جهلهم بالله ونهاية غفلتهم عن حقِّ قدْره وقدْر توحيده واستقلاله واستيلائه ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ من تلقاء أنفسهم وعلى مقتضى أهويتهم الفاسدة ﴿لِّيَكُونُواْ﴾ أي آلهتهم ﴿لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾ أي بسبب عزهم وتوقيرهم عند الله يشفعون لهم ويخفون عذابهم.

﴿كَلَّاۚ﴾ ردعٌ لهم عما اعتقدوا من الفوائد العائدة لهم من عبادة الأوثان والأصنام من الوصلة والشفاعة والتسبب للنجاة بل ﴿سَيَكْفُرُونَ﴾ وينكرون أولئك المعبودون يومئذ ﴿بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أي بعبادة الكفرة إياهم ﴿وَ﴾ كيف يشفعون لهم حينئذٍ بل ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ يضادون عليهم ويعادون بل يريدون مقتهم وازدياد عذابهم.

ثم لما تعجب ﷺ من قسوة قلوب الكفرة وشدة عمههم وسكرتهم في الغفلة، وعدم تفطنهم وتنبههم بحقية آيات التوحيد مع وضوحها وسطوعها،

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣) فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ ....﴾

مع أنهم من زمرة العقلاء المجبولين على فطرة المعرفة والإيقان، سيما بعد ظهور الحق وعلو شأنه، وارتفاع قدره برسالته ﷺ، ونزول القرآن له واختتام أمر البعثة والتشريع به ﷺ، وهم بعد منكرون، أشار سبحانه إلى سبب غيِّهم وضلالهم وتماديهم فيها على وجهٍ يزيح تعجبه ﷺ، فقال مخاطباً له:

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا أكمل الرسل ولم تتفطن ﴿أَنَّآ﴾ بمقتضى اسمنا المذل ﴿أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ المضلين ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الذين أردنا إضلالهم وإذلالهم في سابق علمنا ولوح قضائنا وسلطناهم عليهم بحيث ﴿تَؤُزُّهُمْ﴾ أي تهزهم وتحركهم وتغريهم بتسويلاتهم نحو المعاصي والآثام، وتوقعهم بأنواع الفتن والإجرام، وتحبب عليهم الشهوات واللذات النفسانية المستلزمة المستجلبة لأنواع العقوبات، المبعدة عن المثوبات والفوز بالمرادات ﴿أَزًّا (٨٣)﴾ هزاً دائماً، بحيث صار قلوبهم المعدة بالفطرة الأصلية للمعرفة والتوحيد مطبوعةً مختومةً بغشاوةٍ عظيمةٍ وغطاءٍ كثيفٍ، لا يُرجى انجلاؤها أصلاً، لذلك لم يتفطنوا بظهور الحق ولوائح آياته ولوامع علاماته، مع كمال وضوحها وانجلائها وتشعشعها.

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ﴾ يا أكمل الرسل بعدما علمتَ حالهم بإهلاكنا إياهم وانتقامنا عنهم، ولا تيأس من إمهالنا وتأخيرنا إهلاكهم أن نهمل عن أخذهم وانتقامهم بل ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ﴾ بإمهالنا إياهم أيام آجالهم

عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ ....

وأوقاتها ﴿عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾ متى وصل وقتها أخذناهم واستأصلناهم، بحيث أمِنت أنت ومن معك من المؤمنين من شرورهم وفسادهم.

اذكر يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ﴾ الحسرة للكافرين إذ ﴿نَحْشُرُ﴾ ونجمع فيه ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي المؤمنين الذين يحفظون نفوسهم عن المنهيات والمحظورات الواردة في الكتب الإلهية المنزلة على الرسل المبينين لها ﴿إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾ وافدين فرقةً بعد فرقةٍ ؛ ليجازوا بالرحمة والمغفرة ويستغرقوا بها جزاء إيمانهم وتقواهم، ويتفضلوا بالرضوان تفضلاً عليهم وزيادة كرامة لهم.

﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ يومئذ سَوق البهائم المجرمة الجانية إلى السجن والحبس بالقهر والغضب التام ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ التي هي أسوأ الأماكن وأظلمها وأعمقها ﴿وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ ورود البهائم إلى المحابس والأغوار بزجرٍ تامٍ من الضرب المؤلم والتصويت وغيرهما.

وهم في تلك الحالة حيارى مضطربين، لا ينفعهم أعمالهم ولا معبوداتهم الباطلة، ولا يشفعون لهم ولا ينقذونهم من النار كما زعموا.

وكيف يشفعون لهم معبوداتهم؟ إذ هم:

﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ لأنفسهم ليخففوا العذاب عنهم متى أرادوا، بل لا شفاعة لهم ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ﴾ وحصل له ﴿عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي من عنده

عَهۡدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾
تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ ....

﴿عَهۡدًا ﴿٨٧﴾﴾ إذناً بالشفاعة لمن أراد سبحانه إنقاذه بشفاعةِ ذلك الشفيع كشفاعة بعض الأنبياء لعصاة أممهم، إن أذن لهم الرحمن المستعان.

﴿وَ﴾ كيف يحصل لهؤلاء الهالكين النجاة من نيران الحرمان والخلاص من سعير الخذلان والخسران، مع جرمهم الذي هو أعظم الجرائم عند الله وأفحشها حيث ﴿قَالُواْ﴾ مفرطين في حق الله من غاية انهماكهم في الغفلة عنه وعن قدْره ورتبته: ﴿ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴾ المنزَّهُ عن وصمة الكثرة وشين النقصان، المقدسُ عن سمة الحدوث والإمكان ﴿ وَلَدًا ﴿٨٨﴾﴾ هو أقوى أمارات الإمكان وعلامات الاستكمال والنقصان.

والله أيها المفترون على الله ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ﴾ بإثبات الولد له سبحانه ﴿ شَيۡـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾ منكراً عظيماً، ومفترىً شنيعاً فظيعاً، إلى حيث

﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ ﴾ ويتشققن مع متانة قوائمها وشدة التئامها ﴿مِنۡهُ﴾ أي من سماع قولكم هذا ونسبتكم هذه، هولاً ورهبة من صولة قهر الله وسطوة غضبه ونزول عذابه ﴿وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَ﴾ كذا ﴿تَخِرُّ﴾ وتسقط ﴿ ٱلۡجِبَالُ ﴾ خرور خشيةٍ وهولٍ ﴿هَدًّا ﴿٩٠﴾﴾ أي سقوطاً واصلاً إلى التفتت والتشتت والاندكاك بالمرة، بحيث اضمحلت رسومها مطلقاً، كل ذلك من خوف سطوة صفاته الجلالية، ومقتضيات أسمائه القهرية، المنبعثة من الغيرة الإلهية، الناشئة منه سبحانه، بواسطة[1]

(١) أي بسبب.

أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾

﴿أَن دَعَوۡاْ﴾ وأثبتوا ﴿لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ المقدس المبرئ في ذاته عن لوازم الحدوث والإمكان ﴿وَلَدٗا ﴿٩١﴾﴾.

﴿وَمَا يَنۢبَغِي﴾ ويليق ﴿لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ المتجلي في كلّ آن وشأن ولا يشغله شأن عن شأن ﴿أَن يَتَّخِذَ﴾ زوجةً ويتسبب بها ليظهر ﴿وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ يستخلفه ويستظهر به ويستعين منه، تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً، بل :

﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الملائكة المهيمين المستغرقين بمطالعة جمال الله، المستوحشين من سطوة جلاله ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي مَن في عالم الطبيعة المتوجهة نحو مبدعها طوعاً ﴿إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ الممهّدِ الممدِّ لهم أظلال أسمائه الحسنى وأوصافه العظمى، المفيضِ عليهم من رشحات بحر وجوده، بمقتضى فضله وجوده ﴿عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾﴾ متذللاً مقهوراً تحت تصرفه، مصروفاً حسب قدرته وإرادته، محاطاً تحت حيطة حضرة علمه ولوح قضائه إلى حيث:

﴿لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ﴾ وفصلهم، لا يشذ شيءٌ من أحوالهم وأفعالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم وجميع حالاتهم حتى اللمحة واللحظة والطرفة والخطرة من حيطة حضرة علمه وقبضة قدرته واختياره ﴿وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾﴾ أي فرداً فرداً، وشخصاً شخصاً، مع جميع العوارض المتعلقة بكل فردٍ وشخصٍ، ما داموا في هذه النشأة.

وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ

﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ﴾ أيضاً ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ منفرداً مفروزاً عن الأنصار والأعوان وجميع الأصحاب والخلان.

ثم قال سبحانه:

﴿إِنَّ﴾ المنتخبين المنتجبين ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله وتوحيده وأطاعوا لرسله المؤيَّدين من عنده وامتثلوا بجميع ما جاؤوا به من الأوامر والنواهي المبيَّنة في الكتب الإلهية المنزَّلة عليهم ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿عَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من النوافل المقربة إلى الله طلباً لرضاه وابتغاءً لوجهه ﴿سَيَجْعَلُ﴾ ويحدِث ﴿لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ المتكفل لجزائهم وإثابتهم بمقتضى سعة رحمته وجوده ووفور لطفه ﴿وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ ومحبةً في قلوب جميع المؤمنين حتى يحبوهم ويتحننوا نحوهم، بلا سبق الوسائل والأسباب العادية الموجبة لمودة البعض للبعض من الإنعام والإحسان وأنواع العطية والإكرام، مع محبة عموم عباد الله للبدلاء المنسلخين عن مقتضيات لوازم البشرية.

ثم قال سبحانه امتناناً على حبيبه ﷺ وإشارةً إلى عظم رتبة القرآن الجامع لجميع المعارف والأحكام، بعدما بيَّن في هذه السورة من معظمات مهام الدين من العبر والتذكيرات والأخلاق والآداب:

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ﴾ أي القرآن ﴿بِلِسَانِكَ﴾ وسهَّلناه وأنزلناه على لغتك

لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾

﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يحفظون نفوسهم عن مخالفة ما أُمروا به ونُهوا عنه ببشارةٍ عظيمةٍ عنايةً من الله إياهم وفضلاً، وهي تحققهم بمقام الرضاء والفوز بشرف اللقاء ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ﴾ أي بوعيداته وأنواع العذاب المذكورة فيه ﴿قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ لدوداً لجوجاً، مفرطين في اللدد والعناد، مصرين على ما هم عليه من الفسق والفساد.

﴿وَ﴾ لا تبال يا أكمل الرسل بتماديهم في لددهم وعنادهم، ولا تحزن من عتوهم وفسادهم، إذ ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أي أهلكنا كثيراً من أقوامٍ مضوا، كانوا متمادين أمثالهم في الغي والضلال، مصرين على المراء والجدال. تأمل والتفت يا أكمل الرسل ﴿هَلْ تُحِسُّ﴾ وتشعر ﴿مِنْهُم﴾ أي من المهلكين ﴿مِّنْ أَحَدٍ﴾ نجا وبقي سالماً من قبضة قدرتنا وسطوة قهرنا وغضبنا ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾ صوتاً خفياً يُسمع من قبورهم ومدافنهم، بل صاروا كأن لم يكونوا أصلاً، وما ذلك وأمثاله علينا بعزيز.

رب اختم عواقب أمورنا بالخير والحسنى.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك المتدبر المتأمل في الأسماء الحسنى الإلهية، والمستكشفُ عن رموز صفاته الثبوتية والسببية والجمالية والجلالية واللطفية والقهرية، وجميع الأوصاف المتقابلة والمتماثلة الإلهية: أن تتعمق وتتأمل في معنى اسم الرحمن الذي كرره سبحانه في هذه السورة مراراً كثيرةً، وتدبَّر فيه كي تصل وتستكشف إلى أن مبدأ جميع ما ظهر وبطن، وكان ويكون، إنما هو هذا الاسم المشير إلى سعة رحمة الحق، ووفور جوده وفضله على مظاهره ومصنوعاته، إذ به استوى سبحانه على عروش جميع الكوائن والفواسد، وبه ظهر ما ظهر من كتم العدم.

وبالجملة ما من موجودٍ محققٍ محسوسٍ، أو مقدرٍ مخطورٍ، إلا وهو في حيطة هذا الاسم وتحت تربيته وتصرفه، بحيث لو انقطع إمداده عن العالم طرفةً لم يبق للعالم ظهورٌ ووجودٌ أصلاً.

ومتى تحققتَ بهذا الاسم العظيم وتيقنت شموله وإحاطته لجميع المظاهر شمول عطفٍ ولطفٍ، فزتَ بحقيقة قوله سبحانه: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [١٩- مريم: ٩٣].

جعلنا الله ممن تحقق بمعاني أسمائه الحسنى، واستكشف عن سرائر صفاته الأسنى، بفضله وطَوله، وسعة رحمته وجوده.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة طه

لا يخفى على ذوي البصائر المستكشفين عن مراتب الوجود بفيضان الكشف والشهود بلا ملاحظة الرسوم والحدود مثل أصحاب القيود: أن للوجود البحت الخالص عن جميع الاعتبارات باعتبار ظهوره في مظاهر الإعدام مراتب كثيرة تقبل بسببها الإضافات الغير المحصورة، فله باعتبار ظهوره في كل مرتبةٍ من المراتب الكلية والجزئية أسماءٌ كليةٌ ومظاهر جزئيةٌ تظهر في كلٍّ منها بواسطة اسمٍ خاصٍ من الأسماء.

وأعلى المراتب التي هي مصدر جميعها ومآل الكل إليها ومصيرها: المرتبة التي طُويت دونها المراتب، وقصُرت عن دركها العقول، وكلَّتْ عن وصفها الألسن، وأُرتِجَتْ دونها طرق الوصول، واضمحلتْ هناك السِّمات والعلامات وبطُلت العبارات والاعتبارات، وارتفعت الجهات والإشارات.

وتلك المرتبة هي المرتبة الأحدية الصمدية التي لا يمكن فيها تمكن الكثرة ؛ لأن الكثرة إنما تنشأ من الإضافة، والإضافةُ إنما تُتصور بين اثنين فصاعداً ولا اثنينية هناك أصلاً.

طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ ....

وهذه هي المرتبة المحمدية التي انتهت إلى المراتب كلها عروجاً، كما ظهرت منها ظهوراً في بدء الأمر ؛ لذلك أشار سبحانه في أول هذه السورة إلى مرتبته ﷺ إرشاداً لعباده وامتناناً لهم، ليكون قِبلةً لكل طالب سالكٍ إلى جنابه، وراغبٍ ناسكٍ إلى بابه، وفي آخرها أيضاً ؛ ليُشعر بأن مرتبته ﷺ بداية المراتب ونهايتها، إذ هناك اتحد قوسي الوجوب والإمكان، والغيب والشهادة.

ولما كانت مرتبته ﷺ مبدأ الكل ومنتهاه، كانت بمقتضى الرحمة العامة طالبةً لهداية الكل ورجوعه إليها ؛ لذلك ناداه سبحانه على وجهٍ يُشعر بطلبه هدايتهم إلى مرتبته، حيث قال عز وجل مخاطباً له ﷺ ، بعد ما تيمن باسمه الأعلى:

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ المتجلي بجميع أسمائه وصفاته المترتبةِ عليها جميع مراتب الوجود في المرتبة الجامعة المحمدية، التي منها ظهور الكل، وإليها رجوعه ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ بإظهار الكل منها في النشأة الأولى ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ بإعادتها إليها في النشأة الأخرى.

﴿طه ﴿١﴾﴾ يا طالب الهداية العامة على كافة البرايا.

﴿مَآ أَنزَلْنَا﴾ من مقام إرشادنا وتكميلنا ﴿عَلَيْكَ﴾ أيها المتوجهُ إلى السعادة الأبدية، المعرضُ عن الشقاوة ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ الفرقانَ بين الهداية والضلالة، والسعادة والشقاوة ﴿ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾﴾ أي لتكون شقياً بنزوله بعدما

إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ....

كنت سعيداً قبله كما توهمه الكفار، بل ما أنزلناه

﴿إِلَّا تَذْكِرَةً﴾ للسعادة العظمى لك ولمن تبعك لا لكل أحدٍ منهم بل ﴿لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾﴾ من إنذاراته وتخويفاته، وامتثل بأوامره، واجتنب عن نواهيه، إذ أنزل القرآن عليك من عموم رحمتنا على كافة الخلق، لذلك نزلناه

﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ﴾ أي من اسمنا الذي بواسطته ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ﴾ أي أوجدنا العالم السفلي ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾﴾ أي العالم العلوي، وذلك الاسم هو

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الذي ظهر واستقر بالرحمة العامة ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي على عروش الذرائر، بحيث لا يخرج عن حيطة علمه ذرةٌ من الذرات، بل

﴿ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ على جميعها إذ ﴿لَهُۥ﴾ الاستيلاءُ والإحاطةُ التامةُ على ﴿مَا﴾ ظهر ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ﴾ على ﴿مَا﴾ ظهر ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الكائنات والفاسدات ﴿وَ﴾ كذا على ﴿مَا﴾ ظهر ﴿بَيْنَهُمَا﴾ من الأمور الكائنة فيها ﴿وَ﴾ كذا ﴿مَا﴾ هو كائنٌ وسيكون ﴿تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾﴾.

هذا باعتبار ظهوره واستيلائه على الآفاق الخارجة عنك.

﴿وَ﴾ أما ظهوره واستيلاؤه على نفسك، فإنه يستولي على ذاتك وأفعالك وأقوالك بحيث ﴿إِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ﴾ القولَ بالجهر منك، الذي تعلمه

ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلۡ أَتَىٰكَ
حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ

أنت أيضاً وغيرك، بل[1] ﴿ٱلسِّرَّ﴾ الذي لا يعلمه غيرك ﴿وَأَخۡفَى ﴿٧﴾﴾ من السرِّ الذي لا تعلمه أنت أيضاً من مقتضيات استعدادك قبل الخطور ببالك.

وإذا كان الحق محيطاً ومستولياً على عروش ما ظهر وما بطن، فلا يكون الموجود الثابت إلا

﴿ٱللَّهُ﴾ أي مسمى هذا الاسم الجامع جميع مراتب العالم بحيث لا يخرج عن حيطته شيء أصلاً، إذ ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ أي لا موجودَ ﴿إِلَّا هُوَۖ﴾ أي هذا المسمى الذي لا تعدد فيه أصلاً، فيكون أحداً صمداً فرداً وتراً، لم يتخذ صاحبةً ولا ولداً، غايةُ ما في الباب أن ﴿لَهُ﴾ أي لهذا المسمى ﴿ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٨﴾﴾ الكليةُ التي جزئياتها لا تُعدُّ ولا تُحصى، وباختلاف الأسماء، اختلفت الظهورات والتجليات عن المسمى.

وكما نبهناك يا أكمل الرسل على ظهوراتنا في الكائنات مجملاً، نبَّهناك عليها مفصلاً

﴿وَ﴾ ذلك أنه ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ﴾ أي قد ثبت وتحقق عندك ﴿حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾﴾ الكليم، أي قصةُ انكشافه من النار التي احتاج إليها هو وأهله في الليلة الشاتية المظلمة وقت ﴿إِذۡ رَءَا نَارٗا﴾ مطلوبةً لدفع البرودة، ولوجدان الطريق في الظلمة ﴿فَقَالَ لِأَهۡلِهِ﴾ المحتاجين إليها في تلك الليلة: ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ﴾ أوانس عندها مع إنسانٍ استخبره عن الطريق، وحين

---

(١) في المخطوط (بل يعلم).

ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَـٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾
إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ ....

رجوعي إليكم ﴿ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ تصطلون به ﴿أَوْ﴾ أتخذ منها سراجاً ﴿أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أي مع السراج المسرجة منها ﴿هُدًى ﴿١٠﴾﴾ طريقاً موصلاً إلى مطلوبنا.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ مسرعاً ليرجع إليهم دفعةً ﴿نُودِيَ﴾ من جانب الشجرة الموقدة ليقبل إليها فينكشف منها ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ المتحير في بيداء الطلب: اطلبني من هذه الشجرة الموقدة، ولا تستبعد ظهوري فيها حتى انكشف لك منها.

﴿إِنِّيٓ﴾ وإن ظهرتُ على هذه الصورة المطلوبة لك هذا ﴿ أَنَا۠ رَبُّكَ ﴾ أي مطلوبك الحقيقي الذي ربيتك بأنواع اللطف والكرم، وابتليتك بأنواع البلاء في طريق المجاهدة ؛ لتتوجه إلي، فتعرفني، فالآن ارتفعت الحجب والقيود، وتحققتَ بمقام الكشف والشهود ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾ فاسترح عن الطلب بعد وجدان الرب، وتمكَّن في مقعد الصدق ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾ عن رذائل الأغيار ﴿طُوًى ﴿١٢﴾﴾ أي طويتَ التوجُّهَ إلى الغير، ولم يبق لك احتياج إلى الاستكمال.

﴿وَ﴾ بعد وصولك إلى مقام الكشف والشهود ﴿ أَنَا ٱخْتَرْتُكَ ﴾ أي اصطفيتك من المكاشفين من أرباب الولاية للتكميل والرسالة على الناس الناسين التوجه إلى بحر الحقيقة، فعليك التوجه إلى الإهداء، والتجنب عن

فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ
﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾

الميل إلى الهوى ﴿فَٱسْتَمِعْ﴾ أي اقتصر في تكميلك ورسالتك ﴿لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾﴾ إليك من مقام عظيم جودنا، ولا تلتفت إلى الأهواء الفاسدة، حتى لا تضل أنت، ولا تضلهم عن السبيل، فبلِّغ إلى الناس نيابة عني:

﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ الواحد الأحد المحيط بجميع مراتب الأسماء ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ أي لا جامع لجميع المراتب ﴿إِلَّآ أَنَا۠﴾ الجامعُ لجميعها، المستحق للإطاعة والانقياد ﴿فَٱعْبُدْنِي﴾ أنت حق عبادتي، أي أحسن الأدب معي، وتخلَّق بأخلاقي ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي داوم الميل بجميع الأعضاء والجوارح ﴿لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾﴾ أي توجه نحوي بجميع أعضائك وجوارحك لتذكرَني بها وتشكرَني بجميعها، حتى أنكشف لك من كلٍ منها بحيث كنتُ سمعك وبصرك ويدك ورجلك، إلى غير ذلك من جوارحك حتى قامت قيامتُك الكبرى، وقمتَ بين يدي المولى، وتمكنتَ في جنة المأوى، عند سدرة المنتهى، التي يرتقي وينتهي إليها عروجك في الصعود والارتقاء.

ثم قال سبحانه تعليماً لعباده وحثاً لهم على طلب الانكشاف التام:

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ أي ساعة الانكشاف التام الذي لم يبق معه الطلب كانكشافك يا موسى ﴿ءَاتِيَةٌ﴾ حاصلةٌ لكل أحدٍ من الناس دائماً في كل آنٍ، لكن ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ أي أُخفي ظهورها لهم ﴿لِتُجْزَىٰ﴾ أي لتتمكن ﴿كُلُّ نَفْسِۭ﴾ بمرتبةٍ من المراتب الإلهية ﴿بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾ أي بسبب ما

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا ....

تجتهد فيه، وتكتسب من امتثال الأوامر، واجتناب النواهي الجارية على ألسنة الرسل؛ لئلا يبطل سر التكليف والتشريع.

وإذا كان الأمر كذلك

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾ أي فلا يصرفنك عن الأمر بالانكشاف التام إعراضُ ﴿مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ تقليداً، حتى يطلبها تحقيقاً، بل أنكرَها وأعرضَ عنها ﴿وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ المضلةُ في تيه الغفلة والحرمان ﴿فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ فتهلك بداء الجهل والخذلان.

وإذ اخترناك للرسالة العامة وهبنا لك شاهداً أصدق على دعواك الرسالة لذلك سألناك أولاً بقولنا

﴿وَمَا تِلْكَ﴾ الخشبةُ التي حملتَه ﴿بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ المستكشفُ على حقائق الأشياء، يعني: هل تعرف فوائدها وما يترتب عليها، وما يؤول هي عليها، أم لا؟

﴿قَالَ﴾ موسى على مقتضى علمه بها: ﴿هِيَ﴾ أي هذه الخشبة ﴿عَصَايَ﴾ أستعينُ بها في بعض الأمور، وإذا عييتُ وتعبتُ ﴿أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَ﴾ إذا احتجت إلى هشِّ الورق، وإسقاطه من الشجر لرعي الغنم ﴿أَهُشُّ﴾ وأُسقط ﴿بِهَا﴾ ليكون علفاً ﴿عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا﴾ غير ذلك

مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَـٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ ....

﴿مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ من الاستظلال، ودفع الهوام، ومقاتلة العدو إلى غير ذلك.

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ حتى تشهد آيتنا الكبرى ﴿فَأَلْقَـٰهَا﴾ امتثالاً للأمر الإلهي.

﴿فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ تمشي على بطنها كسائر الحيات، فخاف موسى منها، وتضيق صدره من قلة رسوخه وعدم تمرنه بابتلاءات الله واختباراته ؛ لأنه كان في أوائل حاله.

﴿قَالَ﴾ سبحانه بعدما ظهرت أمارات الوجل منه: ﴿خُذْهَا﴾ هي عصاك يا موسى ﴿وَلَا تَخَفْ﴾ من صورتها الحادثة، فإنا من كمال قدرتنا ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا﴾ وصورتها ﴿ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾ التي هي في يدك، استعنتَ بها في بعض الأمور، وإنما بدَّلنا صورتها، لتتنبه على أن لنا القدرة على إحياء الجمادات التي هي أبعد بمراحل عن إهداء الضالين من الأحياء.

﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾ ذات شعاعٍ محيِّرٍ للعقول والأبصار ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي من غير حجاب يسترها ويُنقص من نورها لتكون ﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ لك أجلى من الآية السابقة.

وإنما أريناك الآيات قبل إرسالك إلى من أرسلناك

﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾﴾ ....

﴿لِنُرِيَكَ﴾ أولاً ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾ فيطمئن بها قلبك، ويقوي ظهرك بإمدادنا لك في رسالتك، وتأييدنا إياك فيها.

فإذا اطمئن قلبك وقوي ظهرك

﴿ٱذْهَبْ﴾ أيها الهادي بإهدائنا وتوفيقنا نيابةً عنا ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ الضال المستغرق في بحر العتو والعناد ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ أي ظهر علينا مستكبراً بقوله للضعفة: أنا ربكم الأعلى، فبلِّغْ إنذاراتنا وتخويفاتنا، وزد عليها الدلائل العقلية والنقلية والكشفية، لعله يتنبه بها، وينزجر[1] بسببها عما عليه من العتو والعناد.

وبعد ما سمع موسى خطاب الله إياه

﴿قَالَ﴾ مشمِّرَ الذيل إلى الذهاب طالباً التوفيق من رب الأرباب: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني بأنواع اللطف والكرم، وأعطاني الآيتين الكريمتين العظيمتين ؛ لتكونا شاهدين على صدقي في دعواي ﴿ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾﴾ أي وسِّع قلبي بحيث لا يخطر ببالي خوفٌ من العدو أصلاً.

﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿يَسِّرْ﴾ وسهِّل ﴿لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾﴾ هذا بحيث لا أضطربُ في تبليغه، ولا أستوحشُ من جاه فرعون وشوكته.

﴿وَ﴾ إذا شرعتُ لأداء الرسالة ﴿ٱحْلُلْ﴾ وارفع لكنةً عارضةً من مهابة العدو، سيما هذا الطاغي ﴿عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾﴾ كي

(١) في المخطوط (ينزه).

يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى
﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ
بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ ....

﴿يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾﴾ وغرضي منها.

﴿وَ﴾ إذا أوقعتني لأداء رسالتك يا ربي ﴿ٱجْعَل لِّى وَزِيرًا﴾ ظهيراً، يصدِّقني في أمري، ويعينني عليه، ولا تجعل ظهيري من الأجانب ؛ لقلة شفقتهم علي، وعطفهم بي، بل اجعله ﴿مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾﴾ وأقربائي أولى، وهو

﴿هَٰرُونَ﴾ إذ هو ﴿أَخِى ﴿٣٠﴾﴾ الأكبر بمنزلة الأب في الشفقة، وإذا جعلتَ هارون وزيري

﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ﴾ أي أقوِّ واحكم بسببه يا معيني ومغيثي ﴿أَزْرِى ﴿٣١﴾﴾ أي ظهري ﴿وَ﴾ لا يتحقق تقويته على حقيقته إلا بعد اشتراك معي في أداء الرسالة ﴿أَشْرِكْهُ﴾ يا ربي ﴿فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾﴾ ورسالتي، بأن تنكشف عليه كما انكشفت لي ؛ ليكون من المكاشفين، الموقنين بوحدانيتك يا ربي، الممتثلين بأوامرك، المجتنبين عن نواهيك.

وإنما سألتك يا ربي الإعانة بأخي

﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ﴾ ونقدسَ ذاتَك عما لا يليق بشأنك تقديساً ﴿كَثِيرًا ﴿٣٣﴾﴾

﴿وَنَذْكُرَكَ﴾ ونناجيك بأسمائك الحسنى وصفاتك العظمى ذكراً ﴿كَثِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

وكيف لا نسبحك ونَذْكُرك.

﴿إِنَّكَ﴾ بذاتك وأوصافك وأسماءك ﴿كُنتَ﴾ محيطاً ﴿بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ بجميع أحوالنا.

قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ
إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ
يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ....

﴿قَالَ﴾ تعالى رفقاً له وامتناناً عليه لرجوعه إليه بالكلية: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ﴾ أي قد حصل لك جميع مطالبك ؛ لتوجهك علينا، ورجوعك إلينا ﴿يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾، كيف

﴿وَلَقَدْ﴾ أنعمنا عليك حين لا ترقّبَ لك ولا شعورَ بأن ﴿مَنَنَّا عَلَيْكَ﴾ من وفور رحمتنا وشفقتنا لك ﴿مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ وقت

﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ﴾ وألهمنا ﴿إِلَىٰٓ﴾ قلب ﴿أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾﴾ وما يُلهم عند نزول البلاء لنجاة الأحياء وخلاصهم عن ورطة الهلاك، وذلك حين إحاطة شَرَطة فرعون المأمورين بقتل أبناء بني إسرائيل على بيت أمك ليقتلوك ظلماً، فاضطربت أمك، وآيست من حياتك، فألهمناها حينئذ:

﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ﴾ واطرحيه ﴿فِي ٱلتَّابُوتِ﴾ المصنوع من الخشب فاتَّخذتْ تابوتاً ووضعتْك فيها، ثم ألهمناها ثانياً إذا وضعتِ فيه، توكلي على خالقه وحافظه وفوضي أمره إليه ﴿فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ يعني النيل ولا تخافي من غرقه ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ البتة، إذ من عادة الماء إلقاءُ ما فيه إلى جانبه، فإذا قرب من الساحل ورآه الناس ﴿يَأْخُذْهُ﴾ ويأمر بأخذه ﴿عَدُوٌّ لِّي﴾ يعني فرعون المفرط بدعوى الإلهية لنفسه ﴿وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ يعني الوليد، أو هو من أبناء بني إسرائيل، وهو عدوٌّ لهم بل هو سبب عداوة جميعهم في الحقيقة

وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ....

﴿وَ﴾ بعد ما أمر عدوك بأخذك والتقاطك من البحر ﴿أَلْقَيْتُ﴾ من كمال قدرتي ووفور حولي وقوتي في نفس فرعون وزوجته آسية رضي الله عنها وأهل بيته ﴿عَلَيْكَ﴾ أي على حفظِك وحضانتِك يا موسى ﴿مَحَبَّةً﴾ في قلوبهم مع شدة عداوتهم معك وكانت تلك المحبة صادرةٌ ﴿مِّنِّي﴾ فظاهرهم حفظاً لك وإظهاراً لكمال قدرتي بأن أربيك في يد عدوك لتكون سبباً لهلاكه ﴿وَ﴾ إنما ألقيتُ في قلوبهم المحبة مني ﴿لِتُصْنَعَ﴾ ولتربى أنت وإن كنت بيدَي العدو ظاهراً ﴿عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾﴾ أي أعيان أوصافي وأسمائي، إذ الكل مظاهر ذاتي وأوصافي وأسمائي.

ومع إلقاء كمال المحبة والمودة مني في قلوبهم لحفظك وحضانتك راعيتُ جانب أمك

﴿ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ﴾ مريم حين طلبوا لك مرضعةً بعدما أخرجوك من البحر ﴿فَتَقُولُ﴾ لهم على سبيل الوساطة والدلالة: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾ ويرضعه مع أنهم أحضروا كثيراً من مرضعات البلد عندك لم تمص أنت ثديهن، إذ حرمنا عليك المراضع إنجازاً لما وعدنا على أمك، فقبلوا منها قولها، فطلبوا أمك، فأرضعتك فاستطابوا وأجروها لإرضاعك، وبالجملة ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ امتناناً لك بأن تحفظ أمك، ولأمّك أيضاً ﴿كَيْ تَقَرَّ﴾ وتنوّر ﴿عَيْنُهَا﴾ بمشاهدتك بعدما ذهبت نور عينها بمفارقتك

وَلَا تَحْزَنَۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًاۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ ....

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿لَا تَحْزَنَۚ﴾ يا موسى في حالٍ من الأحوال، فأنا رقيبك من جميع ما يضرك ويؤذيك، ومعينك وناصرك على جميع ما أمرتك ﴿وَ﴾ اذكر أيضاً امتناننا عليك وتذكر أيضاً وقت إذ ﴿قَتَلْتَ نَفْسًا﴾ أي شخصاً من آل فرعون، فهمُّوا بقتلك قصاصاً وخفتَ منهم ومن العقوبة الأخروية أيضاً ؛ لأنك قتلت نفساً بلا رخصةٍ شرعيةٍ وتحزنتَ لشناعة فعلك وخوف عدوك حزناً شديداً ﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ وأزلنا حزنك الأخرويَ بقبول توبتك ورجوعك عن فعلك نادماً مخلصاً، والدنيويَ بإخراجك عن ديارهم وإبعادك عنهم ﴿وَفَتَنَّٰكَ﴾ وابتليناك أيضاً بعدما أخرجناك من بينهم ﴿فُتُونًاۚ﴾ أي ابتلاءً واختباراً كثيراً من الجوع والعطش وضلال الطريق ووحشة الغربة وكربة الوحدة وضيق الصدر والكآبة وتحمل مشاق السفر ومتاعبه، حتى تستعد لقبول الإرشاد والتكميل.

ثم بعد ما اختبرناك بأمثال هذه الشدائد، أوصلناك وهديناك إلى مَدْيَن للاسترشاد والاستكمال ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ﴾ أي[1] ثمانيَ أوعشرَسنين ﴿فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ عند نبينا وخليفتنا الكامل المكمل ـ وهو شعيب عليه السلام ـ لتسترشد منه وتستكمل من شرف صحبته وتتخلق بأخلاقه ﴿ثُمَّ﴾ بعد لُبْثِك فيهم مدةً، واستكمالك من الرشد الكامل ﴿جِئْتَ عَلَىٰ﴾ وطنك المألوف على ﴿قَدَرٍ﴾ أي مقدارٍ عظيمٍ من الكشف والشهود وفوق ما يحصل بالكسب والاجتهاد

(١) أي خير موسى بين ثمانٍ أو عشرٍ من السنوات لدى شعيب، ولكنه بقي عشر سنوات وقيل بعد العشر الأولى بقي عشراً أخرى.

يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ﴿٤١﴾ ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ﴿٤٢﴾ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾ ....

بل من لدنا ﴿يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ تفضلاً وإحساناً، وكيف لا يكون كذلك.

﴿وَ﴾ قد ﴿اصْطَنَعْتُكَ﴾ أي اجتبيتك وانتخبتك من بين المكاشفين ﴿لِنَفْسِي ﴿٤١﴾﴾ لتكون خليفتي ونائبي ومولي أمري وحامل أسراري وإذا اخترتك للرسالة :

﴿ ٱذۡهَبۡ أَنتَ ﴾ أصالةً ﴿ وَأَخُوكَ ﴾ تبعاً لك ﴿ بِـَٔايَٰتِي ﴾ ومعجزاتي الدالة على تصديقي لكما وتقويتي لرسالتكما ﴿ وَلَا تَنِيَا ﴾ أي لا تفترا أو لا تضعفا ﴿فِي﴾ تبليغ ﴿ذِكۡرِي ﴿٤٢﴾﴾ المشتمل على الأوامر والنواهي اغتراراً وخوفاً، بل :

﴿ ٱذۡهَبَآ ﴾ بأمرنا مسرعين ﴿ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ ﴾ المبالغ في التجبر والتكبر مِنْ غير مبالاة والتفاتٍ بعظمته وشوكته ﴿ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ علينا، ولا عبرة بعظمة الطغاة، وإذا ذهبتما إليه:

﴿فَقُولَا لَهُۥ﴾ تلطفاً ورفقاً كما هو دأب المرسلين ﴿قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾ رجاء أن يلين قلبه عن صلابة الفساد، وبعد الأداء على وجه التليين والتلطف ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾ الفطرة الأصلية التي فطر الناس عليها، فصدقكما وآمن بدينكما ﴿ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ من نزول العذاب بدعائكما.

قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ....

﴿ قَالَا﴾ خوفاً من فرعون وأعوانه على مقتضى بشريتهما ملتجئين إلينا: ﴿رَبَّنَآ﴾ وإن ربيتنا بحولك وقوتك وأيّدتَنا بآياتك ﴿ إِنَّنَا﴾ من ضعف بشريتنا ﴿نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾ بالعقوبة والقتل ﴿ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾﴾ لك بما لا يليق بجنابك.

﴿ قَالَ﴾ سبحانه: ﴿ لَا تَخَافَآ﴾ من إفراطه وطغيانه ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾ عند أدائكما الرسالة ﴿ أَسْمَعُ﴾ أقواله ﴿وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ أفعاله، فإذا أفرط عليكما أقدر على منعه وزجره.

﴿ فَأْتِيَاهُ﴾ مجترئين عليه من غير مبالاةٍ بعظمته وشوكته ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ الذي رباك بالعزة وأنواع الكرامة وأبقاك بها إمهالاً لك إلى أن تتكبر عليه باستكبارك على عباده، وإذ ظهر كبرك الآن أَرْسَلَنَا إليك أيها المتكبر المتجبر ؛ لترسل معنا خواص عباده الذين عندك وتحت قهرك وغلبتك إنجاءً لهم من استكبارك وطغيانك عليهم، ومتى سمعت ما بلغناك بإذن الله ووحيه ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ المستوحشين عنك بظلمك وقهرك لينجوا من استيلائك واستعلائك عليهم ﴿وَ﴾ إذ أَرْسَلَنَا الله لإنجائهم وتخليصهم من عذابك ﴿ لَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ بعد أدائنا الرسالة إليك لأنا ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ﴾ ساطعةٍ ومعجزةٍ باهرةٍ ظاهرةٍ إنها ﴿ مِّن رَّبِّكَ﴾ الذي هو رب العالمين،

وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ ....

إن تأملتَ فيها حق التأمل والتدبر تركتَ العتو والعناد وآمنتَ بتوحيده ﴿وَٱلسَّلَٰمُ﴾ أي الأمن والسلامة من الله ﴿عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾﴾ وتأملَ الآيات الكبرى وتركَ الهوى، ومن اتبع الهوى فقد ضل وغوى، واستحق عذاب الآخرة والأولى.

واعلموا أيها الهالكون في تيه الغفلة والضلال:

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ﴾ من عند ربنا ﴿أَنَّ ٱلْعَذَابَ﴾ الإلهي نازلٌ ﴿عَلَىٰ﴾ كل ﴿مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾ أي كذّب الحق وأعرض عن أوامره ونواهيه، فلما رأى فرعون جرأتهما وسمع قولهما ﴿قَالَ﴾ لهما تهكماً واستهزاء: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ الذي رباكما وأرسلكما لإنجاء بني إسرائيل من عذابي، مع أني لم أعرف لك رباً ربَّاك غيري ﴿يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ المقتدى في أمر الرسالة؟

﴿قَالَ﴾ له موسى على وجه التنبيه رجاء أن ينتبه: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ﴾ أظهر الأشياء من العدم، ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ أي مرتبته في النشأة الأولى ﴿ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ الكلَّ بالرجوع إليه والانقياد له في النشأة الأخرى، إذ منه الابتداء وإليه الانتهاء.

﴿قَالَ﴾ فرعون: إذا كان الكل من عند ربك ويعلمك أحواله ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾﴾ أي ما أحوال الأمم الماضية، هل هم مهتدون بمتابعة

قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ....

مثلك أم هم ضالون بمتابعة الهوى مثلي على زعمك؟!

﴿قَالَ﴾ موسى: لا أعرف حالهم من الهداية والضلالة إذ ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ لا يوحي إلي من أحوالهم شيئاً بل أحوالهُم ثابتةٌ عنده سبحانه ﴿فِي كِتَٰبٍ﴾ هو حضرة علمه الأزلي على التفصيل بحيث ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي﴾ أي لا يغيب عن أحوالهم شيءٌ من علمه سبحانه ﴿وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ ربي شيئاً من معلوماته، إذ علمه حضوريٌ بالنسبة إلى جميع الأشياء، والعلمُ الحضوريُّ لا يجري فيه الغيب والنسيان.

ثم قال موسى دفعاً للاثنينية الناشئة من الإضافة: ربنا هو ربكم

﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ مكانا تستقرون فيه وتستريحون ﴿وَسَلَكَ﴾ أي قدَّر ﴿لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ مختلفةً بعضها جبلاً ترتحلون إليها في الصيف، وبعضها سهلاً ترجعون إليها في الشتاء، حتى يكمل استراحتكم فيها ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿أَنزَلَ﴾ لكم لتكميل استراحتكم أيضاً ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي عالم الأسباب ﴿مَآءً﴾ لإحياء الأرض الميتة ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ أي أنشانا وأنبتنا ﴿بِهِۦٓ﴾ أي بسبب الماء فيها ﴿أَزْوَٰجًا﴾ وأصنافاً ﴿مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾ مختلفةٍ ليكون مفرّجاً لغمومكم مقوياً لنفوسكم، وإذا احتجتم إلى الغذاء

﴿كُلُوا۟﴾ منها حيث شئتم رغداً ﴿وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ﴾ التي تستريحون بسببها

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ
تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ ....

من أكلها وحملها وركوبها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الجعَل والإنزال والإخراج ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ دلائلَ واضحاتٍ على قدرتنا واختيارنا ﴿لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾ الناهين عقولهم عن إسناد الأمور إلى الأسباب بل يسندونها إلى مُسَبِّبها أولاً وبالذات.

وإذا تأملتم في بدائع مصنوعاتنا وغرائب مخترعاتنا على وجه الأرض جزمتم أنا

﴿۞ مِنْهَا﴾ أي من الأرض ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾ وأوجدناكم بقدرتنا واختيارنا إيجاد النبات منها وقت الربيع ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ أيضاً بالآجال المقدرة لانقضاء حياتكم، إفناء النبات في أيام الخريف ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ﴾ للحشر والعرض في يوم الجزاء ﴿تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَ﴾ مع أمرنا لموسى وأخيه المرسلَين إليه بتليين القول والتنبيه بدلائل الآفاق والأنفس ﴿لَقَدْ أَرَيْنَٰهُ﴾ تحقيقاً وتأكيداً لئلا يبقى معنا جداله، حين أخذنا بظلمه في وقت الجزاء، مع علمنا بأنه من الهالكين في بيداء البُعد والعناد ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ الدالة على صدق موسى المرسَل ﴿كُلَّهَا﴾ متعاقبة مترادفة وهي: العصا واليد البيضاء والطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدم والسنين والطمس ﴿فَكَذَّبَ﴾ بجميعها ﴿وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾ فامتنع عن تصديق شيءٍ منها، بل نسب الكل إلى السحر والشعبذة.

قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ ....

﴿قَالَ﴾ اغتراراً بعلو شأنه ورفعة مكانه مستفهماً على وجه التهكم والإنكار: ﴿أَجِئْتَنَا﴾ متمنياً لرئاستنا مع غاية حقارتك وضعفك ﴿لِتُخْرِجَنَا﴾ مع كمال عظمتنا وقوتنا ﴿مِنْ أَرْضِنَا﴾ التي استقررنا عليها زماناً طويلاً ﴿بِسِحْرِكَ﴾ الذي تعلمت من شياطين الأمة في بلاد الغربة ﴿يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾﴾ المتمني محالاً ولولا خشيتي من اشتهار عجزي من دلائلك وأباطيلك لقتلك البتة فالزم مكانك.

﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ﴾ من أنواع السحر كامل من سحرك لا من نوعٍ آخر بل من ﴿مِّثْلِهِۦ﴾ أي مثل سحرك كاملٌ منه، قُمْ من عندي وتأمل في أمرك! إن شئتَ تُبْ من هذياناتك وفضولك وارجع إليّ بالاستغفار حتى أغفر زلتك، وإن شئتَ ﴿فَٱجْعَلْ﴾ أي عيِّن وقتاً من الأوقات ليكون ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ﴾ ثم عين ﴿مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾﴾ أي مسوىً لا حائلَ فيه بحيث يرى كل أحد ما يجري بيننا حتى تفتضح على رؤوس الأشهاد.

﴿قَالَ﴾ موسى: إن معي ربي سيقويني لا أخاف من معارضتك بالسحر وتعيين موعد اتيانك بل ﴿مَوْعِدُكُمْ﴾ للمعارضة مع المعجزة ﴿يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ أي يوم العيد، إذ يجتمع فيه الأقاصي والأداني ﴿وَ﴾ لا يكون وقت تفرقهم إلى بيوتهم ﴿أَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾ أي في وقت الضحوة المعدة لإظهار

فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ

الزينة، ليظهر كل منهم على صاحبه زينةً ليكون إعجازي لك أبعد من أن يرتاب فيه أحد.

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ﴾ وانصرف عن مكالمة موسى استكباراً ﴿فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ﴾ أي أمر بجميع سَحَرَةِ مملكته ليُرِيَ القاصرين أن ما جاء به موسى من جنس السحر ﴿ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾ الموعد المعين مع ملئه وسَحَرَته، وبعدما حضروا الموعد

﴿قَالَ لَهُم﴾ أي للسحرة ﴿مُّوسَىٰ﴾ على مقتضى شفقة النبوة أو بإلقاء الله إياه بطريق الإلهام كلاماً خالياً عن الميل إلى الخصومة إمحاضاً للنصح: ﴿وَيۡلَكُمۡ﴾ أي ويلٌ لكم أيها العقلاء التاركون طريقَ العقل بمتابعة هذا الطاغي ﴿لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾ بأن أفعاله مما يعارَض بالسحر والشعوذة[1]؛ لأن ما جئتُ به من الآيات مما آتاني الله من فضله وإن افتريتم على الله ﴿فَيُسۡحِتَكُم﴾ أي يهلككم ويستأصلكم ﴿بِعَذَابٖۖ﴾ نازلٍ من قهره ﴿وَقَدۡ﴾ تحقق عندكم أيها العقلاء أنه ﴿خَابَ﴾ خيبةً أبديةً ﴿مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾ على الله بما لا يليق بذاته من إبطال قدرته أو دعوى المعارضة معه.

فإذا سمع السحرة من موسى قوله هذا، وتأملوا فيه تأملاً صادقاً وجدوه صادراً عن محض الحكمة والفطانة، فلذلك تأثروا من قوله تأثراً عظيماً ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ﴾ وتشاوروا ﴿أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ﴾ بأن أمثال هذا الكلام لا يصدر

---

(١) في المخطوط (الشعبذة).

وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ

إلا من المؤيدِ من عند الله، المستظهِر به سبحانه، ما يشبه كلام السحرة المعارضين، فمآل كل منهم في نفسه إلى تصديقه ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾﴾ أي مناجاتهم في أنفسهم من فرعون وملئه، فتمكن فرعون وملئه في معرض المعارضة وقابلوا السحرة لممانعتهما.

﴿قَالُوٓا۟﴾ أي فرعون وأشرافهم للسحرة تقويةً لهم في أمرهم: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ﴾ الرجلان الحقيران ﴿لَسَٰحِرَٰنِ﴾ يدَّعيان الرسالة من ربهما الموهوم ترويجاً لسحرهما، وبعد الترويج ﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ المألوفة ﴿بِسِحْرِهِمَا﴾ أي بمجرد سحرهما لا من أمرٍ سماويٍ كما زعما، وبعد إخراجكم من أرضكم يريدان الاستقرار والاستيلاء على عموم ملك العمالقة ﴿وَيَذْهَبَا﴾ بعد التقرر والتمكن ﴿بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾﴾ أي عادتكم العظمى ومرتبتكم العليا، وبالجملة يريدان أن يجعلا أمرنا وأمر بني إسرائيل بالعكس، ليكون لهم الكبرياء ولنا المذلة والهوان، بعكس ما كان من سالف الزمان.

وإذا سمعتم نُبَذاً من مقاصدهما

﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ﴾ أي هيئوا جميع أسباب سحركم بحيث لا تحتاجون لدى الحاجة إلى شيءٍ من أدواته ﴿ثُمَّ ٱئْتُوا۟﴾ عليها ﴿صَفًّا ۚ﴾ أي صافِّين

وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ
مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ
﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾

مجتمعين بمقابلتهما لأنه أدخلُ في المهابة ﴿وَ﴾ اعلموا أنه ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ﴾ أي فازَ ووصلَ بأنواع العطاء والمواهب ﴿ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾ وغلبَ عليهما.

ثم لما أتى السحرة صافين إلى المجلس على الوجه الذي أمروا ﴿قَالُوا۟﴾ من فرط عتوهم واستيلائهم: ﴿ يَـٰمُوسَىٰٓ﴾ نادوه استحقاراً واستذلالاً ﴿ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ﴾ أولاً ما تلقيتَ وجئتَ به في مقابلتنا ﴿ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾﴾ ما تلقينا في مقابلتك، فالأمران عندنا سيَّان، لأننا عصبة ومعنا جميع هذه الخلائق، وأنت ضعيفٌ ليس معك إلا أخوك.

﴿ قَالَ﴾ موسى: لا تضعفوني أيها الحمقى إن معي ربي سيقويني إن شاء ويغلبني على جميع من في الأرض ﴿ بَلْ أَلْقُوا۟﴾ أنتم أولاً أيها المغرورين فألقوا ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ﴾ التي يسحرون بها ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾ أي إلى موسى ﴿مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾ بذاتها ﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾ أي أضمر في نفسه خوفاً من غلبتهم عليه.

ثم لما عَلِمنا من موسى خوفه

﴿قُلْنَا﴾ له تشريحاً لصدره وإزالةً لخوفه: ﴿لَا تَخَفْ﴾ أيها المرشد من عندنا من تمثالاتهم الغير المطابقة للواقع ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾ أي

وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ
أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ
أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ....

الغالب عليهم بعد إلقائك ﴿وَ﴾ بعد ما اطمأن قلبك بوحينا لك هذا ﴿أَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ يعني عصاك بالجراءة التامة والقدرة الغالبة بلا جبنٍ وتزلزلٍ ﴿تَلْقَفْ﴾ أي تبلع وتلتقم ﴿مَا صَنَعُوٓاْ﴾ لمعارضتك ﴿إِنَّمَا﴾ التماثيل التي ﴿صَنَعُواْ﴾ ليس لها اعتبارٌ بل ما هي إلا ﴿كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾ وحيلةُ ماكرٍ ﴿وَلَا يُفْلِحُ﴾ ويَغلِبُ ﴿ٱلسَّاحِرُ﴾ بِحِيَلِه وسحره ﴿حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ أي في أي مكان أتى به، سواءً كان عند معاونيه أو في مكانٍ آخر.

فألقى موسى عصاه امتثالاً لأمر ربه، فصار ثعباناً فابتلع حبالهم جميعاً ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ مجتمعين ﴿سُجَّدًا﴾ متذللين نادمين من معارضتهم ﴿قَالُوٓاْ﴾ بلسانهم موافقاً لقلوبهم: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ بأن له القدرة والاختيار لا يعارَض فعله أصلاً، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

﴿قَالَ﴾ لهم فرعون على سبيل التقريع والتوبيخ بعد ما سمع إيمانهم وتذللهم عند موسى: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ وسلَّمتم سحرَه بلا استئذان مني بل ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ بتسليمه فظهر عندي ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي موسى ﴿لَكَبِيرُكُمُ﴾ أي معلمكم ومقتداكم ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ في خلوتكم معه، فاتفقتم معه حتى تخرجوني من ملكي، فوعزتي وجلالي وعظم شأني لأنتقمن منكم

﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا﴾

انتقاماً شديداً ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم﴾ أولاً ﴿مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ أي متبادلين ﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ حتى يعتبر منكم من كان في قلبه بغضي وعداوتي، وإن آمنتم خوفاً من شدة عذاب ربه ودوامه ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾ وأدومُ عقاباً، أنا، أم رب موسى؟!!

﴿قَالُواْ﴾ بعدما كوشفوا بما كوشفوا: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ﴾ ونرجحك يا فرعون ﴿عَلَىٰ مَا جَآءَنَا﴾ وانكشف علينا من الحق الصريح سيَّما بعد ظهور المرجحات ﴿مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الواضحات الدالة على إيثاره وترجيحه، مع أنه لا بينة لك سوى ما جئنا به من السحر من قبلك وهو يبطله ﴿وَ﴾ بالجملة كوشفنا الآن بأنه سبحانه هو ﴿ٱلَّذِي فَطَرَنَا﴾ [وأوجدنا من كتم العدم بكمال الاستقلال والاختيار فله التصرف فينا ولا نبال بتخويفك وتهديدك يا فرعون الطاغي وبالجملة][1] ﴿فَٱقْضِ﴾ أي امض علينا ﴿مَآ أَنتَ﴾ عليه ﴿قَاضٍ﴾ راضٍ من القطع والصلب وغير ذلك لأنك ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾﴾ أي ما تقضي وتحكم أنت أي حكمٍ تحببت، ما هي إلا في هذه الحياة الفانية المستعارة، إذ حكومتك مقصورة عليها، والدنيا وعذابها فانيةٌ حقيرةٌ، والآخرة وعقابها[2] باقيةٌ عظيمةٌ، لذلك

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا﴾ الذي ربانا بأنواع النعم فكفرنا له وأشركناك مع تعاليه

---

(١) ما بين معقوفين [...] سقط من المخطوط. (٢) في المخطوط (عقابه).

لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ....

عن الشريك والكفؤ والنظير، فالآن ظهر الحق وارتفع الحجب، فرجعنا إليه واستغفرنا منه من ذنوبنا ﴿لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَ﴾ خصوصاً ﴿مَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ﴾ بمعارضة المعجزة ﴿وَ﴾ بعد رجوعنا إليه تحقق عندنا أنه أي ﴿ٱللَّهُ خَيْرٌ﴾ منك ومن كل ما سواه ﴿وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ أي بعد فناء الكل.

وقد تحقق عندنا أيضاً

﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ﴾ القادر على الانتقام والإنعام ﴿مُجْرِمًا﴾ مشركاً طاغياً ﴿فَإِنَّ﴾ أي حقَّ وثبتَ ﴿لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾ التي هي دار البعد والخذلان أبداً ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ حتى يستريح ﴿وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾﴾ أيضاً حياةً يستفيد بها وثانياً إنه ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا﴾ موقناً بذاته وصفاته وأفعاله، ومع ذلك ﴿قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بمقتضى أوامره ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المؤمنون الصالحون ﴿لَهُمُ﴾ لا لغيرهم من الصالحين ﴿ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾ القريبة إلى الدرجة العليا التي انتهت إليها جميع الدرجات، وهي

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي أنهار المعارف والحقائق لأولي البصائر والأبصار الناظرين بعيون الاعتبار المستغرقين بمطالعة جمال الله بلا مزاحمة الأغيار ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ﴾ بلا ملاحظة زمانٍ ومقدارٍ

وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ ....

﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ من ذمائم الأخلاق ورذائل الأطوار.

وكيف لا يكون للتزكية هذه الآثار؟!

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ﴾ من عندنا ﴿إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ المختار بعدما هذَّبنا ظاهره عن ذمائم الأخلاق ورذائل الأطوار، وحلَّينا باطنه بأنواع المكاشفات والأسرار، إنجاءً له ولقومه من يد الكفار حين عزم عليه فرعون الغدَّار ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ أي سِر ليلاً معهم على صورة الفِرَار، فمتى أُخبروا بذلك، اتبعوا أثرك بمقتضى الاغترار، ومتى أردفك العدو وقربوا أن يدركوك ومنعك البحر من العبور قلنا لك: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ﴾ بعصاك المعين في الأمور البحرَ ليكون لك معجزةً وظهر لهم ﴿طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ جافاً لا وحلَ فيها، لئلا يخافوا من الغرق ومن ورائك العدو وأنت أيضاً ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا﴾ أي أن يدركك فرعون ﴿وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾ أن يغرقك البحر، فضربَ البحرَ بأمر ربه بعد ما سار بإذنه، فسلك فيه مسلك قومه خلفه، فعبروا، فوصل فرعون وملؤه الأرض، فرأوا عبورهم من الطريق اليابس.

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ بلا تراخٍ فدخلوا اغتراراً بيبسه ﴿فَغَشِيَهُم﴾ أي غطَّاهم وسترهم ﴿مِّنَ ٱلْيَمِّ﴾ أي البحر ﴿مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾﴾ أي غشاوةً عظيمة بحيث يكون البحر كما كان، فهدى موسى قومه فأنجيناهم امتناناً عليه

وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ ....

وعليهم ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾ باتباعهم بني إسرائيل على الفور ﴿وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ وأرشد لهم طريق المخلص، فأغرقناهم متبوعاً وتابعاً زاجراً عليه وعليهم.

ثم بعد إنجائنا بني إسرائيل من عدوهم وإهلاك عدوهم بالمرة وإيراثهم أرضهم وديارهم وأموالهم، نبهنا عليهم التوجه والرجوع إلينا بتعديد نعمنا التي أنعمناهم، ليواظبوا على شكرها أداءً لحقِّ شيء منها، حتى يكونوا من الشاكرين المزيدين لنعمنا إياهم، لذلك ناديناهم ليقبلوا إلينا ويعلموا أن الكل من عندنا:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ المنظورين بنظر الرحمة والشفقة ﴿قَدْ أَنجَيْنَٰكُم﴾ أولاً بقدرتنا ﴿مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾ الغالب القاهر عليكم ﴿وَ﴾ أنجيناكم ثانياً عن جرائم تقصيراتكم بامتثال الأوامر الوجوبية حال ﴿وَاعَدْنَاكُمْ﴾ نزول التوراة بصعودكم ﴿جَانِبَ ٱلطُّورِ﴾ لا جميع جوانبه بل جانبه ﴿ٱلْأَيْمَنَ﴾ ذا اليُمن والكرامة، ليشير إلى العفو عن التقصير ﴿وَ﴾ أنجيناكم ثالثاً عن شدائد التيه من جوعه وعطشه وحره وبرده بأن ﴿نَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ﴾ الزنجبين[1] ﴿وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾﴾ السماني، وأمرناكم بالأكل منهما مباحاً بأن قلنا:

﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ بعد تحملكم شدائد الابتلاء واشكروا لنعمنا لنزيدهم ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ﴾ أي لا تضلوا بإسناد النعم إياكم إليكم لا

(١) مرت من قبل باسم الترنجبين.

فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن
تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ
﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ ....

إلينا، مثل فرعون وقومه، وإن كنتم مثلهم في كفرانها ﴿فَيَحِلَّ﴾ أي فينزل ﴿عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ﴾ البتة مثل حلولهم ﴿وَ﴾ اعلموا أن ﴿مَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾ سقط عن درجة الاعتبار والتقرب.

﴿وَ﴾ إن ابتليتم بحلول الغضب لا تيأسوا عن نزول الرحمة بعد التوبة إذ ﴿إِنِّي﴾ بعد رجوعكم إليّ بالإخلاص ﴿لَغَفَّارٞ﴾ ستارٌ ﴿لِّمَن تَابَ﴾ عما جرى عليه ﴿وَءَامَنَ﴾ بعد التوبة تأكيداً للإيمان السابق ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ بعد ذلك نادماً على ما مضى من العصيان ﴿ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ بالإخلاص والعمل الصالح إلى درجات القرب واليقين.

ولما كان موسى حريصاً على إهداء قومه لشفقته عليهم، تسارع إلى تصفيتهم، واختار منهم سبعين رجلاً من خيارهم حتى يذهبوا معه إلى الطور ليأخذوا التوراة، فساروا معه، فسارع موسى في الصعود شوقاً إلى لقاء ربه، وأمرهم أن يتبعوا في الارتقاء إلى الجبل، فوصل موسى الموعد قبل وصولهم، فقال له سبحانه تنبيهاً على استعجاله واضطرابه في أمره:

﴿۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ﴾ أي أيُّ شيء أسبقك ﴿عَن قَوۡمِكَ﴾ المستكملين برفاقتك ﴿يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾﴾ المرسَل لتكميلهم، بل من حقك أن تجيء معهم مجتمعين.

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿هُمۡ﴾ من غاية قربهم ﴿أُوْلَآءِ﴾ المشار إليهم التابعين

عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ ....

﴿عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلْتُ﴾ من غاية اشتياقي ﴿إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾ عني ويزداد تقربي إليك.

﴿قَالَ﴾ تبارك وتعالى إذ فارقتهم وتركتهم، صرتَ سبباً لوقوعهم في البلاء العظيم ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا﴾ ابتلينا ﴿قَوْمَكَ﴾ الذين أبقيتهم مع أخيك ﴿مِنۢ بَعْدِكَ﴾ أي بعد خروجك من بينهم بعبادة غيرنا فأشركوا بنا ﴿وَ﴾ ما ﴿أَضَلَّهُمُ﴾ إلا ﴿ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾ المفرط بصوغه صورة العجل من حلي القبط ورميه عليها التراب الذي أخذه من حافر فرس جبريل وخوار العجل بعد رمي التراب، وقوله: هذا إلهكم وإله موسى، فإذا سمع موسى من ربه ما سمع.

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ﴾ من ساحة عز الحضور في مقام السرور ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ المتخلفين عن أمره، المشركين بربه، قد استولى عليه الغضب حمية لهم وغيرة على ربه فصار ﴿غَضْبَٰنَ﴾ من فعلهم ﴿أَسِفًاۚ﴾ متأسفاً متحزناً متفكراً، هل يمكن تداركه أم لا، فلما وصل إليهم ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ﴾ المضيعين سعيي في تكميلكم، أما تستحيون من ربكم الذي رباكم بأنواع النعم وأنجاكم من أصناف البلاء سيما عند وعد الزيادة لكم ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ﴾ يحسن أحوالكم ويوصلكم إلى مقام القرب بإنزال التوراة عليكم لتكملوا

أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ ....

بها أخلاقكم ﴿أَ﴾ تنكرون من إنجاز وعده ﴿فَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾ المدة بأن صار أربعين بعدما كان ثلاثين ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ﴾ بزيادة الإنكار والإصرار ﴿أَن يَحِلَّ﴾ وينزل ﴿عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم﴾ بسبب ذلك ﴿مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾﴾ الذي وعدتكم من متابعتي لأخذ التوراة.

﴿قَالُوا۟﴾: يا موسى ﴿مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ بقدرتنا واختيارنا من غير ظهور دليل يشغلنا عن موعدك بل ﴿وَلَٰكِنَّا﴾ كنا على ما وعدتنا، ولا يصدر عنا مخالفتك غير أن ﴿حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا﴾ وآثاماً مستعاراً ﴿مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ أي من حلي القبط ولم يمكنا الرد إليهم لاستئصالهم، ولا يمكننا أيضاً حملها وحفظها دائماً لذلك اضطررنا فحفرنا حفرة ﴿فَقَذَفْنَٰهَا﴾ أي قذف كل منا ما في يده من الحلي فيها ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾﴾ ما في يده من الحلي فيها بعد قذفنا بلا صنع زائدٍ منا، وبعد ما قذف الكل حليهم فيها، أدخل السامري يده فيها ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ﴾ منها ﴿عِجْلًا﴾ أي صورة عجل أوجده الله تعالى من تلك الحلي المقذوفة، ولم يكن من ذوي الحس والحركة بل ﴿جَسَدًا﴾ وهيكلاً ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ يصوّتَ صوتَ البقرة ﴿فَقَالُوا۟﴾ السامري أصالة والباقي تبعاً: ﴿هَٰذَآ﴾ الجسد الذي خار خورة ﴿إِلَٰهُكُمْ﴾ الذي

وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا
وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ
ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ ....

أوجدكم من العدم ﴿وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ المتردد في بيداء طلبه، أنزله في هذه الحفرة من قبل ﴿فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾﴾ منزله وسعى في طلبه سعياً بليغاً، فرقى الطور لهذا الطلب.

﴿أَ﴾ هم خرجوا عن طور العقل في اعتقاد إلهية الجماد، بل عن الحس أيضاً ﴿فَلَا يَرَوْنَ﴾ ولا يتفكرون في شأن هذا الجماد ﴿أَلَّا يَرْجِعُ﴾ أي أنه لا يرد ﴿إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ جواباً عن سؤالهم ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا﴾ لو لم يؤمنوا به ﴿وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ لو آمنوا به.

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ﴾ أي قبل رجوع موسى إليهم نيابة عنه إصلاحاً لحالهم بعدما أفسدوا على أنفسهم ما أمرهم موسى من الأصلح بحالهم: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ المائلين عن طريق الحق بسبب هذه الصورة ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾ أي ما هذا إلا ابتلاءٌ لهم من ربكم ليختبر سبحانه رسوخكم وتمكنكم على التوحيد، أعرضوا عن الشرك بالله وتوجهوا إليه ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ لكم بإرسال أخي إليكم رسولاً وإنجائكم من عدوكم، وأنا نائب عن أخي استخلفني عليكم ﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾ لتتبعوا الحق ولا تميلوا إلى الباطل ﴿وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾﴾ واقبلوا قولي وإرشادي لكم حتى يصلح حالكم.

﴿قَالُوا۟﴾: لأنك وإن كنت نائباً عن أخيك، لكن لا تعرف الرب ولا

لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ
ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا
بِرَأْسِىٓۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ....

تكلمتَ معه، بل يعرفه ويتكلم معه موسى ﴿لَن نَّبْرَحَ﴾ ونزال ﴿عَلَيْهِ﴾ أي على الجسد ﴿عَٰكِفِينَ﴾ مقيمين حوله متوجهين له متضرعين عنده ﴿حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾.

ثم لما رجع موسى من ميقاته ومناجاته مع ربه إلى قومه، ووجدهم ضالين منحرفين عن مسلك السداد، صار غضبان عليهم أسفاً بضلالهم.

﴿قَالَ﴾ من شدة غيظه لأخيه منادياً باسمه على سبيل الاستحقار مع أنه أكبر منه ﴿يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ﴾ أيْ أيّ شيء منعك عن القتال معهم وقت ﴿إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾﴾ عن طريق الحق وتوحيده، بعبادة العجل، وما لحقك ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ﴾ في مقاتلة المشركين بعدما أوصيتك به مراراً، وقد أقمتك فيهم لإصلاح حالهم، ﴿أَ﴾ كفرت وضللت أنت أيضاً ﴿فَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾﴾ فأخذ من كمال غيظه وغضبه بشعر أخيه ولحيته يجره.

﴿قَالَ﴾ له حينئذ هارون قولاً يحرك مقتضى الأخوة وينبه على قبول العذر: ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾ نسبه إلى الأم استعطافاً: احذر عن الغضب وتوجه إلي واسمع عذري ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓۖ﴾ ما لم تسمع عذري، لم أترك قتالهم ﴿إِنِّى﴾ وإن كنت لا أقدر على قتالهم لكثرتهم ﴿خَشِيتُ﴾ مع ذلك إن قاتلت معهم ﴿أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي جعلتهم فرقاً

وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ ....

متخالفة متقابلة ﴿وَلَمۡ تَرۡقُبۡ﴾ ولم تحفظ ﴿قَوۡلِي ﴿٩٤﴾﴾ لك: اخلفني في قومي، وأصلح بينهم حتى أرجع.

فلما سمع موسى عذره، ندم على فعله، فرجع إلى معاتبة من يضلهم و﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ﴾ أيْ أيّ شيء هو أعظم مقصودك من هذه التفرقة والإضلال ﴿يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾﴾ المضل.

﴿قَالَ﴾: مقصودي الرئاسة عليهم بشيء يميزني عنهم من الخوارق إذ ﴿بَصُرۡتُ بِمَا﴾ أي بشيء ﴿لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ﴾ أصلاً، وذلك أني رأيت جبريل راكباً على فرس الحياة، ما وضع قدمه على شيء إلا حيي ﴿فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي من تراب وطئها حافر فرس الرسول الذي هو جبريل، وكنت أحفظها إلى أن أذابوا حليهم ﴿فَنَبَذۡتُهَا﴾ فيه، فسرى الحياة منها إلى الصورة المتخذة من الحلي فخار، فأمرتهم باتخاذها إلهاً ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ﴾ وزينت ﴿لِي نَفۡسِي ﴿٩٦﴾﴾ حتى أكون متبوعاً لهم، ومقتدى بينهم.

﴿قَالَ﴾ له موسى: ﴿فَٱذۡهَبۡ﴾ من عندي وتنح عن مرآي ﴿فَإِنَّ لَكَ﴾ أي حقَّ وثبت لك ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ﴾ أي في حين حياتك ﴿أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ﴾

وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا
لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ
إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ ....

لك ولا إدراك، يعني أنك في حال حياتك من زمرة الأموات الفاقدين للحواس والإدراك وجميع المشاعر، لاعتقادك بحياة هذا الجماد، وأخذته إلهاً، وأضللتَ بسبب هذا جمعاً عظيماً من الناس ﴿وَإِنَّ لَكَ﴾ أي ثبتَ وتهيأ لك في الآخرة ﴿مَوْعِدًا﴾ من الجحيم ﴿لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ أي لن تنتقل عنه أصلاً، إذ لا توبة لك منها حتى تتجاوز عنه، فتعين كذلك فيه أبداً الآباد ﴿وَ﴾ إذا عرفتَ حالك في دنياك وأخراك ﴿ٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ﴾ وعلى عبادته ﴿عَاكِفًا﴾ مقيماً عازماً ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ بالنار، وإن كان إلهاً، لم تحرقه النار، ثم بعد الإحراق وبعد صيرورته رماداً ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ﴾ وننشرنه ﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾ أي في البحر ﴿نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾ نشراً بحيث لم يبق من أجزائه في البر شيء، فأحرقها ونسفها وتوجه إلى بني إسرائيل فقال:

﴿إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ ٱللَّهُ﴾ المستجمع جميع أوصاف الكمال هو ﴿ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ﴾ أي لا موجود ﴿إِلَّا هُوَ﴾ وما سواه عدمٌ، ولو تعقل فلا يخرج عن حضرة علمه شيء، لأنه ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ في الذهن والخارج ﴿عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ما أوحينا إلى موسى لإهداء قومه وإهلاك عدوه وأوحينا إليك يا أكمل الرسل قصص السابقين ليعتبر من هلاك عدوهم من عاداك، ويفرح من إهداء صديقهم مَن صدّقك وآمن بك إذ ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾

مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ

قصصهم مع كونك خالي الذهن ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَۚ﴾ بمدة مديدة ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ﴾ امتناناً لك ﴿مِن لَّدُنَّا﴾ بلا واسطة معلم ومرشد ﴿ذِكْرًا ﴿٩٩﴾﴾ كلاماً جامعاً يذكرك جميع ما في الكتب السالفة من الحقائق والأحكام والقصص على الوجه الأتم الأبلغ.

﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ أي عن القرآن بعد نزوله وتشبث بغيره من الكتب المنسوخة ﴿فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾﴾ أي إثماً ثقيلاً لأخذه بالمنسوخ وترك الناسخ بحيث يكون

﴿خَٰلِدِينَ فِيهِۖ﴾ فيها أي فيما يترتب عليه في يوم الجزاء من العذاب الأبدي ﴿وَسَآءَ لَهُمْ﴾ أي لحامليهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ المخففة للحمل لأرباب العناية ﴿حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾ ثقيلاً يوقعهم إلى النار.

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِۚ﴾ لإخراج ما بالقوة إلى الفعل ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ المشركين ﴿يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾﴾ زرق العيون سود الوجوه، وهما كنايتان عن الحسد والنفاق اللذين هم عليهما في دار الدنيا.

وإذا ظهر لهم قبائحهم الكامنة فيهم في الدنيا

﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي يتكلمون خيفة فيما بينهم هكذا، هذه القبائح التي ظهرت علينا من أوصافنا التي كنا عليها في دار الدنيا زماناً قليلاً،

إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ
إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا
صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ

فبعضهم يقول للبعض: ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ﴾ أي ما مكثتم في الدنيا ﴿ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾﴾ من الليالي، وبعضهم يقلل من ذلك، وبعضهم يقلل منه أيضاً، وهم يخفون أحوالهم لئلا يطلع عليها أحد. وكيف يخفون عنا إذ

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ﴾ بمقتضى حضرة علمنا ﴿بِـ﴾ جميع ﴿ـمَا يَقُولُونَ﴾ من الأقوال المتعارضة، ولا تذكر إلا ما هو أقرب للصواب ﴿ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أي أميلهم وأقربهم إلى الصواب ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾ واستصغارهم مدة الدنيا، إنما هو من طول يوم الجزاء.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾ في ذلك اليوم أهي على قرارها وقوامها حتى يؤوى إليها أم لا ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾﴾ أي يسحقها سحقاً كلياً كأنه خرج من المناخل الدقيقة.

﴿ فَيَذَرُهَا﴾ أي يترك الأرض بعد نسف الجبال ﴿قَاعًا﴾ سطحاً مستوياً ﴿صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾﴾ ملساء، بحيث:

﴿لَّا تَرَىٰ﴾ أيها الرائي ﴿فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ نتواً و ربوة لاستوائه.

﴿ يَوْمَئِذٍ﴾ أي وقت نفخ الصور لاجتماع الناس إلى المحشر ﴿يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ﴾ الذي هو إسرافيل، أي يجتمعون عنده كل واحد منهم بطريق

لَا عِوَجَ لَهُۥۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِۖ ....

﴿لَا عِوَجَ لَهُۥۖ﴾ لاستواء الأرض وعدم المانع من العقبات والأغوار ﴿وَ﴾ في ذلك اليوم ﴿خَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ﴾ أي خفضت وخفيت أصواتهم وقت الدعاء ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾ من شدة أهوال ذلك اليوم بحيث إذا أصغيت إلى سماع أقوالهم ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾ ذِكراً خفياً.

﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ أي شفاعة كل أحد من الناجين كل واحد من العاصين ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ بالشفاعة لبعض العصاة من أرباب العناية في ذلك اليوم ﴿وَ﴾ مع إذنه سبحانه له ﴿رَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾ أي تعلق رضاه سبحانه الشفيع وقت الشفاعة.

وإنما أذن ورضي سبحانه بالشفاعة للبعض لأنه سبحانه

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي يحيط علمه بجميع أحوالهم من العصيان والطاعة، وبأن أي عصيان يزول بالشفاعة، وأي عاصٍ يستحقها ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ بدقائق معلوماته وأفعاله وآثاره.

﴿۞ وَ﴾ في ذلك اليوم ﴿عَنَتِ ٱلْوُجُوهُ﴾ أي هلكت وجوه الأشياء أي ظهورها وبقي الوجه الذي هو ﴿لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِۖ﴾ المنزه عن الظهور والبطون،

وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ

المقدس عن الحركة والسكون ﴿وَقَدْ خَابَ﴾ وخسر خسراناً مبيناً في ذلك اليوم ﴿مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾﴾ شركاً بالله الواحد القهار.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في الدنيا ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ موقن بوحدانية الله ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ في ذلك اليوم ﴿ظُلْمًا﴾ بأن يحبط أعماله الصالحة بالكلية، ولم يجز بها ﴿وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ بأن ينقص من جزاء عمله الصالح.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي مثل إحاطة علمنا بجميع الأشياء ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي هذا الكتاب المحيط بجميع ما في العالم، إذ لا رطب ولا يابس إلا فيه ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي كلاماً عربيَّ الأسلوب ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ أي كثر تصرفنا فيه من الإنذارات والتخويفات ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ رجاء أن يتوجهوا إلى توحيدنا ويجتنبوا عن شركنا ﴿أَوْ يُحْدِثُ﴾ ويجدد وعيد القرآن ﴿لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾ من أحوال الماضين وعقاب الله عليهم من الغرق والمسخ والكسف والخسف لعلهم يتذكرون.

وإن قالوا على سبيل المكابرة عتواً وعناداً: لربك حاجة إلى إيماننا وتقوانا، وإلا لِمَ يرجو إيماننا؟. قل لهم يا أكمل الرسل:

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ أي تنزه وتقدس ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ المستولي المطلق ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الثابت الدائم أزلاً وأبداً عما يقول الظالمون المشركون من إثبات الاحتياج

وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا
﴿١١٤﴾ وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ﴿١١٥﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا
لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ ....

له بمجرد الرجاء العائد نفعه إياهم أيضاً ﴿وَ﴾ إذا كان ظنهم هذا ﴿لَا تَعۡجَلۡ﴾ يا أكمل الرسل ﴿بِٱلۡقُرۡءَانِ﴾ أي بأدائه وتبليغه لهم وقراءته عليهم ﴿مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ﴾ أي من قبل أن يفرغ جبرائيل عليه السلام من وحيه وتبليغه، بل أصبر حتى يفرغ من الوحي، ثم تأمل في مرموزاته وإشاراته الخفية بقدر استعدادك ﴿وَ﴾ بعد التأمل والتدبر ﴿قُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴿١١٤﴾﴾ بما فيه من نفائس المعلومات وعجائب المعارف والحقائق.

ثم بعد ذلك اقرأ عليهم ونبههم بما فيه من قدر عقولهم

﴿وَ﴾ لا تنس نهينا عن الاستعجال بأداء القرآن قبل تمام الوحي مثل نسيان أبيك آدم عليه السلام عهده معنا فإنا ﴿لَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ﴾ أبيك ﴿ءَادَمَ مِن قَبۡلُ﴾ بقولنا نهياً له ولامرأته: ﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [٢-البقرة:٣٥ و ٧-الأعراف:١٩] ﴿فَنَسِيَ﴾ عهدنا هذا لتغرير الشيطان له ﴿وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ﴿١١٥﴾﴾ رأياً صائباً في حفظ العهد حتى يوطن نفسه على مقتضى النهي.

﴿وَ﴾ اذكر لنقض عهده وقصور رأيه وقت ﴿إِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ أي تذللوا له تكريماً وتعظيماً لأنه أفضل منكم وأجمع لتجليات أوصافنا ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ ووقعوا متذللين له على الأرض تكريماً له

﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ ۝١١٦ فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ۝١١٧ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ۝١١٩﴾ ....

وامتثالاً لأمر ربهم ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ من بينهم ﴿أَبَىٰ ۝١١٦﴾ وامتنع عن سجوده لاستكباره وعتوه.

وإذ استكبر إبليس عن تعظيمه نبهنا عليه عداوته:

﴿فَقُلۡنَا﴾ له: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ﴾ المكرم بسجود الملائكة ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ المشار إليه بالإشارة القريبة الممتنع عن سجودك وتعظيمك ﴿عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ﴾ يريد إفسادكما فاحذرا عن مصاحبته وتغريره، ولا تتكلما معه ﴿فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ إلى دار الابتلاء ﴿فَتَشۡقَىٰٓ ۝١١٧﴾ أنت يا آدم على الخصوص، أي تتعب وتعيى بسبب كسب المعيشة، لأن معيشتك حينئذٍ من كد يمينك، ولا تعب لك في الجنة، بل:

﴿إِنَّ لَكَ﴾ أي حق وثبت لك أيضاً ﴿أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ۝١١٨﴾ أي في الجنة لسعة طعام الجنة وثيابها.

﴿وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا﴾ لأن العطش إنما هو من فرط الحرارة ولا حرارة فيها ﴿وَ﴾ كيف يكون فيها حرارة، إذ أهلها له ﴿لَا تَضۡحَىٰ ۝١١٩﴾ ولا يبرز منه الظل إلى الشمس من جهة البرودة، لأن أهلها لا يؤذون بالحرارة والبرودة[1].

---

(١) هاتان الآيتان وردتا هكذا في نسختنا المعتمدة، وفيها ما يشير إلى تصحيحٍ بقوله بعد تصحيحه على الهامش: صح. وفي النسخة الأخرى ترد هكذا: ﴿إِنَّ لَكَ﴾ أي قد حق وثبت لشأنك ﴿

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾

فلما عاش فيها زماناً مستريحاً بلا تعب ولا عناء أظهر إبليس عداوته وأخذ يوسوس له ولزوجته ليخرجهما منها، لأنهما ما داما في الجنة، لم يقدر على إضلالهما ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي ألقى وسوسته في نفسه و﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ﴾ على وجه النصيحة: هنيئاً لك عيشك في الجنة بلا تعب ومحنة ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾ إن أكلتَ منها يخلدك أبداً فيها ﴿وَ﴾ أهديك على ﴿مُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ أي لا يخلق ولا يعتق، بل يتجدد دائماً بتجدد الأمثال، بلا انتقالٍ وزوالٍ.

وإذ وسوس إليهما سمعا قوله وقبلا وسوسته فنسيا عهد ربهما ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾ حتى شبعا وأرادا أن يتبرزا ويتغوطا، ثم لما ارتكبا المنهي وظهر منهما ما هو منافٍ لطهارة الجنة ونظافتها، أمر سبحانه بإخراجهما منها، فنزع أولاً عنهما لباسهما، أي لباس الطهارة والنجابة الفطرية والتقوى الجبلية ﴿فَبَدَتْ﴾ ظهرت بعد نزع اللباس ﴿لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ عوراتهما، فاضطرا على التستر والتغطي ﴿وَطَفِقَا﴾ أي شرعا ﴿يَخْصِفَانِ﴾ ويلزقان ﴿عَلَيْهِمَا﴾ أي على عورتهما ﴿مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي من أوراق بعض أشجارها، قيل

﴿أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا﴾ أي في الجنة، إذ أكلها دائم غير منقطع ﴿وَلَا تَعْرَىٰ﴾ إذ ألبستها متجددةٌ دائمة غير بالية، وحللها غير منقطعةٍ.

﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا﴾ إذ العطش إنما يحصل من فرط الحرارة ولا حرارة فيها ﴿وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ أنت أيضاً إذا لا برودة فيها بل هي معتدلة دائماً لا إفراط للحرارة والبرودة فيها.

وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى ....

هي ورق التين ﴿وَ﴾ إذا كان حالهما كذلك قالت الملائكة: ﴿عَصَىٰٓ ءَادَمُ﴾ المكرَم المسجود له ﴿رَبَّهُۥ﴾ الذي رباه بتناول ما يصلحه منها عن تناول ما يضره، بأن أعرض عن النهي، وبادر إلى ارتكاب المنهي بغرور الشيطان المغوي المضل ﴿فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾ بإغوائه وضل عن مراده الأصلي بتغرير العدو ؛ لأن العدو إنما يلقى عدوه عكس مطلوبه.

﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ بعدما ألهمه الإنابة والرجوع إليه، فاعترف بذنبه، ورجع إلى ربه تائباً بقوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [٧-الأعراف:٢٣] الآية ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ أي قَبِل سبحانه توبته ﴿وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ أي هداه إلى مقصده الأصلي، وقبلته الحقيقية، إلا أنه سبحانه لا يُبْطل حِكمةَ حُكمه السابق المترتب على النهي، وهو قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [٢-البقرة:٣٥،٧الأعراف:١٩] الخارجين عن مقتضى الحدود الإلهية، لذلك

﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا﴾ أي انزلا من الجنة التي هي دار الأمن والسرور إلى الدنيا التي هي دار التفرقة والغرور ﴿جَمِيعًۢا﴾ أصلاً وفرعاً، صديقاً وعدواً، وبعد هبوطكم إليها ﴿بَعْضُكُمْ﴾ يا بني آدم ﴿لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ في أمور معاشكم، والشيطان عدو لكم في أمور معادكم، فتبقى هذه العداوة بينكم ما دمتم فيها، ومع أمرِنا لكم بالهبوط والخروج منها إليها، لا نترككم هناك ضالّين محرومين مطرودين ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ بواسطة الرسل

فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ
لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ
أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ
﴿١٢٦﴾ ....

والكتب المنزلة عليهم فاتبعوا هداي ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ﴾ عزيمةً وقصداً صحيحاً ﴿فَلَا يَضِلُّ﴾ في النشأة الأولى لاتصافه بصفاتنا ﴿وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ في النشأة الأخرى لفنائه فينا وبقائه ببقائنا.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ أي كتابي الجاري على ألسنة رسلي الهادين عن الضلال ﴿فَإِنَّ لَهُۥ﴾ أي ثَبَتَ له وحقَّ ما دام في دار الدنيا ﴿مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ ضيقاً يضيق قلبه بحيث لا يسع فيه غير التفكر في أمر المعاش ﴿وَ﴾ إذا انتقل منها ﴿نَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الكبرى ﴿أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ أي يصور إعراضه عن الحق في الدنيا على صورة العمى في الآخرة، حيث

﴿قَالَ﴾ تحسراً وتحزناً: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ﴾ في الآخرة ﴿وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾ في الدنيا.

﴿قَالَ﴾ سبحانه توبيخاً عليه وتقريعاً: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك فعلتَ بنا حين ﴿أَتَتْكَ﴾ بلسان الأنبياء ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ لهدايتك وإصلاح حالك ﴿فَنَسِيتَهَا﴾ ونبذتَها وراء ظهرك فكانت نسبتُك إليها كنسبة الأعمى إلى الأشياء المحسوسة ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي كالمنبوذ وراء الظهر ﴿ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ أنت في جهنم البعد والحرمان.

وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ....

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي مثل نسيان من أعرض في العذاب ﴿نَجْزِي﴾ ونترك منسياً في جهنم ﴿مَنْ أَسْرَفَ﴾ وأفرط في الإعراض عن الله ورسله بمتابعة العقل واعتباراته ومضى عليها زماناً ﴿وَلَمْ يُؤْمِنْ﴾ أي لم يُذعن ولم يُوقن ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ﴾ النازلة على أنبيائه ورسله ولم يتنبه لمرموزاتها ومكنوناتها ﴿وَ﴾ الله وإن احتمل الشدائد وارتكب المتاعب في تحصيل تلك الاعتبارات ﴿لَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ في شأنه لاشتغاله بغير الله وإعراضه عن آياته ﴿أَشَدُّ﴾ من شدائد ذلك التحصيل ﴿وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ وأدوم وباله من النخوة المترتبة عليها.

﴿أَ﴾ ينكر القريشي بآياتنا ويصر على إنكارها، ولم يذكر عذابنا لمنكري آياتنا ﴿فَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ ولم يرشدهم ولم يذكّرهم إهلاكنا الأمم السالفة بسبب إنكار الآيات وتكذيب الرسل، إذ ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ أي أهلكنا كثيراً من أهل القرون الماضية حين ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْۗ﴾ أمثالهم أصحاء سالمين، فجاءهم بأسنا بياتاً أو نهاراً، فجعلناهم هالكين فانين كأن لم يكونوا موجودين أصلاً لإعراضهم عنا وتكذيبهم آياتنا ورسلنا ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الإهلاك ﴿لَءَايَٰتٖ﴾ دلائلَ ظاهرةٍ على قدرتنا على الانتقام على المعرضين المكذّبين لكتبنا ورسلنا، لكن لا تحصل تلك الدلائل إلا ﴿لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾﴾ أصحاب العقول المنتهية مقتضى عقولهم إلى الشهود.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل في حق أمتك بدعائك لهم

لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ....

وهو ارتفاع العذاب عنهم في دار الدنيا من المسخ والكسف وغير ذلك من أهلكنا به الأمم الماضية ﴿ لَكَانَ﴾ عذاب المنافقين اليوم ﴿ لِزَامًا﴾ أي لزاماً حتماً لازماً مبرماً لظهور أسبابه منهم ﴿وَ﴾ لكن قُدِّر له ﴿أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾ وهو يوم الجزاء.

﴿ فَاصْبِرْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ إلى حلول الأجل المسمى ولا يضيق صدرك من قولهم: إنكَ لا تقدرُ على إتيان العذاب بمقتضى دعواك، لذلك تخوفنا بالقيامة الموهومة، فلو كنتَ رسولاً مثل سائر الرسل لفعلتَ بنا ما فعلوا بأممهم ﴿وَ﴾ إذا سمعت أقوالهم الخشنةَ أعْرضْ عنهم ولا تلتفت إليهم ولا تشغل إلى المعارضة معهم بل ﴿سَبِّحْ﴾ ونزه ربك عما يقولون من إنكار يوم الجزاء تسبيحاً مقروناً ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ شكراً لنعمائه وآلائه الواصلة إليك وداوم عليه ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ بعد انتباهك من منام غفلتك، وقبل اشتغالك في أمور معاشك ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ بعد فراغك عن كسب المعاش وقبل استراحك بالمنام ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ﴾ المعدِّ للاستراحة إن أيقظتَ فيها ﴿فَسَبِّحْ وَ﴾ سبح أيضاً ﴿أَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ إذا فرغتَ عن الاشتغال ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾ عن الله في جميع الأوقات، ويرضى الله فيها.

﴿وَ﴾ عليك الاعتزال من أبناء الدنيا وعدم الالتفات إلى لذاتهم بمتاعها ومزخرفاتها بحيث ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ حال كونك متحسراً متمنياً مثله

إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ
﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ....

﴿ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ ﴾ المنافقين المشركين ﴿ أَزْوَٰجًا ﴾ أصنافاً من كل شيء لأن منه أعطينا ﴿مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي زينتها وزخرفتها ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ ﴾ نجربهم ونختبرهم كيف يعيشون بوجودها في الدنيا، هل يتكبرون ويفتخرون بسببها على الفقراء ويمشون على وجه الأرض خيلاء أم لا، ﴿ وَ ﴾ إذا نبهناك عن متاع الدنيا استرزق منا عما في خزائننا من المكاشفات والمشاهدات بدل تلك اللذات الفانية إذ ﴿رِزْقُ رَبِّكَ ﴾ الذي رزقك بها ليكون لك الكشف والشهود والتمكن في المقام المحمود ﴿خَيْرٌ﴾ لك من مزخرفات الدنيا ومموهاتها لأنها فانيةٌ زائلةٌ لا ثباتَ لها ﴿وَ﴾ هو ﴿أَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾ لك لبقائه مع استعدادك إلى ما شاء الله.

﴿وَ ﴾ إذا رزقت ما رزقت تفضلاً من ربك، فعليك أن تأمر من يلازمك ويؤانسك من أهل الطلب بالميل إلى ما رزقك الله ليكون لهم نصيبٌ مما تفضل الله به عليك من الرزق المعنوي لذلك أمرناك بقولنا: ﴿أْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ الشاغلة جميع قوامهم عن التوجه إلى غيرنا ليكون منبهاً عليهم على ما في استعدادهم ﴿وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ ﴾ أي تحمَّل على متاعب تبليغها ولا تقصِّر خوفاً من انتقاص رزقك لأنا ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ ﴾ أي لا نسأل منهم ﴿رِزْقًا ۖ ﴾ وجُعلاً لأجلك منهم حتى يشقَّ عليهم بل ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ ﴾ وإياهم من مقام جودنا ونوالِ إفضالنا من غير أن ينقص من خزائننا شيءٌ، ونبِّههم أيضاً على العواقب الحميدة المترتبة على الصلاة، وجنِّبهم عن شواغلها

وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا
فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ
أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ

﴿وَ﴾ قل لهم: ﴿ٱلْعَٰقِبَةُ﴾ الحميدة ﴿لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ أي المتصفين بالتقوى، أي الراضين عن الله بما يرضى لهم ويأمرهم، المجتنبين عما لا يرضى منه سبحانه.

ولما سمعوا كشفك وشهودك ورزقك الأوفى من عند ربك وإرشادك على من آمن بك، أصروا على الإنكار ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا﴾ هذا المدعي للكشف والشهود ﴿بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ مقترحةً لم نصدّق ولم نقرّ برسالته، قل لهم يا أكمل الرسل: ﴿أَ﴾ ينكرون إتيان الآيات المقترحة على الأمم الماضية ﴿وَلَمْ تَأْتِهِم﴾ في هذا الكتاب المعجز المذكر لهم ﴿بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾﴾ من إتيان الآيات المقترحة على الأنبياء الماضين، ومع ذلك لم يؤمنوا بهم أممهم، بل كانوا يكذبونهم ويصرون على ما كانوا عليه من الكفر والضلال، فهؤلاء أيضاً أمثالهم.

﴿وَ﴾ قل لهم يا أكمل الرسل أيضاً قولنا هذا ﴿لَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ﴾ نازل من عندنا لإصرارهم وعنادهم ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي من قبل إرسالك إليهم ﴿لَقَالُواْ﴾ حين نزول العذاب مثل ما قالت تلك الأمم الهالكة عند نزوله: ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ﴾ هلا ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ من عندك ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ الدالة على توحيدك ﴿مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ﴾ بهذا الإذلال ﴿وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾ بهذا الخزي والوبال.

وإن عاندوا معك بعد سماع هذه الدلائل الواضحة والتنبيهات اللائحة، أعرضْ عن مكالمتهم ومناصحتهم، و ﴿قُلْ﴾ لهم كلاماً يشعر باليأس عن

﴿كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ١٣٥﴾

إيمانهم وإصلاحهم ﴿كُلٌّ﴾ منا ومنكم ﴿مُّتَرَبِّصٌ﴾ منتظرٌ لهلاك الآخر بسبب الشقاوة والإعراض عن الحق ﴿فَتَرَبَّصُواْۖ﴾ أو انتظروا أنتم لهلاكنا بشقائنا، فإنا منتظرون أيضاً بهلاككم بالشرك والطغيان، وإذا كُشفَ الغطاء وظَهرَ يوم الحشر والجزاء ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ﴾ المستقيم المتمكن الغير المعوج المتلون، أنحن أم أنتم ﴿وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ١٣٥﴾ منا من تيه الضلال إلى فضاء الوصال؟!.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي الطالب لسلوك طريق الحق بالاستقامة التامة والتشبث عليه بلا اعوجاجٍ وتزلزلٍ لتهتدي بسلوكه إلى زلال الوحدة الذاتية التي هي ينبوع بحر الوجود ومنشأ جميع الموجود: أن تقتفي أثر نبيك ﷺ في جميع أفعاله وأعماله، وتتخلق بأخلاقه، وتتصف بأوصافه حسب ما أمكنك وقدْر ما يسر لك.

ولا تُهمل دقيقةً من دقائق الشرع الشريف بل لك أن تتبع به ﷺ في جميع ما جاء به من قِبَل ربه وأنشأه من عند نفسه بلا تفحصٍ وتفتيشٍ عن سرائره، حتى ينكشف لك بعد الوصول إلى مرتبتك التي كلفك الحق إليها وجبلك لأجلها، فحينئذٍ ظهر لك جميع ما أوصاك به نبيك ﷺ ورمز إليه، وصرتَ من أهل المعرفة والإيقان إن شاء ربك، ووفقك عليه.

وفقنا يا ربنا بفضلك وجودك إلى معارج عنايتك ومقر توحيدك يا ذا الجود العظيم.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الأنبياء عليهم السلام

لا يخفى على المتمكنين في مقر التوحيد، الواصلين إلى مرتبة الفناء في الوحدة الذاتية: أن سر الهبوطات والتنزلات المنتشئة من وحدة الذات حسب اقتضاء الأسماء والصفات الإلهية، إنما هو لاكتساب المعارف والحقائق والاتصاف بالكمالات اللائقة ؛ ليحصل لهم الترقي والتدرج متصاعدةً إلى ما منه البداية وإليه النهاية، فلا بد في النشأة الأخرى من انتقاء ما حصل في النشأة الأولى ؛ ليعود كلٌ من المكلفين إلى مبدئه على الوجه الذي بدأ منه.

لذلك وضع سبحانه يوم العرض والجزاء لانتقاء أعمال عباده وتفاوت طبقاتهم ودرجاتهم فيها، ووضع أيضاً لهذه الحكمة جميعَ ما وضع في يوم الجزاء من العرض والحساب والصراط والميزان وكتب الأعمال والجنة والنار وغيرها حتى يتحقق كلٌ من المكلفين بمقتضى ما اكتسب على مقتضى العدل الإلهي والقسط الحقيقي الذي هو صراط الله الأقسط الأقوم.

ثم لما كان كثيرٌ من المنهمكين في الغفلة والضلال، منكرين عليها، مكذبين لها، أنزل سبحانه هذه السورة على حبيبه تبشيراً ووعداً للمؤمنين الموقنين ووعيداً وتهديداً للمنافقين المكذبين، فقال متيمناً باسمه الكريم:

ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ....

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ الذي ظهر في النشأة الأولى والأخرى على العدل القويم ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ لعموم عباده بالدعوة إلى دار السلام وجنة النعيم ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ لخواص عباده بالفوز إلى شرف اللقاء وأنواع التعظيم والتكريم:

﴿ ٱقْتَرَبَ﴾ أي دنا وقرب ﴿ لِلنَّاسِ﴾ الناسين عهود ربهم التي عهدوا بها معه سبحانه وقت ظهور فطرتهم الأصلية من حَمْلِ أمانة المعارف والحقائق وقبول أعباء الإيمان والتوحيد ومشاق الأعمال والتكاليف المقربة لهم إليه ﴿حِسَابُهُمْ﴾ أي قَرُبَ وقت حسابهم وانتقاد أفعالهم وأعمالهم الصالحة المقبولة عند ربهم من الفاسدة المردودة دونه ﴿ وَهُمْ﴾ مغمورون مستغرقون ﴿فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾ عن ربهم وعن حسابه إياهم بل أكثرهم معرضون عنه بحيث لايلتفتون نحوه أصلا بل ينكرون وجوده فكيف حسابه وعذابه، لذلك:

﴿مَا يَأْتِيهِم﴾ وينزل عليهم ﴿ مِّن ذِكْرٍ﴾ وعظةٍ تنبههم عن سِنَةِ الغفلة، ويوقظهم عن رقدة النسيان صادرٌ ﴿مِّن رَّبِّهِم﴾ بوحيٍ ﴿مُّحْدَثٍ﴾ مجددٍ وحسب تجددات البواعث والدواعي الموجبة للإنزال على مقتضى الأزمان والأعصار ﴿ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ﴾ أي الذكر المحدَث ﴿وَهُمْ﴾ حينئذ من غاية عمههم وسكرتهم ﴿يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾﴾ به ويستهزئون مع من أنزل إليه.

﴿ لَاهِيَةً﴾ معه ذاهلةً ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ عن التأمل فيه والتفكر في معناه

وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۖ وَ

والتدرب في رموزه وإشاراته ﴿وَ﴾ هم وإن أغفلوا نفوسهم وقلوبهم عنه لفرط عتوِّهم واستكبارهم لكن تفطنوا بحقيته من كمال إعجازه ومتانته، لكونهم من أرباب البلاغة والفصاحة والذكاء والفطانة لكنهم ﴿أَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى﴾ أي بالغوا في إخفاء ما يتناجوا به في نفوسهم من حقية القرآن وإعجازه، إذ هم ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أنفسهم بارتكاب الكفر والمعاصي وأنواع الضلال عناداً ومكابرة وقصدوا أيضا إضلال ضعفاء الأنام حيث قالوا لهم على سبيل الإنكار: ﴿هَلْ هَٰذَآ﴾ أي ما هذا الشخص الحقير الذي ادعى الرسالة والنبوة والوحي والإنزال من جانب السماء ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْۖ﴾ وهو من بني نوعكم لا ميزة له عليكم، والرسول المرسل من جانب السماء لا يكون إلا ملكاً ﴿أَ﴾ تميلون نحوه وتزعمونه صادقاً بواسطة خوارقَ صدرت عنه على سبيل السحر والشعبذة مدعياً أنه معجزٌ مع أنه ليس كذلك ﴿فَتَأْتُونَ﴾ و تحضرون ﴿ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾﴾ آلاته وأدواته، وتعلمون عياناً أنه سحرٌ مفترىً، هل تصدقونه أم لا؟ وهذا تسجيلٌ وتنصيصٌ منهم على كذب الرسول، وإغراءٌ وتضليلٌ على ضعفاء الأنام، وحثٌ لهم على تكذيبه وإنكار ما أتى به.

﴿قَالَ﴾ [المفسر بقراءة: ﴿قُلْ﴾] يا أكمل الرسل في جوابهم والرد عليهم: ﴿رَبِّي﴾ الذي رباني بأنواع الكرامات والمعجزات ﴿يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ﴾ أي جنس الأقوال والأفعال والأحوال الكائنة ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي عالم الأرواح ﴿وَٱلْأَرْضِۖ﴾ أي عالم الطبيعة والأشباح ﴿وَ﴾ كيف لا يعلم

هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ ....

ويعزب عن علمه شيء إذ ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ المقصور على السمع بحيث لا يسمع سواه ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾﴾ المستقلُّ بالعلم لا عالم إلا هو.

ثم أعرضوا وانصرفوا عن قولهم بسحرية القرآن ؛ لاشتماله على البلاغة والمتانة وأنواع الخواص والمزايا الممدوحة عندهم إلى ما هو الأدنى والأنزل منه، بل قالوا: ما هو إلا

﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ ﴾ أي من تخليطات القوة المتخيلة وتمويهاتها التي رآها في المنام،ثم سطَّرها وسَمَّاها كلاماً نازلاً من السماء موحىً إليه من عند الله ﴿بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ واختلقه واخترعه من تلقاء نفسه، ونَسَبه إلى الوحي ترويجاً له بلا رؤيته في المنام ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ فصيحٌ تكلم بكلامٍ كاذبٍ مُخيَّلٍ نظمه على وجهٍ يعجب الأسماع، وبالجملة ما هو نبيٌ ولا كلامه الذي أتى به وحيٌ نازلٌ من الله كما ادعاه مثل كلام سائر الرسل، وإلا ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ﴾ مقترحةٍ أو غيرها تُلجئنا إلى تصديقه والإيمان به ﴿كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾﴾ أي مثل ما أُرسل بها الأنبياء الماضون كالعصا واليد البيضاء وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، وغير ذلك من الآيات الواقعة من الرسل الماضين.

ثم لما تقالوا بما تقاولوا، واهتم رسول الله ﷺ أيضاً أن ينزل عليه مثل ما أنزل على أولئك الرسل نزلت:

﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم ﴾ لرسلنا الذين جاؤوا بالآيات المقترحة ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾

أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ
فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ ....

أي أهلها من القرى التي أرسلوا إليهم لذلك ﴿أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ واستأصلناها ولو تأتي أنت أيضاً بمقترحاتهم، لما آمنوا لك مثل ما لم يؤمنوا لهم، ﴿أَ﴾ تزعم يا أكمل الرسل أنهم لو أتيت لهم ما اقترحوا ﴿فَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ بك، كلا وحاشا، إنهم من شدة شكيمتهم وغلظ حجابهم وقسوتهم لا يؤمنون بك أصلاً، غاية الأمر أنه لو أتيت إياهم بمقترحهم لم يقبلوا منك البتة، ولم يؤمنوا لك فاستحقوا الإهلاك والاستئصال حينئذٍ، وقد مضى أمرُنا ونفذ حكمُنا على أن لا نستأصل قومَك في النشأة الأولى، لذلك لم ننزل عليك ما اقترحوا منك.

﴿وَ﴾ إن أنكروا رسالتك يا أكمل الرسل معلِّلين بأنك بشرٌ مثلهم، والبشر لا يكون رسولاً، قل لهم نيابة عنا: ﴿مَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ﴾ رسولاً على أمةٍ من الأمم الماضية ﴿إِلَّا﴾ أرسلناهم ﴿رِجَالًا﴾ منهم لا نساءً، كاملاً في الرجولية والعقل، بالغاً نهاية الرشد والتكميل ﴿نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ مثل ما أوحينا إليك؛ ليرشدوا الناس إلى توحيدنا، ويوقظوهم من منام الغفلة، ويهدوهم إلى الصلاح والفوز بالفلاح، وإن أنكروا هذا قل لهم: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟﴾ أيها المنكرون ﴿أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ أي العلم والخبرة من أحباركم وقسيسيكم من المشتغلين لحفظ التوراة والإنجيل وسائر الكتب الإلهية ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾﴾ أيها الجاهلون المكابرون.

وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ....

﴿وَ﴾ إن أنكروا رسالتك معللين بأنك تأكل وتشرب مثلهم، والرسول لا بد أن لا يأكل ولا يشرب مثل سائر الناس، قل لهم أيضاً نيابةً عنا: ﴿مَا جَعَلْنَٰهُمْ﴾ أي الرسل الماضين ﴿جَسَدًا﴾ أي أجراماً وأصناماً ﴿لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ بدل ما يتخلل من أجزائهم، ولا يشربون الشراب المحلِّل لغذائهم، إذ هم أجسام ممكنة محدَثةٌ، محتاجةٌ إلى التغذي، قابلةٌ للنمو والذبول، مشرفةٌ إلى الفناء والانهدام مثل أجسام سائر الأنام ﴿وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾﴾ دائمين مستمرين بلا ورود موتٍ عليهم وتحليلٍ لتركيبهم، بل هم هلكى في قبضته قدرتنا وجنب وجودنا وحياتنا.

﴿ثُمَّ﴾ بعد ما كذَّبهم المكذبون المنكرون ﴿صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ﴾ وأوفينا لهم الوعود المعهودة الذي وعدناهم من إهلاك عدوهم وإنجائهم من بينهم سالمين ﴿فَأَنجَيْنَٰهُمْ﴾ على الوجه الذي عهدنا معهم ﴿وَمَن نَّشَآءُ﴾ من أتباعهم الذين سبقت رحمتنا عليهم في حضرة علمنا ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾﴾ المصرين على البغي والعناد، المنهمكين في الجور والفساد.

ثم قال سبحانه:

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ يا معشر قريش ﴿كِتَٰبًا﴾ جامعاً لما في الكتب السالفة مع إنه ذُكِرَ ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ وشرفُكم ونجابةُ عرقِكم وطينتِكم وكمالُ

أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ ....

دينكم ونبيِّكم وظهوره على الأديان كلها﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾ وتستعملون عقولكم بما فيه فتدركون مزيةَ كتابكم ورسولكم على سائر الكتب والرسل، وبشرف دينكم على سائر الأديان.

ولا تبالوا أيها المترفون بترفهكم وتنعمكم ولا تغتروا بإمهالنا إياكم ولا تؤمِّنوا عن فكرنا وإنزال عذابنا ونكالنا.

﴿وَ﴾ اعلموا أنا ﴿كَمْ قَصَمْنَا﴾ أي قهرنا كثيراً ﴿مِن﴾ أهل ﴿قَرْيَةٍ﴾ وكسرنا ظهورهم، وبعدناهم عن أماكنهم التي يترفهون فيها لأنها ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ خارجةً عن مقتضى الأوامر والنواهي المنزلة منا على رسلنا أمثالكم، وبعد ما أخرجناها وأهلكناها ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا﴾ وبدلنا أهلها ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾﴾ منقادين لحكمنا مطيعين لأمرنا.

﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ﴾ وأدركوا ﴿بَأْسَنَآ﴾ بعد تعلق إرادتنا بانتقامهم ورأوا مقدمات عذابنا وبطشنا ﴿إِذَا هُم﴾ مع شدة شكيمتهم ووفور قوتهم وقدرتهم ﴿مِّنْهَا﴾ أي من قراهم ﴿يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾﴾ ويهربون سريعاً ركضَ الخيل من الأُسْد.

ثم قيل لهم على سبيل التهكم والاستهزاء:

﴿لَا تَرْكُضُواْ﴾ أيها المترفهون المتنعمون، إلى أين تمشون عن منتزهاتكم ﴿وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ﴾ أي إلى أوطانكم وقراكم التي ﴿أُتْرِفْتُمْ﴾ ومُتِّعْتُم

فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ

﴿فِيهِ وَ﴾ واسكنوا في ﴿مَسَٰكِنِكُمۡ﴾ التي كنتم فيها طول دهركم لم تتركونها وتخرجون عنها؟ ﴿لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ ﴿١٣﴾﴾ عن سبب الخروج والجلاء منها.

ثم لما ضاق عليهم أنواع العذاب ولحقت بهم وأدركتهم ولم ينفعهم الفرار والتحرز ﴿قَالُواْ﴾ متأسفين متحسرين: ﴿يَٰوَيۡلَنَآ﴾ وهلاكنا تعال تعال ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾﴾ متجاوزين مخرجين عن مقتضى العدل الإلهي، لذلك لَحِقَنَا ما لَحِقَنَا.

﴿فَمَا زَالَت تِّلۡكَ﴾ الكلمة المذكورة يعني: يا ويلنا إنا كنا ظالمين ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ﴾ أي دعاؤهم ونداؤهم جارية على ألسنتهم على وجه الخضوع والخشوع والتذلل التام والانكسار المفرط ؛ لأنهم قصدوا بها النجاة والخلاص، إذ هم اعترفوا بذنوبهم في ضمنها وندموا عن فعلهم بتكرارها، ومع ذلك لم ينفعهم؛ لمضيِّ وقت التوبة والندامة ﴿حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾ أي صارت أجسامهم مثل المحصود الخامد من النبات، كأنه ما شمَّ رائحةً من الحياة في وقتٍ من الأوقات.

﴿وَ﴾ كيف لا نأخذهم بظلمهم ولا نجعلهم محصوداً خامداً جامداً إذ ﴿مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ المزينة بزينة الكواكب، كلٌّ منها مقدَّرٌ لأمور لا

وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلۡ نَقۡذِفُ ....

يعرف تعديده وإحصاءه غيرنا ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾ المزينة بزينة المعادن والنبات والحيوان والأشجار والأنهار وأنواع الفواكه والأثمار، كل منها مشتملٌ على حِكَمٍ ومصالحَ لا يسعه إلا حضرة علمنا ﴿وَمَا﴾ يحصل ﴿بَيۡنَهُمَا﴾ من امتزاج آثارهما وأفعالهما من العجائب والغرائب التي تَدهش منها العقول، وتكل في وصفها الألسنة، وتنحسر الصدور ﴿لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ أي ما جعلناهما عبثاً باطلاً بلا سرائرَ ودَّعنا فيها، وبدائعَ أضمرنا في خلقها وظهورها، إذ الحكيم لا يفعل فعلاً إلا وقد أودع فيه من المصالح والحكم ما لا يُعدُّ ولا يُحصى، فكيف يليق بجنابنا وينبغي لشأننا أن يتصف أفعالنا المتقنة، وآثارنا المحكمة باللهو واللعب، وتدبيراتنا بالعبث الخالي عن الحكمة والمصلحة، مع أنا.

﴿لَوۡ أَرَدۡنَآ﴾ أي قدَّرنا وفرضنا ما استحال علينا ﴿أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا﴾ ولعباً باطلاً خالياً عن الفائدة، مخلاً لكمال عزتنا وحكمتنا وعلو شأننا وعظمتنا ﴿لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ أي من قِبَلنا، ومن جملة أفعالنا وآثارنا الصادرة وقدرتنا الكاملة وإرادتنا الخالصة، كلا وحاشا ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ أي ما كنا مرتكبين العبث الخالي عن الفائدة سيما مع استكمال كمال قدرتنا ووفور علمنا على أنواع الحكم والمصالح.

﴿بَلۡ نَقۡذِفُ﴾ أي بل اللائق المستحسن منا، المناسب بعلو شأننا أن

بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾
وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا
يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴿١٩﴾ ....

نضمحل ونُبطل ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ الذي هو شمس وجودنا ولمعان آثار فضلنا وجودنا ﴿عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ﴾ الذي هو الظلُّ الزائغُ الآفلُ والعدمُ العاطلُ الزائلُ ﴿فَيَدۡمَغُهُۥ﴾ أي يَمحقه ويُسقط عنه اسم الوجود المستعار ويُلحقه إلى ما هو عليه من العدم بلا عبرةٍ واعتبارٍ ؛ ليظهر عند المعتبرين أن ما هذه الحياة الدنيا إلا لهوٌ ولعبٌ، وأن الآخرة هي دار القرار، فاعتبروا يا أولي الأبصار، فكيف لا يمحقه ولا يلحقه بالعدم ﴿فَإِذَا هُوَ﴾ في نفسه وفي حد ذاته ﴿زَاهِقٞۚ﴾ هالكٌ زائلٌ ما شمَّ رائحة الوجود ﴿وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ﴾ والهلكة أيها الواصفون والجاهلون بقدْر الله ﴿مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ ذاته من الأمور التي لا تليق بجنابنا من ارتكاب العبث، وإسناد اللهو واللعب بذاته تعالى، وإشراك هذه الأظلال الهالكة معه في الوجود، تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

﴿وَ﴾ كيف تشركون أيها المشركون معه أظلاله وعبيده إذ ﴿لَهُۥ﴾ تعالى إيجاداً وإبداعاً وإظهاراً وتصرفاً ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي عالمُ الأرواح المجردة عن الأبدان ﴿وَ﴾من في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي الأرواحُ المتعلقة بها ﴿وَ﴾ كذا ﴿مَنۡ عِندَهُۥ﴾ من الأرواح التي لا نزولَ لهم ولا عروجَ، كلهم متذللون ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾ وإطاعته ﴿وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ ولا يعْيَون عن إقامتها وإتيانها.

﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ
يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ ....

﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي ينزهون الله في جميع أوقاتهم عما لا يليق بجنابه ﴿لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ ولا يظهرون الضعف والعناء بل أقاموها وواظبوا عليها طائعين متذللين خاشعين خاضعين.

وكيف لا يعبدون الله ولا يسبحونه، وهم موحدون مخلصون لا المشركون المعاندون الذين اتخذوا آلهةً من السماء كعبدة الكواكب ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ﴾ بل اتخذوا ﴿ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ هو أفحش من ذلك كعبدة الأوثان والأصنام اتخذوها آلهةً وعبدوها كعبادة الله وادَّعوا ضمناً أن آلهتهم التي نحتوها بأيديهم أو صاغوها من حُلِيِّهم ﴿هُمۡ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي يُخرجون الموتى من قبورهم ؛ لأنهم آلهةٌ وعبدوها كعبادة الله، والإلهُ لا بد وأن يقدر على جميع المقدورات والمرادات ومن جملتها النشر، بل من أجلِّها، فلا بد لهم أن ينشروا فكيف يثبتون أولئك المشركون تعددَ الآلهة مع أنه ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ﴾ أي في السماء والأرض ﴿ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي غير الله الواحد القهار للأغيار مطلقاً ﴿لَفَسَدَتَاۚ﴾ واختل نظامهما ولم يبقيا على الهيئة المخصوصة المشاهدة البتة، إذ المفهوم من الإله هو المستقل في التصرف والآثار بالإرادة والاختيار، فكلٌ من الآلهة المتعددة متصفٌ بجميع أوصاف الألوهية بالاستقلال، فلا يمكن اتفاقهم على أمرٍ من الأمور ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد المستقلِّ في الألوهية والربوبية بلا

رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ ....

شريكٍ له في ملكه بل في الوجود والتحقق ﴿رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ﴾ أي عروش جميع المظاهر المستولي عليها، إذ لا ظهور لها إلا منه ﴿عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ من اتخاذ الولد والشريك والصاحبة والنظير، لتوحيده في الوجود واستقلاله في التصرف.

﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ﴾ إذ لا معقِّبَ لحكمه ولا رادَّ لقضائه ﴿وَهُمۡ﴾ أي الشركاء الباطلة ﴿يُسۡـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ عما صدر عنهم، فكيف تليق لهم الألوهية والشركة معه سبحانه وتعالى شأنه عما يصف الواصفون، وجل جلال قدسه عما نَسَبَ إليه الجاحدون والمكابرون.

ومع علو شأنه ووضوح برهانه وظهور وحدة ذاته واستقلاله في ألوهيته وربوبيته، ترددوا فيه، وفي توحيده

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ﴾ أي بل قد أخذوا ﴿مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ﴾ شركاءَ له سبحانه لا واحداً بل متعدداً وعبدوها كعبادته سبحانه ظلماً وزوراً وجهلاً وعناداً ﴿قُلۡ﴾ يا أكمل الرسل إلزاماً لهم وتبكيتاً: ﴿هَاتُواْ﴾ أيها المشركون المثبتون لله الواحد الأحد الصمد شريكاً ﴿بُرۡهَٰنَكُمۡۖ﴾ على وجود آلهةٍ سواه عقلاً أو نقلاً إن كنتم من ذوي الألباب وأهل العقل والرشاد، ولا سبيلَ لكم إلى الدليل العقلي، إذ برهان التمانع قطعَ عرق الشركة بالمرة، ولا إلى النقل، إذ جميع الكتب الإلهية متطابقةٌ في توحيد الحق ونفي الشرك عنه سبحانه

هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا ....

إذ ﴿هَٰذَا﴾ الكتاب الجامع لجميع ما في الكتب السالفة المنزلة عليّ ﴿ذِكْرُ مَن مَّعِيَ﴾ أي عظة وتذكير يذكر من معي من المؤمنين من أصحابي ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ من أمم الأنبياء الماضين لو صدقوه وقبلوا ما فيه، لكنهم لا يصدقونه ليهديهم إلى الحق ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ جاهلون ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ﴾ ولا يعرفون الحق الصريح الظاهر في الآفاق بلا سترةٍ وحجابٍ ﴿فَهُم﴾ لغلظ حجبهم وكثافة غشاوتهم ﴿مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾ عن الحق منكرون له، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

ثم قال سبحانه كلاماً جلياً مثبتاً للتوحيد خالياً عن سمة التقليد:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا﴾ من مقام جودنا وفضلنا ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ من الرسل الماضين ﴿إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ﴾ أولاً ﴿أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ﴾ يُعبَد بالحق ويستحق للعبادة والإطاعة ﴿إِلَّا أَنَا﴾ المتفرد برداء العظمة والكبرياء، المنفرد بكمال الجلال ودوام البقاء ﴿فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ أيها الأظلال الهالكة والعكوس المضمحلة الباطلة وتذللوا نحوي خاضعين خاشعين، إذ لا مرجع لكم غيري.

وادّعوا الشركة.

﴿وَقَالُوا﴾ مستدلين عليها : نحن نجد في التوراة والإنجيل أنه

ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ
بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا
يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ....

﴿ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴾ الملائكةَ وعزيراً وعيسى ﴿وَلَدٗاۗ﴾ والولد شريكٌ لأبيه، إذ هو سرُّه ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۚ﴾ وتعالى عن أمثال هذه الهذيانات الباطلة ﴿ بَلۡ ﴾ هم ﴿عِبَادٞ﴾ لله ﴿مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ محبوبون لديه لذلك ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ أي لا يبادرون إلى القول قبل قوله سبحانه، ولا يبدلون ولا يغيرون قوله وحكمه كما هو دأب العبيد مع المولى.

﴿وَ﴾ كيف يسبقونه بالقول ﴿هُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ جميعَ ما عملوا من خيرٍ وشرٍ والمأمور لا يكون شريكاً للآمر.

وكيف لا يعملون بأمره إذ هو

﴿ يَعۡلَمُ﴾ بعلمه الحضوري منهم ومن أحوالهم ﴿مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أي ما هو حاضرٌ عندهم، معلومٌ دونهم من أحوالهم وأفعالهم ﴿وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ أي ما هو غائبٌ عنهم ومجهولٌ لديهم ﴿وَ﴾ إن خرجوا عن مقتضى أمره سبحانه ﴿لَا يَشۡفَعُونَ ﴾ أي لا تقبل شفاعتهم لغيرهم، أو لا يُشفع لهم عند الله بعدما خرجوا عن مقتضى حكمه ﴿ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ سبحانه ورضي بشفاعة من يشفع لهم وأَذِن ﴿وَ﴾ كيف يشفع عنده سبحانه بغير إذنه ورضاه، إذ ﴿هُم﴾ أي الشفعاء ﴿مِّنۡ﴾ كمال ﴿خَشۡيَتِهِۦ﴾ سبحانه ومن غاية سطوته وهيبته وقهره ﴿مُشۡفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ خائفون مرعوبون وَجلون.

﴿ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ ....

﴿ ۞ وَ﴾ متى كان حال الشفعاء وخشيتهم على هذا المنوال ﴿مَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ﴾ مستحقٌ للعبادة، مستقلٌ في الألوهية ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ سبحانه ﴿فَذَٰلِكَ﴾ أي بمجرد قولهم هذا، وإن كان غير مطابق لاعتقادهم ﴿نَجْزِيهِ﴾ ونصليه ﴿جَهَنَّمَۚ﴾ البعد والحرمان ونيران الخيبة والخسران ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ الخارجين عن مقتضى توحيدنا، المسيئين الأدب معنا.

﴿أَ﴾ ينكرون وحدتنا ويثبتون لنا شريكاً من مصنوعاتنا، وينسبون بنا ولداً ظلماً وزوراً ﴿وَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ بنا بأمثال هذه الخرافات الباطلة، ولم يعلموا كمال قدرتنا ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي عالم الأسماء والصفات ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ أي عالم الطبيعة والعكوس والأظلال قد ﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾ أي كان كلٌ منهما مرتَّقاً متضمماً بلا تعددٍ وتكثرٍ، أما الأسماء والصفات فمندمجةٌ مندرجةٌ في الذات بلا هبوطٍ وتنزلٍ وظهور أثرٍ، وأما الطبيعة العدمية قد كانت ساكنةً في زاوية العدم بلا امتداد ظل الوجود عليها، ﴿فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ﴾ بالتجليات الحبية المنتشئة من الأسماء الذاتية والصفات الكمالية الفعلية، المقتضية للظهور والانجلاء لحكم ومصالح قد استأثرنا

وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ ....

بها، وبالقبول والتأثر من أشعة التجليات، ﴿وَ﴾ إن أردتم أن تنكشف لكم كيفية انتشاء الأشياء الكثيرة من الذات الواحدة المتصفة بالصفات والأسماء المتماثلة والمتقابلة، فانظروا كيف ﴿جَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ الواحد بالذات، المشتمل على الأوصاف الكثيرة بحسب الآثار الصادرة منه ﴿كُلَّ شَىْءٍ حَيٍّ﴾ أي خلقنا وصيَّرنا كل شيء له إحساسٌ وتغذيةٌ وتنميةٌ وازديادٌ وانتقاصٌ من الماء، إذ هو أقوى أسباب التبدلات والتشكلات، وأقبل إلى قبول التصرفات والامتزاجات ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ ويصدقون بهذا، مع أنه من أجلى البديهيات، وأظهر المحسوسات.

ثم أخذ سبحانه في تعداد نعمه على خلَّص عباده امتناناً عليهم وتنبيهاً لهم كي يتفطنوا منها بوحدة ذاته وكمال قدرته وبسطته فقال:

﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ التي هي الكرة الحقيقية، المائلة بالطبع إلى التدور والانقلاب ﴿رَوَٰسِىَ﴾ شامخاتٍ مخافة ﴿أَن تَمِيدَ﴾ تتحرك وتضطرب وتضر ﴿بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ أي في تلك الرواسي ﴿فِجَاجًا﴾ شقوقاً وأوديةً لتكون ﴿سُبُلًا﴾ ومسالكَ متسعةً وطرقاً واسعةً عنايةً منا إياهم ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾ من تلك الطرق إلى ما يرومون من الأماكن البعيدة والبلدان النائية، فيتجرون ويتبعون منها مطالبهم ومصالحهم.

وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ....

﴿وَ﴾ أيضاً قد ﴿جَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ المرفوع فوقهم ﴿سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ لهم فيها أوقات مزارعهم ومتاجرهم وسائر مصالحهم في البر والبحر، إذ هي من أقوى أسباب معاشهم ﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا﴾ الدالة على وحدة مبدعها وكمال قدرة مخترعها وموجدها ﴿مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ منصرفون منكرون، لا يتفكرون فيها كي تصلوا إلى زلال توحيدنا، وإلى كمال قدرتنا وإرادتنا.

﴿وَ﴾ كيف لا يتفكرون في خلق السموات ولا يتدبرون في الآيات الدالة على وحدة صانعها وبالجملة كيف ينكرون أولئك المنكرون المسرفون وجود موجدها مع أنه سبحانه ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ وقدر لهم

﴿ٱلَّيْلَ﴾ سبباً ووقتاً لاستراحتهم ورقودهم ﴿وَٱلنَّهَارَ﴾ لمعاشهم واكتسابهم ﴿وَ﴾ جعل ﴿ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ سببين لإنضاج ما يتقوتون ويتفكهون و﴿كُلٌّ﴾ من الشمس والقمر وسائر السيارات ﴿فِى فَلَكٍ﴾ من الأفلاك السبعة ﴿يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ يسيرون ويدورون بسرعة تامة دائماً بلا قرار وسكونٍ لتدبير مصالحهم، وإصلاح معايشهم، وهم لا يعلمون ولا يشكرون.

ثم قال سبحانه:

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ يعني أن النصارى ادعوا خلود عيسى وبقاءه بلا طريان موت عليه دائماً كما كان الآن، وكذا خلود جميع من لحق بالملائكة من البشر، رد الله عليهم على أبلغ وجه وآكده حيث قال: ما

أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ....

جعلنا وقدرنا لبشر من بني نوعك يا أكمل الرسل الخلد والبقاء السرمدي، لا من الذين مضوا قبلَك، ولا من الذين يأتون بعدك، إذ هم بشر محدث مركب، وكل مركب محدث لا بد أن ينهدم امتزاجه وتنحل أجزاؤه ومزاجه ولو كان فردٌ من أفراد المحدث البشر قديماً لكنت أنت يا أكمل الرسل البتة ﴿أَ﴾ تزعم وتردد يا أكمل الرسل ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ﴾ وعدمت عن الدنيا ﴿فَهُمُ﴾ الذين ادعى الجاهلون خلودهم ﴿ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ المقصورون على الخلود فيها بلا لحوق عدمٍ عليهم، كلا وحاشا لا يكون الأمر كذلك، بل

﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ ذات أجواء وتركيب خيرة كانت أو شريرة، طويلة مدة عمرها أو قصيرة، باقية في أهل الأرض أو ملحقةً بالملأ الأعلى ﴿ذَآئِقَةُ﴾ كأس ﴿ٱلْمَوْتِۗ﴾ المدركة مرارتها، والمحتملة أهوال السكرات وأفزاعها، لا ينجو من الموت أحد، وإن علت رتبته وارتفعت مكانته، بل كلكم هلكى في حين ظهوركم ووجودكم المعاد المستعاد ﴿وَ﴾ إنما ﴿نَبْلُوكُم﴾ ونختبركم في وجودكم هذا ونشأتكم هذه ﴿بِٱلشَّرِّ﴾ الغير المرتضى عندنا ﴿وَٱلْخَيْرِ﴾ المرضي، ليكون ابتلاؤنا إياكم ﴿فِتْنَةًۖ﴾ لكم واختباراً منا إياكم لحكمة ومصلحة لنا فيها ﴿وَ﴾ بعد ما اختبرناكم وابتليناكم في النشأة الأولى

﴿إِلَيْنَا﴾ لا إلى غيرنا، إذ لا غير في الوجود ﴿تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ في النشأة الأخرى رجوع الظل إلى ذي الظل، والعكوس إلى الصور، فنجازيكم بها،

وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ ....

ونعامل بكم على مقتضى اختبارنا وابتلائنا إياكم في النشأة الأولى.

ثم قال سبحانه امتناناً لحبيبه ﷺ:

﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ حين اشتغالك بقراءة القرآن أو بتذكير الأصحاب وعظة أولي الألباب، المشمرين نحو الحق أذيال هممهم، المستفيدين المسترشدين منك قصارى مقاصدهم هي التوحيد الإلهي ﴿يَتَّخِذُونَكَ﴾ أي ما يتخذونك حين التفاتهم نحوك ﴿إِلَّا هُزُوًا﴾ أي محل استهزاء وسخرية قائلين حين بعضهم لبعض مستحقرين شأنك: ﴿أَهَٰذَا﴾ الرجل الحقير الفقير الملحق بالأرذال والضعفاء ﴿ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ بالسوء وينكر على شفعائكم ويسيء الأدب مع غاية حقارتهم وضعفهم وهم من غاية عمههم وسكرتهم ونهاية غيهم وغفلتهم ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ المنزه عن شوب الشك وريب التردد ﴿هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ منكرون وجوده وتحققه مع كمال ظهوره واستحقاقه بالألوهية والربوبية بالأصالة بخلاف معبوداتهم الباطلة الزائغة، إذ هم مقهورون تحت قدرته، مجبورون جنب إرادته واختياره، لا قدرة لهم من أنفسهم أصلاً، فهم بالاستهزاء أحق، وبالاستهانة والسخرية أحرى وأليق.

ثم لما استعجل المنهمكون في بحر الضلال والإنكار، التائهون في تيه العتو والاستكبار نزولَ العذاب وقيام الساعة وجميع الوعيدات الواردة

﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾﴾

فيها على سبيل الاستهزاء والتهكم، رد الله عليهم إنكارهم واستعجالهم بأبلغ وجه فقال:

﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي هذا النوع من الحيوان ﴿مِنْ عَجَلٍ﴾ يعني من غاية استعجاله في الخير والشر كأنه مصنوع منه، قل لهم يا أكمل الرسل نيابة عنا: إلى متى تستعجلون أيها المسرفون المغرورون ﴿سَأُوْرِيكُمْ﴾ عن قريب في هذه النشأة ﴿ءَايَٰتِي﴾ أي بعضها من نقماتي التي هي من مقدمات عذاب الآخرة، قيل هي وقعة بدر، إذ المستعجلون هم قريش، وسيأتي عذاب الساعة، وعذابها بعدها ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾ أيها الضالون المسرفون.

﴿وَ﴾ بعدما سمعوا من الرسول وأصحابه ما سمعوا ﴿يَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ الموعود والوقت المعهود، عينوا لنا وقت نزول العذاب وقيام الساعة ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ في دعواكم.

ثم قال سبحانه تفظيعاً لهم وتهويلاً عليهم:

﴿لَوْ يَعْلَمُ﴾ ويطلع ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ كيفية ما استعجلوا من العذاب وكميته ﴿حِينَ لَا يَكُفُّونَ﴾ أي حين نزل عليهم حتماً، ولا يمكنهم حينئذٍ أن يدفعوا ﴿عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ لأنهم محاطون بها، مغمورون فيها بحيث لا يسع لهم دفعها بأنفسهم ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾﴾

بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم..........................

من الغير، إذ كل نفس رهينةٌ بما كسبت، يعني لو علموا فظاعتها وهولها، لما استعجلوا، لكنهم لا يعلمون لذلك استعجلوا اغتراراً واسكتباراً.

﴿ بَلْ تَأْتِيهِم ﴾ العذاب والساعة حين تأتيهم ﴿بَغْتَةً﴾ فجاءة ودفعة ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ أي تحيرهم وتدهشهم وقت ظهورها، فصاروا حينئذ حيارى سكارى مدهوشين ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ردها إذ لا راد لقضاء الله ولا معقب لحكمه، سيما بعد نزوله ﴿رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ ويمهلون حينئذ أن استمهلوا.

﴿وَ﴾ لا تبال بهم يا أكمل الرسل ولا تحزن عن استهزائهم وسخريتهم إذ ﴿ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ﴾ كثيرٍ مضوا ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ استهزؤوا معهم أممهم مثل ما استهزؤوا معك قريش ﴿فَحَاقَ﴾ وأحاط بالآخرة ﴿بِالَّذِينَ﴾ أي بالمستهزئين الذين ﴿سَخِرُوا مِنْهُم﴾ أي من الرسل وبالَ ﴿ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾ ويستخسرون، وبأضعاف ما لحق لهؤلاء المعاندين المكابرين فلا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يستهزئون.

و إن أنكروا إلمام العذاب وإنزاله عليهم

﴿ قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل نيابة عنا: ﴿مَن يَكْلَؤُكُم﴾ ويحفظكم

بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمۡ
لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ وَلَا هُم مِّنَّا
يُصۡحَبُونَ ﴿٤٣﴾ ....

﴿بِٱلَّيۡلِ﴾ وقت فراغكم ومنامكم ﴿وَٱلنَّهَارِ﴾ وقت شغلكم وترددكم ﴿مِنَ﴾ نزول العذاب عذاب ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ القادر على أنواع القهر والانتقام بمقتضى جلاله، لو لم يرحم عليكم بمقتضى لطفه وجماله، لكن يرحم عليكم، فلم يعذبكم رجاء أن تنتبهوا وتواظبوا على شكر نعمه وأداء حقوق كرمه ﴿بَلۡ هُمۡ﴾ من شدة غفلتهم وسكرتهم ﴿عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم﴾ الذي يحفظهم عن أنواع المكروهات والمؤذيات ﴿مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٢﴾﴾ لا يتوجهون نحوه ولا يلازمون عبادته ولا يداومون شكره.

﴿أَمۡ﴾ يزعمون أولئك المصرون المسرفون أن يدفعوا عذابنا النازل لهم بقوة نفوسهم ﴿لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم﴾ أي تمنع عنهم العذاب مع أنهم ﴿مِّن دُونِنَاۚ﴾ شركاء لنا في الألوهية والربوبية كما زعموا، وتشفع لهم عندنا، كلا وحاشا أن يسع لآلهتهم هذا إذ ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ أولئك التماثيل الهلكى ﴿نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ﴾ لا يقدرون لدفع ما لحقهم ونزلَ عليهم من المكروهات فكيف عن غيرهم ﴿وَلَا هُم﴾ أي آلهتهم ﴿مِّنَّا يُصۡحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾ ويقربون حتى يشفعوا لهم ويدفعوا عذابنا عنهم بواسطة قربتهم وصحبتهم معنا، وإن خيلوا أن إمهالنا إياهم وآباءهم متنعمين مترفهين طول أعمارهم أمارة عدم أخذنا إياهم وانتقامنا منهم، إنما هو خيال باطل

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ ....

ووهم زائغ زائل مما سولت لهم أنفسهم بتغرير إبليس عليهم.

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المسرفين المعاندين ﴿وَءَابَآءَهُمْ﴾ الضالين المستكبرين حتى ﴿حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ فارتكبوا أنواع المعاصي والآثام مدة حياتهم فظنوا أنهم مصونون عن الأخذ والانتقام ونزول العذاب والنكال ﴿أَ﴾ يتوهمون من إمهالنا إياهم هذا الموهوم ﴿فَلَا يَرَوْنَ أَنَّا﴾ من مقام قهرنا وانتقامنا إياهم ﴿نَأْتِى ٱلْأَرْضَ﴾ أي نبعث ونغلب جنود المسلمين على أرض الكفرة بحيث ﴿نَنقُصُهَا﴾ ونخربها مبتدئين ﴿مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ إلى أن وصل إلى أقاصيها ﴿أَ﴾ يزعمون ويتوهمون بعد أخذنا في تخريبه أطراف بلادهم وتنقيصها ﴿فَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ على جنودنا وجنود أنبيائنا ورسلنا، ما هو إلا زعم فاسد، فإن ادعوا أنا وآباؤنا دائماً مستمراً في كنف حفظ الله وجوار صونه من أعمارنا، فمن أين تخوفنا وتنذرنا أنت من إنزال الله العذاب علينا بغتة مع أنه لم يعهد لنا ولا لآبائنا منه تعالى أمثال هذا.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل في جوابهم: ﴿إِنَّمَآ أُنذِرُكُم﴾ أي ما أنذركم وأخوفكم من تلقاء نفسي بل ﴿بِٱلْوَحْىِ﴾ المنزل عليّ من عند الله، المشتمل على إنذاركم وتخويفكم.

وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ
عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ
لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ....

ثم قال سبحانه توبيخاً عليهم وتقريعاً:

﴿وَ﴾ كيف يرشدكم ويهديكم الرسول المنزل إليكم، المؤيد بالآيات والمعجزات أيها المقصورون على الصمم الحقيقي والإعراض الفطري الجبلي إذ ﴿لَا يَسْمَعُ﴾ الرسولُ ﴿ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾ والذكرَ المتضمنَ لأنواع الهداية والرشادة، ولا يسع له إسماعكم ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ أي إلا وقت قابليتكم والتفاتكم إلى الإنذار والتخويف، وأنتم من شدة صممكم وقسوتكم خارجون عن قابلية الإنذار والإرشاد والوعد والوعيد واللهِ يا أكمل الرسل.

﴿لَئِن مَّسَّتْهُمْ﴾ وظهرت عليهم ﴿نَفْحَةٌ﴾ واحدة مني ورائحة قليلة ﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ نازلة على سبيل المقدمة والأنموذج ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ مصرخين صائحين متضرعين معترفين بذنوبهم قائلين: ﴿يَٰوَيْلَنَآ﴾ وهلاكنا تعال ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ خارجين عن حدود الله مستوجبين للمقت والهلاك، أدركنا فقد حان حينك وقرب أوانك.

﴿وَ﴾ بمجرد اعترافهم بظلمهم لا نأخذهم ولا نعذبهم حينئذٍ بل ﴿نَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ العدل المسوى المستقيم بحيث لا عوج ولا انحراف لها إلى جانبٍ أصلاً، المعدة ﴿لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لنوزن فيها أعمال العباد صالحها

فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ ....

وفاسدها، ثم نجازيهم على مقتضى ما ظهر منها ﴿فَلَا تُظْلَمُ﴾ وتنقص ﴿نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ﴾ من جزائها ولا تزداد عليها أيضاً سواء كان خيراً أو شراً، ثواباً أو عقاباً على مقتضى عدلنا القويم وصراطنا المستقيم ﴿وَإِن كَانَ﴾ العمل والظلم وزنه ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ كائنة ﴿مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ﴾ مع أنها لا اعتداد لها، وجازينا صاحبها عليها تتميماً لعدلنا، وتوفيةً لحقوق عبادنا ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ أي كفى حسابنا لحقوق عبادنا أولا يعزب عن حيطة حضرة علمنا شيء منها وإن قلَّ وحقر.

ثم قال سبحانه على سبيل التذكير والعظة:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾ من تمام فضلنا وجودنا ﴿مُوسَىٰ وَ﴾ أخاه ﴿هَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ أي التوراة الفارق بين الحق والباطل ﴿وَ﴾ لكمال فرقه وفضله صار ﴿ضِيَآءً﴾ يستضيء به عموم المؤمنين الموحدين من المِلّيين التائهين في ظلمات الغفلات والجهالات وأنواع الضلالات ﴿وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ منهم المتذكرين الوقوفَ بين يدي الله يوم العرض الأكبر، وهم:

﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ أي بضمائرهم وسرائرهم كما يخشون منه سبحانه بظواهرهم وعَلَنِهم ﴿وَ﴾ مع ذلك الخوف المستوعب لجوانحهم وجوارحهم ﴿هُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ﴾ الموعودة إتيانها، المتحققة

مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ......................................

وقوعها وقيامها حقاً حتماً محققاً ﴿ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ خائفون مرعوبون كأنها واقعة آتية.

﴿ وَهَٰذَا ﴾ القرآن الفرقان الجامع أيضاً ﴿ذِكْرٌ﴾ وتذكيرٌ لعموم الموحدين من أمة محمد ﷺ مبارك كثير الخير والبركة للموقنين المخلصين منهم، الواصلين إلى مرتبة الفناء في الله ﴿مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ من كمال فضلنا ولطفنا إلى محمد خاتم الرسالة ومتمم مكارم الأخلاق ومكمل دائرة الرسالة والنبوة عليه من الصلاة والتحيات ما هو الأولى والأحرى ﴿ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ﴾ ولكتابه ﴿مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ أيها المسرفون المستكبرون؟!.

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ ﴾ وأعطينا ﴿ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ أي كمال عقله ورشاده إلى حيث أيقظناه عن سِنة الغفلة، فأخذ لطلب المعارف والحقائق وسلوك طريق التوحيد والتوجه نحو الحق ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي قبل موسى وهارون ﴿وَكُنَّا بِهِۦ﴾ أي بكمال استعداده وقابليته لحمل أعباء الرسالة والنبوة وانكشافه بسرائر التوحيد ﴿عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ بحضرة علمنا في لوح قضائنا.

اذكر يا أكمل الرسل:

﴿ إِذْ قَالَ ﴾ جدك إبراهيم ﴿ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ ﴾ حين جذبه الحق نحو جنابه وهداه إلى بابه، مستفهماً على سبيل الإنكار والتقريع: ﴿ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾

ٱلَّتِىٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ..............

الباطلة والهياكل الزائغة الزائلة ﴿ٱلَّتِىٓ أَنتُمۡ﴾ مع كونكم من زمرة العقلاء المجبولين لمصلحة التوحيد والعرفان ﴿لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾ عابدون متذللون، مع أنها جمادات لا شعور لها ولا حركة، فكيف المعرفة واليقين وعبادة الفاضل للمفضول المرذول في غاية السقوط عند ذوي النهي وأولي الألباب.

ولما تفرسوا منه الرشد التام ووجدوا قوله معقولاً محكماً

﴿قَالُواْ﴾ في جوابه ما نعرف استحقاق هؤلاء التماثيل للعبادة والألوهية ولا تنكشف بسرائرها، غير أنا ﴿وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا﴾ وأسلافنا ﴿لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ فنعبدهم كما عبدوها، مع أنهم كانوا من ذوي الفطنة والرشاد، فنعتقد أنهم انكشفوا بأسرارها، وما لنا شغلٌ باستكشافها سوى أن نعبد بما يعبد أولئك الأسلاف.

﴿قَالَ﴾ إبراهيم بعدما انكشف بالحق وظهر عنده ضلالهم وضلال آبائهم: ﴿لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ﴾ أيها الحمقى المنهمكون في بحر الغفلة والغرور ﴿وَءَابَآؤُكُمۡ﴾ أي تابعكم ومتبوعكم وأصلكم وفرعكم ﴿فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ وغفلة عظيمة من الهداية وسلوك طريق الحق.

ثم لما سمعوا منه ما سمعوا من التضليل والتجهيل

﴿قَالُوٓاْ﴾ له: ﴿أَجِئۡتَنَا﴾ أيها المدعى ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أي بالجد الصريح الواضح

أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم ....

المنكشف المبين ﴿أَمْ أَنتَ﴾ في تضليلك وتجهيلك إيانا ﴿مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾﴾ بنا المستهزئين معنا.

﴿قَالَ﴾ إبراهيم: لا لعب ولا سخرية في أمور الدين سيما في معرفة الألوهية والربوبية، وبالجملة ما هذه التماثيل العاطلة أربابكم الذين أوجدوكم وأظهروكم من كتم العدم ﴿بَل رَّبُّكُمْ﴾ وموجدكم ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي موجد العلويات والسفليات ومربيها واحدٌ أحدٌ فردٌ وترٌ، لا تعدد له ولا اثنينة فيه، متصرِّف بالاستقلال في ملكه إذ هو﴿ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ ﴾ وأبدعهن باختياره وانفراده بلا سبق مادة ومدة ﴿ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم﴾ أي على الأمور التي بينت لكم وأوضحتها عندكم ﴿مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ أي من أرباب الشهود المتحققين بمرتبة الكشف واليقين الحقي، لا من أصحاب التقليد والتخمين.

﴿وَ﴾ بعدما ما جرى بينه وبينهم ما جرى، سفهوه واستهزؤوا معه، ونسبوه إلى الخبط والجنون، وانصرفوا عنه متعجبين إلى مجامعهم ومعابدهم التي اجتمعوا فيها لعبادة الأصنام، قال إبراهيم مقسماً مؤكداً بالغاً: ﴿تَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ﴾ أي لأحتالن وأمكرن لأن أكسر ﴿ أَصْنَٰمَكُم﴾ ومعبوداتكم أيها الجاهلون لتفضحوا أنتم وهؤلاء الأباطيل

بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتًى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ ....

الزائغة ﴿بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ﴾ وتنصرفوا ﴿مُدۡبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ من مجمعكم ومعبدكم.

ثم لما ذهبوا إلى معبدهم دخل إبراهيم كنيستهم ومعبدهم التي فيها أصنامهم وأوثانهم

﴿فَجَعَلَهُمۡ﴾ كلها ﴿جُذَٰذًا﴾ قطعاً منكسرة وأجزاء متلاشية ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمۡ﴾ يعني لم يكسر الصنم الكبير من الأصنام فقط ؛ ليكون سبباً لإلزامهم وإفحامهم لدى الحاجة ﴿لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ﴾ أي إلى الصنم الكبير ﴿يَرۡجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ أي يراجعون له ويستفسرون منه عن كسر الأصنام ؛ لأنهم اعتقدوه أعظم الآلهة، والإله لا بد أن يجيب لهم جميع حوائجهم وحاجاتهم.

ثم لما رجعوا من معبدهم ودخلوا إلى معابدهم وكنائسهم للعبادة والتقرب نحو الآلهة وجدوها مجذوذة منكسرة متفرقة الأجزاء

﴿قَالُواْ﴾ من فرط حزنهم وأسفهم مستبعدين مستحسرين: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا﴾ الفعل الفظيع والأمر الفجيع ﴿بِـَٔالِهَتِنَآ﴾ ومعبوداتنا ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾﴾ الخارجين عن شعائر ديننا الجاحدين لآلهتهم.

﴿قَالُواْ﴾ أي السامعون منهم للسائلين: ﴿سَمِعۡنَا فَتًى﴾ نكّروه تحقيراً له وإعانه عليه ﴿يَذۡكُرُهُمۡ﴾ أي الآلهة بالسوء دائماً، ويعيب عليهم وينكرهم ﴿يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ ....

ثم لما انتشر الخبر واجتمعوا في المعبد مزدحمين متشاورين في انتقامه واستقرار رأيهم بعدما تمادى مشورتهم إلى أن

﴿قَالُوا۟﴾ متفقين: ﴿فَأْتُوا۟ بِهِۦ﴾ أي بإبراهيم ﴿عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ ورؤوس الملأ والأشهاد ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ يحضرون ويجتمعون، يعني جميع المعبودين لقتله وهلاكه، حتى ينال كل منهم نصيب حظه من نصر الآلهة.

ثم لما حضر نمرود واجتمع أشراف مملكته، وازدحم العوام والخواص، وأحضروه لينتقموا عنه

﴿قَالُوٓا۟﴾ أولاً له على سبيل التعيير والتقريع: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا﴾ الفعل الشنيع والأمر القطيع الفجيع ﴿بِـَٔالِهَتِنَا﴾ ومعبوداتنا ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾﴾ المرذول المجهول.

﴿قَالَ﴾ في جوابهم على مقتضى اعتقادهم وزعمهم: أنا عبد مألوه مربوب، وهم آلهة معبودون، كيف أقدر أن أفعل بهم هذا ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ أي هذا الصنم الغير المنكسر ؛ لئلا يشاركوا معه في المعبودية والألوهية، وإن شككتم أنه فعل هذا هو أم أنا ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ﴾ أي الآلهة ﴿إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ يعني إن اعتقدتم نطقهم وتكلمهم؛

﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ ....

لأنهم آلهة، ومن لوازم الألوهية: التكلم والتنطق، بل أنتم تعتقدون أن هؤلاء خلقوا جميع أهل التكلم واللسان، فهم أولى وأحق بجواب سؤالكم هذا.

ولما سمعوا منه ما سمعوا ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ متأملين أي رجع كل منهم إلى وجدانه ونفسه متفكراً متدبراً ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ أي كل منهم في سره ونجواه: ﴿إِنَّكُمۡ﴾ أيها الجاهلون الغافلون عن قدر الألوهية والربوبية ﴿أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ المقصورون على الخروج عن مقتضى العقل الفطري والرشد الجبلي، ما هذه إلا تماثيلٌ مصنوعةٌ لكم منحوتة بأيديكم، من أين توجدكم وتخلقكم، بل أنتم موجدوها ومخترعوها.

﴿ثُمَّ﴾ لما تفرسوا بخطئهم وتفطنوا بحقية إبراهيم وصدقه في مقاله، أزعجتهم الغيرة البشرية والحمية الجاهلية إلى المراء والمجادلة معه لذلك ﴿نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ﴾ يعني بعدما علموا أعلى الأمر وأسفله، وفرقوا بين الحق والباطل، أرادوا أن يقلبوا الأمر وعكسوه عناداً ومكابرة وقالوا مكابرة: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ﴾ أيها المجادل المفتون ﴿مَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الآلهة ﴿يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ إذ هم جمادات لا حس لهم ولا شعور، كيف يتيسر لهم التكلم والتنطق.

قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ

وبعدما اعترفوا بجمادية آلهتهم وعدم قابليتهم للنطق والتنطق والتكلم ﴿قَالَ﴾ إبراهيم موبخاً عليهم ومقرعاً: ﴿أَ﴾ ما تستحيون وتخجلون أيها الضالون المكابرون ﴿فَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الواحد الأحد المتوحد بالألوهية والربوبية، المستقل بجميع التصرفات الواقعة في عالم الغيب والشهادة ﴿مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾﴾ أي أصناماً وأوثاناً، لا يرجى منهم النفع والضر.

ثم لما قال على سبيل الضجرة والإكراه عن أمرهم، والتأسف على ضيق عقلهم المفاض لهم من ربهم لمصلحة المعرفة والإيمان:

﴿أُفٍّ لَّكُمْ﴾ أي قبحاً لكم أيها المطرودون المردودون عن زمرة العقلاء ﴿وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ المستقل للنفع والضر وجلب أنواع الخيرات ودفع أصناف المضرات ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ أيها المتخذون لله شركاء، ولا تستعملون عقولكم الموهبة لكم لكسب المعارف والحقائق؛ لتتفطنوا إلى سرائر التوحيد الخالي عن شوب التخمين وشين التقليد، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

ثم لما سمعوا منه التعيير والتشنيع ثار نار حميتهم واشتد غيظ غيرتهم ﴿قَالُوا۟﴾ بعد ما شاوروا كثيراً في وجه إهلاكه وانتقامه: ﴿حَرِّقُوهُ﴾ إذ لا

﴿وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ۝٦٨ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ۝٧٠﴾ ....

عذاب أفزع وأهول منه ﴿وَانصُرُوا﴾ بحرقه ﴿آلِهَتَكُمْ﴾ لأن التعذيب بالنار مخصوص بالإله، كما قال ﷺ: «لَا يُعَذِّبُ بِالنَّارِ غَيْرُ خَالِقِهَا»[1] ولما كان تعذيبهم إياه لأجل آلهتهم، لذلك اختاروا تعذيبه بالنار ﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ۝٦٨﴾ ناصرين آلهتكم بأخذ انتقامهم عنه.

ثم لما حفروا البئر وبنو الحفرة وجمعوا الحطب وأوقدوا النار، علقوا المنجنيق ووضعوه فيه ورموه إليها

﴿قُلْنَا﴾ حينئذ حافظين لخليلنا له، مخاطبين للنار: ﴿يَا نَارُ﴾ المجبولة المطبوعة بالحرق والحرارة ﴿كُونِي بَرْدًا﴾ واتركي الحرق والحرارة ﴿وَ﴾ لا تضري لخليلنا بالبرودة أيضاً، بل صِيري ﴿سَلَامًا﴾ أي ذات سلام وسلامة ﴿عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۝٦٩﴾ ولا تضري له.

﴿وَ﴾ بعد ما علموا وأبصروا أن النار لا تضره، بل صارت له روحاً وريحاناً، أُفحموا وألزموا وكيف لا يفحمون ﴿أَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ ومكراً لينتقموا عنه ويبطلوا دعواه التوحيد، فعاد عليهم الإلزام والإبطال، فغلبوا هنالك ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ۝٧٠﴾ فيما قصدوا له وانقلبوا عن مجمعهم خاسرين خائبين خسراناً مبيناً وخيبة عظيمة.

(١) رواه أبو داود في سننه [٣/ ٥٤ رقم / ٢٦٧٣/ باب: كراهية حرق العدو بالنار] والبيهقي في السنن الكبرى [٩/ ٧٢ رقم / ١٧٨٤٤/] والدارمي في سننه [٢/ ٢٩٣ رقم/ ٢٤٦١/ باب: النهي عن التعذيب بعذاب الله] وغيرهم وللحديث طرق وألفاظ متعددة.

وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ ....

﴿وَ﴾ بعدما فعلوا مع خليلنا إبراهيم ما فعلوا ﴿نَجَّيْنَٰهُ﴾ من مقام جودنا ولطفنا ﴿وَ﴾ صاحبناه مع ابن أخيه ﴿لُوطًا﴾ وبعثناهما عنايةً منا إياهما ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾ وصيرناها كثير الخير والبركة، وذات الأمن واليُمن والأمان والإيمان ﴿لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ أي لجميع من ينزل ويؤول إليها من أهل الدين والدنيا، وهي الشام التي هي منازل الأنبياء والأولياء، ومقر السعداء والصلحاء، ومهبط الوحي الإلهي، لذلك ما بعث نبي إلا فيها وفي حواليها.

قيل: نزل إبراهيم عليه السلام بعدما جلا من وطنه بفلسطين من الشام ولوط بالسدوم، وبينهما مسيرة يوم وليلة

﴿وَ﴾ بعد ما مكناه في الأرض المقدسة ﴿وَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾ من رحمتنا تفريجاً لقلبه من كربة الغربة، وتشريحاً لصدره، وتقريراً لعينيه: وَلَدَيَه: ﴿إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ يزول حزنه بهما.

وهبنا له إسحاق إجابة لدعائه بقوله: ﴿هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ٣٧-١٠٠].

وإنما أعطيناه يعقوب ﴿نَافِلَةً﴾ منا إياه وزيادة فضل وعطية تكريماً له وامتناناً عليه ﴿وَكُلًّا﴾ من ولديه ﴿جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾ للنبوة والرسالة وقبول سرائر التوحيد وأسرار الألوهية والربوبية في قلوبهم.

وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ ....

﴿وَ﴾ لصلاحيتهم واستعدادهم لقبول الخيرات ﴿جَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ وقدوة هادين مهديين ﴿يَهْدُونَ﴾ الناس ﴿بِأَمْرِنَا﴾ ووحينا إلى زلال توحيدنا ﴿وَ﴾ بعدما جعلناهم قدوة هادين ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ وألهمنا تتميماً لإهدائهم وإرشادهم ﴿إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ والإتيان بالأعمال الصالحات وعموم الطاعات والمبرات، لتكون لهم وسيلة مقربة لهم إلى توحيدنا ﴿وَ﴾ أوحينا خاصة ﴿إِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ المتضمنة لتوجههم نحو الحق بجميع القوى والحركات والأركان والجوارح ﴿وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ﴾ المصفية لقلوبهم عما سوى الحق ﴿وَ﴾ هم بمقتضى أمرنا ووحينا إياهم ﴿كَانُوا۟ لَنَا﴾ خاصة بلا رؤيتهم الوسائل والأسباب العادية في البين ﴿عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ متذللين متواضعين مخلصين بظواهرهم وبواطنهم وجميع أعمالهم وحركاتهم.

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ﴾ من مقام فضلنا وجودنا ﴿حُكْمًا﴾ وقطعاً للخصومات، وفصلاً للخطوب والمهمات ﴿وَعِلْمًا﴾ بسرائر الأمور ورموزها وإشاراتها الدالة على وحدة الصانع الحكيم، وسر سريان هويتها الذاتية على صفائح ما ظهر وما بطن ﴿وَ﴾ من كمال لطفنا معه ﴿نَجَّيْنَٰهُ مِنَ﴾ فتنة ﴿ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت﴾ أهلها ﴿تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ﴾ أي الفعلة الشنيعة والديدنة الخسيسة

إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ ....

الخبيثة المذمومة المسقطة للمروءة عقلاً وشرعاً، وعرفاً وعادة، وهي التعري بين أظهر الناس، واللواط، والضراط على الملأ، وبالجملة ﴿إِنَّهُمْ﴾ من غاية قسوتهم وغفلتهم ﴿كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾﴾ مغمورين بين أنواع الفسق، منغمسين في أصناف المعاصي والآثام.

﴿وَ﴾ بعدما انتقمنا عنهم وأهلكناهم بأشد العذاب ﴿أَدْخَلْنَٰهُ﴾ ومن معه ممن سبقت لهم منا الحسنى ﴿فِى رَحْمَتِنَآ﴾ وكنف حفظنا وجوارنا ﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾ لعبادتنا المقبولين في حضرتنا.

﴿وَ﴾ نجينا أيضاً من كمال لطفنا وجودنا ﴿نُوحًا﴾ وقت ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ ودعا متوجهاً إلينا متضرعاً ﴿مِن قَبْلُ﴾ حين كذبه قومه واستهزؤوا معه، وضربوه ضرباً مؤلماً بقوله: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [٧١-نوح:٢٦] ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ دعاءه وأنجحنا مطلوبه ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ الذي هو الطوفان.

﴿وَ﴾ حين اضطروه وأشرفوه على الهلاك ناجانا فَزِعاً فجيعاً بقوله: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [٥٤-القمر:١٠]، ﴿وَ﴾ لذلك ﴿نَصَرْنَٰهُ﴾ وجعلناه منتصراً ناجياً ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ الدالة على عظمة ذاتنا وكمال أسمائنا وصفاتنا، وذلك أنه دعاهم إلى الإيمان والتوحيد، وهداهم إلى

إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ....

صراط مستقيم، وهم امتنعوا عن القبول ﴿إِنَّهُمْ﴾ من شدة شكيمتهم وغلظ غيظهم مع أهل الحق ﴿كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ﴾ كأنهم مغمورون فيه متخذون منه ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ لذلك ﴿أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾ تطهيراً للأرض من فسادهم، وقلعاً لعرق غيّهم وعنادهم.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل في كتابك قصة ﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ وقت ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ﴾ أي زرع القوم ﴿إِذْ نَفَشَتْ﴾ ودخلت ﴿فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ الآخر ليلاً، فأكلته وأهلكته، فتنازعا ورفعا الأمر إليهما، واستحكما منهما فحكم داود بالغنم على صاحب الزرع، بناء على أن صاحب الغنم لا بد له أن يضبط غنمه ليلاً لئلاً يخسر ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ﴾ أي لحكم داود إياهم أي لأصحاب الزرع بالغنم ﴿شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾ مطلعين اطلاع شهود وحضور.

وبعد ما حكم داود ما حكم، وكان ابنه سليمان حاضراً عنده سامعاً لحكمه.

﴿فَفَهَّمْنَٰهَا﴾ أي ألهمنا الحكومة الحقّة والفتوى في هذه القضية ﴿سُلَيْمَٰنَ﴾ وهو ابن إحدى عشرة سنة، فقال: الأرفق أن يدفع الغنم إلى أصحاب الحرث لينتفعوا من ألبانها وأصوافها، والحرث إلى صاحب

وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ ....

الغنم ليقوم بسقيها وحفظها ورعايتها، حتى يعود إلى الذي كان، ثم يترادان ويتدافعان، فقال داود: لسليمان القضاء ما قضيت، فرجع عن حكمه، وحَكَم بحكم ابنه ﴿وَ﴾ إن كان ﴿كُلًّا﴾ منهما ﴿ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي رشداً صورياً ومعنوياً بمقتضى قابليتهما واستعدادهما ﴿وَ﴾ كيف لا، ﴿سَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ﴾ تفضلاً منا عليه وتكريماً ﴿ٱلْجِبَالَ﴾ إلى حيث ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ ويقدسن الله عما لا يليق بجنابه معه حين اشتغل بتسبيح الله وتقديسه ازدياداً لثوابه ورفعاً لدرجته ﴿وَ﴾ كذا ﴿ٱلطَّيْرَ﴾ أي الطيور معه حين اشتغاله بتكبير الله وتنزيهه ﴿وَكُنَّا﴾ وبأمثاله ﴿فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ لأنبيائنا وأوليائنا، ومن يتوجه نحونا من عبادنا، فلا تتعجبوا من أمثال هذا، ولا تستبعدوا عن قدرتنا أمثال إبداعها.

﴿وَ﴾ أيضاً ﴿عَلَّمْنَٰهُ﴾ من مقام جودنا إياه ﴿صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ أي الدروع وما يلبس للدفع حين الحراب والقتل، فكانت الدروع صفائح تخلقها داود، وسردها بإلهام الله إياه وتعليمه، إنما علمناه تخليقها وسردها ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾ وتحفظكم ﴿مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ أي من جراحات السهام والسنان، إذ هو أدفع لآثارها من الصفائح، وأخف منها ﴿فَهَلْ أَنتُمْ﴾ أيها المنعمون المتنعمون ﴿شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ لوفور نعمنا إياكم.

وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَأَيُّوبَ........................

﴿وَ﴾ كذا سخرنا ﴿لِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ حال كونها ﴿عَاصِفَةً﴾ سريعة السير والحركة، آبية عن التسخير، سخرنا له حيث ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ﴾ وحكمه سريعة ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا﴾ أي كثرنا الخير ﴿فِيهَاۚ﴾ لساكنيها، وكذا لجميع من يأوي إليها، وهي أرض الشام فكان يسير مع جنوده متمكنين على بساط كان فرسخاً في فرسخ، منسوج من الإبريسيم، عملته الجن له حيث شاء، ثم يعود من يومه إلى منزله ﴿وَ﴾ لا تستبعدوا منا أمثال هذا، إذ ﴿كُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ تعلق إرادتنا بإيجاده ﴿عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾ بأسباب وجوده وظهوره، فنوجده على الوجه الذي نريده ونُجريه على مقتضى حكمتنا وقدرتنا.

﴿وَ﴾ كذا سخرنا لسليمان ﴿مِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ البحار ويخرجون منها نفائس الجواهر تتميماً وتوفيراً بخزانته ﴿وَيَعْمَلُونَ﴾ أيضاً ﴿عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ الغوص من بناء الأبنية الرفيعة، والقصور المنيعة، واختراع الصنائع البديعة الغريبة والهياكل البديعة والتشكيلات العجيبة ﴿وَكُنَّا لَهُمْ﴾ من قبل سليمان ﴿حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾ مشغلين مشرفين إياهم، لا يمكنهم أن يفسدوا في أعمالهم وأشغالهم ويزيغوها على مقتضى أهويتهم وطباعهم.

﴿۞ وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل أخاك ﴿أَيُّوبَ﴾ الذي ابتلاه الله بأنواع

إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ ....

المحن والبلاء، فصبر عليها فازداد ألمه، واشتد الأمر عليه واضطر إلى التضرع والتفزع، وبثّ الشكوى إلى الله، اذكر ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ مشتكياً إليه، مناجياً له، متضرعاً إياه قائلاً: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ يا رب وتنحّوا عني أقاربي وذوو أرحامي وجميع رحمائي ﴿وَأَنتَ﴾ تبقى عليّ رحيماً مشفقاً لأنك ﴿أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ فأدركني بلطفك، إذ لا طاقة لي ولا صبر بعد اليوم، وقد بلغ الجهد غايته.

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ دعاءه ﴿فَكَشَفْنَا﴾ عنه ﴿مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ﴾ مؤلم مزعج ﴿وَ﴾ بعدما شفيناه وأزلنا عنه مرضه ﴿ءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ﴾ وأحيينا الذين هلكوا بسقوط البيت عليهم، وأمواله التي تلفت بالحوادث والنوائب ﴿وَ﴾ زدناها امتناناً له وتفضلاً عليه ﴿مِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ إياه وزيادة إنعام وإحسان منا عليه ﴿وَ﴾ ليكون ما فضلنا به وأعطيناه ﴿ذِكْرَىٰ﴾ تذكرة وحثاً ﴿لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ الذين صبروا على مشاق التكاليف ومتاعب الطاعات والعبادات ليفوزوا بأفضل المثوبات وأعظم الكرامات.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل جدك ﴿إِسْمَٰعِيلَ﴾ ذا الصبر والرضا بما جرى عليه من القضايا ﴿وَإِدْرِيسَ﴾ صاحب دراسة الحكمة المتقنة وأنواع المعارف والحقائق ﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ﴾ المتكفل بعبادة الله في جميع

كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ
﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ

أوقاته وحالاته، بحيث لا يشغله شيء عن التوجه نحو الحق، قيل: هو إلياس، وقيل: زكريا، وقيل يوشع بن نون، وقيل: نبيٌّ آخر مسمى به؛ لأنه يتكفل صيام أيام حياته ﴿كُلٌّ﴾ من هؤلاء السعداء المقبولين عند الله المقبولين ﴿مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ لقضاء الله ونزول بلائه، كما أنهم كانوا شاكرين لآلائه ونعمائه.

﴿وَ﴾ لذلك ﴿أَدْخَلْنَاهُمْ فِى﴾ سعة ﴿رَحْمَتِنَآ﴾ امتناناً عليهم ﴿إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾ المصلحين أعمالهم وأقوالهم وعقائدهم وأحوالهم، الواصلين إلى درجة القرب واليقين.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل أخاك ﴿ذَا ٱلنُّونِ﴾ صاحب الحوت، وهو يونس بن متى واذكر قصته وقته ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ على قومه من أعمالهم حين وعظهم، فلم يتعظوا، فشق عليه الأمر، فغضب عليهم، فلم يكظم غيظه، فخرج من بينهم تفريجاً لغضبه وتوسيعاً لصدره ﴿فَظَنَّ﴾ بخروجه من بينهم ﴿أَن لَّن نَّقْدِرَ﴾ ونضيّق ﴿عَلَيْهِ﴾ ولا يمكننا حبسه وتضييقه وتغميمه في مكان آخر فهرب، ولقي البحر فركب على السفينة فسكنت الريح، فقال البحارون: إن ههنا عبداً آبقاً، فاقترعوا، فخرجت القرعة باسمه فألقى نفسه في البحر، فالتقمه الحوت ﴿فَنَادَىٰ﴾ وناجى ضريعاً فجيعاً مغموراً ﴿فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ التي تراكمت عليه، إذ هو في بطن الحوت وكان الليل

أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا
لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ
رَبَّهُۥ رَبِّ ....

مظلماً: ﴿أَن﴾ أي أنه ﴿لَّآ إِلَٰهَ﴾ يعبد بالحق ويستحق للعبادة استحقاقاً ذاتياً ووصفياً ﴿إِلَّآ أَنتَ﴾ يا من خضعتْ لك الرقاب وانتكستْ دون سرادقات جلالك أعناق أولي النهى والألباب ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ ربي أنزهك عن جميع ما لا يليق بجنابك ولا يليق لشأنك ﴿إِنِّي﴾ بواسطة خروجي عن قومي بغير إذنك ووحيك، مع أنك أرسلتني إليهم، وبعثتني بين أظهرهم نبياً ذا دعوة وهداية ﴿كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ الخارجين عن مقتضى حكمك وأمرك، لذلك ضيقتَ الأمر عليّ يا ربي، وحبستني ولا مخلص لي من هذا المضيق إلا عفوك وكرمك.

وبعد ما تاب إلينا، وتوجه نحونا مخلصاً متضرعاً، واستخلص منا مضطرباً مضطراً.

﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ وأجبنا دعاءه فأخرجناه من بطن الحوت ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ﴾ العظيم والكرب الكبير ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي﴾ عموم ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ المخلصين الذين أخلصوا في إنابتهم ورجوعهم نحونا من كروبهم وأحزانهم.

﴿وَ﴾ اذكر أيضاً أخاك ﴿زَكَرِيَّآ﴾ الذي بلغ من الهرم والكهولة إلى حيث آيس ممن استخلفه من نطفته، وقنط عمن يقوم مقام من نسله، فشكى إلى الله وقت ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ متمنياً متحسراً آيساً: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني

لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ....

بأنواع الكرم إلى أن كبرتُ وأشرفتْ أركان جسمي إلى الانهدام، وأجزاء جسدي إلى الانحلال والانخرام ﴿لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ مقطوع الفرع، منسي الذكر بلا ولدٍ يخلفني ويرث عني ويحيي اسمي ﴿وَ﴾ إن جرى حكمك على هذا، أو مضى قضاؤك على ذا، فلا أبالي به إذ ﴿أَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ وأكرم المستخلفين.

وبعدما تضرع وتمنى ما تمنى

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ عناية منا إياه وفضلاً ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ﴾ من كمال جودنا ﴿يَحْيَىٰ﴾ المحيي لاسمه ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ بل نفسه أيضاً بعد ما أفسدهما الدهر وأخرجهما من قابلية الولادة والإيلاد، وصيرنا زوجته شابة ولوداً بعدما كانت عجوزاً عقيماً ؛ إظهاراً لكمال قدرتنا ووفور حولنا وقوتنا، وإنما فعلنا بالأنبياء المذكورين ما فعلنا بهم من كمال اللطف والكرم ومحض الفضل والإحسان ﴿إِنَّهُمْ﴾ من كمال توجههم وتحننهم نحونا ﴿كَانُوا۟﴾ في جميع أوقاتهم وحالاتهم ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ ويبادرون ﴿فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ ويسابقون إلى الطاعات المقبولة عندنا ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿يَدْعُونَنَا﴾ في مناجاتهم بنا وفي خلواتهم معنا ﴿رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ راغبين إلينا، راجين عفونا وغفراننا

وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾........................

وراهبين عنا، خائفين منا صولة سطوة قهرنا وغضبنا ﴿وَ﴾ بالجملة هم ﴿كَانُوا۟﴾ دائماً ﴿لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ خاضعين متذللين مخبتين، ولذلك نالوا من الله بسبب خصائلهم هذه ما نالوا من جزيل العطاء، والفوز بشرف اللقاء، والبقاء بعد الفناء.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل أختك العفيفة ﴿ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ من الحلال والحرام، وصبرت على العزوبة بلا ميل منها ولا دغدغة إلى الشهوة تقرباً إلى الله بتحمل المشاق والمتاعب في طريق توحيده، وبعدما بالغت في الحصن والحفظ، وبلغت في العفة كمالها وغايتها ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾ أي أمرنا حامل روحنا يعني جبرائيل عليه السلام بأن ينفخ في جيبها ﴿ مِن رُّوحِنَا﴾ فنفخ، فسرى إلى جوفها، فحبلت بعيسى عليه السلام وبعد وضع حملها ﴿وَجَعَلْنَٰهَا ﴾أي مريم﴿وَٱبْنَهَآ﴾ عيسى ﴿ ءَايَةً ﴾ أي كل منهما آية عجيبة غريبة دالة على كمال قدرتنا وحكمتنا، خارقة للعادة، وهي إيجاد الولد بلا أب، وإيلاد المرأة بلا لمس زوج، فصار هذا كرامة وإرهاصاً لمريم، ومعجزةً لعيسى عليهما الصلاة والسلام وعبرة ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ من حسن حالهما ورفعة رتبتهما وعلو شأنهما.

ثم قال سبحانه مخاطباً لجماهير الأنبياء والرسل وأممهم:

إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓاْ
أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ ....

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ﴾ الملة التي هي ملة الإسلام وطريق التوحيد والفرقان ﴿أُمَّتُكُمۡ﴾ أي قدوتكم وقبلتكم وقصارى أمركم، والحكمة في جبلتكم وخلقكم ما كانت إلا ﴿أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ لا تعدد فيها أصلاً ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ﴾ الواحد الأحد الصمد الفرد ﴿فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ أيها الأظلال المنعكسة من أسمائي وأوصافي وتوجهوا نحوي بغاية التذلل والخضوع ونهاية الانكسار والخشوع.

﴿وَ﴾ بعدما كانوا أمة واحدة لا اختلاف فيهم أصلاً ﴿تَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم﴾ أي أمر دينهم قطعاً، وتحزبوا أحزاباً فوقع النزاع ﴿بَيۡنَهُمۡۖ﴾ فاختلفوا اختلافاً كثيراً على سبيل المراء والمجادلة، ولا تبال بهم وباختلافهم وتحزبهم إذ ﴿كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾﴾ رجوع الأمواج إلى البحر.

وبعدما اختلفوا وتعددوا:

﴿فَمَن يَعۡمَلۡ﴾ منهم ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ المرضية لنا المقبولة عندنا ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ موقن بتوحيدنا، مصدق لرسلنا وكتبنا ﴿فَلَا كُفۡرَانَ﴾ ولا تضييع منا ﴿لِسَعۡيِهِۦ﴾ الذي سعى في طريقنا طلباً لمرضاتنا بل ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾ حافظون حارسون ما صدر عنه من الخيرات الموجبة للمثوبات ورفع الدرجات، فنعطيه ما استحق له من الثواب بلا فوت شيء منها.

وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ
يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ
فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا

﴿وَ﴾ حفظنا وحراستنا ﴿حَرَٰمٌ﴾ ممنوع منا محرمٌ ﴿عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ أي أهلها قهراً وغضباً منا إياهم بسبب ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ ولا يتوجهون إلينا ولا يؤمنون بتوحيدنا ولا يصدقون بكتبنا ورسلنا، بل يكذبون وينكرون، وهكذا تتمادى حرمتنا، ومنعنا إياهم إلى أن ظهرت أشراط الساعة ولاحت أماراتها.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ﴾ وفتقت ﴿يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ سدهما الذي سُدَّ بينهما وبين سائر الناس ﴿وَهُم﴾ بعد فتح السد ورفع المانع من غاية عدوانهم مع الناس وحرصهم على تخريب البلاد ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ﴾ أي تلال وجبال ﴿يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ يسرعون إلى الناس كالذباب الجوّع.

﴿وَ﴾ بعدما ﴿ٱقْتَرَبَ﴾ ودنى ﴿ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ والموعود المحقق الذي هو فتح السد ـ وخروجهما من أشراطه وعلاماته ـ وقامت القيامة ﴿فَإِذَا هِىَ﴾ أي الشأن والقصة حين أنها ﴿شَٰخِصَةٌ﴾ حائرة مدهوشة مضطربة ﴿أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ في النشأة الأولى بالله، وكذبوا بهذا اليوم، فيقولون حينئذ متحسرين خائبين: ﴿يَٰوَيْلَنَا﴾ وهلاكنا تعال فالآن وقت حلولك ﴿قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ﴾ عظيمة ﴿مِّنْ﴾ مجيء ﴿هَٰذَا﴾ اليوم في نشأتنا الأولى

بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ
جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا
وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾

﴿بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ خارجين عن مقتضى الحكم الإلهي، منكرين لهذا اليوم بعدما أخبره بوقوعه الرسلُ ونطق به الكتب.

ثم خاطب سبحانه الكافرين الذين أشركوا بالله مع أنه سبحانه لم ينزل عليه سلطاناً خطاباً عاماً شاملاً للعابدين ومعبوداتهم فقال:

﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها المشركون الجاهلون بقدر الله وعلو شأنه ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأظلال والتماثيل التي اتخذتموها آلهة وادعيتم استحقاقها للعبادة والإطاعة أنتم وهم كلكم ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أي حطبها ووقودها ﴿أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ورودَ الأنعام للماء.

﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً﴾ كما زعمتم واعتقدتم ﴿مَّا وَرَدُوهَا﴾ لأنهم ينقذونكم منها البتة، ولا هم آلهةٌ لكنهم يردون النار، جميعاً عابداً ومعبوداً، ، فظهر أنهم ما كانوا آلهةً، بل عبادٌ أمثالكم ﴿وَكُلٌّ﴾ منكم ومنهم ﴿فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾ مخلدون معذبون دائماً.

﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ أي لأهل النار في النار ﴿زَفِيرٌ﴾ تنفيس شديد وأنين طويل ﴿وَهُمْ فِيهَا﴾ من شدة الأهوال والأفزاع ﴿لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

ثم لما نزلت هذه الآية اعترض ابن الزبعرى بأن عزيراً وعيسى والملائكة من المعبودين، فهم أيضاً في النار، مع أنهم من الأنبياء والمَلَك، وهم

إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ....

محفوظون منها على زعمكم، نزل بعده:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ﴾ عنايةٌ ﴿مِّنَّا﴾ الخصلة ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ والمنزلة الأسنى والدرجة العليا والجنة المأوى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ السعداء المخصوصون بمزيد لطفنا وجودنا ﴿عَنۡهَا﴾ أي عن النار ﴿مُبۡعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ لسبق رحمتنا إياهم وعفونا عنهم بحيث:

﴿لَا يَسۡمَعُونَ﴾ من غاية البعد منها ﴿حَسِيسَهَاۖ﴾ أي صوتها على وجه الخفا كدويّ النحل، مع أن أهلها يُصرخون فيها ويَفزعون في غاية الشدة، ولا تصل لغاية بعدهم عنها ﴿وَ﴾ كيف يسمعون حسيس النار ﴿هُمۡ﴾ متنعمون مترفهون ﴿فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ من اللذات الروحانية والمشتهيات النفسانية عنايةً من الله إياهم ﴿خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ دائمون مستمرون بلا طريان ضدٍ وعروض منافر.

وكيف يسمعون ويحزنون أولئك الآمنون من حسيس النار مع أنهم من فرط فرحهم وسرورهم

﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ وهو النفخة الأخيرة في الصور، مع أنها في نهاية الهول والفظاعة، وإذا لم يشوشهم تلك الهائلة فكيف بالحسيس ﴿وَ﴾ بعد دخولهم في الجنة الموعودة ﴿تَتَلَقَّاهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ مرحبين

هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ
كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا
كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ

مهنئين قائلين: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ في نشأتكم الأولى أيها المؤمنون الآمنون، وأنتم فيها تؤمنون بها، فالآن نِلتم بما آمنتم، وفزتم بما أملتم.

اذكر يا أكمل الرسل:

﴿يَوْمَ نَطْوِى﴾ ونلف ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾ المبسوطة المنشورة ﴿كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ﴾ أي طياً مثل طي الصحيفة الحافظة الحارسة للمكتوب فيها، يعني نلفها لفاً بعد نشرها بحيث لا يبقى لها اسم ولا رسم، إذ طي الصحيفة كنايةٌ عن نسيان الشيء وإعدامها وعدم التذكر، وبالجملة ﴿كَمَا بَدَأْنَآ﴾ وأبدعنا ﴿أَوَّلَ خَلْقٍ﴾ وإيجاد من العدم بلا سبق مادة ومدة ﴿نُّعِيدُهُۥ ۚ﴾ عليه كذلك، بحيث صار كأن لم يكن موجوداً أصلاً وكان إعدامه ﴿وَعْدًا﴾ منا لازماً ﴿عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ الموعود المعهود البتة إنجازاً لوعدنا.

﴿وَ﴾ كيف لا نفنيه ولا نعدمه ﴿لَقَدْ كَتَبْنَا﴾ وأثبتنا ﴿فِى ٱلزَّبُورِ﴾ وفي جميع الكتب المنزلة منا ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ أي بعد الحضور والثبوت في حضرة علمنا ولوح قضائنا: ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ﴾ أي أرض الجنة المعدّة لأهل الولاء والمحبة، ومستقر أرباب العناية، إذ لكل نفس من النفوس البشرية أرضٌ معدة من فضاء الجنة وإنما وصلوا إليها بالإيمان والأعمال الصالحة المقربة إلى الحق، فمتى لم يتصفوا بالإيمان والمعارف والتوحيد لم يصلوا

يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَـٰذَا لَبَلَـٰغًا لِّقَوْمٍ عَـٰبِدِينَ
﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ
إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ..............................

إليها، وإذا لم يصلوا إليها بكفرهم وعنادهم وظلمهم ﴿يَرِثُهَا﴾ من الكفار أماكنهم المعدة لهم فيها ﴿عِبَادِيَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ المقبولون عندنا، المتصفون بشعائر التوحيد والإيمان، والعارفون بمعالم الدين ومسالك العرفان، المرضيون الراضون بجميع ما جرى عليهم من قضائنا.

﴿إِنَّ فِي هَـٰذَا﴾ أي ما ذكر في القرآن من المواعظ والتذكيرات والرموز والإشارات ﴿لَبَلَـٰغًا﴾ وتبليغاً بليغاً إلى أقصى مراتب التوحيد ﴿لِّقَوْمٍ عَـٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ عارفين بمسالك اليقين وأماراته.

﴿وَ﴾ كما كان هذا الكتاب هادياً لجميع البرايا إلى أعلى معارج التوحيد لذلك ﴿مَآ أَرْسَلْنَـٰكَ﴾ يا أكمل الرسل المستخلف منا، المتخلق بأخلاقنا، المظهر لتوحيدنا الذاتي ﴿إِلَّا رَحْمَةً﴾ أي ذا رحمة شاملة وعطف عام ﴿لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ إذ لا بعثة بعدك ولا دين بعد دينك، بل أنت مكمل دائرة النبوة والرسالة، ودينك ناسخ جميع الأديان، فلا بد لجميع أهل الملل والنحل أن يتدينوا بدينك كي يصلوا إلى ما جبلهم الحق لأجله، وهو التوحيد والعرفان.

وبعدما صرت خاتم النبوة والرسالة وصار دينك ناسخاً لجميع الأديان ﴿قُلْ﴾ لقاطبة الأنام على سبيل الدعوة العامة والتبليغ التام: ﴿إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ من ربي ما جعلني مبعوثاً إلى عموم عباده ﴿أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ﴾ أيها الواصلون إلى مرتبة التكليف ﴿إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أحدٌ صمد لا يقبل التعدد

فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ ....

ولا يعرضه نقصان ولا يشغله شأن عن شأن بل كل يوم هو في شأن ﴿فَهَلْ أَنتُم﴾ أيها العابدون ﴿مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ منقادون له، مسلّمون توحيده، مخلصون في إطاعته وانقياده.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ وأعرضوا عن التوحيد بعد تبليغك إياهم قصارى أمرهم في دينهم ﴿فَقُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل: ﴿ءَاذَنتُكُمْ﴾ وأعلمتكم بإذن الله وأهديكم بمقتضى وحيه ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي على طريق سوي وصراط مستقيم موصل إلى توحيد الحق ومعرفته، وإن انحرفتم عن جادة التوحيد وانصرفتم عن مسالكه، استوجبتم المقت والعذاب البتة ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ﴾ أي ما أدري وأعلم ﴿أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ﴾ نزول ﴿مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ من العذاب والنكال.

وبعدما تحقق نزوله وتقرر وقوعه بإخبار الله به لا تغتروا بإمهاله إياكم عن غفلته عنكم تعالى عن ذلك، كيف يعرض له سبحانه الغفلة والذهول .

﴿إِنَّهُۥ﴾ بعلمه الحضوري ﴿يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ﴾ منكم أي الذي تجهرون وتعلنون به ﴿مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ﴾ أيضاً منكم ﴿مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾﴾ وتخفون في نفوسكم من خواطركم.

﴿وَإِنْ أَدْرِى﴾ أي وما أعلم أيضاً ﴿لَعَلَّهُۥ﴾أي لعل إمهاله إياكم وتأخيره العذاب عنكم ﴿فِتْنَةٌ﴾ واختبار ﴿لَّكُمْ﴾ هل تتفطنون إلى توحيده أو لا؟ بعد

وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

ورود أنواع المنبهات عليه والروادع والزواجر البليغة عما ينافيه ويخالفه ﴿وَ﴾ ما أدري أيضاً لعل إمهاله لكم ﴿مَتَٰعٌ﴾ وتمتيع لكم ﴿إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾﴾ لتزدادوا فيه إثماً ومعصية كثيرة تستجلبوا بها أعظم العقوبات وتستحقوا أشد العذاب.

ثم لما تمادى النزاع بين أهل مكة ورسول الله ﷺ وتكثرت الوقائع والحادثات، أمر سبحانه حبيبه ﷺ بالاستعانة منه سبحانه والتفويض إليه بقوله:

﴿قَٰلَ﴾ يا أكمل الرسل بعدما أصروا على إنكارك ملتجئاً إلينا مناجياً: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني بكرامة الرسالة والتبليغ والإرشاد والتشريع ﴿ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ الصريح الصحيح عندك بيني وبين هؤلاء المعاندين، وأنت تعلم أنهم لا ينزجرون إلا بنزول العذاب الموعود عليهم، أنزل بمقتضى قهرك عليهم ما ينزجرون به من العذاب ﴿وَرَبُّنَا﴾ وإن كان هو ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء حتى الكافر الشقي النافي له، لكنه ﴿ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ والمعين المنان والناصر الديان لأهل المعرفة والإيمان ﴿عَلَىٰ﴾ إزالة ﴿مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾ اللهَ به مما لا يليق بشأنه وجنابه، وبالجملة أولئك المشركون هم الهالكون في تيه الجحود والطغيان، المنهمكون في بحر الغفلة والضلال والكفران.

خاتمة السورة

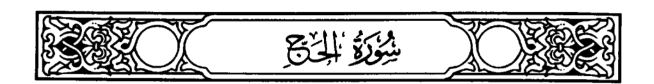
عليك أيها الطالب القاصد لاقتصاد الأحوال واعتدال الأقوال والأفعال: أن تستعين بالله ما صدر عنك وجرى عليك وتسنده إلى الله سبحانه بلا رؤية الوسائل والبين، وتتخذه وكيلاً على مقتضى أمره سبحانه: ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [٧٣-المزمل:٩]، وتفوض جميع أمورك في جميع شؤونك وأطوارك إليه سبحانه، إذ هي له أصالة، وإن صدر عنك صورة، إذ لا وجود لك في ذاتك، فكيف ما يترتب عليه من الأفعال والآثار المرتبة عليه.

فلك أن تميت نفسك عما حداك إليه أمّارة نفسك وشيطان وهمك وخيالك، إذ هو مضلك ومغويك يبعدك عما يعينك وينبغي لك، ويغريك إلى ما لا يعينك ويرديك.

فلك أن تميز بين تسويلات الهوى، وأماني النفس المائلة عن المولى وبين آيات الهدى وعلامات التقى الموصلة إلى الدرجة العليا والفوز بشرف اللقيا.

وإن شئت أن تخلص نفسك من جنود الهوى وعساكر الغفلات من الأوهام والخيالات فاعتزل عن أظهر الناس وأعرض عن ملئهم واحذر عن مخالطتهم ومصاحبتهم، واتخذ لنفسك خلوة تنجيك عن جميع ما يغويك ويؤذيك، إذ المرء إنما يذوق حلاوة الوحدة ولذة التوحيد في العزلة والفرار عن الخلطة، سيما في هذا الزمان الذي غلب فيه النفاق، وكثر الخلاف والشقاق.

ربنا هب لنا من لدنك جذبة عن لذات الدنيا ومشتهياتها، وأنساً بك تخلصنا عن مؤانسة غيرك، إنك على ما تشاء قدير، وبإنجاح آمال المؤملين جدير.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة الحج

لا يخفى على المشمرين أذيال هممهم للتوجه إلى كعبة الذات، والوقوف عند عرفات الأسماء والصفات، والطواف حول جميع الأركان والمقامات الجامعة لجميع الأبعاد والجهات: أن الحج الحقيقي والطواف المعنوي الأصلي إنما هو بالانخلاع عن لوازم الصور الجسمانية ومقتضيات الهياكل الهيولانية بالموت الإرادي والفناء الاختياري المنبعث عن الشوق المفرط نحو الحق، المنزه عن تراكم الإضافات المؤدية إلى التعدد والكثرات.

ولهذا وضع سبحانه للسالكين القاصدين نحو قبلة الذات مقصداً مخصوصاً، وعين لهم وجهة معينة، وأمرهم بالتوجه إليها والوقوف عندها والطواف حولها من كل فج عميق ومرمى سحيق، ألا وهي أودية الإمكان أو بوادي التعينات، متزودين بزاد التقوى، راكبين على مطايا التوفيق، متقربين إلى الله بذبح كبائش أمّارتهم بالسوء، لابسين لباس الموتى الاضطراري، منسلخين عن لوازم الحياة الصورية، معطلين جميع القوى والحركات عن مقتضاها، محرمين على نفوسهم جميع المشتهيات النفسانية الناشئة من الشهوية والغضبية، بحيث لا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ ....﴾

ثم أمرهم بوقوف العرفات المعرفة لهم بسرائر الأسماء والصفات، ليتأتى لهم ألذ الطواف حول الذات، إذ لا سبيل إليها إلا من طرق الأسماء والصفات.

ثم لما كان الطواف الحقيقي مسبوقاً برفع جميع التعينات، ونفي مطلق الإضافات والكثرات، ولا يتم هذا على الوجه الأتم الأكمل في النشأة الأخرى والطامة الكبرى حذرهم سبحانه عنها ليتهيؤوا لها ويتزودوا بزادٍ يناسبها فقال منادياً لهم على التذكير متيمناً باسمه العلي الكبير:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ المدبر لأمور عباده بأحسن التدبير ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ عليهم يحفظهم عن الخطر ويعطيهم الخير الكثير ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ لهم يسهل عليهم كل عسير.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ الناسون للعهود والمواثيق ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ﴾ الذي رباكم بأنواع الكرامات وجلائل النعم، واجتنبوا عما نهاكم عنه من المكاره والمعاصي، ولا تغتروا بإمهاله إياكم في نشأتكم هذه، واحذروا عن بطشه في النشأة الأخرى وقيام الساعة ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ﴾ المعدة لانقهار النظام المشاهد، وانحلال أجزاء العالم المحسوس ﴿شَيْءٌ عَظِيمٞ ١﴾ وأمر فظيع هائل فجيع، بحيث تضعضعت السموات من هيبتها، واندكت الأرضون من شدة صولتها.

اذكر أيها الرائي:

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ أي تلك الزلزلة الشديدة المهيبة بحيث ﴿تَذْهَلُ﴾ أي تدهش

كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى
ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ
ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾.......

وتغفل من غاية دهشتها ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾ مشفقة متحننة ﴿عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ أي ولدها الرضيع مع كمال محبتها ومودتها ﴿وَتَضَعُ﴾ عند حدوثها من شدة هولها وفزعها ﴿كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ﴾ وحبلٍ ﴿حَمْلَهَا﴾ وجنينها ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿تَرَى﴾ أيها الرائي ﴿ٱلنَّاسَ﴾ أي جميع الأنام عند حدوثها ﴿سُكَٰرَىٰ﴾ حيارى مدهوشين، زائلين عقولهم من شدة الهول ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ حقيقة ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ﴾ النازل إياهم في تلك الحالة ﴿شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ مدهش محير لعقولهم وأبصارهم وجميع قواهم ومشاعرهم.

﴿وَ﴾ كيف لا يكون لله المنتقم الجبار ذي القدرة الكاملة والغيرة التامة العذاب والنكال في النشأة الأخرى لمن يسيء الأدب معه، وينسب إليه سبحانه ما لا يليق بجنابه وينكر يوم البعث الجزاء مع ورود الآيات العظام في شأنه ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ المجبولين على المراء والمجادلة ﴿مَن يُجَٰدِلُ﴾ ويخاصم داعي الله ورسوله سيما ﴿فِي﴾ حق ﴿ٱللَّهِ﴾ ويبالغ فيها حيث ينفي ذاته سبحانه وصفاته الذاتية الكاملة ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي دليل عقلي يتشبث به أو نقلي يستند إليه بل إنما هو عن جهل وعناد ﴿وَ﴾ مستنده ومتشبثه أنه ﴿يَتَّبِعُ﴾ في دعواه وجداله هذا ﴿كُلَّ شَيْطَٰنٍ﴾ مضل مغو ﴿مَّرِيدٍ ﴿٣﴾﴾ عال متمرد في الشرارة والفساد بين العباد، ولذلك.

كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ ....

﴿كُتِبَ﴾ ونص ﴿عَلَيْهِ﴾ أي الشيطان المَرِيد المردود ﴿أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ﴾ أي الشيطان واتخذه ولياً من دون الله واقتدى له واقتفى أثره ﴿فَأَنَّهُۥ﴾ أي الشيطان بإغوائه وإغرائه ﴿يُضِلُّهُۥ﴾ ويصرفه عن سواء السبيل الذي هو طريق الإيمان والتوحيد ﴿وَيَهْدِيهِ﴾ على مقتضى تلبيسه وتغريره ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾ بئس المولى وبئس النصير.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ المنهمكون في الغفلة والنسيان المنغمسون بلوازم الحدوث والإمكان، المفضية إلى أنواع العصيان والطغيان ﴿إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ شك وتردد ﴿مِّنَ﴾ أمر ﴿ٱلْبَعْثِ﴾ وإمكان وقوعه، ومن قدرتنا إلى إعادة المعدوم بلا سبق الهيولى والزمان، حتى يزول ريبكم ويرتفع شككم ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم﴾ وقدرنا وجودكم أولاً ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ جماد، لا مناسبة بينكم وبينه أصلاً، إذ هو أصل النطفة ومادة المني، إذ المني إنما يحصل من الأغذية المتكونة من التراب، ﴿ثُمَّ﴾ قدرناكم ثانياً ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ مصبوبة في الأرحام حاصلة في أجزاء الغذاء ﴿ثُمَّ﴾ صورناكم ﴿مِنْ عَلَقَةٍ﴾ أي دم منعقد من المني المصبوب في الرحم ﴿ثُمَّ﴾ عيّنا أركان أجسامكم ﴿مِن مُّضْغَةٍ﴾ أي لحم متكون من الدم المنعقد ﴿مُّخَلَّقَةٍ﴾ كاملة الخلقة سوية الأجزاء بلا عيب ولا نقصان، قابلة الفطرة للمعرفة والهداية والرشد التام

وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ ....

﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ ناقصة الخلقة معيوبة الأجزاء، منحطة عن درجة الكمال كل تلك التبديلات والتغييرات منا دليل على كمال قدرتنا وإرادتنا ووثوق حكمنا وتدبيراتنا إنما أظهرناها ﴿لِّنُبَيِّنَ﴾ ونظهر ﴿لَكُمْ﴾ كمال قدرتنا المتعلقة على جميع المقدورات المتحققة والمقدرة على السوية بلا فتور وقصور ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿نُقِرُّ﴾ ونثبت الولد ﴿فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾ ونريد ثبوته ذكراً أو أنثى، مبدِّلين مغيرين من صورة إلى أخرى مراراً كثيرة ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ سميناه وعيناه في حضرة علمنا لتسويته وتعديله ﴿ثُمَّ﴾ بعدما سويناه وعدلنا أركان جسمه على الوجه الذي تقتضيه حكمتنا، ونفخنا فيه من روحنا، إذ نفخُنا الروح فيه علةٌ غائيةٌ لإيجاده وإظهاره ﴿نُخْرِجُكُمْ﴾ أي كلا منكم من بطون أمهاتكم ﴿طِفْلًا﴾ محتاجاً إلى الرضاعة والحضانة ﴿ثُمَّ﴾ نربيكم بأنواع التربية والتغذية ونقوي مزاجكم ومشاعركم على التدريج ﴿لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾ أي كمال رشدكم وقوتكم الجسمانية، وتثمروا من المعارف والحقائق ما جبلتم لأجلها إن وفقوا من قبلنا ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ بعدما بلغ أشده ورشده أو قبل بلوغه ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ وهو سن الكهولة والهرم المستلزم للخرافة ونقصان العقل وضعف القوى والآلات ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ﴾ متعلق منه بمعلوم

شَيْـًٔاۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ ....

مخصوص ﴿شَيْـًٔاۚ﴾ من أمارات ذلك المعلوم وصار عنده كأنه لم يلتفت إليه قط لغلبة الغفلة والنسيان عليه وسقوط الحفظ والإدراك عنه، كل ذلك إنما هو لإظهار قدرتنا الكاملة وإرادتنا التامة الشاملة ﴿وَ﴾ لا تتعجب من كمال قدرتنا ومتانة صنعتنا وحكمتنا أمثال هذا أما ﴿تَرَى﴾ أيها الرائي ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ الممهدة المبسوطة كيف كانت ﴿هَامِدَةً﴾ يابسة متينة جامدة بعيدة عن الرطوبة والخضرة كالرماد ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا﴾ وقت تعلق قدرتنا وإرادتنا بإحيائها ونضارتها ﴿عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ﴾ المشتمل على خاصة الحياة ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ وتحركت اهتزازاً شوقياً ﴿وَرَبَتْ﴾ وارتفعت من حضيض الخمود والجمود طالباً الخروج إلى فضاء الهواء والعروج إلى غاية ما أعد له من الكمال ﴿وَ﴾ بعد حركتها وارتفاعها متشوقة ﴿أَنۢبَتَتْ﴾ وأظهرت بإقدارنا إياها ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍۭ﴾ نوع وصنف مما يخرج من الأرض ﴿بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾ رائق عجيب، وهذا من أوضح الدلائل والبراهين عند ذوي النهى واليقين على البعث وإعادة المعدوم وجميع المعتقدات الأخروية.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من إيجاد المقدورات التي تستبعدها العقول السخيفة والأحلام الردية الضعيفة ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الثابت المحقق المقصور على الحقية والثبوت لا متحقق في الوجود سواه، ولا معبود يُعبد بالحق إلا هو ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ سبحانه بخصوصه المقتدر

يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ....

هو الحي القيوم المحيي ﴿يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ بالإرادة والاختيار ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ بذاته وأسمائه وصفاته هو القادر بالاستقلال ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ دخل تحت قدرته وحيطة حضرة علمه وإرادته بالاستقلال ﴿قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾ بلا فتور وقصور ولا تزلزل وعثور.

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ الموعودة المعهودة من عنده ﴿ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ إذ هي من جملة مقدورات الله التي قدر وجودها في لوح قضائه وحضرة علمه ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ المتصرف بالاستقلال والاختيار ﴿يَبْعَثُ﴾ يوم الحشر ﴿مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ من النفوس الخيرة والشريرة، ثم يحاسبهم ويجازيهم على مقتضى حسابه، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ المجبولين على الكفر والنسيان ﴿مَن يُجَـٰدِلُ﴾ ويكابر ﴿فِى﴾ أوامر ﴿ٱللَّهِ﴾ وينكر مقدوراته الماضية والآتية مع أنه ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي دليل عقلي مسبوق بترتيب المعلومات اليقينية أو الظنية ﴿وَلَا هُدًى﴾ أي حدس وكشف ملهم من عند الله ملقى في روعة ﴿وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾﴾ دليلٍ نقلي منسوب إلى الوحي والإلهام بنور قلب من صدّق به وأخذ بما فيه إيماناً واحتساباً، ومع أنه ليس له سند عقلي ولا نقلي ولا كشفي وشهودي، مُعرِضٌ عن الدلائل والشواهد مع وضوحها وظهورها صارفاً عنان عزمه

﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٩ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٠﴾

عن التأمل فيها.

﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ﴾ يعني لاوياً عنقه ومولياً جنبه عنها كبراً وخيلاء على أصحاب الدلائل والبراهين وأرباب الكشف والشهود عتواً وعناداً، إنما فعل ما فعل من عدم الالتفات والتوجه نحو أهل الحق ﴿لِيُضِلَّ﴾ بفعله هذا ضعفاء الأنام ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ الذي بيّنه الأنبياء وأوضحه الرسل بوحيه وإلهامه إليهم وإنزال الكتب والصحف عليهم ﴿لَهُۥ﴾ أي لهذا المستكبر العاتي بسبب ضلاله وإضلاله ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ﴾ هوان وهون وطرد ولعن ونهب وأسر ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ بعد انقراض النشأة الأولى ﴿عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٩﴾ المحرق الذي هو عذاب النار الذي لا عذاب أشد منها وحين تعذيب الموكلين عليه إياه بالنار، أمرناهم أن يقولوا له على سبيل التقريع والتوبيخ زجراً عليه:

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي لحقك ونزل عليك من العذاب المخلد ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ﴾ وكسبت ﴿يَدَاكَ﴾ في النشأة الأولى وعلى مقدار ما اقترفته من المعاصي والآثام بلا زيادة عليها عدلاً منا ﴿وَ﴾ اعلم أيها المسرف المبالغ في اقتراف الجرائم المستوجبة للعذاب ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ المتصف بالعدل القويم ﴿لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٠﴾ يعني ليس بمبالغٍ في جزاء الانتقام عنه مقدار الجرائم والآثام مثل مبالغته في جزاء الإنعام والإحسان تفضلاً وامتناناً.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ
ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾
يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ....

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ المجبولين على نسيان المنعم وكفران نعمه ﴿مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ﴾ المنزه المستغن عن إيمانه وعبادته ﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ أي شاكاً منتظراً على طرف بلا جزم منه فيه وطمأنينة كالذي يتمكن يوم الوغى على طرف الجيش متردداً منتظراً، إن أحس الظفر قر في مكانه وتمكن وإلا فر، كذلك هذا المؤمن المتزلزل ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ﴾ بعد ما آمن وأسلم ﴿خَيْرٌ﴾ أي شيء يسُرُّه وينشطه ﴿ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾ وتمكن لأجله متفائلاً بالإيمان والإسلام ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ﴾ بعد اختياره الإيمانَ والإسلام ﴿فِتْنَةٌ﴾ أي بليةٌ ومصيبةٌ تُمِلْه ﴿ٱنقَلَبَ﴾ ورجع ﴿عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ أي وجْهته وجِهَته التي تركها من الكفر متطيراً متشائماً بالإيمان والإسلام وبالجملة ﴿خَسِرَ﴾ ذلك المتزلزل المتذبذب ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ بأنواع البليات والمصيبات ﴿وَٱلْءَاخِرَةَ﴾ بالحرمان عن درجات الجنان والخلود في دركات النيران بأنواع الخسران ﴿ذَٰلِكَ﴾ الخسران المستوعب للنشأتين ﴿هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ العظيم، لا خسران أعظم منه وأفحش، وكيف لا يخسر ذلك المردود المطرود.

﴿يَدْعُوا۟﴾ ويعبد ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ المتصف بجميع أوصاف الكمال المستحق للعبادة والإطاعة استحقاقاً ذاتياً ووصفياً ﴿مَا لَا يَضُرُّهُۥ﴾ أي شيئاً، إن عصاه، ولم يؤمن به لا يتأتى منه الضرر والانتقام ﴿وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾

ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

أي إن أطاعه وعبده حق عبادته، لا يتأتى منه أن يثيبه ويغفر له ويحسن إليه ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الإطاعة والانقياد لشيء لا يرجى منه النفع والضر ﴿هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾﴾ عن الهداية والتوحيد بمراحل خارجة عن الحصر والتعديد، بل.

﴿يَدْعُواْ﴾ ذلك الضال الغوي ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ﴾ بسبب اتخاذه شريكاً معه في استحقاق العبادة جهلاً وعناداً، مع أنه الواحد الأحد الصمد المستقل بالألوهية والربوبية، ودخولُ المشرك في النار محققٌ مقطوعٌ به، فيكون ضره أقرب ﴿مِن نَّفْعِهِۦ ۚ﴾ الذي توهمه أن يشفع لأجله عند الله، والشفاعةُ عنده إنما هي بإذنه سبحانه أيضاً فثبت أن لا نفع له، والله ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ المعين الناصر الشفيع: الأصنام والأوثان الخسيسة ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾ أي الكفار الذين يعبدونهم ويوالونهم ويتخذونهم أرباباً يطمعون منهم الشفاعة عند الله، مع أن ترك المحقق المجزوم، وأخذ المعدوم الموهوم ما هو إلا كفر باطل وزيغ عاطل زائل.

ربنا اهدنا بفضلك إلى سواء السبيل.

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته من تعقيب الوعيد بالوعد:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ الهادي لعباده إلى دار السلام ﴿يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي سبقوا بالإيمان بالله وتصديق رسله وكتبه ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿عَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ التي أمرهم سبحانه في كتبه وأجراهم على ألسنة رسله بالإتيان والامتثال

﴿جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ﴾ ....

بها، واجتنبوا عن النواهي التي نهاهم سبحانه عنها ﴿جَنَّٰتٍ﴾ منتزهات من العلم والعين والحق ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾ أي المعارف والحقائق الجزئية المتجددة بتجددات الأمثال، وهي الرموز والإشارات التي يتفطن بها العارف من ظواهر المظاهر المرتبطة بالشؤون والتجليات الإلهية وبالجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ الموفق لخواص عباده ﴿يَفۡعَلُ﴾ معهم ﴿مَا يُرِيدُ ١٤﴾ من الصلاح والفوز بالنجاح، والتحقق بمقام الرضا وشرف اللقاء.

ثم لما اعتقد المشركون ومن في قلبه عداوة راسخة مع رسول الله ﷺ وشكيمةٌ شديدة وغيظٌ مفرط أن لا نصرَ ولا إعانة له من عند الله لا في الدنيا ولا في الآخرة كما زعمه رد الله عليهم نصراً له وترويجاً لقوله، فقال:

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾ ولن يعين رسوله ﷺ لا ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ ولا في ﴿وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ بل ما ادعاه من نصر الله إياه في الدنيا والآخرة، إنما هو لإثبات دعواه وترويج مدعاه، وإلا فلا نصر له ولا ناصر، يقال للمنكر: إن شئت إزالة غيظك وحسدك عنه ﷺ ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ﴾ أي بحبل ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي نحوها وارتفع معلقاً بالحبل إلى أن يتباعد من الأرض مسافة بعيدة، ﴿ثُمَّ﴾ يقال له بعدما ارتفع من الأرض: ﴿لۡيَقۡطَعۡ﴾ الحبل وانفصل عنه، فقطع فوقع، ﴿فَلۡيَنظُرۡ﴾ بعدما وقع ﴿هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ﴾

مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ ....

مكره وحيلته ﴿مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾ أي غيظه برسول الله تعالى ﷺ.

وبالجملة ما يزول إنكار المنكرين وغيظ المشركين مع رسول الله ﷺ إلا بهذه الحيلة والكيد.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ما نصرناه ﷺ في وقائع كثيرة ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ أيضاً لتأييده ونصره ﴿ءَايَٰتٍ﴾ أي دلائل ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات دالة على صدقه في دعواه النبوة والرسالة والتشريع العام والإرشاد التام ﴿وَ﴾ أنزلناه أيضاً على سبيل العظة والتعليم: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ الهادي للعباد، الموفق لهم إلى سبيل الرشاد ﴿يَهْدِى﴾ بعدما بينتَ لهم طريق الهداية والسداد بوحي الله إياك يا أكمل الرسل ﴿مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ ويتعلق إرادته ومشيئته سبحانه لهدايته ورشاده، ومن يتعلق بضلاله أضله.

وبالجملة ما عليك إلا البلاغ، وعلى الله الهداية والرشاد، فلا تتعب نفسك في هداية من أحببت، إنك لا تهدي من أحببت، بل أمر الهداية والضلال إنما هو مفوض إلى الكبير المتعال، لذلك قال سبحانه:.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بمحمد ﷺ الهادي للناس إلى توحيد الذات والصفات والأفعال جميعاً ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ وهم الذين آمنوا بموسى عليه السلام الهادي لأمته إلى توحيد الصفات ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ الذين يدعون الاطلاع على سرائر الكواكب والأجرام العلوية ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ وهم الذين يصدقون

وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُۗ ....

بعيسى عليه السلام الهادي لأمته إلى توحيد الأفعال ﴿وَٱلْمَجُوسَ﴾ الذين يدعون التمييز بين فاعل الخير وفاعل الشر ﴿وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ﴾ بالله المنزه عن الشريك، كلٌ من هؤلاء المذكورين يدعي الحقية لنفسه والباطل لغيره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلع لسرائرهم وضمائرهم ﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ أي بين من هو المحق منهم والمبطل ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ﴾ وكيف لا يميز ويفصل سبحانه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المتجلي في الآفاق والأنفس ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ أي حاضرٌ مع كل شيء رقيب عليه، غير مغيب عنه أصلاً.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي ولم تعلم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ المظهر لجميع المظاهر ﴿يَسْجُدُۤ﴾ أي يذلل ويخضع ﴿لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من العلويات ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾من السفليات وخصوصاً معظمات الأجرام العلوية وهي﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ﴾ ومعظمات الأجسام من السفليات ﴿وَ﴾ هي ﴿ٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَ﴾ يسجد له أيضاً طوعاً ﴿كَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾ المجبولين على فطرة التوحيد، المخلوقين على استعداد الإيمان وقابلية المعرفة والإيقان ﴿وَكَثِيرٌ﴾ منهم لانحرافهم عن الفطرة الأصلية بتقليد آبائهم ومعلميهم الذين يضلونهم عن سواء السبيل لذلك ﴿حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُۗ﴾

وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ....

وثبت له العقاب في لوح القضاء وحضرة العلم ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ﴾ وأسقط رتبته وحط درجته ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ﴾ معلٍّ رافع ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلع على استعدادات عباده وقابلياتهم ﴿يَفْعَلُ﴾ معهم ﴿مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ على مقتضى علمه وخبرته.

ثم لما تطاول نزاع اليهود مع المؤمنين وتمادى جدالهم وخصومتهم حيث قال اليهود: نحن أحق بالله منكم لتقدم ديننا وشرف نبينا وفضل كتابنا، وقال المؤمنون: نحن أحق منكم لأن ديننا ناسخُ جميع الأديان ونبينا خاتم دائرة النبوة والرسالة ومتمم مكارم الأخلاق وكتابنا الجامع لما في الكتب السالفة الناسخة لبعض أحكامها أفضل من سائر الكتب، ونحن أيضاً لا ننكر نبياً من الأنبياء وكتاباً من الكتب، وأنتم أنكرتم عيسى عليه السلام ودينه وكتابه وديننا ونبينا وكتابنا، مع أنه مذكورٌ في كتابكم، وأنتم تعلمون حقيته وتنكرونه عناداً، أوردَ سبحانه في كتابه قصتهما وحكم بينهما فقال سبحانه:

﴿ ۞ هَٰذَانِ﴾ الفوجان يعني المؤمنين واليهود ﴿خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ﴾ مع وحدة ذاته وشمول تربيته وألوهيته لجميع البرايا ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله المتوحد بذاته وأثبتوا له شريكاً وفرقوا بين كتبه ورسله بالإقرار والإنكار والتصديق والتكذيب ﴿قُطِّعَتْ﴾ أي أعدت وهيئت ﴿لَهُمْ ثِيَابٌ﴾ وملابس متخذة ﴿مِّن نَّارٍ﴾ شبهها بالثياب لإحاطتها وشمولها ومع

﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ۝١٩ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ۝٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ۝٢١ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٢٢ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ ....﴾

ذلك ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ۝١٩﴾ الماء الحار البالغ نهاية الحرارة بحيث.

﴿يُصْهَرُ﴾ ويذاب ﴿بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ﴾ من الشحوم وغيرها ﴿وَ﴾ كذا يذاب به ﴿الْجُلُودُ ۝٢٠ وَلَهُم﴾ أي لردهم ودفعهم زجراً وقهراً.

﴿مَّقَٰمِعُ﴾ سياط مصنوعة ﴿مِنْ حَدِيدٍ ۝٢١﴾ بيد مَن وكل عليه من الزبانية ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا﴾ أي من النار ﴿مِنْ غَمٍّ﴾ وَهَمٍّ وكآبة، عرض لهم من شدة العذاب، فطلبوا الخروج تخفيفاً وترويحاً حين التقتهم اللهب إلى الطرف الأعلى منها ﴿أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ زجراً ضاربين عليهم بالمقامع ﴿وَ﴾ قائلين لهم ﴿ذُوقُوا۟﴾ أيها المصرون على الكفر والعناد، المسرفون المفسدون بأنواع الفجور والفساد ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٢٢﴾ المحرق أكبادكم بدل ما تبردونها بالسحت والرشى.

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته المستمرة:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المتجلي على أهل الإيمان بالتجليات الحبّية الجمالية ﴿يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بتوحيد الله مخلصين ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ المقبولة عنده المقربة إليه ﴿جَنَّٰتٍ﴾ وحدائق ذات بهجة ترويحاً لهم وتفريحاً

تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَـٰهُ لِلنَّاسِ ....

وانشراحاً لصدورهم وتفريجاً لغمومهم حيث ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ المُذهِبة للهموم الفارجة للكروب ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ تذهيباً وتزييناً لظواهرهم من عكوس بواطنهم ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ متخذة ﴿مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ بها يرصع أساورهم ﴿وَلِبَاسُهُمْ﴾ دائماً ﴿فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ تليناً لبشرتهم وتكميلاً لترفههم وتنعمهم.

﴿وَ﴾ لا يقتصر عليهم فيها على تزيين الظاهر وتفريح الباطن بل ﴿هُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ ليتصفوا بالصدق والتصديق، ويداوموا على شكر الله بقولهم: الحمد لله الذي صدقنا وعده، وبقولهم: الحمد لله الذي هدانا لهذا، ﴿وَ﴾ بعدما اتصفوا بالصدق والعدالة في الأقوال والأفعال ﴿هُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾ الذي هو التوحيد المسقط للإضافات مطلقاً، سمي به لاستحقاقه الحمد لذاته، ثم قال سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بتوحيد الله وأعرضوا عن شعائر دينه ﴿وَ﴾ مع ذلك هم ﴿يَصُدُّونَ﴾ ويصرفون الناس أيضاً ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ومعالم الهدى واليقين لا في وقت دون وقت بل دائماً مستمراً ﴿وَ﴾ خصوصاً عن ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ الذي منه الصد والمنع مطلقاً لأنه ﴿ٱلَّذِى جَعَلْنَـٰهُ﴾ قبلة ﴿لِلنَّاسِ﴾

سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادِۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ ....

كافة، وفرضنا عليهم الطواف حولها من استطاع منهم إليها سبيلاً، ولهذا ما صارت مكة ومن حولها ملكاً لأحد بل صار الكل فيها ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ﴾ المقيم ﴿فِيهِ وَٱلْبَادِۚ﴾ المسافر الوارد عليه ﴿وَمَن يُرِدْ﴾ ويقصد سوءاً بالنسبة إليه من صدود وغيره مع أنه مقيم ﴿فِيهِ﴾ وصدر ذلك عنه ﴿بِإِلْحَادِۭ﴾ وميل مقرون ﴿بِظُلْمٍ﴾ أي عن قصد وعمد لا عن خطأ وسهو ونسيان ﴿نُّذِقْهُ﴾ بمجرد قصده الذي لم ينته إلى الفعل والصدور ﴿مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ مؤلم فجيع.

﴿وَ﴾ كيف لا نذيقه من عذابنا الأليم، إذ بناء بيتنا هذا على الطهارة الكاملة من جميع الآثام، اذكر يا أكمل الرسل ﴿إِذْ بَوَّأْنَا﴾ أي بينا وعيناً ﴿لِإِبْرَٰهِيمَ﴾ حين شرفناه بأمرنا المتعلق ببناء بيتنا هذا ﴿مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ أي الكعبة بعدما اندرست وسقطت بالطوفان، وصارت سوى لا علامة لها أصلاً، فأعلمنا له بريحٍ أرسلناها مع إبراهيم فكنست الريحُ حولها فبناه على بنائه الذي بناه آدم عليه السلام، وأوصينا ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾ من مظاهري وأظلالي في الوجود معي ﴿وَ﴾ بعد ما نزَّهتَ ذاتي عن الشريك والنظير ﴿طَهِّرْ بَيْتِىَ﴾ هذا الممثَّل من بيتي الذي في صدرك عن جميع المعاصي والآثام والمؤذيات والقاذورات وأنواع الخبائث والمكروهات، إذ جعلناه قبلة ومقصداً ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ القاصدين بطوافهم حول البيت التحققَ عند

﴿وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾

كعبة الذات والوقوف على عرفات الأسماء والصفات ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾ المواظبين بالتوجه الدائمي والميل الشوقي الحقيقي الحبي بجميع الأركان والجوارح نحو الذات الأحدية، المنقطعين عن جميع العلائق والإضافات ﴿وَالرُّكَّعِ﴾ الراكعين الذين قُصمت ظهور هوياتهم عن حمل أعباء العبودية ﴿السُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ أي الساجدين المتذللين الخاضعين الواضعين جباه أنانيتهم على تراب المذلة والانكسار لدى الملك الجبار القهار لسمت السوى والأغيار.

﴿وَ﴾ بعدما أوصيناه بما أوصيناه قلنا آمراً إياه: ﴿أَذِّن﴾ وأعلم إعلاماً عاماً ﴿فِي﴾ حق عموم ﴿النَّاسِ﴾ وبشرهم ﴿بِالْحَجِّ﴾ أي أعلم للداني والقاصي منهم بوجوب الحج عليهم، لزمهم أن ﴿يَأْتُوكَ﴾ ويزوروا بيتك ويطوفوا حولها آتين ﴿رِجَالًا﴾ مشاة إن كانوا من الأداني ﴿وَ﴾ ركبانا ﴿عَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ بعيرٍ مهزول أهزله وأتعبه بُعد المسافة إذ ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ﴾ طريق ﴿عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ غائر بعيد إن كانوا من الأقاصي، وإنما أمرناهم بالحج وفرضناه عليهم ﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ أي أمكنة ينفعهم الحضور فيها والوقوف بها منافع النشأة الأخرى، ونسّهل عليهم سلوك طريق التوحيد بالفناء والإفناء والانقطاع عن حطام الدنيا، والتعري عن لباس البأس والعنا، والتخلص عن مقتضيات القوى، والتحلي بلباس التقوى،

وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ....

والتشمر نحو جناب المولى، والتجرد عن موانع الوصول إلى دار البقاء من الأموال والأبناء ﴿ وَيَذْكُرُوا۟ ﴾ فيها ﴿ ٱسْمَ ٱللَّهِ ﴾ المشتمل لجميع الأوصاف والأسماء، المحيط بجميع الأشياء إحاطة الشمس على جميع الأظلال والأضواء بلا تركيبٍ وانقسام إلى أبعاض وأجزاء سيما ﴿ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ ﴾ عينها الله المتعزز برداء العظمة والكبرياء للتوجه والدعاء، وهي عُشر ذي الحجة، وقيل: أيام النحر ﴿ عَلَىٰ ﴾ ذبح ﴿مَا رَزَقَهُم ﴾ الله وأباحهم ﴿مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ﴾ مما ملكت أيمانهم، متقربين بها إلى الله هَدْيَة أو أُضحية ﴿فَكُلُوا۟ ﴾ مما ذبحتم ﴿ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ﴾ الذين شملهم بؤس الفقر وإحاطته شدة الفاقة.

﴿ ثُمَّ ﴾ بعد ذبح الهدايا والضحايا ﴿ لْيَقْضُوا۟ ﴾ وليزيلوا ﴿تَفَثَهُمْ ﴾ أي أوساخهم العارضة لهم من رين الإمكان وطغيان الهويات ومقتضى الأنانيات ﴿وَ﴾ بعد تطهير أوساخ الإمكان ﴿ لْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ ﴾ التي نذروها في قطع بوادي تعيناتهم ومهاوي هوياتهم من ذبح بقرة أمّارتهم المضِلَّة عن سواء السبيل ﴿وَ﴾ بعد ما طهروا من الأوساخ ووافوا بالنذور ﴿ لْيَطَّوَّفُوا۟﴾ منخلعين عن خِلَع ناسوتهم، متجردين عن ثياب بشريتهم ﴿ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ﴾ والركن الوثيق الأزلي الأبدي، الذي لا يلحقه

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦۚ ....

انصرام، ولا يعرضه انقراض وانخرام، فالأمر ذلك لمن أراد سلوك طريق الفناء والحج الحقيقي والطواف المعنوي.

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي ومن يحافظ على حرمة ما حرمه الله في أوقات الحج ولم يهتك حرمتها ليجبرها بدم ﴿فَهُوَ﴾ أي الحفظ بلا هتك حرمة ﴿خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ مقبول ﴿عِندَ رَبِّهِۦۗ﴾ من هتكها وجبرها بدم ﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون ﴿أُحِلَّتْ لَكُمُ﴾ في دينكم ﴿ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ كلها بأنواعها وأصنافها، وشرب ألبانها، والانتفاع بأشعارها وأوبارها والتقرب بها إلى الله في أوقات الحج ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْۖ﴾ في كتابكم تحريمه بقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ ...﴾ [٥-المائدة:٣] الآية، ومتى عرفتم ما أحل الله لكم ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟﴾ أيها الموحدون ﴿ٱلرِّجْسَ﴾ والقذر الذي هو ﴿مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ أي من قِبلها، إذ هي شرك منافٍ للتوحيد والشرك من أخبث الخبائث ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟﴾ أيضاً ﴿قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾ والبهتان، إذ هو ظلمٌ والظلم مقرونٌ بالكفر، والشركُ معدودٌ من عداده مسقطٌ للمروءة والعدالة اللازمة لأهل الإيمان والتوحيد.

يعني: اجتنبوا عن الشرك والمعاصي المنافية للتوحيد وكونوا

﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ مخلصين له غير مائلين عن دينه ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦۚ﴾ شيئاً

وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ
فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ
﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ ....

من مظاهره ومصنوعاته ﴿وَ﴾ اعلموا أيها العقلاء الموحدون أن ﴿مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ الواحد الأحد المنزه عن الشريك مطلقاً سواء كان شركه خفياً أو جلياً ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ﴾ وسقط ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي أوج الإيمان وأعلى درجة التوحيد والعرفان ﴿فَتَخْطَفُهُ﴾ أي إذا سقط أخذه ﴿ٱلطَّيْرُ﴾ فجأة في الهواء، فيرميه في حضيض غائر بعيد عن العمران ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ حين سقوطه منها فتطرحه ﴿فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ بعيد، ووادٍ عميق.

وبالجملة من يشرك بالله ـ العياذ به منه ـ فقد وقع في هاوية الضلال بحيث لا يرجى نجاته منها أصلاً.

الحكم والأمر

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور لمن أشرك بالله ونسي الأدب معه ولم يعرف حق قدره ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ المأمورة في أداء الحج ويوقرها حق توقيرها وتعظيمها ﴿فَإِنَّهَا﴾ أي تعظيمها وتحسينها ناشئة ﴿مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ الناظرة إلى الله بنور الحق في جميع حالاتها.

﴿لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون الناسكون بمناسك الحج ﴿فِيهَا﴾ أي في الهدايا والضحايا ﴿مَنَٰفِعُ﴾ درها وصوفها وشعرها وظهرها ونسلها ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي إلى حلول وقتٍ عيّنه سبحانه لذبحها ﴿ثُمَّ﴾ بعدما قرب

مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ۗ فَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ ....

وقتها، وحان حينها ﴿مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾ أي محل ذبحها عند البيت العتيق، أي جميع الحرم وحواليه.

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ من الأمم الماضية ﴿جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ أي مذبحاً معيناً يتقربون فيه إلينا، ويهدون نحونا بهدايا وقرابين وإنما أعطيناهم ذلك ﴿ لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ ﴾ عند التذكية والذبح ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم ﴾ مما ملكت أيمانهم ﴿مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ﴾ قيدنا لهم، لأن الخيل والحمير لا يليق بالقربان والهدي، وبعدما علمتم أن لكل أمة مذبحاً معيناً ومنسكاً مخصوصاً يتقربون فيها إلينا ﴿فَإِلَـٰهُكُمْ ﴾ أي فاعلموا أن إلهكم ﴿ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أحد صمد فرد وتر لا تعدد فيه ولا شركة ﴿فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾ وتوجهوا إن كنتم مسلّمين أموركم إليه ﴿وَبَشِّرِ﴾ يا أكمل الرسل من بين المؤمنين المسلمين بالمثوبة العظمى والدرجة العليا والفوز بشرف اللقيا ﴿ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾ المطيعين الخاضعين المتواضعين الذين خَبَت وخمدت نار شهواتهم من بأس الله وخشيته، وهم

﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ ﴾ القادر المقتدر بالإنعام والانتقام ﴿وَجِلَتْ﴾ وخشيت ﴿قُلُوبُهُمْ ﴾ خوفاً من قهره وغضبه وصولة صفات جلاله وسطوة سلطنته وكبريائه ﴿وَ﴾ أيضاً ﴿ٱلصَّـٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ ﴾ من المصيبات والبليات

وَٱلْمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ ....

التي جرى حكم الله عليه في سابق قضائه ﴿وَٱلْمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ﴾ المفروضة بأوقاتها مع شرائطها وأركانها وآدابها تقرباً إليه وتوجهاً نحوه بكمال الخضوع والخشوع والتذلل والانكسار ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ واستخلفناهم عليه ونسبناه إليهم ﴿يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ على الوجه الذي أمرناهم به، أي على المصارف المذكورة في قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ [٩-التوبة:٦٠] الآية. متقربين بها إلى الله

﴿وَ﴾ جعلنا خير الهدايا والضحايا ﴿الْبُدْنَ﴾ جمع بادن كبذل جمع باذل، وهي الإبل خاصةً سميت بها لعظم بدنها وجسامتها وغلاء ثمنها وعظم وقعها في نفوس الناس لذلك ﴿جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ وأعلام دينه ومعالم بيته ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ كثير وأجر جزيل وثواب عظيم عند الله إن ذبحتموها وإذا أردتم ذبحها ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ عند تذكيتها قائلين: الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر، اللهم منك، وما لنا إلا امتثال ما أمرتنا به والسر عندك ولديك والحكمة دونك، واذبحوها ﴿صَوَآفَّ﴾ أي صافة قوائمها مشدودة محكمة ثم تطعنون في لباتها ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ﴾ وسقطت ﴿جُنُوبُهَا﴾ على الأرض وخرجت روحها من الجسد ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ إن شئتم ﴿وَأَطْعِمُوا۟﴾ أيضاً ﴿ٱلْقَانِعَ﴾ وهو الفقير يقنع بما يُعطى ولا

وَٱلْمُعْتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ ....

يبادر إلى السؤال والإلحاح ﴿وَ﴾ أطعموا أيضاً ﴿الْمُعْتَرَّ﴾ وهو الذي يبادر إلى السؤال قبل الإعطاء، ويبالغ فيه ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي على الوجه المذكور ﴿سَخَّرْنَٰهَا﴾ وذللناها أي البُدن ﴿لَكُمْ﴾ مع أنها في كمال القوة والجسامة، وأنتم في غاية الضعف، كي تتفطنوا من تسخيرها وتذليلها عليكم إلى تذليل أمّارتكم المسلطة عليكم، فذبحتموها في طريق الحق مشدودة قوائم قواها عن مقتضاها ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ نعمة الإقدار والتوفيق عليها، وتعطون بدلها من لدنه سبحانه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

واعلموا أيها المتقربون إلى الله بالهدايا والضحايا:

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ﴾ أي لن يصيب ويصل إليه سبحانه ﴿لُحُومُهَا﴾ المتصدق بها، إذ هو منزه عنها وعن الانتفاع بها ﴿وَ﴾ أيضاً ﴿لَا﴾ يصل إليه سبحانه ﴿دِمَآؤُهَا﴾ المهراقة ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ﴾ ويصل منها إليه سبحانه ﴿ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ﴾ أي التحرز والاجتناب عن محارمه ومنهياته والامتثال بأوامره والإتيان بمأموراته، وبالجملة يقربكم إليه سبحانه امتثال الأوامر واجتناب النواهي، لا اللحوم والدماء، ثم كرره سبحانه تأكيداً أو مبالغة بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ أي الهدايا والضحايا ﴿لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ﴾ المتعزز بالعظمة والكبرياء، المستقل بالمجد والبهاء حق تكبيره وتعظموه حق

عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ ....

تعظيمه وتوقيره ﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْۗ﴾ وأرشدكم إلى الإيمان والتوحيد ﴿وَبَشِّرِ﴾ يا أكمل الرسل ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ منهم وهم الذين يعبدون الله كأنهم يرونه، ويحسنون الأدب معه، كأنهم ينظرون إليه سبحانه.

ثم لما خشي المؤمنون على معاداة المشركين وخافوا عن مخاصمتهم وغيظهم إذا خرجوا نحو مكة للزيارة والطواف قاتَلوا معهم، وأكَّبوا عليهم وعلى أموالهم، وأَسَروا أولادهم، أزال الله سبحانه عنهم الرعب وأسقط عنهم الخشية بقوله:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المتكفل لأمور عباده، الحفيظ عليهم عما يؤذيهم ﴿يُدَٰفِعُ﴾ كيد الكفرة العداة البغاة الطغاة ﴿عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾ بالله وصدقوا بشعائر دينه وقصدوا إقامتها على أمره ووحيه، كيف لا يدفع سبحانه مع كمال قدرته خيانةَ من خان بأحبائه وأصدقائه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المنتقم لأعدائه ﴿لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ﴾ مبالغ في الخيانة سيما مع أوليائه وأحبائه ﴿كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾ مبالغ في كفران نعمه، حيث صرفها في غير محله مثل هدي الكفرة[1] وذبحهم لأصنامهم وأوثانهم.

ثم لما اشتد إضرار الكفرة بالمسلمين وامتد أذاهم عليهم ظلماً وعدواناً، أراد المؤمنون أن يقاتلوا ويشاجروا معهم، منعهم رسول الله ﷺ عن القتال والحراب بإذن الله ووحيه سبعينَ مرة لنزول سبعين آية في

---

(١) في المخطوط (هذه الكفرة).

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ....﴾

المنع عنه، وقال ﷺ في كل مرة: اصبروا حتى يأمر الله.

ثم لما شق على المسلمين ظلمهم وضررهم وصاروا مهانين صاغرين مع قدرتهم على مقاتلتهم ومدافعتهم

﴿أُذِنَ﴾ ورُخِّص من جانب الله على لسان رسوله ﷺ ﴿لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ﴾ أي يريدون القتال معهم بعدما تحملوا كثيراً من أذاهم وظلمهم، فنزلت هذه الآية للرخصة بعدما نزلت سبعون آية بعدمها، لذلك قيل نسخت هذه الآية نيفاً وسبعين، وإنما رخصهم سبحانه بها ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ﴾ أي بسبب أنهم صاروا مظلومين صاغرين عن أذى الكفار والمشركين ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ القادر المقتدر ﴿عَلَىٰ نَصْرِهِمْ﴾ أي نصر الأولياء على الأعداء ﴿لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ لينصرهم ويغلبهم عليهم، وإن كانوا أكثر منهم، وكيف لا ينتقم سبحانه عن أعدائه لأجل أوليائه؟

إذ هم ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم﴾ ظلماً وعدواناً ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ورخصة شرعية موجبة للإخراج والإجلاء ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟﴾ أي لا موجب لإخراجهم سوى قولهم هذا: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ﴾ الواحد الأحد الصمد المنزه عن الشريك والولد ﴿وَ﴾ كيف لا يدفع سبحانه شر الكفرة عن أوليائه الموحدين إذ ﴿لَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي بتسليط أهل الإيمان على المشركين

لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ

المعاندين ﴿لَّهُدِّمَتْ﴾ وخربت باستيلاء الأعداء على الأولياء ﴿صَوَٰمِعُ﴾ للرهابنة ﴿وَبِيَعٌ﴾ للنصارى ﴿وَصَلَوَٰتٌ﴾ هي كنائس اليهود ﴿وَمَسَٰجِدُ﴾ للمسلمين، إنما عد كل واحد منها ﴿يُذْكَرُ فِيهَا﴾ أي في كل واحدة منها ﴿ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ﴾ أي حيناً كثيراً وذكراً كثيراً ﴿وَ﴾ اللهِ ﴿لَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ﴾ المتكفل بعباده ﴿مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ﴾ ويعين دينه ونبيه ويصدق كتابه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلع لما في صدور عباده من الإخلاص ﴿لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ غالب قادر على الإنعام والانتقام لأوليائه من أعدائه، كما سلط ضعفاء أهل الإيمان على صناديد العرب والعجم من الأكاسرة والقياصرة، وشاع دينهم بين الأنام إلى يوم القيامة، وكيف لا ينصرهم سبحانه، إذ هم:

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ ﴾ وقدرناهم وجعلنا لهم التصرف والاستيلاء ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ المعدة للطاعات والعبادات ﴿أَقَامُوا۟﴾ وأداموا ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ والميل إلينا بجميع جوارحهم وأركانهم ميلاً مقروناً بأنواع الخضوع والخشوع والاستكانة والانكسار، تطهيراً لنفوسهم عن العتو والاستكبار، وتقريباً لهم إلينا على وجه المذلة والافتقار ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿ءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المصفية لبواطنهم عن الميل إلى زخرفة الدنيا الغدارة ﴿وَأَمَرُوا۟﴾ على من دونهم ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ المستحسن عقلاً وشرعاً ﴿وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ﴾

وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ وَقَوۡمُ لُوطٖ ﴿٤٣﴾ وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾..............

المستقبح شرعاً وعرفاً على الوجه المبين لهم من ألسنة رسلهم وكتبهم المنزلة عليهم من الله ﴿وَلِلَّهِ﴾ المدبر لأحوال عباده ﴿عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ أي مرجع جميع الأمور الجارية فيما بينهم، المتعلق بتهذيب ظواهرهم وموانع بواطنهم عن موانع الوصول إلى مرتبة التوحيد.

ثم لما تغمم رسول الله ﷺ وتحزّن من تكذيب قومه إياه ﷺ و نسبتهم له ما لا يليق بشأنه، أراد سبحانه أن يسلّي حبيبه ﷺ ويزيل عنه همه فقال:

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ ﴾ قومُك يا أكمل الرسل لا تبال بهم وبتكذيبهم ﴿ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ﴾ أي قبل أمتك ﴿قَوۡمُ نُوحٖ﴾ أخاك نوحاً عليه السلام ﴿ وَعَادٞ﴾ أخاك هوداً عليه السلام ﴿وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾﴾ أخاك صالحاً عليه السلام.

﴿وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ جدك الخليل أبا الأنبياء عليه وعليهم السلام ﴿وَقَوۡمُ لُوطٖ ﴿٤٣﴾﴾ أخاك لوطاً عليه السلام.

﴿وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَ ﴾ أخاك شعيباً عليه السلام ﴿وَ﴾ لا سيما ﴿كُذِّبَ مُوسَىٰ ﴾ يعني كذّب بنو إسرائيل أخاك موسى الكليم عليه السلام مراراً متعددة، مع أن آياته ومعجزاته من أظهر الآيات وأبهر المعجزات ﴿فَأَمۡلَيۡتُ﴾ وأمهلت ﴿ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴾ المكذبين المعاندين المستكبرين ﴿ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ﴾ بأنواع العذاب والنكال إلى أن أهلكتُهم واستأصلتُهم ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾

فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ..................

إياهم وإنكاري عليهم بعد إمهالي بأن النعمة عليهم نقمة، والمنحةَ محنة، واللذة ألماً، والفرح ترحاً، والقصور قبوراً.

ولا تتعجب يا أكمل الرسل من كمال قدرتنا وبسطتنا أمثال هذا ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾أي أهلكنا كثيراً من أهل قرية بأنواع العذاب والعقاب ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ﴾ أي أهلها خارجة عن مقتضى حدود الله فهي الآن من ظلم أهلها ﴿خَاوِيَةٌ﴾ ساقطةٌ ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي ساقطة جدرانها على سقوفها من غاية انهدامها وانتكاسها ﴿وَ﴾ كم ﴿بِئْرٍ﴾ معينة ﴿مُّعَطَّلَةٍ﴾ لا يستقى منها لهلاك أهلها ﴿وَ﴾ كم ﴿قَصْرٍ﴾ عالٍ ﴿مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ محكم أركانه وبنيانه، مجصص أساسه وجدرانه، خالٍ عن ساكنيها، غير مسكون فيها.

﴿أَ﴾ ينكرون هذه المذكورات ﴿فَلَمْ يَسِيرُوا﴾ ويسافروا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ المعدة للعبرة والاستبصار ﴿فَتَكُونَ﴾ وتحصل ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ﴾ ويعتبرون ﴿بِهَا﴾ من الوقائع الواقعة فيها للأمم الهالكة ﴿أَوْ﴾ تحصل لهم ﴿آذَانٌ﴾ وقوة استماع ﴿يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أخبارهم وآثارهم وكيفية إهلاكهم واستئصالهم ﴿فَإِنَّهَا﴾ أي شأن قصصهم ووقائعهم أنها ﴿لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ منها ؛ لأن الأبصار تشاهد آثارهم وأطلالهم

وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ ....

﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ إذ لم يعتبروا منها ولم يستبصروا ولم ينظروا إليها نظر المعتبر المتأمل والمستبصر الخبير وبالجملة من لم يعتبر بما جرى على الأمم الهالكة من الوقائع الهائلة ، فهم عميٌ قلوبهم وإن كانت أعينهم صحيحة.

وبعدما استبطأ الكفار نزول العذاب الموعود وقالوا: متى هذا الوعد، نزل:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿بِٱلْعَذَابِ﴾ الموعود على لسانك ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ﴾ الصادق في ﴿وَعْدَهُۥ﴾ الذي وعده وإن كان بعد حين، سينزل البتة ﴿وَإِنَّ يَوْمًا﴾ من أيام العذاب ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ في الدنيا في الشدة والعناء، فلا تستعجلوه يا هؤلاء الحمقى!!.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾أي من أهلها﴿أَمْلَيْتُ﴾ وأملهت ﴿لَهَا﴾ وأخّرت عنها عذابها ﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ أهلها مستحقة للعذاب أمثالكم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ بالعذاب الشديد بعدما كمل وازداد أهلها موجباته ﴿وَ﴾ لا مخلص لهم منه إذ ﴿إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ أي مرجع الكل إليّ ومنقلبهم عندي، ولا مقصد لهم غيري، وإن لم يعرفوا.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل كلاماً خالياً عن وصمة الكذب صادراً عن محض

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ ....

الحكمة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ المجبولون على الغفلة والنسيان ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ مرسلٌ من عند الله ﴿مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾﴾ مظهرٌ لكم موانعكم وعوائقكم عن طريق الحق وطريق مستقيم:

﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ منكم بالله وصدّقوا رسله وكتبه ﴿وَ﴾ مع الإيمان والتصديق ﴿عَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ المأمورة لهم على ألسنة رسلهم وكتبهم المقبولة المرضية عند ربهم ﴿لَهُم﴾ بواسطة إيمانهم وعملهم ﴿ مَّغْفِرَةٌ ﴾ ستر وعفو لما مضى من الذنوب وجرى عليه من المعاصي ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ من الصوري والمعنوي في الجنة جزاءً لإيمانهم وصالح أعمالهم

﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ ﴾ وبذلوا وسعهم وجهدهم ﴿ فِىٓ ﴾ إبطال ﴿ءَايَٰتِنَا ﴾ وردِّها وتكذيبها، ومع ذلك صاروا ﴿مُعَٰجِزِينَ ﴾ مسابقين ومبادرين إلى رد الممتثلين المصدقين بها وإنكارهم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ الأشقياء المردودون هم ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ ﴾ وملازموها لا نجاة لهم منها أصلاً.

ثم لما رأى رسول الله ﷺ إصرار قومه على الكفر وشدة عنادهم وشكيمتهم عليه وعلى دينه، تمنى أن يأتيه الله ما يقاربهم ويحببهم معه، ويزيل غيظه عن قلوبهم ويلينها ، فأنزل الله سبحانه سورة : والنجم، فقرأها فرحاً وسروراً كي يسمعوا ويميلوا إلى طريق الحق فلما وصل إلى قوله تعالى :

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ ....

﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾ [٥٣-النجم:١٩] توجهت قريش نحوه، والتفتوا إليه على وجهٍ يشعرهم التلقي والقبول، فيلهي تلقيهم الرسول ﷺ فغفل عن قلبه وشغل، ألقى الشيطان على لسانه في أثناء كلامه على مقتضى مناه ومتمناه [في الهامش: أي الشيطان] وأسمعهم الآية هكذا: تلك الغرانيق(١) العلى منهن الشفاعة ترتجى، ففرح بذلك قريش، فلم يعلم النبي ﷺ ما صدر عنه لاستغراقه في أمنيته، فوجدهم مائلين نحوه، محسنين له، وازداد تحسينهم ومحبتهم له إلى أن سجدوا في آخر السورة المؤمنون والمشركون جميعاً، فسَرَّ هذا رسول الله ﷺ وسرَّت قريش منه ومن كلامه ﷺ، حيث قالوا: إن محمداً قد ذكر شفعاءنا بالخير.

فجاء جبريل عليه السلام فأخبر بما صدر عنه من تخليط الوحي بغير الوحي، فاغتم رسول الله ﷺ أشد اغتمام، وخاف خوفاً شديداً من غِيرة الله وقهره، فأنزل الله سبحانه تسلية لرسوله ﷺ وإزالة لخوفه:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مِن رَّسُولٖ﴾ ذي وحي وشرع وكتاب ﴿وَلَا نَبِيٍّ﴾ ذي وحي ومنام أو إلهام، له شرع وكتاب أو شرعه بُعث لترويج شرع غيره من الأنبياء والرسل وكتبهم ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ وطلب شيئاً أحب وقوعه من تلقاء نفسه بلا ورود وحي عليه وتمنى من الله أن ينزل عليه من الآيات مناسباً لما أمِلَه وأحبه ﴿أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ من تسويلاته وتغريراته

---

(١) هذه القصة مردودة عند المحققين.

فِىٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِى ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٢﴾ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ ....

﴿فِىٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ ومبتغاه فيلهيه عن نفسه ويخلط بالوحي من تسويلاته، ثم بعدما تنبه وتذكر ورجع إلى الله متندماً تائباً آيباً ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ﴾ المؤيدُ لأنبيائه الحفيظُ عليهم ﴿مَا يُلۡقِى ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ ويزيله ﴿ثُمَّ﴾ بعدما أزال ونسخ سبحانه ما خلط الشيطان وأدخله في خلال الوحي من تلبُساته ﴿يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ﴾ المنزلة من عنده، ويخبر بها، ويفصلها إحكاماً تاماً وإتقاناً محكماً ﴿وَٱللَّهُ﴾ المدبر لأحوال عباده واستعداداتهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بما أنزل عليهم بما يناسب استعدادهم ﴿حَكِيمٞ ﴿٥٢﴾﴾ في إنزاله وتدبير مصالحهم، فإن توهم أن الله قادرٌ على محافظة أنبيائه ورسله، سيما نبينا ﷺ من إلقاء الشيطان وتغريره وتخليطه إياهم أول مرة، فلِمَ لَمْ يحفظهم من إلقائه حتى لا يصدر عنهم ما صدر ثم نُسخ؟

قِيل: إنما لم يحفظهم سبحانه أول مرة

﴿لِّيَجۡعَلَ﴾ سبحانه ﴿مَا يُلۡقِى ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ في أثناء الوحي ﴿فِتۡنَةٗ﴾ وابتلاء ﴿لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ ميلٌ عن الحق وانحرافٌ عن طريقه، هل يعرفون ويميزون كلام الحق من تسويلات الشياطين أم لا؟ ﴿وَ﴾ لا سيما المرضى ﴿الْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ عن أن يسع فيها كلام الله، وهم المشركون الذين ختم الله على قلوبهم وعلى أبصارهم، وعلى سمعهم غشاوةٌ عظيمة وغطاء غليظ،

وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ

تعميهم عن آيات الله وإدراك مقاصده وبالجملة إن الظالمين المتجاوزين عن مقتضى العقل والشرع لاتخاذهم الجمادات التي نحتوها بأيديهم شركاء لله شفعاء عنده ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ﴾ خلاف وجدال ﴿بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ عن الحق بمراحل، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ اللدني من دون الله ووُفِّقوا من عنده لقبول أحكامه ﴿أَنَّهُ﴾ أي القرآن وآياته المشتملة على الأوامر والنواهي والأحكام والمعارف والحقائق، أو إقداره سبحانه على الشيطان بإلقائه المذكور افتناناً منه سبحانه وابتلاء ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الثابت المحقق النازل ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ﴾ أي بالله بإنزاله القرآن أو بإقداره على الشيطان أن يلقي على لسان أنبيائه اختباراً لعباده ﴿فَتُخْبِتَ﴾ وتطمئن ﴿لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ﴾ ويزداد وثوقهم، وصاروا على خطر عظيم واحتياط بليغ ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ وأخلصوا بلا شوب شكٍ وترددٍ ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ موصل إلى توحيده بلا عوج وانحراف.

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله وانصرفوا عن مقتضيات آياته الكبرى لمرض صدورهم وعمى قلوبهم ﴿فِى مِرْيَةٍ﴾ أي شك وارتياب ﴿مِّنْهُ﴾

حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ ....

أي من القرآن أو من ابتلاء الله إياهم بإلقاء الشيطان ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي أشراطها وأماراتها ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة، وهم في ريبهم يترددون ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾ هو عذاب يوم القيامة، وصفه بالعقم ؛ لأنه لا يقبل فيه توبة ولا إيمان ولا شفاعة، كأنه عقيم لا يلد لهم خيراً ولا يثمر فيها عملهم ثواباً ولتوبتهم قبولاً، وكيف يقبل فيه منهم التوبة والاستغفار وينفعهم الإيمان؟

إذ ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ والتصرف ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي بعد انقضاء دار الابتلاء والاختبار ﴿لِّلَّهِ﴾ المستقل بالألوهية والربوبية والتصرف مطلقاً، وإن كان في النشأة الأولى أيضاً كذلك، إلا أنه سبحانه أقدرهم على الإطاعة والانقياد، كما أقدرهم على الإنكار والعناد لِحِكَم ومصالح إذ هي دار الفتن والابتلاء والاختبار، وبعد انقضائها لا يقبل منهم جبرُ ما فوتوا على نفوسهم في تلك النشأة بل ﴿يَحْكُمُ﴾ سبحانه بحكمه المبرم ﴿بَيْنَهُمْ﴾ على مقتضى علم منهم، إن خيراً فخير وإن شر فشراً ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله على وجه الإخلاص والإخبات ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿عَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ المترتبة على الإيمان واليقين، هم في النشأة الأخرى ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾﴾ دائمين فيها مقيمين، لا يتحولون إلى ما هو أدنى، بل يترقونه إلى الأعلى حتى يفوزوا بشرف اللقاء .

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ
هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا
حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾﴾ ....

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالله فيها ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ المنزلة على رسلنا لبيان توحيدنا ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الأشقياء المكذبون المردودون ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾ لإهانتهم أنبياء الله ورسله وما نزل عليهم من الآيات، ثم قال سبحانه:

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ وتركوا مضيق الإمكان ساكنين ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ طالبين فضاءً به الوجوب والفناء فيه ﴿ثُمَّ قُتِلُوٓاْ﴾ على يد الغفلة الجهلة عن توحيد الله واستقلاله في الوجود ﴿أَوْ مَاتُواْ﴾ بالموت الاضطراري حتف أنوفهم بعدما خرجوا عن مقتضيات الحياة الصورية بالموت الإرادي ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ﴾ المنعم المفضل ﴿رِزْقًا حَسَنًاۚ﴾ حقيقياً من لدنه تفضلاً عليهم وامتناناً، وكيف لا يرزقهم مع أنهم أولياؤه وهو رازقٌ لأعدائه أيضاً ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ المتجلي في الآفاق، المتكفل لأرزاق من عليها وما عليها ﴿لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾﴾ ممن ينسب إليهم الرزق مجازاً، إذ مرجع الكل إليه ومبدؤه منه وتوفيقهم بيده، وهم تحت ظله وفعلهم حقيقةً منسوب إليه.

وبعدما رزقهم الله بالرزق المعنوي بدل ما جاهدوا في سبيله من تحمل المشاق والمتاعب في الانقطاع عن مألوفات بقعة الإمكان ومطبوعات

لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ....

نفوسهم وهوياتهم من اللذات والشهوات البهيمية.

﴿ لَيُدْخِلَنَّهُم﴾ سبحانه بفضله وسعة جوده ﴿ مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ﴾ أي مسكناً ومقاماً يرضون منه نفوسهم بدل ما يتركون من البقاع والديار والقصور المشيدة المرتفعة ألا وهي المكاشفات والمشاهدات الواردة عليهم من الاطلاع على سرائر الأسماء والصفات الإلهية والواردات الغيبية من عالم اللاهوت ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ المدبر لأمور عباده ﴿ لَعَلِيمٌ﴾ بمصالحهم وما يستدعي استعداداتهم ﴿ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ يفعل معهم ما يرضى به استعداداتهم ويسع له قابلياتهم.

﴿ ۞ ذَٰلِكَ﴾ أي الأمر والشأن ذلك المذكور لمن هاجر إلى الله طالباً لقياه، خالصاً لوجهه الكريم ﴿وَمَنْ عَاقَبَ﴾ ظالمه يوماً غلب عليه، وأراد أن ينتقم عنه ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ أي بمقدار ظلمه بلا زيادة عليه ولا نقصان ﴿ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ﴾ أي غلب الظالم على المظلوم المنتقم كرة أخرى، وأراد أن يظلم عليه ثانياً ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ﴾ العزيز المنتقم في الكرّة الثانية أيضاً ما لم يتجاوز عن حد الانتقام، ولا ينظر سبحانه إلى اجترائه إلى الانتقام ويتركه ما هو الأولى وهو العفو عند القدرة وكظم الغيظ لدى الفرصة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلع لمقتضيات استعداد عباده ﴿لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾ لما صدر عنهم من المبادرة إلى الانتقام لدى القدرة.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ....

﴿ذَٰلِكَ﴾ النصر على من ظُلم ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي بسبب أن الله المستوي على القسط القويم ﴿يُولِجُ﴾ ويدخل ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ المظلم ﴿فِي ٱلنَّهَارِ﴾ المضيء ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ﴾ المضيء ﴿فِي ٱلَّيۡلِ﴾ المظلم على التدريج ليعتدلا ويعتدل من ظهر وما ظهر كرهما وتجددهما ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ المدبر لمصالح مظاهره بالحكمة المتقنة ﴿سَمِيعُۢ﴾ يسمع ما هو من قبيل المسموعات من الوقائع التي أدركها السمع ﴿بَصِيرٞ ﴿٦١﴾﴾ يبصر ما هو من قبيل المبصرات من الحوادث المدركة بالبصر.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي سمعه للمسموعات وإبصاره للمبصرات ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ المتجلي في الآفاق ﴿هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ المقصور على التحقق والثبوت بالاستحقاق الواجب وجوده بلا ارتياب الممتنع نظيره على الإطلاق ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ﴾ أيها المشركون ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ من الآلهة الباطلة ﴿هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ المقصور على العدم والبطلان، لا وجود لهم فكيف ألوهيتهم، والإله لا بد وأن يكون واجب الوجود، ثم ما يترتب عليه من الأوصاف الذاتية والأسماء الإلهية فهم معزولون عن الوجود فكيف عن لوازمها ﴿وَ﴾ اعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ المتردي برداء العظمة والكبرياء، المتعزز بالمجد والبهاء، المتوحد بالقيومية والبقاء الأبدي ﴿هُوَ ٱلۡعَلِيُّ﴾ بذاته

ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ

المتعالي عن أن يصفه ألسنة العقلاء، ويعرب عنه أفهام العرفاء ﴿ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ المتكبر في شأنه جل جلاله عن أن يحيط به وبأوصافه وأسمائه شيء من مظاهره ومصنوعاته.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ المتخصص بالآثار البديعة والصنائع العجيبة الغريبة ﴿أَنزَلَ﴾ بعد تصعيد الأبخرة والأدخنة وتركيبها وتراكبها ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي جانبها ﴿مَآءً﴾ مصفى على الأرض ﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ بعدما كانت هامدة يابسة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المدبر بالتدابير الباهرة ﴿لَطِيفٌ﴾ دقيق رقيق، علمه متعلق برقائق المعلومات ودقائقها ﴿خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾ لا يعزب عن خبرته شيء مما دق وغلظ.

وكيف يعزب عن حيطة علمه شيء من المعلومات

إذ ﴿لَّهُۥ﴾ ملكاً وتصرفاً وإظهاراً وخلقاً ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي العلويات من الكوائن والفواسد ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي السفليات مثلها ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ المتجلي على عموم ما ظهر وبطن ﴿لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ بذاته عن جميع مظاهره وأظلاله ﴿ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾ بآثار أوصافه وأسمائه

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ المتكفل لأمور عباده[1] كيف ﴿سَخَّرَ لَكُم﴾ ولترتيب معاشكم ﴿مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الحيوانات التي تأكلون منها

---

(١)في المخطوط (المكفل لأمور عباده).

وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ ....

وتزرعون بها وتركبون عليها وتحملونها في البر ﴿وَ﴾ سخر لكم ﴿ٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ وعلى مقتضى مشيئته وإرادته حيث سقتم وأجريتموها حسب مرامكم تتميماً لأمور معاشكم ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ﴾ معلقاً على الهواء بلا عمدٍ كراهة ﴿أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ فيختل أمور معاشكم بوقوعها على الأرض، وإن كان لم يضركم لأنها أجرام في غاية الخفة واللطافة، بل انسد من وقوعها إنزال المطر المقوي لإنبات الأقوات، إذ من شأنها الوقوع لولا إمساكه سبحانه إياها[1] ﴿إِلَّا﴾ أن تقع عليها ﴿بِإِذْنِهِۦٓۗ﴾ تعالى وتعلق مشيئته بوقوعها، وذلك يوم القيامة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المدبر لمصالح عباده ﴿بِٱلنَّاسِ﴾ المجبولين على الكفران والنسيان ﴿لَرَءُوفٌ﴾ مشفق عطوف ﴿رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾ لهم يعفو عنهم زلتهم ويرزقهم من حيث لا يحتسب.

﴿وَ﴾ كيف لا يرحمكم ولا يرأف عليكم سبحانه ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَحْيَاكُمْ﴾ في النشأة الأولى وأظهركم من كتم العدم بلا سبق مادة ومدة ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ إظهاراً لقدرته وبسطته ومقتضيات جلاله وقهره ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْۗ﴾ في النشأة الأخرى لتوفية الجزاء على ما أمركم به في النشأة الأولى ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ المركب من النسيان ﴿لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾ لأنواع نعم الله عليه.

---

(١)في المخطوط (لو أسماكه سبحانه إياها).

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ
رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ
﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾

ومن جملة إنعامنا عليه:

إنا ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم ﴿جَعَلْنَا﴾ أي عيَّنا وهيأنا ﴿مَنسَكًا﴾ معيناً ومقصداً مخصوصاً ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ أي ينسكون ويتقربون فيه إلينا بالقرابين والهدايا ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿فِي ٱلْأَمْرِ﴾ الذي كنت عليه من الذبح وغيره من الشعائر المتعلقة بأمور الدين ومعالم الهدى واليقين ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ﴾ توحيد ﴿رَبِّكَ﴾ حسب ما أُمرت ﴿إِنَّكَ﴾ في دعوتك إلى الحق ﴿لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ أي طريق واضح سويّ موصل إلى التوحيد الذاتي بلا عوج وانحراف.

﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾ في أمرك هذا ودعوتك هذه عناداً ومكابرة، فلا تلتفت إليهم ولا تقابلهم ﴿فَقُلِ ٱللَّهُ﴾ المطلع لخفايا الأمور وسرائرها ﴿أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾﴾ بمقتضى أهوية نفوسكم، فيجازيكم على مقتضى علمه وخبرته.

وإن ألجأتموني إلى الخصومة، فـ ﴿ٱللَّهُ﴾ المطلع لضمائر كلا الفريقين ﴿يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ وبيني ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾ معي من شعائر ديني وعلامة هدايتي ويقيني.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾ ....

﴿أَ﴾ تنكر أيها المنكر إحاطة علم الله بجميع المعلومات ﴿لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ المتجلي لجميع ما ظهر وبطن ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾ من الأمور الكائنة والفاسدة فيها، لا يعزب عن علمه شيء، وكيف لا يعلمها سبحانه ﴿إِنَّ﴾ جميع ﴿ذَٰلِكَ﴾ مثبتٌ مسطورٌ ﴿فِى كِتَٰبٍ ۚ﴾ هو لوح قضائه وحضرة علمه، ولا تستبعد أمثال هذا عن جنابه ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الاطلاع على الوجه المذكور ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ المتصف بجميع أوصاف الكمال ﴿يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿وَ﴾ هم بسبب إنكارهم إحاطة علم الله ﴿يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ المستحق للعبادة[1] بالاستحقاق ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ أي أصناماً وأوثاناً، لم ينزل سبحانه على استحقاقهم العبادة برهاناً من عند الله ليكون لهم حجة دالة على مدعاهم ﴿وَ﴾ أيضاً يعبدون ﴿مَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ﴾ أي دليلٌ عقلي دالٌ على لياقتها واستحقاقها للعبادة والانقياد، بل يعبدونها ظلماً وزوراً بلا مستند عقلي ونقلي ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ المتجاوزين عن مقتضى العقل والنقل ﴿مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾ ينصرهم ويستدفع عنهم عذاب الله أو يستشفع لهم عنده سبحانه بتخفيفه عنهم.

(١) في المخطوط (المستحق بالعبادة).

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ....

﴿وَ﴾ من غاية ظلمهم وخروجهم عن حدود العقل والنقل ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ الدالة على توحيد ذاتنا وكمال أسمائنا وصفاتنا مع كونها ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات الدلالات ﴿تَعْرِفُ﴾ وتبصر أيها الرائي ﴿فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بها ﴿ٱلْمُنكَرَ﴾ أي علامات الإنكار وأمارات العتو والاستكبار بحيث ترونهم من شدة شكيمتهم وغيظهم المفرط ﴿يَكَادُونَ﴾ ويقربون ﴿يَسْطُونَ﴾ يبطشون ويأخذون ﴿بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ هم النبي ﷺ وأصحابه غيظاً عليهم، وعلى ما جرى على ألسنتهم ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل على سبيل التوبيخ والتقريع ﴿أَ﴾ تنقبضون وتضجرون عن استماع هذه الآيات العظام وتتشاءمون[1] من سماعها ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ وأخبركم ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ﴾ الآيات، هي أشد غيظاً وأكثر تضجراً منها ألا هي ﴿ٱلنَّارُ﴾ التي ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بسبب كفرهم وضلالهم ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾ النار لأصحاب الضلال والإنكار.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ الذين جبلوا على الغفلة والنسيان والجهل والطغيان عن عظمة الله وحق قدره، لذلك أثبتُّم له أمثالاً وأشباهاً مع تعاليه وتنزهه في ذاته عنها، اسمعوا: ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ في حق شركائكم ومعبوداتكم ﴿فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾

(١) في المخطوط (وتتشأمون).

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ..

سمع تدبر وتأمل، ثم أنصفوا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ وتعبدون أيها المدَّعون المكابرون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ القادر بجميع المقدورات بالعلم التام والإرادة الكاملة والحكمة المتقنة ﴿لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا﴾ بل لن يقدروا على خلق أحقر منها وأخس، لا كل واحد منهم فرادى بل ﴿وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ أي لخلق الذباب وتظاهروا لإيجاده مجتمعين لن يقدروا أيضاً، وكيف خلْقُ الذباب وإظهاره ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ﴾ ويأخذ منهم ﴿ٱلذُّبَابُ﴾ الحقير الضعيف ﴿شَيْـًٔا﴾ من الآلهة الباطلة من حليهم وتزييناتهم ﴿لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ ولا يقدروا على أن يخرجوه من يده لعجزهم وعدم قدرتهم، فكيف تعبدون أيها الحمقى العابدون أولئك الهلكى العاجزين الساقطين؟!! فظهر للمتأمل المتدبر أنه ﴿ضَعُفَ﴾ أي انحط وسقط عن زمرة العقلاء ورتبتهم ﴿ٱلطَّالِبُ﴾ العابد الجاهل ﴿وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ المعبود المجهول المنحط عن رتبة أحقر الأشياء وأخسها فكيف عن أعلاها؟! فكيف عن خالقها وموجدها؟!! تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

كل ذلك بواسطة أنهم ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ﴾ القادر المقتدر على جميع المقدورات والمرادات وما علموه ﴿حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ كما هو اللائق بشأنه، وما عرفوه حق معرفته لذلك ما وصفوه حق وصفه، ونسبوه إليه سبحانه ما

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٧٥﴾﴾ ....

لا يليق بجنابه جهلاً وعناداً، وأثبتوا له شركاء عاجزين من أضعف الأشياء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المتردي برداء العظمة والكبرياء ﴿لَقَوِيٌّ﴾ في ذاته لا حول ولا قوة إلا به ﴿عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ غالبٌ في أمره وحكمه، متصرف مستقل في ملكه وملكوته، يفعل بالإرادة والاختيار، ويحكم ما يريد، لا راد لفعله، ولا معقب لحكمه.

ومن علو شأنه وسمو برهانه وكمال قوته وعزته يُتوسل إليه ويُتوصل نحوه بوسائل ووسائطَ اختاره الله واجتباه من بين بريته لإهداء التائهين في بيداء ألوهيته إلى زلال توحيده على مقتضى سنته وجري حكمته، كما بيَّن في كتابه حيث قال:

﴿ ٱللَّهُ﴾ العلي المتعال ذاته عن أن يكون شرعة كل وارد، أو يطلع على سرائر أسمائه وصفاته واحدٌ بعد واحدٍ، بل ﴿يَصۡطَفِي﴾ ويختار ﴿مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ المقربين عنده ﴿رُسُلٗا﴾ يرسلهم إلى خواص البشر وخلص العباد ﴿وَ﴾ أيضاً يصطفي ويختار ﴿مِنَ﴾ خيار ﴿ٱلنَّاسِۚ﴾ رسلاً يرسلهم إلى عموم عباده بالنبوة والرسالة ليرشدوهم إلى توحيده سبحانه ويهدوهم إلى سواء طريقه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلع لاستعدادات عباده ﴿سَمِيعُۢ﴾ يسمع أقوالهم ومناجاتهم ويقضي حاجاتهم ﴿بَصِيرٞ ﴿٧٥﴾﴾ يبصر أعمالهم وأفعالهم ويجازيهم عليها، لأنه:

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ....

﴿يَعْلَمُ﴾ سبحانه بعلمه الحضوري ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ حالاً ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ماضياً واستقبالاً ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ الذي بدأ منه ما بدأ ﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾ الكائنة أزلاً وأبداً، ظاهراً وباطناً، حالاً ومآلاً، دنياً وآخرة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بتوحيد الله ورجوع الكل إليه أولاً وبالذات ﴿ٱرْكَعُوا۟﴾ نحوه خاضعين منكسرين ﴿وَٱسْجُدُوا۟﴾ له متذللين متواضعين ﴿وَٱعْبُدُوا۟﴾ بجميع أركانكم وجوارحكم ﴿رَبَّكُمْ﴾ الذي رباكم بأنواع النعم كي تعرفوا ذاته حسب استعداداتكم، وتشكروا نعمه وحقوقَ كرمه مقدارَ وسعكم، وتعبدوه حق عبادته قدر طاقتكم ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿افْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾ على وجه أمرتم به طلباً لمرضاته، واحذروا[1] الشر خوفاً من سخطه وحلول غضبه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾ وتفوزون بما وُعدتم من الجنة المأوى وشرف اللقيا فيها.

وفقنا بفضلك وجودك على ما تحب منا وترضى.

﴿وَ﴾ بعد ما سمعتم ما سمعتم من علو شأنه سبحانه وكمال عظمته وكبريائه ﴿جَاهِدُوا فِى ٱللَّهِ﴾ واجتهدوا في سبيل توحيده ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ أي ابذلوا وسعكم وطاقتكم في سلوك طريق التوحيد، مرابطين قلوبكم

---

(١) في المخطوط (واحذروا عنه الشر).

هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ ....

إلى الله، باذلين مهجكم في الفناء فيه، وكيف لا تجاهدون وترابطون[1] أيها المائلون إلى الله بالميل الحبّي الشوقي مع أنه ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ واصطفاكم من بين البرايا لإدراك توحيده والاتصاف بعرفانه، وأرسل عليكم الرسل وأنزل عليكم الكتب ليرشدوكم إليه، ويبينوا لكم طريق توحيده بوضع المناهج والشرائع الموصلة إليه والأديان المثمرة له ﴿وَمَا جَعَلَ﴾ سبحانه ﴿عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ﴾ الموضوع فيكم ﴿مِنْ حَرَجٍۚ﴾ ضيق وعسر خارج عن وسعكم وطاقتكم، بل وسّع سبحانه عليكم أمر دينكم بأن جعل ملتكم ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ﴾ صلوات الرحمن عليه، إذ لا ضيق فيه ولا حرج.

أضاف أبوة إبراهيم إلى الأمة من أجداد الرسول عليه السلام والرسول أب لهم إذ رسول كلِّ أمة أبٌ بالنسبة إلى أمته، بل هو خير الآباء ؛ لإرشادهم إلى طريق الحق ولا معنى للأب إلا المرشد المربي. وكما جعل سبحانه ملتكم ملة إبراهيم ﴿هُوَ﴾ بذاته ﴿سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ في كتبه السالفة حيث قال سبحانه: من يؤمن ويصدق بمحمد خاتم النبوة والرسالة يصير مسلماً ﴿وَفِي هَٰذَا﴾ الكتاب بيَّنَ التسمية على وجه التسليم فسماكم فيه أيضاً: مسلمين ضمناً، وإنما سماكم مسلمين، مسلِّمين منقادين ﴿ لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ﴾ الذي هو أكمل الرسل وأفضل الأنبياء ﴿شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ شاهداً

(١) في المخطوط (يجاهدون ويرابطون).

وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

على انقيادكم وتسليمكم في يوم الجزاء، فتكونوا أفضل الأمم وأشرف الفرق وبواسطة كونكم أمته وزمرته وتحت لوائه ﴿وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى﴾ عموم ﴿ٱلنَّاسِ ۚ﴾ بتبليغ الرسالة إليهم وإظهار الدعوة لهم، وإذا كنتم خير أمة وأشرفَ طائفة ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وأديموا الميل والتوجه نحو الحق بجميع الجوارح والأركان تقرباً إليه شوقاً وتحنناً ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المسقطة لميلكم إلى زخرفة الدنيا وحطامها ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿اعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ في كل الأحوال، واثقينَ بفضله وجوده، وفوضوا أموركم كلها إليه، متوكلين عليه ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ﴾ أي ناصركم ومعينكم ومولّي أموركم ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ الولي المعين ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ الناصر المعين، ذو القوة المتين، حسبنا الله ونعم الوكيل.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك المجاهد في سبيل الله أعداءَ الله وموانعَ الوصول إلى توحيده: أن تجاهد أولاً مع نفسك التي بين جنبيك، إذ هي من أعدى عدوك وأشد صولة واستيلاء إلى مملكة باطنك وقلبك الذي هو مخيم سرادقات سلطان الوحدة ومحل نزول قهرمان العزة ومهبط الوحي الإلهي والوارد الغيبي، فلك أن تزيل صولتها وتشتت شملها وتفرق جمعها التي

هي جنودها وأعوانها من القوى الشهوانية والغضبية، وجميع الأوصاف البهيمية المتداعية إلى تخريب القلب وتعمير النفس الأمّارة بالسوء وتقويتها وتقويمها، إذ عداوتها ومنعها ذاتية حقيقية وبلا واسطة، وعداوةُ سائر الموانع بواسطتها.

وإياك إياك الإطاعة والانقياد إليها، فإنها تشغلك عن الحق، وتضلك عن سبيله وتغريك إلى الباطل وتقودك إلى طريقه.

فاعلم أيها المجاهد الطالب للغلبة على جنود النفس الأمارة أنه لا يمكن لك هذا إلا بالاعتزال عن إقطاع الشيطان ومهلكة النفس ومشتهياتها ومستلذاتها بالكلية، والتشمر نحو الحق بالعزيمة الخالصة عن الرياء والرعونات والانخلاع عن مقتضيات الأوصاف البشرية بالإرادة الصادقة، والتوجه نحو الوحدة الذاتية عن طريق الفناء بإسقاط الإضافات المشعرة لتوهم الكثرة.

وبالجملة لا يتم سلوك السالك في طريق التوحيد إلا بالفناء في الله والبقاء ببقائه.

ربنا هب لنا من لدنك جذبة تنجينا عن مضائق هوياتنا، وتوصلنا إلى فضاء توحيدك بمنك وجودك.

سُورَةُ المُؤمِنُونَ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة المؤمنين

لا يخفى على المؤمنين المفلحين، العابرين بالدرجة العليا والمرتبة السنية من مراتب التوحيد المنتظرة لأرباب الولاء، الوالهين في سر سريان الوحدة الذاتية وكيفية امتدادها وانبساطها على هياكل التعينات وتماثيل الهويات العدمية، المنصبغة بصبغ الوجود الفائض من التجليات الذاتية والشؤون الصفاتية، المتشعشة من الذات لإظهار الكمالات المندمجة فيها أنّ ترقيَ المؤمن الموقن بالتوحيد الذاتي من حضيض البشرية المتصنعة بالأوصاف الناسوتية والتطورات الطبيعية إلى ذروة الشؤون الذاتية اللاهوتية المنعكسة من الأسماء الذاتية الإلهية إنما هو بالميل المقارن بالخشوع والخضوع والتذلل التام والانكسار المفرط المسقط لِلَوازم الأنانية المبعدة عن الحق والإعراض عن فرطات الألحاظ والألفاظ والتطهر عن زخرفة الدنيا المانعة من الوصول، وكذا عن جميع الأوصاف البهيمية من الغضبية والشهوية إلا مقدار ما تقتضيه الحكمة الإلهية من الإبقاء والاستغناء، فمن تعدى وتجاوز عنه، فقد لحق بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾..............

وبالجملة لا بد للقاصد نحو الحق من الميل الخالص الدائم والتوجه التام نحوه مع الانخلاع عن لوازم ناسوته، متدرجاً في أفنائها إلى أن يفنى عن الفناء والإفناء أيضاً حتى يمكن له الوصول إلى فضاء اللاهوت وسعة حضرة الرحموت، حين انقطع السير وارتفع الغير، ولم يبق إلا خير في خير، ألا أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

لذلك أخبر سبحانه حبيبه ﷺ عن أحوال المؤمن الموقن وأوصافه وترقيه فيها، فقال متبركاً باسمه العلي الأعلى:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ الذي أفاض على أرباب الإيمان بعد رسوخهم وتمكنهم فيه كرامة التوحيد والعرفان من ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ عليهم يوفقهم على أنواع الطاعات وأصناف الخيرات والمبرات الموصلة إلى درجات الإحسان ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ لهم ينجيهم عن دركات النيران ويوصلهم إلى أعلى طبقات الجِنان.

﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ وفاز بمرتبة حق اليقين التي هي أعلى مراتب التوحيد ومنتهى السلوك ومنقطع الطلب والعرفان ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ الراسخون في اليقين العلمي، الجازمون الثابتون فيه بلا تزلزلٍ وتلوينٍ.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ﴾ من كمال رسوخهم وشدة تمكنهم وجزمهم ﴿فِي صَلَاتِهِمْ﴾ التي هي معراجهم للوصول إلى مرتبة الرضا والقبول ﴿خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ مخبتون متضرعون متحننون نحو الحق عن ظهر القلب وجميع الجوارح والأركان بلا تلعثم وعثور.

وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾
وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ
فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾
وَٱلَّذِينَ هُمْ ....

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ﴾ المشغل لهم عن التوجه نحو الحق ﴿مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ منصرفون إعراضهم وانصرافهم عما تستكرهه نفوسهم وقلوبهم.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ﴾ المطهرة لنفوسهم عن الميل نحو حطام الدنيا ومتاعها الفانية ﴿فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾﴾ تمريناً لنفوسهم على ترك الميل والالتفات إليها.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ﴾ التي هي مواريث بهيميتهم وأقوى قوائم بشريتهم ﴿حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾﴾ ناكثون عن مقتضاها، راكنون عما أملها وتهويلها.

﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ من الإماء والسراري حفظاً لحكمة إبقاء النوع ومصلحة التناسل ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾﴾ على ذلك إن فعلوا بلا مبالغة مفرطة زائدة عن قدر الحاجة.

﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ وطلب التجاوز والتعدي عن قدر الحاجة من الحلائل المذكورة ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ البعداء الخارجون عن مقتضى الحد الإلهي والحكمة المتقنة ﴿هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾﴾ المقصورون على التجاوز والعدوان لا يرجى منهم الفلاح والفوز بالنجاح.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ﴾ من كمال عدالتهم وقسطهم الفطري واعتدال أوصافهم

لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾
أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾

وأخلاقهم الصورية والمعنوية ﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمْ﴾ التي ائتمنوا عليها ﴿وَعَهْدِهِمْ﴾ الذي عهدوا به سواء كانت الأمانة والعهد لله أو لسائر عباده ﴿رَٰعُونَ ﴿٨﴾﴾ قائمون بحفظها مواظبون لرعاية حقها بلا فوت شيء من حقوقها ورعايتها.

﴿وَ﴾ بالجملة المؤمنون المفلحون الفائزون بالعاقبة الحميدة التي هي مرتبة الكشف والشهود المعبر عند أرباب المحبة والولاء بالحق اليقين ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ﴾ المقربة لهم إلى ربهم، الفاصلة بين مرتبتي الناسوت واللاهوت ﴿يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ أي يداومون ويواظبون لأدائها بأوقاتها وبشرائطها وآدابها، مع ما ذكر من الأوصاف الجميلة المذكورة والأخلاق المرضية المشكورة، مخلصين فيها، مجتنبين عن الرياء والرعونة والعجب والسمعة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله ﴿هُمُ﴾ الأولياء ﴿ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾﴾ عن الأنبياء والرسل وصفوة عباد الله وخيرتهم وهم:

﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ الذي هو التحقق بمقام الكشف والشهود باستحقاقهم الذاتي مع استرشادهم واستفادتهم من الأنبياء والرسل الهادين المهديين المرشدين لهم إلى ما جبلوا لأجله لذلك ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ متمكنون متقربون، لا يتحولون ولا يتبدلون.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ....

﴿وَ﴾ كيف لا يرثون الفردوس ولا يخلدون فيها مع أنهم جبلوا لأجلها، سيما إذا كملوا سلوكهم وتمموا نسكها على الوجه الذي هداهم الأنبياء والرسل والأولياء الراشدون الذين هم خلفاء عن الرسل الكرام والأنبياء العظام عليهم التحية والسلام إذ ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ أي أظهرنا وقدّرنا جسم آدم وبنيه أولاً ﴿مِن سُلَـٰلَةٍ﴾ أي زبدة وخلاصة منتخبة ﴿مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ الذي هي مادة جميع الأجسام السفلية وأقوى عناصرها وهيولاها.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ﴾ وصيرناه أي ما انتخبنا من الطين ﴿نُطْفَةً﴾ بيضاء وقررناها زماناً ﴿فِى قَرَارٍ﴾ ومستقر ﴿مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾ حصين متين هي الرحم ﴿ثُمَّ﴾ بعد ما مكناها في المقر المكين مدة:

﴿خَلَقْنَا﴾ وصيرنا ﴿ٱلنُّطْفَةَ﴾ المقررة المتمكنة في الرحم ﴿عَلَقَةً﴾ أي لحماً متصلاً ملتصقاً أجزاؤها إلى حيث صارت قابلة للمضغ ﴿فَخَلَقْنَا﴾ بعد ذلك ﴿ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ المتلصقة المتصلة بعد انفصالها وتفريقها التقديري ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا﴾ صلبةً خارجة عن قابلية المضغ والتليين، متقومة غير مائلة لتكون قوائم وأعمدة للجسم ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ﴾ الصلبة القابلة للكسر والانكسار ﴿لَحْمًا﴾ صوناً لها عما يضرها ويكسرها، فتم حينئذٍ تركيب صورته الجسمية وقالب الطبيعية بجميع لوازمها ومتمماتها

ثُمَّ أَنشَأْنَهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ
لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ

من العروق والعظام والأعصاب والغضاريف والشريانات وغيرها ﴿ثُمَّ﴾ بعد ما تم تركيبه وكمل مزاجه وتصويره على أبدع وجه وأعجبه، وصار حيواناً حساساً متحركاً بالإرادة كسائر الحيوانات ﴿أَنشَأْنَهُ﴾ أي أبدعناه واخترعنا فيه خاصة ﴿خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ إبداعياً مخصوصاً بهذا الجسم بين سائر الأجسام، وهو نفخنا فيه من روحنا ليتصف بأوصافنا ويتخلق بأخلاقنا ويستحق بخلافتنا ونيابتنا، ويليق لأن يصير مرآة لنا قابلة لانعكاس أظلال أسمائنا الحسنى وأوصافنا العليا ﴿فَتَبَارَكَ﴾ أي تعالى وتعاظم ﴿ ٱللَّهُ﴾ القادر المقتدر بالقدرة الكاملة على أمثال هذه التبدلات والتطورات التي تحيرت العقول عندها، وانحسرت الأفهام دونها، وهو في ذاته ﴿ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ المقدرين تقديراً وخلقاً، وأتمها إبداعاً واختراعاً لو فرض مقدرٌ غيره، مع أنه محال عقلاً وعادة.

﴿ ثُمَّ إِنَّكُم﴾ يا بني آدم ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي بعدما أتم صوركم ومعناكم ﴿لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾﴾ بالآجال المقدرة من عندنا لانقضاء حياتكم في النشأة الأولى.

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ المعدة للعرض والجزاء ﴿تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ وتحشرون لانتقاد ما اكتسبتم في النشأة الأولى.

ثم أخذ سبحانه في تعداد نعمه على عباده تفضلاً عليهم وامتناناً فقال:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ﴾ أي جانب علوكم

سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ ....

﴿سَبْعَ﴾ سموات ﴿طَرَآئِقَ﴾ أي متطارقة متطابقة بعضها فوق بعض، مشتملة على كواكب لا في السفليات من الأشياء المتعلقة لمعاشكم ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَا كُنَّا﴾ في حال من الأحوال السابقة واللاحقة ﴿عَنِ ٱلْخَلْقِ﴾ أي عن جميع المخلوقات المستندة إلينا، الظاهرة من امتداد أظلالنا ﴿غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ ذاهلين عن حفظها وتفقدها.

﴿وَ﴾ من كمال جودنا ووفور رحمتنا إلى عموم عبادنا ﴿أَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ بعدما أصعدنا الأبخرة والأدخنة من الأرض، وركبناها تركيباً أنيقاً عجيباً إلى أن صارت سحباً متراكمة متكاثفة، فتقاطر منها الماء بمجاورة الهواء ونفوذها، فأرسلنا إلى الأرض الجرز ﴿بِقَدَرٍ﴾ معلوم معتدل ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ﴾ وأدخلناه ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي تجاويفها ومساماتها حتى تدخر فيها.

ثم جعلناه ينابيعَ تخرج منها مندرجة وتجري على قدر الحاجة تتميماً لحوائج عبادنا وتيسيراً لهم في معاشهم.

﴿وَإِنَّا﴾ بعدما أدخلناه في الأرض ﴿عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ﴾ أي بالماء بالإغوار[1] والتصعيد والتجفيف وغير ذلك من طرق الإذهاب ﴿لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ كما أنا قادرون على إنزاله وإخراجه.

﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ﴾ أي بالماء المدخّر ﴿جَنَّٰتٍ﴾ وحدائق ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾

(١) في المخطوط (بالأغوار).

لَكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ
بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا
وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾

هما معظم الفواكه وأصلها ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ أي في تلك الجنات أيضا ﴿فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ متفرعة عليهما، ملتفة بهما من أنواع الفواكه على ما هو عادة الدهاقين في غرس الحدائق والبساتين ﴿وَ﴾ أيضاً ﴿مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾﴾ تغذياً وتقوتاً، إذ تزرعون في جناتكم من الحبوبات أيضاً.

﴿وَ﴾ لا سيما أنشأنا لكم بالماء ﴿شَجَرَةً﴾ مباركة ﴿تَخْرُجُ﴾ وتنشأ من ﴿مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ هو جبل رفيع بين مصر وأيلة ﴿تَنۢبُتُ﴾ ثمرة ملتبسة ﴿بِٱلدُّهْنِ﴾ المضيء للسرج ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿صِبْغٍ﴾ أي إدام ﴿لِّلْـَٔاكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ لأنهم يغمسون أخبازهم فيه تأدماً.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ﴾ أيها المتأملون في نعمنا، المعتبرون في أنعامنا ﴿فِي ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ والدواب التي ينعمون بها من عندنا ﴿لَعِبْرَةً﴾ عظيمة إلى كمال قدرتنا وجلالة نعمتنا لو تعتبرون منها إذ ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ من الأخلاط والنبات لبناً خالصاً سائغاً للشاربين، مع أنه لا مناسبة بينهما.

﴿وَلَكُمْ﴾ أيضاً ﴿فِيهَا﴾ أي في الأنعام ﴿مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ﴾ من ظهورها وأصوافها وأشعارها وأوبارها وغير ذلك ﴿وَ﴾ أيضاً ﴿مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾﴾ من لحومها تقوية لمزاجكم وتقويماً له ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿عَلَيْهَا﴾ أي على الأنعام في البر ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ في البحر ﴿تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

وبعد ما عدد سبحانه نعمه التي أنعم بها على بني آدم، شرع في توبيخ من

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً ....

يكفر بها ولم يؤد حق شكرها فقال:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ من مقام لطفنا وجودنا ﴿نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ حين انحرفوا عن جادة الاعتدال وانصرفوا عن الاستقامة ﴿فَقَالَ﴾ على مقتضى وحينا إياه منادياً إياه ليقبلوا إليه على مقتضى شفقة النبوة والرسالة وعطف الهداية والإرشاد: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ أضافهم إلى نفسه إمحاضاً للنصح وإظهاراً لكمال الإشفاق ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ الواحد الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد، واعلموا أنه ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ﴾ يعبد بالحق ويستحق بالعبادة ﴿غَيْرُهُۥٓ أَ﴾ تتخذون إلهاً سواه ﴿فَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ وتحذرون عن بطشه وانتقامه بأنواع العذاب والنكال.

وبعدما ظهر بدعوى الرسالة وأظهر الدعوة على الوجه المذكور:

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟﴾ أي الأشراف ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ باتخاذ الأوثان والأصنام آلهة عبدوها كعبادة الله لضعفاء العوام ترويجاً لكفرهم وتحقيراً لدعوته ﴿مَا هَٰذَآ﴾ الرجل الحقير المدعي للرسالة والنبوة من الله ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ بل أضعفكم حالاً وأدناكم عقلاً ومالاً ﴿يُرِيدُ﴾ مع حقارته ودناءته ﴿أَن يَتَفَضَّلَ﴾ ويتفوق ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بهذه الدعوى الكاذبة والافتراء الباطل ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ إرسال رسولٍ ﴿لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ إذ هم أولى وأليق بالإرسال

مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ ....

من عنده، ولهم مناسبةٌ مع الله بخلاف من البشر فإنهم لا مناسبةَ لهم معه سبحانه، مع أنا ﴿مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا﴾ أي برسالة البشر من الله ﴿فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ أي لم يعهد هذا في الزمان السابق أصلاً، بل

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ﴾ أي ما هذا المدعي للرسالة من عند الله إلا رجلٌ عُرض له جنونٌ فاختل دماغه وذهب عقله؛ فيتخبطه الشيطان ويتفوه بأمثال هذه الهذيانات المستبعدة المستحيلة ﴿فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ﴾ وأَهملوه وانتظروا في أمره ولا تميلوا إليه ولا تلتفتوا نحوه ﴿حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٢٥﴾﴾ ليظهر لكم خبطه واختلاله، أو يفيق عما هو عليه ويعود على ما كان.

ثم لما سمع منهم نوح عليه السلام ما سمع من التجهيل والتسفيه أَيس منهم وقنط عن إيمانهم فـ ﴿قَالَ﴾ مشتكياً إلى الله مستعيناً منه:

﴿رَبِّ﴾ يا من رباني بأنواع الكرم وأرسلني إلى هؤلاء الضالين عن سواء سبيلك لأرشدهم وأهديهم إلى توحيدك، فبلغتُ ما أُرسلتُ به إياهم، فلم يقبلوا مني فكذبوني وسفّهوني ﴿ٱنصُرۡنِي﴾ بإهلاكهم وتعذيبهم ﴿بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾﴾ أي بدل تكذيبهم إياي وسببه.

﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ﴾ إنجازاً لما أوعدنا[1] إياهم من العذاب والهلاك

---

(١) في المخطوط (أوعدتنا).

أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ ....

بعد تكذيبهم رسولنا وما جاء به من عندنا من الإيمان والتوحيد ﴿أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ أي أعمال السفينة ولا تخف عن فسادها بعدم تعلمك من أحدٍ بل اصنعها ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أي بحفظنا إياك نحفظك عن عروض الخطأ والفساد في صنعها ﴿وَوَحْيِنَا﴾ أي بأمرنا وتعليمنا لك كيفية صنعها، ولا تبال بتسفيههم واستهزائهم معك ونسبتك إلى الخبط والجنون وأنواع الأذيات ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ الوجوبي المتعلق بإغراقهم واستئصالهم ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ المعينُ المعهودُ، فدلق ونبع الماء منه نبعةً ﴿فَٱسْلُكْ﴾ وأدخل على الفور ﴿فِيهَا﴾ أي في السفينة ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي من نوع الحيوانات اثنين ذكراً وأنثى؛ إبقاءً لجميع الأنواع في العالم ﴿وَ﴾ اسلك أيضاً ﴿أَهْلَكَ﴾ ومن ينتمي إليك قرابةً وديناً ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ والحكم منا في لوح قضائنا بأنه من الهالكين ﴿مِنْهُمْ﴾ أي من أهلك، أي أَدْخِل جميع أهلك سوى من مضى قضاؤنا بغرقه وإهلاكه وهو ابنه كنعان ﴿وَ﴾ بعدما سبق قضاؤنا لإهلاك من كفر من أهلك ﴿لَا تُخَٰطِبْنِي﴾ يا نوح، ولا تدعُ إليّ في حق من سبق الحكم مني بغرقه ولا تسع ﴿فِي﴾ خلاص القوم ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ على أنفسهم بالعرض على عذابنا ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ معدودون من عدد الغرقى الهلكى، ولا أثر لدعائك لهم بعدما صار الأمر منا مقضياً والحكم مبرماً.

فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ
﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا
لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ....

﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ﴾ يا نوح وتمكنت ﴿وَمَن مَّعَكَ﴾ من المؤمنين ﴿عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ وصرتم متمكنين متعززين عليها ﴿فَقُلِ﴾ شكراً لما أنعمنا عليك من إنجاز النصرة المعهودة الموعودة وإهلاك الله وغير ذلك من النعم العظام: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا﴾ من كمال جوده وسعة رحمته ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ الخارجين عن مقتضى العقل والشرع عتواً وعناداً.

﴿وَقُل﴾ أيضاً بعدما مكنت على سفينة النجاة: ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِى﴾ بفضلك ولطفك ﴿مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ كثيرَ الخير والبركة ﴿وَأَنتَ﴾ من كمال جودك ﴿خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ لو فرض مُنزِلٌ غيرك مع أنه لا مُنزِلَ سواك، ولا وجود لغيرك، إذ لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المذكور من قصة نوحٍ مع قومه ونجاته وإهلاكهم، وتعليمِ صنع السفينة عليه، وإخراج الماء من التنور المعهود، وإحاطته على وجه الأرض كلها، ونجاة من كان في سفينته وغير ذلك من الأمور البديعة ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ دلائلَ واضحات على كمال قدرتنا وإرادتنا واختبارنا في عموم أفعالنا على المعتبرين المتأملين في بدائع الأمور وغرائبه، الناظرين بعيون العبرة والاستبصار في حدوث هذه الوقائع الهائلة ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾ أي أن الشأن والأمر أنا بإحداث هذه الحوادث مع قوم نوح لمختبرون

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ ....

مجربون عموم عبادنا لننظر من يعتبر ويتعظ بها منهم، وما هي إلا تذكرة وتذكير منا إياهم.

﴿ثُمَّ﴾ بعد إهلاك قوم نوح وإغراقهم ﴿أَنشَأْنَا﴾ وأظهرنا من ذرية مَن في سفينة نوح عليه السلام ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد نوحٍ ومَن معه في السفينة ﴿قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾﴾

هم عادٌ وثمودَ فانحرفوا أيضاً عن جادة التوحيد

﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا﴾ ناشئاً ﴿مِّنْهُمْ﴾ ابتلاءً لهم واختباراً لمن اعتبر منهم، فقال على مقتضى وحينا وإلهامنا إياه: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ الواحد الأحد المستقل بالألوهية والوجود واعلموا أنه ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ﴾ يُعبد له ويرجع إليه ﴿غَيْرُهُۥٓ أَ﴾ تتخذون إلهاً غيره وتعبدون له ظلماً وزوراً، وتتضرعون نحوه في الوقائع والخطوب ﴿فَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾﴾ عن غضبه، ولا تخافون عن قهره وانتقامه.

﴿وَ﴾ بعدما بلّغهم الرسول الموحى به ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ أي الأشراف ﴿مِن﴾ قومه عتواً واستكباراً لضعفاء العوام وهم ﴿قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله باتخاذ الأصنام آلهةً وأنكروا وحدة الإله ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ ويوم الجزاء وجميع المواعيد الموعودة فيها ﴿وَ﴾ مع كفرهم وشركهم وإنكارهم بالنشأة الأخرى ﴿أَتْرَفْنَاهُمْ﴾ بوفور نعمنا إياهم ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ إمهالاً لهم: ﴿مَا هَٰذَآ﴾

إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ....

المدَّعي الكاذب ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ لا مزيةَ له عليكم ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَ﴾ الله ﴿لَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا﴾ فيما يأمركم من تلبيساته وتغريراته مع أنه ﴿مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ﴾ في إطاعتكم وانقيادكم لبني نوعكم ﴿إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ خسراناً عظيماً لا خسرانَ أعظمَ منه، إذ هو خسرانُ العقل والإدراك، وتذليلُ النفس العزيزة بمثله تغريراً.

﴿أَ﴾ تسمعونه وتَقبلون منه أيها المجبولون على الدربة والدراية ما ﴿يَعِدُكُمْ﴾ من الخرافات المستبعدة عن الإدراكات وذلك ﴿أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ رفاتاً بحيث تفرقت أجزاؤكم إلى أن صارت هباءً وعدماً صرفاً ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾﴾ بعد هذا من التراب، معادون إلى ما كنتم عليه؟!

﴿۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾ أي بَعُد بعداً تاماً واستحال استحالةً شديدةً ﴿لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ من البعث بعد الموت والوجود بعد العدم والإعادة بعد الإماتة.

﴿إِنْ هِيَ﴾ أي ما الحياة لنا أيها العقلاء ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا﴾ التي هي ﴿الدُّنْيَا﴾

﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝٣٧ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا
وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ۝٣٨ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ۝٣٩ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ
لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ۝٤٠ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ ....

إذ وجودنا وعدمنا مقصورٌ على ما هو فيها ﴿نَمُوتُ﴾ ونعدم بعد الوجود فيها ﴿وَنَحْيَا﴾ ونوجد بعد العدم أيضاً فيها ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝٣٧﴾ منشَرين أحياءً بعد ما متنا فيها كما نشاهد من سائر الأشياء، يعني لا منزل لنا سوى الدنيا، حياتنا فيها وموتنا فيها، لا دارَ لنا غيرها.

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما هو المدعى الكاذب ﴿إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ﴾ ونسب ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ ومراءً عنه أنه أرسلني الله وأوصاني بكذا وكذا وما هي إلا مخترعاتٌ اخترعها من تلقاء نفسه ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ۝٣٨﴾ بمجرد هذه الدعوى وإن أثبتها أيضاً، إذ هو بشرٌ مثلنا ولا رسالةَ للبشر من الله إلى البشر.

وبعد يأسه من إيمانهم أخذ في الدعاء عليهم مشتكياً إلى الله حيث:

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ۝٣٩﴾ أي عذِّبهم بتكذيبهم إياي، إذ تكذيبي مستلزم لتكذيبك يا ربي.

﴿قَالَ﴾ سبحانه: اصبر ولا تستعجل في انتقامهم أنهم ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ أي عن زمانٍ قليلٍ ﴿لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ۝٤٠﴾ عما فعلوا من التكذيب والإنكار.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ الهائلة من جانب السماء بغتةً، قيل: صاح عليهم جبريل عليه السلام صيحةً هائلةً بعدما تعلق إرادة الله بإهلاكهم ملتبساً

بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ
قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا
تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۚ فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضٗا ....

﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أي بالعذاب الثابت المحقق الواجب وقوعه ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ﴾ وصيرنا أجسادهم ﴿غُثَآءٗۚ﴾ أي كالغثاء الذي يسيل به الماء وهو الزبد والحشائش التي يذهب بها الماء ﴿فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ أي بعد ما صاروا كذلك، قيل في حقهم: بَعُد بعداً وطرداً للقوم الظالمين الخارجين عن مقتضى أوامر الله ونواهيه، النازلة منه سبحانه على ألسنة أنبيائه ورسله.

﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ وانقراضهم ﴿قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ يعني قوم صالح ولوط وشعيب وغيرهم من الأمم الهالكة على الكفر والعناد بسبب تكذيب الرسل وكتبهم، وبالجملة أهلكناهم بحيث:

﴿مَا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ أي ما تستعجل وتستقدم أمةٌ منهم أجلَها الذي عيَّنَّا لإهلاكها وقدرنا هلاكهم فيه ﴿وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أيضاً: لا يسع لهم الاستقدام والاستئخار في المدة المقدرة المعينة لهلاكهم.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما انقرضوا ﴿أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا﴾ على المنحرفين عن جادة توحيدنا، المنصرفين عن مقتضى سنتنا ﴿تَتۡرَاۖ﴾ متواترةً متتاليةً بلا تخلل فترةٍ بينهم، فصار الأمر بينهم ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا﴾ لإصلاح حالهم واعتدال خلافتهم وأعمالهم ﴿كَذَّبُوهُۚ﴾ وأنكروا له وظهروا عليه بالمقاتلة والمشاجرة، فأهلكناهم واستأصلناهم بسبب تكذيبهم وإنكارهم ﴿فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضٗا﴾

وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ ....

بالهلاك أي أهلكناهم متتابعةً بعضهم بعد بعضٍ إلى أن طهرنا الأرض عن خبثهم وفسادهم ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَۚ﴾ أي حكاياتٍ وقصصاً يُسمر بهم، ويَعتبر المعتبرون عما جرى عليهم، ويقولون في حقهم بعدما سمعوا قصصهم معتبرين: ﴿فَبُعْدًا﴾ أي طرداً وحرماناً ومقتاً وخذلاناً ﴿لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾ بتوحيد الله ولا يصدقون رسله وجميعَ ما جاؤوا به من عنده سبحانه من المعتقدات المتعلقة بالنشأتين.

﴿ثُمَّ﴾ بعد انقراض أولئك الحمقى والهلكى ﴿أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ﴾ ليكون ردءاً له وظهيراً مؤيدَين ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الدالة على كمال قدرتنا ومتانة صنعنا وحكمتنا لتكون معجزةً خارقةً للعادة، صادرةً عنه، ملزمةً لمن يقابله ﴿وَ﴾ مع ذلك قويناهما بورود ﴿سُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾﴾ أي برهانٍ عقليٍ وحجةٍ واضحةٍ ساطعةٍ قاطعةٍ.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أشراف قومه، فبلّغا الموحى به إليهم، وأظهرا الدعوة عندهم ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن قبوله عناداً وعتواً ﴿وَ﴾ هم ﴿كَانُوا۟﴾ في أنفسهم ﴿قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾ متجبرين متكبرين.

وترقى أمر فرعون في الاستكبار إلى أن ادعى الربوبية والألوهية لنفسه ﴿فَقَالُوٓا۟﴾ بعدما سمعوا منهما ما سمعوا من الإيمان بالله والدعوة إلى

أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ
﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً

توحيده والإتيان بالأعمال الصالحة، والامتثال بالأوامر والاجتناب عن النواهي المنزلة في التوراة متشاورين بينهم مستبعدين عن أمرهما منهمكين معهما مستهزئين: ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ ﴾ ونقبل منهما قولهما مع أنهما ﴿ مِثْلِنَا﴾ في البشرية، ولا مزيةَ لهما علينا بالمال والكمال ﴿وَ﴾ لا بالنسب إذ ﴿قَوْمُهُمَا﴾ الذين انتشأ منهم ﴿لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾ إلى الآن ونحن أربابهم مسلطون عليهم، فكيف نؤمن وننقاد لهما بلا شرفهما حسباً ونسباً؟!

﴿ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾ أشدَّ تكذيب وأنكروا عليهما ونسبوا ما أتيا من الحجج والمعجزات إلى السحر والشعبذة، وظهروا عليهما بأشد العداوة والخصومات ﴿فَكَانُوا﴾ بالآخرة بواسطة إنكارهم وتكذيبهم ﴿مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾ المستأصَلين بالإغراق في بحرِ قلزم أو النيل.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل ﴿لَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى﴾ من كمال جودنا ولطفنا معه ﴿ الْكِتَٰبَ ﴾ أي التوراة الجامعَ لإصلاح الظاهر والباطن ﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾ أي قوم موسى ﴿ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾ به إلى مقر التوحيد.

﴿وَ﴾بعد انقضاء زمن موسى وانقراض أعدائه ﴿جَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ عيسى صلوات الرحمن عليه ﴿وَأُمَّهُۥٓ﴾ رضي الله عنها أي كل واحدٍ منهما ﴿ ءَايَةً ﴾ دالةً على كمال قدرتنا وبدائع حكمتنا وغرائب صنعنا وقدرتنا، جعلنا لعيسى من الخوارق والمعجزات ما لا يخفى، ولمريم أيضاً من

وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ ....

الكرامات والإرهاصات الخارقة للعادة منها: الحمل بلا مسيس زوج، وسقوطُ الثمرة من النخلة اليابسة لأجلها في محل الشتاء، وحضورُ أنواع الأطعمة والفواكه عندها حالَ كونها في المحراب والأبواب مغلقة عليها مع أنها ما تشَبَّه بأطعمة الدنيا وفواكهها وغيرُ ذلك من الإرهاصات الغريبة ﴿وَ﴾ بعدما أخرجهما الجاهلون عن منزلهما ﴿ءَاوَيْنَٰهُمَا﴾ أي أرجعناهما ﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾ أي إلى مكانٍ مرتفعٍ من الأرض، كثيرِ المأكل والمشارب يتنعم ويترفه ساكنوها فيها بلا ترددٍ واضطرابٍ في أمر المعاش، قيل: هي بيت المقدس أو دمشق.

ثم قال سبحانه مخاطباً لقاطبة رسله وأنبيائه أصالةً ولأممهم تبعاً منادياً لهم إسقاطاً منهم الرهبانية والزهدَ المفرط المؤديَ إلى تخريب الجسد وضعفِ القوى المدركة والمحركة عن مقتضاها وكذا جميع الآلات والجوارح المعمولة بها:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾ يعني نادى سبحانه كل واحد منهم في زمانه ﴿كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ التي أنتجنا لكم مقدارَ ما يسدُّ جوعتكم ويعتدلُ به مزاجكم، وأطيبُ مطاعمكم كسبُ أيديكم ﴿وَ﴾ بعدما اعتدل مزاجكم وقويَ قواكم ﴿ٱعْمَلُوا۟﴾ عملاً ﴿صَٰلِحًا ۖ﴾ مقرِّباً لكم إلينا، مصلِحاً لما في نفوسكم من مفاسد الأهوية الفاسدة وتسويلات الشياطين ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ على وجه

عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ
أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ
حِينٍ ﴿٥٤﴾ ....

الإخلاص ﴿عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ أُجازيكم عليه، سواءً تزهدون وتترهبنون أو لا.

﴿وَ﴾ إذا علمتم أن مناط أمركم في عملكم المقرِّبة إلى ربكم على وجه الإخلاص والخضوع، فعليكم بأجمعكم أن تداوموا وتلازموا عليها ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ﴾ الطريقة المعهودة المذكورة لكم من ربكم ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ أي قدوتكم[1] وقبلتكم، موصلةٌ إلى توحيد ربكم لذلك صارت ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ لا تعددَّ فيها ولا اختلافَ أصلاً، وإن كانت جهاتها مختلفةً متعددةً بحسب اختلاف الشرائع والأديان على مقتضى الأعصار والأزمان ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ﴾ الواحد الأحد الصمد الفرد الوتر، الذي لا أكون عرضةً للتعدد والكثرة أصلاً ﴿فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ عن أخذي وبطشي ومقتضيات جلالي وقهري، إذ لا ملجأ لكم غيري، ومع ذلك

﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ أي دينهم الواحد وملتهم الواحدة ﴿زُبُرًا ۖ﴾ قِطعاً مختلفةً وأحزاباً متفاوتةً ومِلَلاً متخالفةً، يدعي كل منهم حقية دينه وملته، فصار ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ﴾ منهم ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ من الدين والملة ﴿فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ مسرورون معجَبون.

﴿فَذَرْهُمْ﴾ بعدما تحزبوا وانحرفوا عن التوحيد وانصرفوا عن جادته، واتركهم على حالهم يعمهون ﴿فِى غَمْرَتِهِمْ﴾ أي جهلهم وغوايتهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾﴾

---

(١) يقول البيضاوي ملتكم ملة واحدة أي متحدة في الاعتقاد وأصول الشرائع.......

أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ
﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ
يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ ....

أي حين انكشاف الغطاء عن بصائرهم والعماءِ عن أبصارهم فعاينوا العذاب، ولم يمكنهم ردّه والنجاة منه فيهلكوا صاغرين.

﴿ أَيَحْسَبُونَ ﴾ ويعتقدون: أولئك الضالون المنهمكون في بحر الغفلة والضلال ﴿أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ﴾ ونعطيهم إمداداً لهم وإعانةً عليهم ﴿مِن مَّالٍ﴾ ملهٍ لنفوسهم ومشغلٍ لقلوبهم ﴿وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ يستعبدون نفوسهم ويسترقون أعناقهم.

﴿ نُسَارِعُ ﴾ ونبادرُ ﴿لَهُمْ فِي ﴾ نيل ﴿ ٱلْخَيْرَٰتِۚ ﴾ تفضلاً منا إياهم لذلك يباهون ويفتخرون بها ويتفوقون على من دونهم لأجلهما ﴿بَل﴾هو استدراجٌ منا إياهم، وإمهالٌ لهم، كي يحصّلوا أسباب أشد العذاب وأسوأ العقوبات ويستحقوا بواسطتها أسفل دركات النيران ﴿ لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ الاستدراج من الكرامة، فحملوا عليها وبأهوائها،فسيعلمون مصيرهم ومنقلبهم إلى أين[1] .

ثم قال سبحانه:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ خائفون حذرون محترزون.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ النازلةِ على رسله ﴿يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾﴾ يصدقون ويذعنون.

---

(١) ورد في الحاشية (لعله قرين).

وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ ....

﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ بل يستقلونه بالوجود ولا يثبتون لغيره وجوداً، ولا يسندون الحوادث إلى الأسباب العادية بل يسندون كلها إليه أولاً، وبالذات.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾من الأعمال والصدقات ومطلق الحسنات ﴿ وَّقُلُوبُهُمْ ﴾ في حال إتيانها ﴿وَجِلَةٌ﴾ خائفةٌ مستوحشةٌ بسبب ﴿ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ بهذه الأعمال والحسنات، هل يقبل منهم أو يرد عليهم، وهم دائماً بين الخوف والرجاء خائفون عن قهره، راجون من لطفه.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ السعداء المحسنون الأدب مع الله، المخلصون في أعمالهم ﴿ يُسَٰرِعُونَ ﴾ أي يرغبون ويبادرون ﴿ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ وأنواع الطاعات والعبادات والحسنات، راجين أنواع الكرامات والمثوبات من الله ﴿ وَهُمْ لَهَا﴾ أي للحسنات وأنواع الخيرات والمبرَّات دائماً ﴿سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ سارعون ساعون مبادرون.

﴿وَ﴾ اعلموا أيها المكلفون بأنواع التكاليف المصفية لظواهركم وبواطنكم ﴿ لَا نُكَلِّفُ﴾ ولا نحمِّل ﴿ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي مقدار وسعِها وطاقتِها على ما هو مقتضى استعداداتهم وقابلياتهم، وكيف نكلفهم بما لا طاقة لهم ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ﴾ جامعٌ لجميع أحوال ما حدث وكان ويحدث

يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ
ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ
﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ....

ويكون، وهو لوحُ قضائنا وحضرةُ علمنا مع أنه ﴿يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾ السويّ الثابت المطابق للواقع بلا إفراط وتفريط ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ بزيادة العذاب ونقصان الثواب، بل كل منهم مجزيٌ بمقتضى ما ثبت فيه.

والكفار من غاية انهماكهم في الغفلة والضلال ينكرون لكتابنا الجامع لجميع الكوائن والفواسد الناطق بالحق المطابق للواقع.

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ﴾ التي جبلت وعاءً للإيمان والتصديق ﴿فِي غَمْرَةٍ﴾ أي غطاءٍ وغشاوةٍ ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾ الطريق الذي يترتب عليه الفلاح والفوز بالنجاح، وهو طريق التوحيد والتصديق ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ﴾ طالحةٌ على مقتضى أهويتهم الفاسدة وآرائهم الباطلة ﴿مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ الأمر الذي تعبدنا بها عبادنا على ألسنة رسلنا ﴿هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ وإليها متوجهون دائماً وعن طريق الحق وسبيل التوحيد ناكبون منصرفون.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم﴾ ومتنعميهم ﴿بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ أي يستغيثون ويستعينون، يعني هم في الراحة والرضا عنا غافلون، وإذا أخذناهم بالبلاء والعناء، فأجاؤوا إلى الاستغاثة والاستعانة منا، منصرفين إلينا، متضرعين نحونا.

لذلك يقال لهم طرداً ورداً:

﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟﴾ أيها المسرفون ولا تستنصروا ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ منا حين نزول

إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ
تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ.........

العذاب ﴿إِنَّكُمْ﴾ بسبب غفلتكم عنا وإنكاركم علينا في يوم الراحة والرخاء ﴿مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ أصلاً، فاليوم لا ينفعكم دعاؤكم.

وكيف تستنصرون عني أما تستحيون مني إذ:

﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى﴾ الدالةُ على عظمة ذاتي وعلوِّ شأني وشدةِ سلطنتي وسطوتي ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ تليناً لقلوبكم وإصلاحاً لعيوبكم ﴿فَكُنتُمْ﴾ من شدة عتوكم واستكباركم ﴿عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾﴾ وترجعون رجوع القهقرى، منصرفين عن سماعها، حال كونكم

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾ أي بالكتاب والآيات المندرجة فيه إلى حيث لا تذكرونه ﴿سَٰمِرًا﴾ أيضاً أي حاكياً به في الليل على ما هو عادتكم وسنَّتكم المستمرة بينكم، إذ كنتم تسمرون حول البيت في خلال الليل، سيما بالأحاديث الحديثة الجديدة بل ﴿تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ وتتركون السمرَ به مطلقاً، حتى لا تسمعوا ذكر الآيات والكتاب أصلاً، فكيف ما فيه من الأوامر والنواهي.

ومع استكباركم واستهزائكم بنا وبآياتنا وبرسلنا على أبلغ الوجوه وأشدها، تستنصرون منا وتستغيثون إلينا؟!.

﴿أَ﴾ ينكر المشركون القرآن ويستكبرون به عناداً ومكابرة ﴿فَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟﴾ ولم يتأملوا حق التأمل ﴿ٱلْقَوْلَ﴾ أي المقولَ والمسموعَ، ليظهر لهم إعجازه ويتضح عندهم فصاحته وبلاغته الخارجة عن طور العقل وطوق البشر

أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ ....

كي لا يبادروا إلى إنكاره وتكذيبه بل يصدقوه ويؤمنوا له وبمن جاء به ﴿ أَمْ جَآءَهُم﴾ أي بل يعلمون لو تأملوا أنه جاءهم من الله كتابٌ يخلصهم من العذاب الأخروي لو امتثلوا بما فيه مع أنه ﴿ مَّا لَمْ يَأْتِ﴾ أي كتابهم هذا شيءٌ لم يأت مثله ﴿ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ حتى يتأملوا فيه، ويؤمنوا له فيخلصوا من العذاب، فهؤلاء الحمقى الهلكى، المنهمكون في الغيِّ والضلال يفوِّتون على أنفسهم الإيمان به والهداية بامتثال ما فيه، حتى يستحقوا الخلاص والنجاة.

﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ﴾ أي بل لم يعرفوا من شدة شكيمتهم وبغضهم علوَّ شأن رسولهم وسموَّ برهانه وكمالَ عقله ورشده واعتدالَ أخلاقه وأطواره وإيفاءَه العهود والأمانات ﴿فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ للجهل والعناد.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ﴾ وينسبون ﴿بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ اختلالٌ وخبطٌ، ومن اختلاله وخبطه ظهر منه أمثال هذه البدائع التي استحدثها من تخيلاته ﴿بَلْ جَآءَهُم ﴾ رسولهم بجميع ما جاءهم ملتبساً ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ الصدقِ المطابقِ للوحي الإلهي ﴿وَ﴾ لكن ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾ وكونُهم على الباطل مائلون، وإلى مشتهيات نفوسهم آيلون.

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ ﴾ والوحي ﴿أَهْوَآءَهُمْ ﴾ الباطلةَ وآراءَهم الفاسدةَ

لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ خَرۡجٗا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيۡرٞۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ ....

﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ من ذوي الشعور والإدراك، المتوجهين نحو الحق طوعاً؛ من شؤم أعمالهم وسوء أفعالهم وقبح أخلاقهم وأطوارهم، لذلك ما آتيناهم وأوحيناه على رسولهم ما هو مشتهى نفوسِهم ومقتضى أهوائهم ﴿بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ﴾ وتذكيرهم، يذكرُ ما هو الأصلح بحالهم والأليق بشأنهم من الأوامر والنواهي والوعد والوعيد والإنذار والتبشير والعبر والأمثال والقصص والآثار ﴿فَهُمۡ﴾ من غاية عمههم وسكرتهم ﴿عَن ذِكۡرِهِم﴾ المصلح لحالهم، المنجي لنفوسهم من الوبال والنكال ﴿مُّعۡرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾ منصرفون عنه عتواً واستكباراً.

﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ﴾ أي أيظنون ويعتقدون أنك يا أكمل الرسل تطلب لأداء الرسالة وتبليغها عليهم ﴿خَرۡجٗا﴾ جُعْلاً وإجراءً لذلك انصرفوا عنك وعن دينك وكتابك؟! ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ﴾ الذي رباك بأنواع النعم الصوري والمعنوي، وأجره لك بأعظم المثوبات وأعلى الدرجات ﴿خَيۡرٞۖ﴾ لك من جُعْلهم ﴿وَ﴾ إن نسبوك إلى الفقر والفاقة قل ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾﴾ لو فُرِضَ رازقٌ سواه، مع أنه لا رازقَ إلا هو.

﴿وَ﴾ بالجملة هم منحرفون في أنفسهم عن جادة التوحيد بحيث لا يفيدهم هدايتك وإرشادك ﴿إِنَّكَ﴾ بوحي الله إياك ﴿لَتَدۡعُوهُمۡ﴾ وتهديهم

إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ
﴿٧٤﴾ ۞ وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ لَّلَجُّواْ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ
﴿٧٥﴾ وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ ....

﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٣﴾﴾ سويٍّ لا عوجَ له أصلاً وهو طريق التوحيد الذاتي.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ ولا يصدقون ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ التي فيها انتقاد الأعمال والأحوال والعرض على ذي العظمة والجلال ﴿عَنِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ الذي هو سبب اعتدالهم وإخلاصهم فيها ﴿لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾ عادلون مائلون، لذلك لم يقبلوا منك ما جئتَ به من عند ربك، إذ خوف الآخرة من أقوى قوائم الإيمان.

﴿۞ وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ﴾ على مقتضى سعة رحمتنا وجودنا ﴿وَكَشَفۡنَا﴾ وأنزلنا ﴿مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ﴾ مفرطٍ مزعجٍ مثل القحط والوباء والزلزلة والعناد وغير ذلك من الشدائد العاجلة ﴿لَّلَجُّواْ﴾ وأصروا ﴿فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾ التي هم عليها من الكفر والشرك والعداوة مع أهل الإيمان ﴿يَعۡمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾ يترددون ولا يتركون.

﴿وَ﴾ كيف لا يعمهون وقد جربناهم مراراً فإنا ﴿لَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ﴾ أي الجدب والقحط أو بالقتل يوم بدر ﴿فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ﴾ وما تذللوا وتواضعوا ﴿لِرَبِّهِمۡ﴾ من كمال عتوهم وعنادهم ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ إليه استكباراً بل هم على إصرارهم دائماً كلما أخذناهم وكشفنا عنهم، أصروا وازدادوا على استكبارهم وإصرارهم، ولم يرجعوا إلينا مخلصين.

حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ ....

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا﴾ من البلاء والعناء ﴿ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ وهو القحط المفرط، إذ هو من أصعب العقوبات وأسوئها ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾ متحسرون آيسون من كل خيرٍ، ومع ذلك لم يتوجهوا إلينا ولم يتضرعوا.

﴿وَ﴾ كيف لا تتوجهون ولا تتضرعون أيها الحمقى الهالكون في تيه العتو والفساد مع أنه سبحانه ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ﴾ وأظهر ﴿لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ من المشاعر التي تتحفظون بها نفوسكم عن الأعادي الخارجة[1] عنكم ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾[2] أي القلوب التي تحفظون بها صدوركم وسرائركم من الأعداء الداخلة من التخيلات الباطلة والتوهمات الزائفة الزائلة المزخرفة المموهة من الرياء والرعونات وأنواع التلبيسات والتدليسات مع أنكم ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ أي ما تشكرون لهذه النعم الجليلة إلا قليلاً منكم.

﴿وَ﴾ كيف لا تشكرون نعمه سبحانه مع أنه ﴿هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ﴾ أي أوجدكم وأظهركم من كتم العدم في النشأة الأولى وبث نسلكم ونسبكم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تترفهون فيها وتتنعمون، ورَزَقكم فيها من أنواع الطيبات ﴿وَ﴾ في النشأة الأخرى ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره، إذ لا وجود للغير ﴿تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ وترجعون رجوع الأمواج إلى البحر.

---

(١) في المخطوط (الأغادي الداخلي).
(٢) في المخطوط (الآية ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ وما بعدها محذوف، وهو خطأ).

وَهُوَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلۡ قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ ....

﴿وَ﴾ كيف لا تحشرون إليه سبحانه ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ﴾ ويظهر أشباحكم من العدم بامتداد أظلال أسمائه وصفاته وبسطِها على مرايا انعدام الإعدام(١) ﴿وَيُمِيتُ﴾ بانقهارها وقبض الأظلال عنها ﴿وَ﴾ من جملة قبضه وبسطه أن ﴿لَهُ﴾ سبحانه وبمقتضى مشيئة وإرادته ﴿ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ طولاً وقصراً، ضوءاً وظلمةً ﴿أَفَلَا﴾ تتفكرون وتتأملون أيها المجبولون على التفكر والتدبر حتى ﴿تَعۡقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ وتدركون كيفية ظهور الحق وإظهاره مظاهر أسمائه الحسنى وصفاته العليا.

وهؤلاء الضالون المضلون لا يتفكرون ولا يعقلون مع وضوح الدلائل والشواهد.

﴿بَلۡ قَالُواْ﴾ من الهذيانات الباطلة ﴿مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾﴾ من آبائهم وأسلافهم تقليداً لهم حيث ﴿قَالُوٓاْ﴾ مستنكرين مستبعدين على مواعيد الحق في النشأة الأخرى: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا﴾ وانقرضنا عن الدنيا ﴿وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا﴾ بالية ﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٨٢﴾﴾ مخرَجون من القبور أحياءً مثل ما كنا عليه قبل موتنا؟!

كلا وحاشا لا حياة إلا هذه الحياة التي كنا عليها في دارالدنيا، مع أنا

---

(١) في المخطوط (الأعدام).

لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ﴾ على لسان من جاءنا بادعاء الرسالة والنبوة ﴿وَ﴾ قد وعد أيضاً ﴿ءَابَآؤُنَا هَٰذَا﴾ الموعود المخصوص على لسان من جاء بهم ﴿مِن قَبْلُ﴾ وهلم جراً، مع أنا ولا هم لم نرَ من علامات صدقها وأمارات وقوعها شيئاً أصلاً، وبالجملة ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ أي ما هذا الوعد الموعود والقول المعهود، وهو أنكم إذا مُزِّقتم كل ممزقٍ إنكم لفي خلق جديد ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾ أي أباطيلهم وأكاذيبهم التي سطروها في دواوينهم وكتبهم على وجه السمرة والمخادعة لضعفاء الأنام.

وبعدما بالغوا في الإنكار على البعث والإعادة وعدم قدرتنا عليها مع أنا قادرون على الإبداء والإنشاء لا عن شيء.

﴿قُل﴾ لهم يا أكمل الرسل إلزاماً عليهم وتبكيتاً: ﴿لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ﴾ المفروشة تحتكم ﴿وَمَن فِيهَآ﴾ من أنواع النباتات والحيوانات والمعادن، ومَن المظهرُ لها من كتم العدم، ومَن المزينُ المنبتُ عليها من الأجناس المختلفة أخبرونا[١] موجدها ومخترعها! ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ أي من ذوي الشعور والإدراك.

﴿سَيَقُولُونَ﴾ في الجواب البتة: ﴿لِلَّهِ﴾ إذ لا يمكنهم الإنكار بالصريح المحقق المثبت ﴿قُلْ﴾ لهم بعدما اعترفوا بأن الأرض ومن عليها لله

(١) في المخطوط (أخبروا).

أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾
سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ
وَهُوَ يُجِيرُ ....

سبحانه موبخاً عليهم ومقرعاً: ﴿أَ﴾ تنكرون أيها الجاهلون قدرة الله على إعادة المعدوم وحشر الأجساد ﴿فَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ وتستحضرون قدرة الحق على إبداء هذه البدائع والعجائب المستحدثة على الأرض بلا سبق مادةٍ ومدةٍ، ومع ذلك تنكرون، ومن إعادة مَن عليها، سيما بعد سبق مادتها، مع أن هذا أهون من ذاك.

﴿قُلْ﴾ لهم أيضاً إلزاماً وتبكيتاً: ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ﴾ الشداد المطبقات المزيَّنات بالكواكب ﴿وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾﴾ المحيط بالكل المسيِّر لها على وجه السرعة التامة والحركة الشديدة بلا تخللِ سكونٍ أصلاً.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ﴾ إذ لا يسع لهم الخروج عن مقتضى صريح العقل ﴿قُلْ﴾ يا لهم أكمل الرسل: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾ وتحذرون عن قهر الله وغضبه، تنكرون له أهون مقدوراته ومراداته، مع أنكم اعتُرفتم بأشدها وأصعبها!

﴿قُلْ﴾لهم يا أكمل الرسل بعدما تأكد إلزامهم وإفحامهم كلاماً جلياً شاملاً لجميع مقدورات الله ومراداته: ﴿مَنۢ بِيَدِهِۦ﴾ وقبضةِ قدرته وحوله وقوته ﴿مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وملكُه يتصرف فيه حسب إرادته واختياره على سبيل الاستقلال ﴿وَ﴾ من ﴿هُوَ يُجِيرُ﴾ يغيث ويعين الملهوفَ

وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ ....

المضطرَ إذا دعاه ﴿وَلَا يُجَارُ﴾ ويُنصر ﴿عَلَيْهِ﴾ لأنه سبحانه يعلو ولا يُعلى عليه، أخبروني ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾﴾ أي من ذوي الخبرة والشعور.

﴿سَيَقُولُونَ﴾ أيضاً بلا ترددٍ: ﴿لِلَّهِ﴾ اختصاصاً وملكاً، تصرفاً، استقلالاً، اختياراً وإرادةً ﴿قُلْ﴾ لهم بعدما أثبتوا له الغالبية والقدرة التامة الكاملة والفاعلية المطلقة بالإرادة والاختيار للفاعل المختار اختصاصاً واستقلالاً: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ أي من أين تُخدعون وتُلبسون للخروج عن مقتضى العقل والرشد في المقدور المخصوص والمراد المنظم المعين حتى تنكروا له ولم تقبلوا وقوعه مع ورود الآيات والدلائل القاطعة على وقوعه.

﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم﴾ أي كل ما آتيناهم من التوحيد ولوازمه من الإيمان بالغيب وجميع المأمورات والمنهيات الصادرة منا في كتبنا، النازلة على رسلنا وما ألهمنا وأوحينا إلى رسلنا إلا موافقاً كتابنا وحضرة علمنا ولوح قضائنا ملتبساً ﴿بِالْحَقِّ﴾ المصدِّق المطابق للواقع بلا توهم الباطل في شيء منها ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾﴾ في نسبة الكذب إليها وإليهم، ألا لعنة الله على الكاذبين.

ومن جملة ما تنسبون إلى الله سبحانه افتراءً ومراءً إثبات الولد له سبحانه مع أنه:

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ ....

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ﴾ الواحد الأحد الذي شأنه ووصفُه أنه: لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد ﴿مِن وَلَدٍ﴾ إذ هو من خواص الأجسام ولوازم الإمكان وهو سبحانه منزهٌ عنهما ﴿وَ﴾ من جملة أكاذيبهم الباطلة أيضاً إثبات الشريك له سبحانه مع أنه ﴿مَا كَانَ﴾ أي ما صحَّ وجاز أن يكون ﴿مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ﴾ شريكاً له يُعبد بالحق مثله ويستحق بالعبادة استحقاقاً ذاتياً ووضعياً كما هو شأنه سبحانه ﴿إِذًا﴾ أي حين كان الإله الواجب الوجود المستحق للعبادة متعدداً كما زعم أولئك المبطلون ﴿لَّذَهَبَ﴾ وتميز ﴿كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ﴾ أوجد وأظهر فيكون مُلْكُ كلٍ منهما ممتازاً عن الآخر، وإذا كان الإله متعدداً أو المملكة ممتازةٌ، لأمكن التغالب والتحارب البتة ﴿وَلَعَلَا﴾ أي غلب وارتفع ﴿بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾ ـهم بالقدرة والاستيلاء، فاختل النظام المشاهد المحسوس ولم يبق له انتظامٌ وقيامٌ ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ وتعالى ذاته ﴿عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ به أولئك الجاهلون الغافلون عن علوِّ شأنه من إثبات الولد له والشريك مع تعاليه وتنزهه في ذاته عنهما وعن أمثالهما.

وكيف يكون له ولد ومعه شريك، وهو بذاته:

﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ لا يعزب عن حيطة علمه شيء ﴿فَتَعَٰلَىٰ﴾ سبحانه ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ أولئك المعاندون من أن يكون له ولدٌ يشبهه أو

قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ
﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ

شريكٌ يماثله ويشترك معه في أخص أوصافه التي هو وجوب الوجود والعلم بالغيب والشهادة حضوراً.

﴿ قُل ﴾ يا أكمل الرسل مستعيذاً بالله من شر ما سيلحق لأولئك المعاندين المبطلين: ﴿رَّبِّ﴾ يا من رباني بمزيد اللطف والإحسان ﴿إِمَّا تُرِيَنِّي﴾ أي أن تحققَ وتقررَ عندك يا مولاي إراءتك إياي ﴿مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾﴾ أولئك المسرفون المشركون من أشد العذاب والنكال في العاجل والآجل ليكون بسبب عبرتي وتذكيري من أحوالهم.

﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ مقارناً لهم معدوداً من عدادهم ملحقاً بي ما سيلحقهم من أنواع العذاب الصوري والمعنوي، الدنيوي والأخروي.

﴿وَ﴾ قال سبحانه: ﴿ إِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ ﴾ من العذاب ﴿لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ يعني إنا قادرون على أن نريك العذاب الموعود إياهم في هذه النشأة، لكنا نؤخرهم ونمهلهم رجاءَ أن يؤمن بعضهم، أو يحصل منهم المؤمنون من نسلهم وذرياتهم.

وإذا كنا نمهلهم ونؤخر عذابهم لحكم ومصالحَ

﴿ادْفَعْ ﴾ أنت أيضاً يا أكمل الرسل ﴿بِالَّتِي ﴾ أي بالدلائل والشواهد التي ﴿هِيَ أَحْسَنُ﴾ من المقاتلة والمشاجرة ﴿السَّيِّئَةَ﴾ التي هي ما هم عليها من

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾
وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ
ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا ....﴾

الكفر والشرك لعل دلائلك تلين قلوبهم وتصفيهم من المكابرة والعناد معك، إذ ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ﴾ منك ﴿بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾ أي يصفونك به وينسبون إليك مما لا يليق بجنابك، وثق بنا وتوكل في جميع حالاتك علينا، واتخذنا وكيلاً، وفوِّض أمر انتقامهم إلينا، فإنا نكفي عنك مؤنة شرورهم.

﴿وَقُل رَّبِّ﴾ يا من رباني بكنفك وجوارك ﴿أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾﴾ ووساوسه وأنواع تسويلاته وتلبيساته ﴿وَ﴾ لا سيما ﴿أَعُوذُ﴾ وألوذ ﴿بِكَ﴾ يا ﴿رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ عند توجهي نحوك وتحنني إليك ومناجاتي معك، سيما في خلال صلاتي وعند تلاوتي وعرض حاجاتي.

والكافرون من غاية انهماكهم في الغفلة، مصرون على ما هم عليه من الشرك والكفر

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ وعاين من أمارات النشأة الأخرى تنبه حينئذٍ بقبح صنائعه التي أتى بها في النشأة الأولى ﴿قَالَ﴾ حينئذٍ متضرعاً إلى الله نادماً متمنياً متحسراً: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾﴾ بفضلك وجودك إلى النشأة الأولى.

﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ﴾ بعد رجوعي عملاً ﴿صَالِحًا﴾ مصلحاً ﴿فِيمَا تَرَكْتُ﴾ وأفسدتُ من أمور الإيمان والإطاعة والانقياد ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ له عن هذا

إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي
ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ
فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ
أَنفُسَهُمْ ....

السؤال والدعاء ومنعٌ له عن إنجاح سؤله ﴿ إِنَّهَا ﴾ أي طلب المراجعة ﴿ كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ﴾ من غاية الحسرة والندامة على ما فات عنه في الابتلاء، ﴿ وَ ﴾ كيف يرجع إليها إذ ﴿مِن وَرَآئِهِم﴾ أي أمامهم وقدامهم ﴿ بَرْزَخٌ ﴾ أي حجابٌ مانعٌ يمنعهم عن الرجوع ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ يعني لا يمكنهم الرجوع إلى دار الدنيا والحياة فيها إلا الحياة في يوم البعث والجزاء.

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ﴾ لحشر الأموات ونشرها من قبورهم فيخرجون منها حيارى سكارى تائهين هائمين ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ ﴾ بل يفرُّ كل امرئٍ من أخيه وصاحبته وبنيه، إذ لكلٍ منهم شأن يغنيه ﴿ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ أي لا يسأل بعضُهم أحوالَ بعضٍ، بل كل نفسٍ منهم رهينةٌ ما كسبت بلا التفاتٍ منه إلى غيره.

﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ ورُجِّحت خيراته على شروره ومعاصيه ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ السعداء المقبولون ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ الفائزون المقصورون على الفوز والفلاح، لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون.

﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ ورجحت سيئاته على حسناته ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ الأشقياء المردودون هم ﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ خسراناً مبيناً إلى حيث هم، لانهماكهم

﴿فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ١٠٣ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ١٠٤ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٠٥ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ١٠٦﴾ ....

في الشرور والسيئات ﴿فِي جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان ﴿خَٰلِدُونَ ١٠٣﴾ مخلدون دائمون لا نجاة لهم منها أصلاً من شدة اشتعال النار وتلهبها.

﴿تَلْفَحُ﴾ وتحرق ﴿وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا﴾ أي في النار ﴿كَٰلِحُونَ ١٠٤﴾ عابسون حيث تقلص شفاههم عن أسنانهم، بحيث تصل شفتهم العليا إلى وسط رأسهم والسفلى إلى سرتهم.

ومتى تضرعوا وتفزعوا وبثُّوا الشكوى إلى الله قيل لهم من قبل الحق:

﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي﴾ الدالةُ على عظمة ذاتي وكمال قدرتي على الإنعام والانتقام ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ حين ابتليناكم في النشأة الأولى ﴿فَكُنتُم﴾ من غاية غفلتكم وضلالكم ﴿بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٠٥﴾ وتنكرون عناداً واستكباراً، فالآن لحقكم وعرض عليكم ما أنكرتم له وأعرضتم عنه.

وبعدما سمعوا من التوبيخ والتقريع ما سمعوا:

﴿قَالُوا۟﴾ متضرعين معترفين بما صدر عنهم من البغي والعناد ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا على فطرة السعادة والهداية ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ واستولت أمّارتنا[1]، وصالت علينا أمانينا وأهويتنا ﴿وَكُنَّا﴾ بمتابعة تلك البغاة الغواة الضُّلّال ﴿قَوْمًا ضَآلِّينَ ١٠٦﴾ منحرفين عن طريق الحق، ناكبين عن صراطٍ مستقيم.

---

(١) في المخطوط (إثارتنا).

رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ
﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ
خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي ....

﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا﴾ بفضلك وجودك ﴿مِنۡهَا﴾ أي من النار ﴿فَإِنۡ عُدۡنَا﴾ بعدما خرجنا منها إلى ما كنا عليه قبلُ من الغفلة والغرور ﴿فَإِنَّا﴾ حينئذٍ ﴿ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ لأنفسنا بالعرض على أنواع العذاب وأشد النكال.

﴿قَالَ﴾ سبحانه في جوابهم زجراً وتبكيتاً: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ﴾ واسكتوا ﴿فِيهَا﴾ أي في النار مهانين صاغرين ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ معي، ولا تناجوا[1] إليّ لدفع عذابكم وتخفيفه وإخراجكم من النار، إذ أنتم فيها خالدون.

أما تستحيون أيها المسرفون تذكروا ما أنتم عليه

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي إن شأنكم وأمركم في دنياكم ﴿كَانَ فَرِيقٌ مِّنۡ﴾ خُلّص ﴿عِبَادِي يَقُولُونَ﴾ متضرعين متحننين نحونا راجين العفو والرحمة منا بقولهم: ﴿رَبَّنَآ﴾ كما ربيتنا بأنواع الكرم ﴿ءَامَنَّا﴾ وصدقناك بالربوبية والألوهية ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ ذنوبنا واستر لنا عيوبنا ﴿وَٱرۡحَمۡنَا﴾ تفضلاً علينا وامتناناً ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ إذ رحمتك بنا لا تُعَلَّلُ بغرضٍ منك وعوضٍ منا.

ومتى سمعتم مناجاتهم هذه ودعاءهم هذا

﴿فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا﴾ وصرتم[2] مستهزئين بأقوالهم وأعمالهم، متمادين في الهزء والسخرية، متوغلين في الغفلة والغرور ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ﴾ جهلَكم وغفلَتكم ﴿ذِكۡرِي﴾ والتوجه نحوي، والرجوع إليّ بل صرتم غافلين، ذاهلين،

(١) في المخطوط (ولا تناجون).

(٢) في المخطوط (وحيرتم).

وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ....

محرومين عن كمال الإنسان، منحطين عن رتبة الخلافة[1]، مستحقين لأنواع السخرية والضحكة ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿كُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾﴾ مع أنهم ساعون نحونا، سالكون في طريق توحيدنا، طالبون الوصول إلى ما هم جبلوا لأجله، لذلك

﴿إِنِّي﴾ من كمال لطفي وإشفاقي معهم ﴿جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أحسن الجزاء ﴿بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾ على أذاكم أيها الجاهلون في النشأة الأولى، وهم بسبب صبرهم وتمكنهم على أذاكم في دنياكم حفظاً لدينهم وإيمانهم ﴿أَنَّهُمْ﴾ القوم ﴿هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾ المقصورون على الفوز والفلاح إلى ما هو النجاة والنجاح بلا خوفٍ عليهم ولا هم يحزنون.

وبعدما صاروا مخلَّدين مؤبَّدين[2] في النار، صاغرين مهانين فيها ﴿قَٰلَ﴾ قائلٌ من قِبَل الحق على سبيل التوبيخ والتقريع إظهاراً لقبح استبدالهم واختيارهم الأدنى بدل الأعلى: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ أيها الضالون المسرفون ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ التي كنتم تستكبرون عليها خيلاءَ مغرورين ﴿عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ أي كم مدةً وسنةً استقررتم عليها متفوهين؟!

﴿قَالُواْ﴾ مستقصرين مستحقرين: ﴿لَبِثْنَا﴾ عليها ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ أي

---

(١) في المخطوط (مخلصين عن رتبة الخلافة).

(٢) في المخطوط (مؤيدين في النار).

فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾
أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ....

بل بعض يوم بالنسبة إلى هذه الأيام الطوال التي كنا فيها مذنبين، بل نسينا نحن مدة ما كنا عليها لغاية قصرها ولا نقدر عليها ﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾﴾ المعاصرين بنا من أهل القبول والسرور، والموكَّلين علينا من الملائكة، المستحضرين لأعمارنا وأعمالنا وجميع ما كنا عليها من الأحوال.

﴿قَـٰلَ﴾ القائل المذكور في جوابهم تصديقاً لهم في مقالهم واستقلالهم: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ أي ما لبثتم فيها ﴿إِلَّا قَلِيلًا ۖ﴾ قصيراً في غاية القلة والقصر ﴿لَّوْ أَنَّكُمْ﴾ أيها الضالون المسرفون ﴿كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ في أنفسكم طول مدة العذاب وعدم تناهيها لما اخترتم لأنفسكم ما يستجلب عليكم العذاب ويوقعكم فيه، ومع جهلكم هذا لم تقبلوه من الأنبياء العارفين الهادين أيضاً، بل أنكرتم عليهم واستهزأتم مستكبرين مستنكرين.

﴿أَ﴾ تزعمون أيها الجاهلون المعاندون أن أفعالنا خاليةٌ عن الحكمة والمصلحة ومقدوراتنا صدرتْ عنا حشواً بلا طائلٍ ﴿فَحَسِبْتُمْ﴾ وظننتم بل جزمتم وأيقنتم ﴿أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ﴾ وأظهرناكم من كتم العدم ﴿عَبَثًا﴾ أي عابثين ساعين فيها بلا طائلٍ مرتكبين لها بلا حِكَم ومصالحَ ﴿وَ﴾ أيضاً ظننتم أيها الغافلون الجاهلون ﴿أَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ للجزاء وتنقيد الأعمال وعرض الأحوال.

وكيف لا تُرجعون إلى ربكم أيها المجرمون وكيف عن أعمالكم لا

فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾
وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ
لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ ....

تُسألون أيها المسرفون ولا تحاسبون؟! ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ﴾ المحيط للكل حضوراً وشهوداً أن يتصف ذاته بالغفلة والذهول وأوصافه بعدم الحيطة والشمول وأفعاله بالعبث والفضول، إذ هو ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ المستحضِر لجميع مماليكه لا يعزب عنه مثقال ذرةٍ في الأرض ولا في السماء، وكيف يعزب ويغيب عنه شيء من الأشياء إذ هو ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الثابت المحقق والقيوم المطلق المثبت، لا يشغله شأنٌ عن شأنٍ، وهو في شأنٍ لا يعرضه شأن، ولا يعتريه زمانٌ ومكانٌ بل الشؤون كلها مندرجةٌ في علوِّ شأنه إذ ﴿لَآ إِلَـٰهَ﴾ في الوجود ﴿إِلَّا هُوَ﴾ لأنه ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ المحيط لذرائر الكائنات وهو الوجود العيني الظلي الكامن الفائض من حضرة القدوس على هياكل العكوس.

﴿وَ﴾ بعدما تحقق أن الكل في حيطة أوصافه وأسمائه ومن أظلاله وتحت لوائه ﴿مَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ﴾ المحيط للكل ﴿إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ من الأظلال المحاطة والعكوس الساقطة مع أنه ﴿لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ﴾ يثبت به وجود إله آخرَ سواه، بعدما شمل سواه سبحانه الكل وأحاط ﴿بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ﴾ أي حساب المدعي وجزاء ما ادعى من الشرك ﴿عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ يجازيه على مقتضى علمه ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي إن الشأن والأمر عنده سبحانه إنه ﴿لَا يُفْلِحُ﴾ ولا يفوز ﴿ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾

وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾

بكفرهم وشركهم إلى ما هو موجبٌ للفلاح والنجاح.

﴿وَ﴾ بعدما أثبت سبحانه الفلاحَ للمؤمنين الموحِّدين في أول السورة ونفاه عن الكافرين المشركين في آخرها ﴿قُل﴾ يا أكمل الرسل تعليماً لكل من يقتدي بك ويقتفي أثرك وتنبيهاً عليهم وتذكيراً لهم: ﴿رَّبِّ﴾ يا من رباني بكنفك وجوارك ﴿ٱغۡفِرۡ﴾ واستر أنانيتي عن عين بصيرتي ﴿وَٱرۡحَمۡ﴾ عليّ بنفي هويتي وإفنائها في هويتك ﴿وَأَنتَ﴾ بذاتك وأسمائك وصفاتك ﴿خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ الذين هم أيضاً من مقتضيات أوصافك وعكوس أسمائك، والكل بك منك، ولا راحم سواك، ولا مربي غيرك.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المتحقق بمقام العبودية أن تلازم على هذه الكلمة التي أسمعَك الحق على لسان نبيك وتداومَ عليها، سيما في خلواتك وأعقاب صلواتك، عازماً عليها، سامعاً لها سمعَ قبولٍ ورضا، حتى يترسخ في قلبك، وتتمرن فيه إلى حيث نطقت حالك بها بلا ترجمان من لسانك.

ومتى تحققتَ وتمكنتَ في هذه المرتبة أتممت مرتبة العبودية، فلك بعد ما كملت عبوديتك الترقي منها بتوفيق الله وجذبٍ من جانبه إلى مرتبة الفناء في الله والبقاء ببقائه.

وذلك لا يتم إلا باضمحلال هويتك وتلاشي بشريتك وماهيتك إلى حيث سقطت عنك تعيناتك رأساً، وفنيت تشخصاتك جملةً، وحينئذٍ فزتَ بما فزتَ، ووصلتَ بما وصلتَ، وليس وراء الله مرمى ولا منتهى.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة النور

لا يخفى على من تنور قلبه بنور الكشف والشهود واكتحل عينه بمشاهدة آثار الجود على مظاهر الوجود أن انبساطَ نور الحق على ذرائر الأكوان وفيضان أظلال وجوده على صفائح الأعيان إنما هو لإظهار الكمالات المندرجة في الذات الأحدية باعتبار الأوصاف والأسماء الذاتية المندمجة فيها حسب التجليات الحبية والتجددات الشوقية المنبعثة على المحبة الذاتية والموجبة للجلاء والإنجلاء، وذلك لا يحصل إلا بالتنزلات إلى الشؤون والتطورات المستلزمة للإضافات والكثرات لتعين مراتب المحب والمحبوب والمحبة، والطالب والمطلوب والطلب، والسير والسلوك والصعود، والعروج والوصول والاتصال.

وبعد حصول التنزلات حدثت الإضافات والاختلافات وتفاوتت الأعمال والأحوال، فظهرت الآراء والمذاهب، فبرزت الأهواء والمشارب، مما اقتضت الحكمة الإلهية وضعَ الحدود والآداب بين المظاهر المختلفة والآراء المتفاوتة ليعتدل أمر الأنام ولا يختل النظام، واستقامت السبل وتميزت الطرق وتفرقت السعادة من الشقاوة والهداية من الضلال.

سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾............

لذلك أشار سبحانه إلى وضع الحدود أولاً بين الأنام، ومن أهمهما: حفظ التناسل والتناكح من السفاح المفضي إلى سدِّ باب المعرفة التي هي الحكمة والمصلحة من إظهار نوع الإنسان، إذ لهذا النوع مرتبة الخلافة والنيابة من الله الرحيم الرحمن.

فالخلطة والشركة في حصول هذا النوع منحلٌ بصرافة الوحدة الذاتية، إذ لا بد من المناسبة بين المستخلف والمستخلف منه، فقال سبحانه متيمناً متبركاً باسمه الجامع لجميع الأسماء والأوصاف:

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ الذي أظهر نوع الإنسان لخلافته وأنعم عليهم التخلق بأخلاقه والاتصاف بأوصافه ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ عليهم حيث أظهرهم بأحسن التقويم وأعدله ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ عليهم بإصلاح مفاسدهم وتحسين مقابحهم ؛ لئلا ينحطوا عن رتبة خلافته ونيابته.

هذه ﴿سُورَةٌ ﴾ عظيمةٌ وسِفرٌ جليلٌ وآياتٌ كريمةٌ ﴿أَنزَلْنَٰهَا﴾ من مقام جودنا وفضلنا عليك يا أكمل الرسل تأييداً لنبوتك ورسالتك وترويجاً لدينك وملكتك ﴿وَفَرَضْنَٰهَا ﴾ أي أوجبنا الأحكام التي ذُكرتْ فيها، وقدّرنا الحدود المقررةَ في ضمنها، ألزمناها على من تبعك من المؤمنين تهذيباً لظواهرهم وبواطنهم ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ ﴾عظام دالة على وحدة ذاتنا وكمال قدرتنا على الإنعام والانتقام مع كونها ﴿ بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات الدلالات ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾﴾ وتتعظون، فتتركون ما يوجب مقتكم وهلاككم، وتتوجهون إلى ما جُبلتم لأجله.

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ ....

ثم أخذ سبحانه بتطهير المؤمنين عن أفحش الفواحش وأقبح الآثام فقال:

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾ أي حكمهما وحدهما فيما فرضناها وتلوناها عليكم أيها المؤمنون الجَلد، قدَّم سبحانه الزانية لأن وقوع الزنى في الأغلب من جانبهن، ومن غرض نفوسهن وزينتهن على الرجال، وإذا سمعتم أيها الحكام الحدودَ والحُكمَ فيهما ﴿فَٱجْلِدُوا۟﴾ بعدما ثبت الزنا بينهما، وهما غير محصنين إذ حكم المحصن مطلقاً بالإجماع رجمُ كل منهما إن كانا محصنين ورجم أحدهما إن كان الآخر غير محصن، والمحصن هو المسلم الحر العاقل البالغ الذي وقع منه الوقاع بنكاحٍ صحيحٍ ﴿كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ أي مائة ضربةٍ بسوطٍ مؤلمةٍ مجلدةٍ أشدَّ إيلامٍ بدل ضرباتٍ استلذَّ بها حال الوقاع.

وزاد الإمام الشافعي رحمه الله على جلد المائة تغريبَ العام، إذ هو أحوطُ وأدخلُ في الانزجار، لقوله عليه السلام: «البِكْرُ بِالبِكْرِ جَلْدُ مِائة وَتَغْرِيْبُ عَامْ»(١) ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم﴾ أيها الحكام وقت إجرائكم الحدودَ والأحكامَ ﴿بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ رقةٌ ومرحمةٌ تضيّعون بها حكمة الحد إذ لا رأفةَ ﴿فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ وتنفيذِ أحكامه وحدودِه الموضوعة فيه﴿إِن كُنتُمْ﴾ أيها الحكام

(١) رواه مسلم في صحيحه [٣ / ١٣١٦ رقم/ ١٦٩٠/ باب:حد الزنى] والنسائي في السنن الكبرى [٤/ ٢٧٠ رقم/ ٧١٤٣/ باب: نسخ الجلد عن الثيب] وابن ماجة في سننه [٢/ ٨٥٢ رقم/ ٢٥٥٠ / باب: حد الزنا] وغيرهم أنظر مجمع الزوائد [٦/ ٢٦٤ باب: نزول الحدود].

تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ

المقيمون للأحكام والحدود ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ وبجميع ما جاء به من عنده من الأوامر والنواهي وجميع الحدود الموضوعة من عنده ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾ الذي فيه تبلى السرائر وتكشف الضمائر، فلكم أن تقيموا حدود الله على الوجه الذي أُمرتم به ؛ لئلا تؤاخذوا في يوم الجزاء ﴿وَ﴾ بعدما قصدتم أيها الحكام إجراء الحد عليهما ﴿لۡيَشۡهَدۡ﴾ أي ليحضر وليبصر ﴿عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ﴾ أي جمعٌ كثيرٌ ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ المعتبرين تفضيحاً لهما وتشهيراً لأمرهما ؛ لينزجرا مما جرى عليهما مَن في قلبه ميلٌ إلى أمثال ما أَتَيا به من الفعلة القبيحة والديدنة الشنيعة.

ثم أشار سبحانه إلى قبح مناكحتهما وشناعة ألفتهما ومواصلتهما على وجه المبالغة في النهي والكراهة فقال:

﴿ٱلزَّانِي﴾ أي الذي يرغب ويميل إلى عورات المسلمين بلا رخصةٍ شرعيةٍ تعدياً عن حدود الله وهتكاً لستره ﴿لَا يَنكِحُ﴾ إن نكح ﴿إِلَّا زَانِيَةً﴾ مثله مناسبةً له ومشاكلةً إياه، إذ الجنسية علة التضام والألفة ﴿أَوۡ مُشۡرِكَةٗ﴾ هي أخسُّ وأخبثُ وأشدُّ قبحاً وشناعةً ﴿وَٱلزَّانِيَةُ﴾ الراغبة للأجانب، المائلةُ إليهم بلا طريقٍ شرعيٍ ﴿لَا يَنكِحُهَآ﴾ أيضاً ﴿إِلَّا زَانٍ﴾ كذلك لكمال الملاءمة والمشابهة ﴿أَوۡ مُشۡرِكٞۚ﴾ هو أخبثُ وأقبحُ ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ﴾ الفعلُ القبيح والخصلةُ الذميمة الشنيعة

عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟

﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ الموقنين المخلصين من أرباب العزائم، ونهيٌ على أهل الرخص منهم نهياً واصلاً إلى حد النفي والحرمة.

ثم قال سبحانه:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ﴾ بالزنا ﴿ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ﴾ الحرائر العاقلات البالغات العفائف من المسلمات، سواءً كان الرامي أزواجُهن أو غيرهم، وحكمُ المحصنين أيضاً كذلك وإنما خصهن بالذكر لكثرة ورود الرمي في حقهن، وكون رميهن سبباً لنزول هذه الآية الكريمة ﴿ ثُمَّ ﴾ بعدما رَموا ﴿لَمْ يَأْتُوا۟﴾ لإثباته ﴿ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ﴾ ذوي عدلٍ وأمانة ومروءةٍ بحيث لم يكونوا متجسسين عن أحوال الزانين البغيين، ولا مستورين منتظرين لاطلاع ما يأتيان به من الفعلة الشنيعة، بل وقع نظرهم عليهما بغتة فرأوا قبح صنيعهما ـ العياذ بالله ـ كالميل في المكحلة فإن أتوا بأربعة شهداء على الوجه المذكور فقد أثبتوا الزنا وإن لم يأتوا ﴿فَٱجْلِدُوهُمْ﴾ أيها الحكام، الرامين القاذفين ﴿ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ لا كجلدة الزنا بل أخف منها كما هي أقل عدداً ﴿وَ﴾ بعدما جلدتم أيها المقيمون لحدود الله ﴿ لَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً ﴾ أصلاً في حالٍ من الأحوال ودعوىً من الدعاوي ﴿أَبَدًا ۚ﴾ إلى انقراض حياتهم ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الأشقياء المردودون ﴿هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾﴾ الخارجون عن مقتضى العقل والشرعِ، المسقطون للمروءة والعدالة، التاركون طريق الإنصاف والانتصاف، لا ترجى نجاتهم من عذاب الله أصلاً ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ منهم ورجعوا

مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ
شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾
وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ ....

﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ الرمي والافتراء ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾ ما أفسدوا على نفوسهم بالتوبة والندامة عن ظهر القلب ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلع لضمائرهم ﴿غَفُورٞ﴾ يعفو عنهم ويستر زلتهم ﴿رَّحِيمٞ ﴿٥﴾﴾ يرحمهم ويقبل توبتهم، إن أخلصوا فيها.

﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ بالزنا ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ﴾ حضراءُ عندهم ﴿إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ﴾ أي غير أنفسِهم ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ﴾ صارت وتقاوت ﴿أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ﴾ في إسقاط حدِّ القذف عنهم منزلةَ أربع شهاداتٍ مؤدياتٍ ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلقات بهذا المدعى وهي ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الزوج المدعي ﴿لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾﴾ في دعوى الزنا بلا افتراءٍ منه ومراءٍ.

﴿وَٱلۡخَٰمِسَةُ﴾ أي بعدما أدى الأربعةَ أتى بالشهادة الخامسة لها، المؤكدة المقيدة بلعنة الله تغليظاً بأن قال هكذا: ﴿أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ﴾ أي طردُه وتبعيدُه عن ساحة عز حضوره وسِعة رحمته ﴿عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾﴾ في هذه الدعوى.

وبعد أداء الشهادات الأربع المؤكد بالخامسة، فقد سقط عنه حد القذف، وثبت حد الزنا على المرأة، ووقع التفريق المؤبَّد بينهما بالفسخ أو بالطلاق على اختلاف الرأيين، ونفيُ الولد إن تعرض له فيه.

وَيَدْرَؤُا عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ ....

﴿وَيَدْرَؤُا عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾ أي يُسقط عن المرأة حدَّ الزنا بعد ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ﴾ مؤديات ﴿بِٱللَّهِ ۙ﴾ متعلقات بقولها: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الزوج ﴿لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾﴾ المفترين فيما رماني به وأنا بريئةٌ عنه ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ﴾ أي أكدت الأربعةَ بالخامسةِ أيضاً قائلة: ﴿أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ﴾ وقهرَه وتبعيدَه عن سعة رحمته ﴿عَلَيْهَآ إِن كَانَ﴾ زوجها ﴿مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾﴾ في هذا الرمي الشنيع.

وبعدما ما أدتها على وجهها سقط الحد عنها، ووقع التفريق المؤبد، لقوله ﷺ: «المُتَلَاعِنَان لَا يَجْتَمِعَان أَبَدَاً»[1].

ثم قال سبحانه:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ المطلعِ بجميع سرائر عباده ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أيها المجترئون بالحلف الكاذب والشهادات الباطلة وتحمُّل لعنة الله وغضبه ﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾ أي مرحمتُه وشفقتُه بالستر والإخفاء عليكم لَفَضَحكم وأظهرَ شنعتكم البتة، ولكنه أمهلكم وستر عليكم رجاء أن تتوبوا عن هتك محارم الله والخروج عن مقتضى حدوده ﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف [٤/ ٢٠ رقم/ ١٧٣٧٦/] وغيره بطرق وألفاظ متعددة.

انظر شرح فتح القدير [٤ / ٢٨٦ - وما بعدها].

تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ ....

المصلحَ لأحوالكم ﴿تَوَّابٌ﴾ لكم يوفقكم على التوبة ﴿حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ في جميع أفعاله، لا يعاجلكم بالعقوبة، كي تتنبهوا عن قبح صنيعكم، وترجعوا عن سوء فعالكم ؛ لتفوزوا إلى ما جبلتم لأجله.

ثم أشار سبحانه إلى تطهير ذيل عائشة رضي الله تعالى عنها عما رماها وافتراها أهل الزيغ والضلال جهلاً بحالها وعلوِّ شأنها وكمال عصمتِها وعِفَّتها فقال:

﴿إِنَّ﴾ المفسدين المسرفين ﴿ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ أي بالكذب الصارف عن الحق ﴿عُصْبَةٌ﴾ أي فرقةٌ وعصابةٌ معدودةٌ ﴿مِّنكُمْۚ﴾ أيها المؤمنون المقذوفون مع أنهم ﴿لَا تَحْسَبُوهُ﴾ ولا تظنوه أي الإفكَ الذي جاؤوا به ﴿شَرًّا لَّكُمۖ﴾ ولحوقَ عارٍ عليكم ﴿بَلْ هُوَ﴾ أي أفكُهم ﴿خَيْرٌ لَّكُمْۚ﴾ وسببُ ثوابٍ عظيمٍ وأجر جزيلٍ وظهور كرامةٍ ونزول آياتٍ عظام في براءتكم وطهارتكم وتهويل شأنكم وصار ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم﴾ أي من القاذفين المفترين جزاء ﴿مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِۚ﴾ والإفكِ الذي جاؤوا به ظلماً وزوراً ﴿وَ﴾ لاسيما الشخصَ ﴿ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ﴾ أي معظم الآفكين وهو الذي أخذ في إفشائه وإشاعته وهو ابن أُبيّ ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ في الدنيا والآخرة، إذ هو مطرود بين المؤمنين، مشهورٌ بالنفاق، وله في

لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ....

الآخرة أشدُّ العذاب.

ثم وبَّخ سبحانه على الآفكين وقرَّعهم حيث قال:

﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ أي الإفكَ أيها الآفكون لم تظنوا بالمقذوفيْن خيراً[1] كما ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَ﴾ لَمْ تقولوا كما ﴿قَالُوا۟﴾ أي المؤمنون: ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾ وكذبٌ عظيمٌ وفريةٌ بلا مريةٍ، إذ ساحة عصمتها وطهارة ذيلها ونجابة طينتها أجلُّ وأعلى من أن يُفترى عليها أمثال هذه المفتريات الباطلة.

عصمنا الله عما لا يرضى منه سبحانه.

﴿لَّوْلَا جَآءُو﴾ أي الآفكون المسرفون وأتوا ﴿عَلَيْهِ﴾ أي على إفكهم هذا ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ عدولاً لصدقوا فيما قالوا ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ﴾ الأربع العدول ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الآفكون المفترون ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ المطلع لضمائرهم ﴿هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾ المقصورون على الكذب، يجازيهم سبحانه على مقتضى ما اقترفوا من الكذب والبهتان، سيما مع أهل البيت، أهل العصمة والكرامة.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الباهتون المفترون بتوفيقكم على الإنابة

---

(١) في المخطوط (لم تظنون المقذوفين خيراً).

وَرَحْمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ ....

والرجوع عن هذه الفرية العظيمة ﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾ الشاملة لكم ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ وخضتم في إشاعته وإذاعته ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ عاجلاً وآجلاً.

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ﴾ مع نهاية كراهته وسماجته ﴿بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ سائلاً بعضكم بعضاً متلقياً على قبوله وسماعه ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ لا ظنٌ ولا يقينٌ بل جهلٌ وتخمينٌ ﴿وَ﴾ مع عظم هذا الجرم عند الله ﴿تَحْسَبُونَهُۥ﴾ أيها الحمقى المسرفون ﴿هَيِّنًا﴾ سهلاً يسيراً، لا يترتب عليه شيءٌ من العذاب والعقاب ﴿وَ﴾الحال أنه ﴿هُوَ﴾ أي رمي تلك البريئة العفيفة ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ المطلع لعفتها وعصمتها ﴿عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ فظيعٌ في غاية العظمة والفظاعة، مستجلبٌ لأنواع العذاب وأشد النكال، إذ الافتراء بآحاد الناس يوجب أشدَّ العذاب وأسوأ العقاب، فكيف بأفضلهم وأشرفهم.

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ أولاً أيها الآفاكون المفترون ﴿قُلْتُم مَّا يَكُونُ﴾ أي ما يصح ويجوز ﴿لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ الفحش الباطل والكذب الصريح العاطل ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ نقدسك وننزهك من أن تمكّن أحداً يفعل، ويقول في حق حليلة حبيبك ﷺ أمثال هذا الافتراء إذ ﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾

يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۚ
وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ.......................

تبهتُ وتحيرُ منه العقول وتضطرب الأسماع وتتقلقل القلوب.

﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ﴾ المصلح لمفاسدكم ويبالغ في وعظكم وتذكيركم كراهة ﴿أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا﴾ ما دمتم حياً ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾ بالله مصدقين لنبيه إذ أمثال هذه الخرافات بالنسبة إلى أهل بيت النبوة من أمارات الكفر والتكذيب وعلامات سوء الأدب مع الله ورسوله.

﴿وَ﴾ بعد صدور أمثال هذه الخرافات من أهل السرف والإفساد ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾ المدبر ﴿لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۚ﴾ الدالة على الصفح والإعراض عن أمثال هذه الافتراءات الهاتكة لأستار محارم الله، سيما مع أكرم عترة حبيبه ﴿وَٱللَّهُ﴾ المصلح لأحوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في ضمائركم وخواطركم ﴿حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ في إزالة ما يضركم ويغويكم.

ثم قال سبحانه تذكيراً لعموم عباده:

﴿إِنَّ﴾ المفسدين المسرفين ﴿ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾ من خبث بواطنهم ﴿أَن تَشِيعَ﴾ تظهر وتنتشر ﴿ٱلْفَـٰحِشَةُ﴾ الخصلة المذمومة عقلاً وشرعاً ﴿فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي بين عموم المؤمنين ﴿لَهُمْ﴾ جزاءً لإشاعتهم وإذاعتهم ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلمٌ مفزعٌ ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بالجلد ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ﴾ بالنار المحرق الملتهب ﴿وَٱللَّهُ﴾ المطلع لجميع ما جرى في الغيب والشهادة ﴿يَعْلَمُ﴾

وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ ....

قبحَ ما في الإشاعة والإذاعة ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ قبحها لذلك تحبون.

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بفتح باب التوبة والرجوع عن المعصية بالندامة الخالصة، لفضَحكم وعذبكم بقبح صنعتكم وشنعة خصلتكم ﴿وَ﴾ اعلموا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المراقب لجميع ما صدر عنكم ﴿ رَءُوفٌ﴾ لكم يحفظكم عما يضركم ﴿رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ لكم يرحمكم، بعدما وفقتم على التوبة والندامة.

ولما كان أمثال هذه المعاصي والآثام بمتابعة الشيطان المضلِّ المغوي، نادى سبحانه عموم عباده المؤمنين ونهاهم عن متابعته والاقتداء به والاقتفاء بأثره فقال:

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بوحدة الصانع وصفاته وبالنبوة والرسالة والتشريع العام المفيد لاعتدال الأخلاق والأطوار بين عموم العباد، مقتضى إيمانكم مخالفة النفس والهوى اللتين هما من جنود الشيطان المضل المغوي عن طريق الحق ﴿لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ﴾ ولا تقتفوا أثره في إشاعة الفاحشة واستحباب المعصية ﴿وَمَن يَتَّبِعْ﴾ منكم أيها المؤمنون ﴿ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ المضل المغوي فقد ضلَّ وغوى ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ أي الشيطان

يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ ....

﴿يَأْمُرُ﴾ من يتابعه ويقتدي به ﴿بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ المستقبح عقلاً وشرعاً ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ المردود مروءة ونقلاً ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ المتكفلِ لإصلاح حالكم عليكم ﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾ الواسعة الشاملةُ لعموم عباده ﴿مَا زَكَىٰ﴾ وطهر وخلص ﴿مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ متابعة الشيطان ﴿أَبَدًا﴾ ما دمتم أحياء، إذ متابعته مطبوعةٌ لكم، مستحسنةٌ عندكم، مقبولةٌ لأنفسكم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ المدبرَ لأمور عباده ﴿يُزَكِّى﴾ أي يخلص ويطهر من غوائل الشيطان ووساوسه ﴿مَن يَشَآءُ﴾ رعايةً لحكمته، وضبطاً لمصلحته التي جَبل عباده عليها ﴿وَٱللَّهُ﴾ المطّلعُ[1] لما ظهرَ وبطنَ ﴿سَمِيعٌ﴾ لأقوالهم ﴿عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ بقصدهم ونياتهم.

﴿وَ﴾ بعد ما جاء من القاذفين الآفكين ما جاء، انصرف عنهم المؤمنون وأعرضوا عن إنفاقهم ورعايتهم وحلفوا أن لا ينفقوا عليهم أصلاً، مع أن بعضَهم في غاية الفاقة، رد الله على المؤمنين وحثهم على الإنفاق وأمرهم بالإحسان بدل الإساءة وقال: ﴿لَا يَأْتَلِ﴾ أي لا يحلف ولا يقصر ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ في الدين ﴿وَ﴾ أولو ﴿ٱلسَّعَةِ﴾ في الرزق ﴿أَن يُؤْتُوٓا۟﴾ أي من أن لا يؤتوا أو على أن لا يؤتوا ﴿أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي الفقراء الذين ينتمون إليكم أيها المؤمنون بالقرابة ﴿وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ الفاقدين لقوت يومهم ولا

(١) في المخطوط (المصلح).

وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ....

سيما الفقراء ﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ الباذلين أرواحهم في ترويج دينه بسبب أنهم خاضوا في معصية الإفك والافتراء، وجاؤوا ببهتانٍ عظيمٍ، وأحبوا أن يشيعوه، ويتقولوا به ظلماً وزوراً ﴿وَ﴾ بعد نزول آيات البراءة والتنزيه في شأن العفيفة رضي الله تعالى عنها ﴿لِيَعْفو﴾ أي جملة المؤمنين عن ذنوب القاذفين بعدما تابوا وندموا وقَبِل الله سبحانه منهم توبتهم ﴿وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ﴾ وليعرضوا عن جريمتهم ويصافحوا معهم، وليعطوا لهم ما أعطوهم قبل ﴿أَلَا تُحِبُّونَ﴾ أيها المقذوفون المطهرون البريئون ﴿أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ﴾ زلتكم وذنوبكم بسبب عفوكم عنهم وصفحكم عما جاؤوا به افتراءً ﴿وَٱللَّهُ﴾ المنتقم المجازي لعباده ﴿غَفُورٞ﴾ لهم يغفر زلتهم وذنوبهم بسبب عفوهم جرائم إخوانهم ﴿رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ يرحمهم تفضلاً عليهم وامتناناً.

روي أنه عليه السلام قرأها على أبي بكر رضي الله عنه، فقال: بلى أحب، وأعاد إلى مسطح ـ هو أحد القاذفين الآفكين ـ وهو ابن خالته فقيرٌ ليس له شيء ينفقه على نفسه، لأنه ينفق عليه دائماً[1].

ثم قال سبحانه تذكيراً لعموم عباده ونهياً لهم عن الرمي بالزنا مطلقاً:

---

(١) القصة مذكورة في الصحيح. في التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول برقم: ٧٢٩: عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها. وأخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي. الكتاب المصدر: جامع الأصول في أحاديث الرسول ٢/ ٢٥٠.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾

﴿إِنَّ﴾ المسرفين ﴿ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ﴾ بالزنا ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ المتعففات والمستحفظات لحدود الله ﴿ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ البريئات المنزهَات عما رُموا به أولئك الغفلة الجهلة ظلماً وزوراً ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ بالله ، وبما جاء من عنده من الحدود والأحكام الجارية على ألسنة رسله، وبيوم الجزاء المعدّ للكشف والتفضيح ﴿لُعِنُوا۟﴾ وطُردوا عن روح الله وسعة رحمته؛ لقصدهم عرض العفائف وهتك أستارهن، وطعنهم فيهن افتراءً ومراءً ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بإجراء الحد وأنواع الطرد والشتم، ورد شهادتهم مدة حياتهم ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ بأنواع العذاب والنكال ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿لَهُمْ﴾ بسبب قبح صنيعهم وسوء فعالهم ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ لا عذاب أعظم منه لعظم جرمهم وعصيانهم.

اذكر لهم يا أكمل الرسل توبيخاً لهم وتذكيراً لمن اعتبر منهم من المؤمنين ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ﴾ بإلهام الله وإعلامه ﴿أَلْسِنَتُهُمْ﴾ وتقر بما صدر عنها من الكذب والافتراء ورمي المحصنات وقذف العفائف عمداً بلا علم لهم ولا شعور بحالهن ﴿وَأَيْدِيهِمْ﴾ لما اقترفوا من الأخذ والإعطاء لا على الوجه المشروع ﴿وَأَرْجُلُهُم﴾ بالسعي والتردد إلى ما لا يرضى منه سبحانه ولا رسوله ولا المؤمنون، وبالجملة يقر كل من أعضائهم وجوارحهم ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ ويكتسبون من المعاصي والآثام.

يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ .....

﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ﴾ المجازي لأعمالهم ﴿دِينَهُمُ﴾ وجزائهم ﴿ٱلۡحَقَّ﴾ أي ما يستحقون من الجزاء بلا زيادة ونقصان عدلاً منه سبحانه ﴿وَ﴾ حينئذٍ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ يقيناً ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ القادر على الإنعام والانتقام ﴿هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ المقصور على التحقق والثبوت بالقسط والعدل ﴿ٱلۡمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ الظاهر ألوهيته وربوبيته على الوجه الأقسط الأعدل الأقوم بلا ميلٍ منه وانحرافٍ عن جادة الاستقامة والعدل الحقيقي.

ومن جملة عدالته رعاية المناسبات بين المظاهر والمربوبات، كما بينها سبحانه بقوله:

﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ﴾ من النساء المطعونات بأنواع الرذائل، المنحرفات عن جادة السلامة والطهارة ﴿لِلۡخَبِيثِينَ﴾ كذلك من الرجال، يعني لا يتزوجهن غير الخبيثين بحكم المناسبة ﴿وَ﴾ كذا ﴿ٱلۡخَبِيثُونَ﴾ من الرجال ﴿لِلۡخَبِيثَٰتِۖ﴾ من النساء، كلٌ لنظيرتها بحكم المصلحة الإلهية ﴿وَ﴾ كذا ﴿ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ الطاهرات العفائف المحصنات ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ أيضاً كذلك ﴿وَ﴾ كذا ﴿وَٱلطَّيِّبُونَ﴾ المستقيمون على جادة التوحيد والعدالة ﴿لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ أيضاً كذلك، إذ كلٌ يميل بالطبع إلى شاكلته بالميل المعنوي الموضوع بالوضع الإلهي، ومتى ثبت هذا الحكم وتبين هذه المناسبات بتبيين الله

أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ ....

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ العفائف المطهرون الطيبون ﴿مُبَرَّءُونَ﴾ منزَّهون ﴿مِمَّا يَقُولُونَۖ﴾ أولئك الرماة المفترون والطغاة الخبيثون المنحرفون عن طريق الحق، الناكبون عن صراطٍ مستقيم ولبراءتهم ونزاهتهم ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ وعفوٌ من الله المطَّلعِ لبراءتهم الشاهدِ عليها ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٢٦﴾﴾ وهو الرزق الصوري والمعنوي الذي يتلذذون به في الجنة، عند كشف الغطاء ورفع الحجب.

اللهم ارزقنا بلطفك من الرزق الكريم، واجعلنا بجودك من ورثة جنة النعيم.

ثم لما كان أمثال هذه الهذيانات الباطلة والمفتريات العاطلة من نتائج الخلطة والاستئناس مع أصحاب الغفلة وكشف الحجب والأستار الواقعة بين ذوي القدور والاعتبار وأولي الخطر الكبار إلى من هو من السفلة الساقطين المنحطين من درجة أرباب الاستبصار.

أشار سبحانه إلى أن الاختلاط والاستئناس بين المؤمنين لا بد وأن يكون مسبوقاً بالاستئذان والاسترخاص، حتى لا يؤدي إلى أمثال هذه الخرافات فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مقتضى إيمانكم محافظة المحبة والإخلاص بينكم ومن جملتها أنها ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ﴾ أي بيتاً من

حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْۖ ....

بيوت إخوانكم بغتةً بلا استئذانٍ من أهلها، بل لكم أن تصبروا ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ﴾ وتستأذنوا وتطلبوا رخصة الدخول ﴿وَ﴾ بعدما أذنتم ورخصتم ﴿تُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَاۚ﴾ بأن تقولوا: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ! أَدْخُلُ أَمْ لَاْ؟ ثلاث مرات»(١)، هكذا روي عن النبي ﷺ، فإن أذنتم بالدخول، فادخلوه وإلا فارجعوا ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي الاستئذان والاستئناس ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من المبادرة إلى الدخول بغتةً، وإنما أَنزل عليكم هذه الكريمة المتعلقة بالأخلاق ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ وتتعظون بها وتحفظون حدود المصاحبة والمؤاخاة بينكم، ولا تجاوزون عن مقتضى المروءة والعدالة.

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ﴾ أي في البيوت ﴿أَحَدًا﴾ تستأذنون منه ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا﴾ لئلا تُتهموا بأنواع التهمة بل اصبروا ﴿حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْۖ﴾ أي لا تدخلوا حتى تجدوا من يأذن لكم ﴿وَ﴾ بعدما وجدتم ﴿إِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ﴾ فالوقت لا يسع بالدخول ﴿فَٱرْجِعُواْۖ﴾ على الفور بلا تفحصٍ وتفتيشٍ عن أسبابه على وجه الإلحاح والاقتراح كما يفعله جهلة الناس.

(١) في التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول برقم: ٤٨١٧: عن ربعي بن حراش رضي الله عنه، وعن رجلٍ من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين بلفظ: «... فقال رسولُ الله ﷺ لخادمه: اخرج إلى هذا، فعَلِّمه الاستئذانَ، فقل له: قل: السَّلامُ عليكم، أأدخل؟ فسمع الرجلُ ذلك من رسولِ الله ﷺ، فقال: السلامُ عليكم، أأدْخُل؟ فأذِنَ لَهُ رسولُ الله ﷺ، فَدَخَلَ» وهو حديثٌ صحيح أخرجه أبو داود. الكتاب المصدر:جامع الأصول في أحاديث الرسول ٦/ ٥٧٧.

هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ....

﴿هُوَ﴾ أي الرجوع بلا تفتيشٍ ﴿أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ﴾ وأطهر لنفوسكم من الإلحاح ﴿وَٱللَّهُ﴾ المدبر لمصالحكم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وتأملون في نفوسكم ﴿عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ يجازيكم على مقتضى علمه وخبرته.

﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي ضيق ومنع ﴿أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ مع أن ﴿فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ﴾ تستأجرونها أو تستعيرونها[1] للادخار والاستخزان ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ٱللَّهُ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿يَعْلَمُ﴾ منكم ﴿مَا تُبْدُونَ﴾ وتظهرون ﴿وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ وتخفون، يجازيكم على مقتضى علمه.

ثم أمر سبحانه لحبيبه ﷺ بتذكير عباده وتهذيب أخلاقهم سيما في حفظ المحارم والحدود فقال:

﴿قُل﴾ يا أكمل الرسل ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدقين بحدود الله، الممتثلين بأوامره ﴿يَغُضُّوا۟﴾ وينقصوا ﴿مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ مطلقاً دائماً حتى لا يقع نظرهم بغتةً إلى المحرمات، بل لهم أن يديموا النظر إلى الطريق الذي مشوا عليها، حتى يَسلَموا من شرور أمارتهم وصَولة جنود الشهوات عليهم ﴿وَ﴾ قل لهم أيضاً ﴿يَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ﴾ عن أمارات الزنا وعلامات

---

(١) في هامش المخطوط (يستأجرونها أو يستعيرونها أي هم أصحاب البيت غير المسكون).

ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَاۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ ....

السفاح ومقدماته ويتقوا عن مواضع التهم ومظانّ الرمي والقذف مطلقاً ﴿ذَٰلِكَ﴾ الغضُّ والحفظُ ﴿أَزْكَىٰ لَهُمْۚ﴾ وأطهرُ لنفوسهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ الرقيبَ على جميع حالاتهم ﴿خَبِيرُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ من التفكر والترامز وإجالة النظر، وتحريك سائر الأعضاء نحو ما يشتهون من المحرمات.

﴿وَقُل﴾ أيضاً يا أكمل الرسل ﴿لِّلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ المقيمات لحدود الله، المتحفظات لمحارمه ﴿يَغْضُضْنَ﴾ وينقصن ﴿مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ ويقصرن نظرهن إلى أزواجهن ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ من الميل إلى المحارم، ولهن أن لا يعرضن نفوسهن إلى غير أزواجهن ﴿وَلَا يُبْدِينَ﴾ ويظهرن ﴿زِينَتَهُنَّ﴾ لغيرهن ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَاۖ﴾ ما ظهر من الثياب التي يلبسونهن ﴿وَ﴾ من غاية تسترهم وتحفظهم ﴿لْيَضْرِبْنَ﴾ ويسترن ﴿بِخُمُرِهِنَّ﴾ ومقانعهن ﴿عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ﴾ أي نحورهن وصدورهن مبالغةً في التستر والتحفظ ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿لَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ أي التي يتزينَّ بها لازدياد الحسن ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ أي لأزواجهن ـ الزينةُ إنما هي لأجلهم ـ ﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ﴾ إذ هم الأولياء لهن ﴿أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ لحفظهم محارم أبنائهم ﴿أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ﴾ لأنهم أُمناء على أمهاتهم

أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ....

﴿ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ ﴾ لأنهم حافظون حمية آبائهم ومحارمهم ﴿أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾ لأنهم أحفظُ عليهن منهن ؛ لخوف لحوق العار حميةً وغيرةً ﴿ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ ﴾ إذ هم كآبائهم في محافظتهن ﴿ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ ﴾ لأن نسبتهم إليهن كنسبتهم إلى أمهاتهم ﴿ أَوْ نِسَآئِهِنَّ ﴾ أي المسلمات مطلقاً، إذ لا يتصور منهن الضرر سوى السحاقة، والضرر والإيمان يمنع عنهما ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ﴾ إذ الاحتراز عنهم حرجٌ لأنهم من أهل الخدمة ﴿ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ ﴾ أي الحاجة والشهوة ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ إلهم الهرم الذين لا يبقى منهم الشهوة ﴿ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ﴾ لعدم بلوغهم وقت الحلم وثوران الشهوة ﴿ وَ﴾ أيضاً قل لهن: ﴿لَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ ﴾ على عادة الجهال من التبختر والرقص ﴿لِيُعْلَمَ﴾ ويظهر ﴿مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَ﴾ بالجملة ﴿تُوبُوٓا۟﴾ رجالاً ونساءً ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ المبدئِ المبدعِ لكم من كتم العدم ﴿جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ بتوحيد الله ، المصدقون لكتبه ورسله ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ وتفوزون بالفلاح والنجاح عند الملك التواب الفتاح.

وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ ....

ثم لما أشار سبحانه إلى محافظة الحدود والآداب والألفة والمصاحبة بين المؤمنين ونهاهم عن أمارات السفاح ومقدمات الزنا مطلقاً ؛ لئلا يجهل النسب وتختلط النُطف، وقدَّمها اهتماماً بشأنها أراد أن يشير إلى النكاح الصوري المنبئ عن النكاح المعنوي فقال:

﴿وَأَنكِحُوا۟﴾ أيها الأولياء السادات المولون لأمور من في حفظكم وحضانتكم ﴿ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ وهو جمعُ أيم، هو العزب سواءً كانوا ذكراً أم أنثى، بكراً أو ثيباً ﴿وَ﴾ أنكحوا أيضاً ﴿ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ للنكاح والتزويج ﴿مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ﴾ فعليكم أيها الولاة تزويج الأيامى، ولا تبالوا بفقرهم وفاقتهم ﴿ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ﴾ عند النكاح ﴿ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ﴾ المصلح لأحوالهم ﴿مِن فَضْلِهِۦ ۗ﴾ وسعة جوده ورحمته لعباده بعد النكاح ﴿وَٱللَّهُ﴾ المدبرُ لأمور عباده، المتكفلُ لأرزاقهم ﴿ وَٰسِعٌ﴾ يوسع عليهم من رزقه ﴿عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾ برثاثة حالهم، مغنٍ علمُه بهم عن سؤالهم.

﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾ أي ليجتهد في العفة وتسكين الشهوة الفقراء ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أي أسبابه وصداقه وليصبروا بمشاق العزوبة ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ المصلحُ لأحوالهم ﴿ مِن فَضْلِهِۦ ۗ﴾ وسعة جوده، فيجدون ما يتزوجون به.

﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ﴾ ....

ثم أشار سبحانه إلى عتق الموالي وتخليصهم من ربقة الرق وعروة العبودية طلباً لمرضاة الله وعتقاً من عذابه فقال:

﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ﴾ أي العبيد الذي يطلبون ﴿الْكِتَابَ﴾ أي الكتابة المتضمنة لعتقهم وخلاصهم عن الرق بعدما أدوا المبلغ المعهود الذي يكاتب عليها وهم ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أيها الموالي سواء كانوا عبيداً أو إماءً، قناً أو مدبراً أو مستولدة، يطلبون منكم أن تعتقوهم على مالٍ تكتسبون لهم ليؤدوا إليكم منجماً، وبعدما أدوا ما تكتبون لهم صاروا أحراراً معتقين ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ واعتقوهم على جُعلٍ ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أي علمتم وتفرستم فيهم بعدما فككتم رقابهم يكونوا صلحاء أمناء مؤمنين لا يُرجى منهم الشر والفساد ﴿وَ﴾ بعد عقدهم الكتابة ﴿آتُوهُم﴾ أيها المسلمون ﴿مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ من فضله تفكيكاً لرقابهم عن مذلة الرق وهوان العبودية.

ثم أشار سبحانه إلى حسن المعاشرة مع المماليك ورعاية غبطتهم ومحافظة الحدود بينهم بحيث لا يُكرهونهم إلى ما لا يصلح لهم شرعاً وعادةً بل عقلاً ومروءةً[1]، سيما إذا استحصنوا وتحفظوا فقال على سبيل المبالغة في النهي: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا﴾ أيها السادة المسلمون ﴿فَتَيَاتِكُمْ﴾ أي

(١) في المخطوط (مرة).

عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ....

شوابّ جواريكم ﴿عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ أي الزنا مطلقاً سيما ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ وتحفظاً عن البغي مع قلة عقلهن ورشدهن، فأنتم أحق بحفظهن وحصنهن مما لا يرتضيه العقل والشرع، ولا تنصرفوا أيها الولاة عن مقتضى العقل والشرع ﴿لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وتطلبوا متاعها الفانية وحطامها الدنية الزائلة ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ﴾ سيما بعد نزول الزاجر ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ المنتقمَ لعصاة عباده، سيما الظالم الخارج عن حدوده ﴿مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ﴾ أي من بعد إكراههم لهن ﴿غَفُورٌ﴾ يغفر لهن ﴿رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ يرحم عليهن، إن كنّ مخلصات في التحصن، ويعاقب على المكرِهين أشد العقاب ويعذبهم أسوأ العذاب.

﴿وَ﴾ كيف لا يعاقبكم الله أيها المسرفون المصرون على الفسوق والعصيان ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ﴾ من مقام جودنا وفضلنا ﴿إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ واضحاتٍ فيها ما هو صلاحُكم ونجاتُكم ﴿وَ﴾ أوضحناها لكم بأن أوردنا فيها ﴿مَثَلًا مِّنَ﴾ أحوال الظلمة ﴿ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ﴾ ومضَوا ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ لتعتبروا مما جرى عليهم من سوء صنيعهم ﴿وَ﴾ ليكون قصصُهم ﴿مَوْعِظَةً﴾ وتذكيراً ﴿لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ منكم المحترزين من بطشنا وانتقامنا، ومع ذلك لم تعتبروا ولم تنزجروا، فتستحقوا أشد العذاب وأسوأ العقاب مثلهم.

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ....

وكيف لا تنزجرون عن قهر الله أيها الغافلون، ولا تخافون عن بطشه أيها الضالون، أما تستحيون منه سبحانه مع حضوره وشهوده في جميع الأماكن وظهور نوره في عموم الآفاق والأنفس غيباً وشهادة، ظاهراً وباطناً، أزلاً وأبداً، أولاً وآخراً، صورةً ومعنىً.

وكيف تتركون حدوده، وتخرجون عن مقتضى أوامره ونواهيه الموردة في كتبه المنزلة على رسله أيها الجاهلون المسرفون إذ:

﴿ ٱللَّهُ ﴾ المتجلي بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ﴿ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ أي مظهرهما وموجدهما وموجدُ ما ظهر بينهما وفيهما وعليهما من كتم العدم بلا سبق مادةٍ ومدةٍ بامتداد أظلال أسمائه وآثار صفاته عليهما ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ ﴾ أي ظهور أنوار وجوده من هياكل الهويات وشباك العكوس والتعينات ﴿ كَمِشْكَوٰةٍ ﴾ وهي كوةٌ تُوضع فيه القناديل المسرجة، وهي مثال الأشكال والمظاهر والتعينات المنعكسة من أشعة الأسماء والصفات الإلهية المتشعشعة المتجلية بالتجليات الحبية على مقتضى الذات ﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ وهي مثال نور الوجود الإلهي، المضيءِ بنفسه وذاته، ومن كمال شروقه وبروقه ولمعانه تخطف الأبصار وتكمل المدارك والأنظار، لذلك احتجب ﴿ ٱلْمِصْبَاحُ ﴾ المذكور أولاً ﴿ فِى زُجَاجَةٍ ﴾ صافيةٍ عن كدر التعينات ورين التعلقات، وهي مثال الأسماء والصفات المنبسطة أظلالها على

ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ....

صفائح الأكوان.

ومن كمال اللطافة والصفاء، هذه ﴿ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ في غاية الإضاءة والإنارة يتلألأ ويتشعشع بصفاته الذاتية ولطافته الجبلية لأنها ﴿يُوقَدُ﴾ وتسرج بدهن إلهي متخذ ﴿ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ كثيرة الخير والبركة لمن استظل تحتها، وهي شجرة الوجود الممتدة أظلالها على صفائح عموم ما ظهر وبطن من المظاهر والموجودات الغير المحصورة ﴿ زَيْتُونَةٍ ﴾ كثيرة النفع والخير، إذ الوجود خيرٌ محضٌ ونفعٌ صرفٌ لا شرَّ فيه ولا ضررَ أصلاً ﴿ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ أي معتدلةٌ في نفسها خارجةٌ عن الجهات كلِّها غيرُ محاطةٍ بها، ومن كمال صفائها ولطافتها ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا﴾ بإضاءتها الذاتية وإشراقها العينية [في نسخة: وإشراقها اللطيف] ﴿يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ هي التجلي الحبي الشوقي والمحبة الخالصة والعشق الإلهي.

وبالجملة نور الوجود الإلهي ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ لا يدركه ولا يتميز ولا يطلع عليه أحدٌ من مظاهره ومصنوعاته بلا توفيقٍ منه سبحانه وجذبٍ من جانبه بل ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ﴾ الهادي لعباده إلى صفاء توحيده ﴿لِنُورِهِۦ﴾ أي ضياءِ وجودِه وسعة رحمته وَجُوده ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من عباده ممن جذبه الحق

وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ
أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ
لَّا تُلْهِيهِمْ ....

نحو جنابه، ووفَّقه الوصول إلى فناء بابه، ﴿وَ﴾ للتنبيه إلى هذا المقام والإشارة إلى هذا المرام و﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ﴾ المطلع لاستعدادات عباده ﴿ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ المنبهة والأشباه المثيرة ﴿لِلنَّاسِ ۗ﴾ المجبولين على فطرة التوحيد لهم لعلهم يتفطنون على ما جبلوا لأجله ويتنبهوا على مبدئهم ومَعادهم ﴿ وَٱللَّهُ﴾ المحيط بالآفاق والأنفس إحاطة حضورٍ وشهودٍ ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ ﴾ مما جرى في مملكة عموم المظاهر والمصنوعات ﴿عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ لا يغيب عن علمه شيء.

ولهذا التفطن والتذكر يتوجه المخلصون المنجذبون نحو الحق:

﴿ فِى بُيُوتٍ ﴾ معدةٍ للتوجه مع أنه ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ﴾ الهادي لعباده إلى توحيده ﴿أَن تُرْفَعَ﴾ بناؤها وتُعظَّم غاية التعظيم ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا﴾ أي في تلك البيوت والمساجد ﴿ٱسْمُهُۥ﴾ الذي هو كلمة توحيده وتقدسيه ولهذا ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾ أي لله طلباً لمرضاته لا لغرضٍ دنيوي أو أخروي ﴿فِيهَا﴾ أي في تلك البيوت المذكورة دائماً ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾﴾ أي في جميع آناء الأيام والليالي.

﴿رِجَالٌ﴾ كمَّلٌ مخلصون منجذبون نحو الحق، مشمرون ذيل هممهم لسلوك طريق الفناء، منقطعون عن الدنيا وما فيها بحيث ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ﴾

تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٣٨﴾ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۢ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ

وتشغلهم ﴿ تِجَٰرَةٞ ﴾ وأرباح متعلقة بالأمور الدنيوية أو الأخروية ﴿ وَلَا بَيۡعٌ﴾ أيضاً كذلك ﴿ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ والتوجهِ نحو جنابه والعكوفِ على بابه ﴿ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ ودوام الميل والمناجاة معه ﴿ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ﴾ أي إنفاقُ ما في أيديهم خالصاً لطلب المرضاة ومع ذلك ﴿ يَخَافُونَ يَوۡمٗا ﴾ أي عذابَ يوم القيامة وما لحق فيها من النكال إذ من شدة هولها ﴿ تَتَقَلَّبُ ﴾ أي تتلقلق وتضطرب ﴿ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ تدهش فيه ﴿وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ كل ذلك

﴿ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ المجازي لما صدر عنهم ﴿ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ ﴾ بأحسن الجزاء ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ ﴾ امتناناً عليهم ﴿ وَٱللَّهُ ﴾ المتفضل لخواص عباده ﴿ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ منهم من الرزق المعنوي الحقيقي ﴿ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٣٨﴾﴾ أي بلا مقابلةِ عملٍ منهم ومعاوضة إحسانٍ من جانبهم، بل من محض الفضل والجود.

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته المستمرة:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ ستروا الحق وأنكروا عليه وأظهروا الباطل ظلماً وزوراً وروجوه عناداً ومكابرةً لذلك صارت ﴿ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ التي خيلوها صالحةً مستجلبةً لأنواع النفع في يوم الجزاء على عكس أعمال المؤمنين ﴿ كَسَرَابِۢ﴾ أي كمثل سرابٍ يلمع ويبرق ﴿ بِقِيعَةٖ﴾ أي باديةٍ وصحراءٍ ﴿ يَحۡسَبُهُ ﴾ ويظنه

ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ ....

﴿ ٱلظَّمْـَٔانُ ﴾ من بعيدٍ ﴿ مَآءً ﴾ مُسكناً للعطش، مبرِّداً للأكباد، فلما رآه سارع إليه وسعى نحوه سريعاً ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ ﴾ بعد تعبٍ كثيرٍ وعناءٍ مفرطٍ مؤملاً الوصول إلى الماء ﴿ لَمْ يَجِدْهُ ﴾ ماءً بل لم يجد ﴿ شَيْـًٔا ﴾ آخرَ متأصلاً في الوجود سوى العكوس التي تتراءى كالماء في البريق واللمعان من تقلب الحدقة وتشتت البال واضطراب الحواس باستيلاء العطش المفرط وحرارة الأكباد ﴿وَ﴾ بعد ما آيس من نفع أعماله ﴿وَجَدَ ٱللَّهَ﴾ الرقيبَ عليه في جميع أحواله، محاسباً إياه عما صدر عنه ﴿ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ ﴾ على الوجه الأقسط الأعدل بلا زيادةٍ ولا نقصانٍ ﴿ وَٱللَّهُ ﴾ المطلعُ على جميع ما جرى على عباده في جميع شؤونهم وتطوراتهم ﴿ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾ يحاسبهم ويجازيهم على مقتضى علمه وخبرته، بلا فوت شيءٍ مما صدر عنهم عدلاً منه سبحانه.

﴿أَوْ﴾ مثل أعمال الكفرة في عدم النفع والخير ﴿ كَظُلُمَٰتٍ ﴾ أي كمثل أصحاب ظلمات الليل الواقعة لهم ﴿ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ ﴾ أي عميقٍ غائرٍ منسوبٍ إلى اللجّ، وهو معظم الماء ﴿يَغْشَىٰهُ ﴾ أي يغطي البحر ويعلو عليه ﴿مَوْجٌ ﴾ هائلٌ ﴿ مِّن فَوْقِهِۦ ﴾ أي فوق الموج الأول ﴿ مَوْجٌ ﴾ آخرُ أهولُ منه هكذا، أي أمواجٌ متراكمةٌ مترادفةٌ بعضها فوق بعض على التوالي والتتالي مع أنه

مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ....

﴿مِّن فَوْقِهِۦ﴾ أي فوق الموج المظلم ﴿سَحَابٌۚ﴾ كثيفٌ أظلمُ منه، وبالجملة تلك الأمواج والسحب ﴿ظُلُمَٰتُۢ﴾ متراكمة مترادفة ﴿بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ بحيث ﴿إِذَآ أَخْرَجَ﴾ من وقع فيها ﴿يَدَهُۥ﴾ حذاء بصره اختباراً لنظره ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَاۗ﴾ أي لم يقرب أن يراها بالقوة فكيف بالفعل، هكذا أعمال الكفرة المتوغلين[1] في بحر الغفلة والضلال المغشّاة بالأمواج المتراكمة من الظلم والطغيان والغيّ والعدوان، من فوقه السحب الكثيفة والحجب الغليظة من الجهل بالله ، والتعامي عن مطالعة آياته الدالة على توحيده واتصافه بالأوصاف الذاتية، وملاحظة آثاره البديعة وصنائعه العجيبة الغريبة.

وهم من غاية انهماكهم في ظلمات غفلاتهم وجهالاتهم وكمال غيّهم وضلالهم إذا أمعنوا نظرهم إلى مشاهدة ما في نفوسهم من غرائب صنع الله لم يقربوا أن يكونوا مترصدين للوقوف عليها فكيف الشهود والاطلاع بها ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ﴾ الهادي لعباده إلى زلال توحيده ﴿لَهُۥ نُورًا﴾ من جذبةٍ وتوفيقٍ يهدي به التائهين إلى مقصد توحيده ﴿فَمَا لَهُۥ﴾ من نفسه وبمجرد كسبه وسعيه ﴿مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ يرشده إليه سبحانه، ويوصله إلى فضاء توحيده.

هب لنا منك نوراً نهتدي به إلى ما جُبلنا لأجله بفضلك وجودك يا ذا الطول العظيم.

(١) في المخطوط (المتداغلة).

﴿أَلَمْ تَـرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾ ....

﴿أَلَمْ تَـرَ﴾ ولم تعلم أيها المعتبر الرائي ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ المتوحدَ برداء العظمة والكبرياء، المستقلَ بالوجود الحقيقي بكمال اللطف والجود ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾ ويقدسه سبحانه عن جميع ما لا يليق بشأنه عن شوب النقص وسمات الحدوث والإمكان جميعُ ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من المجبولين على المعرفة المتوجهين نحو المبدع طوعاً ﴿وَ﴾ جميع من في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ أيضاً كذلك ﴿وَ﴾ كذا ﴿ٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍۖ﴾ باسطاتٍ أجنحتهن في الجو ﴿كُلٌّ﴾ أي كل واحدٍ من المسبحين السماويين والأرضيين والهوائيين ﴿قَدْ عَلِمَ﴾ وأشعر ﴿صَلَاتَهُۥ﴾ وميله إلى ربه الذي أوجده وأظهره ﴿وَتَسْبِيحَهُۥۗ﴾ الذي سبَّح ونزه به مبدعه عما لا يليق بجنابه ﴿وَٱللَّهُ﴾ المتجلي بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ﴿عَلِيمُۢ﴾ بعلمه الحضوري ﴿بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ أي بجميع ما صدر عنهم من التوجه والتسبيح وإخلاصهم فيه.

وكيف لا يعلم سبحانه أفعال عباده ومملوكه إذ

﴿وَلِلَّهِ﴾ المظهرِ المبدعِ ابتداءً ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وجميع من فيها وما فيها ﴿وَٱلْأَرْضِۖ﴾ ومن عليها وما عليها فله التصرف فيهما وفيما بينهما بالاستقلال والاختيار بلا مزاحمة الأضداد والأغيار ﴿وَ﴾ كيف لا ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ لا إلى غيره من الأظلال الهالكة في بيداء الضلال ﴿ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾ أي

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ ....

المرجع والمنتهى، إذ الكل منه بدأ وإليه يعود، هو الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو بكل شيء كائنٌ وسيكون أزلاً وأبداً عليمٌ خبيرٌ، يظهره ويعدمه حسب علمه وخبرته بإرادته واختياره.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ المتكفلَ لأرزاق عباده كيف ﴿يُزْجِى﴾ ويسوق أجزاء الأبخرة والأدخنة إلى فوقٍ متفرقةً ليجعله ﴿سَحَابًا﴾ هامراً ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ﴾ ويركب ﴿بَيْنَهُۥ﴾ أي بين أجزاء السحاب ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ متراكماً متكاشفاً متصلاً، ليكوّن منه مياهً كثيرةً، ثم يُجعل له فتوقاً ومنافذَ ﴿فَتَرَى﴾ أيها الناظر المعتبر ﴿ٱلْوَدْقَ﴾ أي المطر المتقاطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ وفتوقه غايةً منه سبحانه لمن في حوزته فضلُه وجودُه ﴿وَ﴾ كذا ﴿يُنَزِّلُ مِنَ﴾ جانب ﴿ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا﴾ يعني من قطعِ سحابٍ متراكمٍ في الجو على هيئة الجبال الرواسي ﴿مِنۢ بَرَدٍ﴾ متكونٍ من الأبخرة والأدخنة الواصلة إلى الطبقة الزمهريرية من الهواء وصولاً تاماً إلى حيث انجمدت انجماداً صلباً كالحجر من كمال البرودة، فيُنزل منها إظهاراً لقهره سبحانه وتنبيهاً على صَولة سطوة صفاته الجلالية ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ﴾ سبحانه ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من عباده ممن سبق القهرُ والغضبُ منه سبحانه بمقتضى جلاله سبحانه ﴿وَيَصْرِفُهُۥ﴾ أي يصرف شره ﴿عَن مَّن يَشَآءُ﴾ من أهل العناية على مقتضى

يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم ....

لطفه وجماله، ومن أمارات غضب الله وقهره أنه ﴿يَكَادُ﴾ ويقرب ﴿سَنَا بَرْقِهِۦ﴾ اللامعِ أي ضوئهِ الحاصلِ منه في كمال الظلمة حالة الاصطكاك ﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾ الناظرة نحوه، ويختطفها بحدوث الضد من الضد فجأة، وذلك من الأسباب التافهة التامة لتفريق البصر.

وكيف لا يخطف الأبصار حين ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ﴾ المحوِّل للأحوال فيه ﴿ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ﴾ بغتةً بلا تراخٍ ومهلةٍ إظهاراً لكمال قدرته واختياره واستقلاله بالتصرف في مظاهره ومصنوعاته ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ التبديل والقلب وإحداث الضد من الضد بغتةً ﴿لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾ المنكشفين بوحدة الواجب وصفاته الذاتية التي هي منشأ جميع ما ظهر وبطن من الكوائن والفواسد بإرادته واختياره، المستدلين من آثار أوصافه وأسمائه بعلو شانه وسمو برهانه، المتيقنين بوحدة ذاته وتنزهه عن وصمة الكثرة والشركة مطلقاً.

﴿وَٱللَّهُ﴾ المتوحد بذاته المتعزز بكمال أسمائه وصفاته ﴿خَلَقَ﴾ أي أظهر وقدَّر ﴿كُلَّ دَآبَّةٍ﴾ تتحرك على الأرض ﴿مِّن مَّآءٍ ۖ﴾ وهو العنصر الأصلي لوجود الحيوانات، إذ هو مبدأ حركاتهم ومنشأ إحساساتهم وإدراكاتهم، لذلك خُصَّ بالذكر بين العناصر وإن كانت مركبةً من جميعها ﴿فَمِنْهُم﴾ أي من الدواب، ذكرَ الضمير وجمعها جمع العقلاء على سبيل التغليب، لأن

مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍۚ يَخْلُقُ
ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍۚ وَٱللَّهُ
يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ....

العقلاء منها ﴿مَّن يَمْشِي﴾ ويزحف ﴿عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ بلا آلةِ المشي كالحية ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ كالطير والإنسان ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍۚ﴾ كالنعم والوحش، وبالجملة ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ﴾ المقتدر على الخلق والإيجاد ﴿مَا يَشَآءُۚ﴾ من الموجودات والمخلوقات إرادةً واختياراً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المتصفَ بصفات الكمال ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ داخلٍ في حيطة علمه ﴿قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾ بإيجاده وإظهاره في فضاء العيان بلا فتورٍ وقصورٍ.

ثم قال سبحانه تحريكاً لحمية عباده وتشديداً لبنيان اعتقاداتهم بالله وتوحيده وأسمائه وصفاته:

﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ﴾ من مقام جودنا ولطفنا إليكم أيها المحبوسون في مضيق الإمكان، المقيدون بسلاسل الكفران والعصيان ﴿ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍۚ﴾ موضحاتٍ مفصلاتٍ لتوحيدنا وصفاتنا وقدرتنا على الإنعام والانتقام، لعلكم تتفطنون منها إلى علو شأننا وكمال سطوتنا وسلطاننا، مع أن أكثركم لا تتفطنون ولا تتنبهون لانهماككم في بحر الغفلة والضلالة ﴿وَٱللَّهُ﴾ الهادي لعباده ﴿يَهْدِي﴾ بفضله ﴿مَن يَشَآءُ﴾ هدايته منهم ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾ موصلٍ إلى كعبة توحيده بلا عوج وانحراف.

﴿وَ﴾ من انحراف المنافقين وانصرافهم عن طريق الحق وميلهم إلى الباطل ﴿يَقُولُونَ﴾ بأفواههم خوفاً من حقن دمائهم وأموالهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾

وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ
﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن
يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ ....

المتوحّد في ذاته ﴿وَبِٱلرَّسُولِ﴾ المرسَل من عنده لتبليغ دينه وآياته ﴿وَأَطَعْنَا﴾ لحكم الله ورسوله سمعاً وطاعة ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ﴾ أي يعرض وينصرف ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ أي من المنافقين ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ الإقرار عن حكم الله ورسوله، تكذيباً لنفسه وإظهاراً لما في قلبه من الكفر والنفاق ﴿وَ﴾ لذلك ﴿مَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ الأشقياء المردودون ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ المتصفين بالإيمان والإذعان حقيقةً، وإن أقروا واعترفوا على طرف اللسان ؛ لأن الإيمان من صفات القلبِ واللسانُ مترجمٌ له.

﴿وَ﴾ كيف كانوا مؤمنين أولئك المنافقون مع أنهم

﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ المستخلفِ منه سبحانه النائبِ عنه بإذنه ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ ويقطع نزاعهم ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أي فأجاؤوا إلى الانصراف عن حكم الله وحكم رسوله بعدما دُعوا إلى رسوله إن كان الحكم عليهم.

﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ والحكم ﴿يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ أي إلى الرسول ﴿مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ منقادين طائعين، وبالجملة هم تابعون لمطلوبهم، وما هو مقصودهم، طالبون أن يصلوا إلى ما أَملوا في نفوسهم بلا ميلٍ منهم إلى الحق وصراطه المستقيم وميزانه العدل القويم.

أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ ....

وما سبب ميلهم وإعراضهم؟!

﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ يعرضهم عن قبول الإيمان والميل إلى اليقين والعرفان ﴿أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ﴾ وترددوا في عدالة الله ورسوله ﴿أَمْ يَخَافُونَ﴾ من سوء ظنونهم ﴿أَن يَحِيفَ﴾ ويميل ﴿ٱللَّهُ﴾ المستوي على القسط والعدل ﴿عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ﴾ المتخلقُ بأخلاقه ظلماً، بأن أجازوا الظلم على الله ورسوله ﴿بَلْ﴾ الحق أنه لا شك في عدالة الله ورسوله، ولا يُنسب الحيف والميل إليهما أصلاً، فتعين أنه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ البعداء عن ساحة القبول ﴿هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ المقصورون على الخروج عن حد الاعتدال، المائلون عن الصراط المستقيم لمرض قلوبهم وخبثِ طينتهم.

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته المستمرة:

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المخلصين على عكس المنافقين والمترددين ﴿إِذَا دُعُوٓاْ﴾ عند النزاع و المخاصمة ﴿إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ ويزيل شبههم ﴿أَن يَقُولُواْ﴾ طائعين راغبين: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ﴾ بلا مطلٍ وتسويفٍ، رضينا بما حكمنا الله ورسوله ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله ورسوله ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ الفائزون بالفلاح، المقصورون على الصلاح والنجاح، ولا يتحولون عنه بل يزادون عليه تفضلاً وامتناناً.

وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ

﴿وَ﴾ كيف لا يزادون إذ ﴿مَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾ حق إطاعته[1] وينقاد ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ حق الانقياد والاتباع ﴿وَيَخۡشَ ٱللَّهَ﴾ المنتقمَ فيما صدر عنه ومضى عليه من الذنوب بعدما تاب وندم ﴿وَيَتَّقۡهِ﴾ عنه سبحانه فيما بقي من عمره ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المطيعون المنقادون بالله ورسوله، الخاشعون المخبتون المتقون ﴿هُمُ﴾المتقون ﴿ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ بالمثوبة العظمى والدرجة العليا عند الله ، لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون.

آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً.

﴿۞وَ﴾ من خباثة بواطنهم أهل الشرك والشقاق وشدة شكيمتهم ونفاقهم معك يا أكمل الرسل ﴿أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ ترويجاً لنفاقهم وتغريراً للمؤمنين ﴿جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ وغاية حلفهم، مبالغين فيها مغلظين منكرين للامتناع عن حكم الرسول بقولهم، واللهِ ﴿لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ﴾ يا أكمل الرسل أي المنافقين بالخروج عن الديار والجلاء عن الوطن ﴿لَيَخۡرُجُنَّۖ﴾ عنها بلا مطلٍ وتسويفٍ، ممتثلين أمرك، فكيف يتأتى منا الامتناع عن حكمك وما هو إلا من غاية تلبيسهم ونفاقهم ﴿قُل﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما تيقنتَ نفاقَهم بإلهامٍ منا إليك ووحيٍ: ﴿لَّا تُقۡسِمُواْۖ﴾ بالله أيها المسرفون المفرطون، ولا تبالغوا في الحلف الكاذب، فإن المطلوب منكم ﴿طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ﴾ مشهورةٌ بين الناس بلا إتيان مخالفةٍ منكم ظاهراً، وأما أمر بواطنكم وقلوبكم فسِرُّه

(١) في المخطوط («من يطع الله» حق إطاعته وينقاد رسوله حق الانقياد والاتباع).

إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ ....

عند الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلعَ لسرائركم وضمائركم ﴿خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٥٣﴾﴾ وتقصدون في نفوسكم، يجازيكم على مقتضى خبرته.

﴿قُلۡ﴾ يا أكمل الرسل للناس على سبيل التبليغ العام والرسالة المطلقة: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ المظهرَ لكم من كتم العدم وانقادوا لجميع أوامره ونواهيه ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ﴾ المبعوثَ إليكم، وصدِّقوه في جميع ما جاء به من عند ربكم ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ وانصرفوا بعدما بلغتَ رسالتك حق التبليغ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ﴾ أي على [سيدنا] محمد ﷺ جزاء ﴿مَا حُمِّلَ﴾ من التبليغ وإظهارِ الدعوة وتبيينِ الرسالة ﴿وَعَلَيۡكُم﴾ أيها السامعون جزاء ﴿مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ﴾ من الامتثال والانقياد ﴿وَ﴾ اعلموا أيها المتوجهون نحو الحق ﴿إِن تُطِيعُوهُ﴾ أي الرسولَ وتصدقوا قوله وتعملوا على مقتضى ما أُمرتم على لسانه ﴿تَهۡتَدُواْۚ﴾ إلى معرفة ربكم وتفوزوا بتوحيده ﴿وَ﴾ إن لم تطيعوا له وتهتدوا إلى ما جُبلتم لأجله ﴿مَا عَلَى ٱلرَّسُولِ﴾ المأمور بالدعوة والتبليغ ﴿إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ الظاهرُ الواضحُ لئلا يشتبه عليكم أمر الدين، فإن امتثلتم بما سمعتم منه فزتم، وإن توليتم فعليكم الوزر والوبال، واعلموا يقيناً أنه:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾ المتفضلُ المحسنُ لعباده بأنواع الفضل والعطاء ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ﴾ أيها الناس بتوحيد الله وصفاته، وإرسالِ الرسل وإنزالِه الكتبَ،

﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾

والبعثِ بعد الموت، وجميعِ الأمور الأخروية ﴿وَ﴾ مع الإيمان والإذعان ﴿عَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ المقبولةِ عند الله ، المرضية له على مقتضى ما أوحاه على رسوله وأنزله في كتابه، وأقسم سبحانه بنفسه تأكيداً لوعده: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ وليجعلنهم خلفاء ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ التي استولى عليها الكفرة ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ﴾ آمنوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني بني إسرائيل استخلفهم على بلاد العمالقة والفراعنة وأرض الشام والفرس ﴿وَ﴾ بعد استخلافهم ﴿لَيُمَكِّنَنَّ﴾ ويقررن ﴿لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ وهو دين الإسلام المبنيِّ على صرافة التوحيد الذاتي المستلزم لتوحيد الصفات والأفعال، وليشيعن ويذيعن دينهم هذا إلى جميع الأقطار والأنحاء ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾ ويحولن حالهم ﴿مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ﴾ الناشئ من تمويهات متخيلتهم ووساوس متوهمتهم ﴿أَمْنًا ۚ﴾ نشأ من اليقين الحقي المثمرِ لكمال الاطمئنان والوقار، وبعدما حصل لهم مرتبة الفناء في ذاتي، حصل لهم البقاء ببقائي، فحينئذٍ ﴿يَعْبُدُونَنِى﴾ مخلصين حيث ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ﴾ من مظاهري ومصنوعاتي بتسويلات شياطين الخيالات والأوهام ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي ارتد ورجع ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي بعد نفي الخواطر والأوهام المضلةِ عن سواء السبيل ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المردودون المطرودون عن

هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ ....

ساحة عز الحضور والقبول ﴿ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ الخاسرون المقصورون على الخروج والخسران عن مقتضى اليقين العلمي والعيني والحقي، ألا ذلك هو الخسران المبين.

﴿وَ﴾ بعدما جعلتم التوحيد الذاتي قبلة مقصدكم أيها المحمديون ﴿ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ المثمرةَ المورثةَ لكم كمالَ الشوق والمحبة نحو الحق دائماً ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ المطهرةَ لنفوسكم عن الميل إلى ما سواه ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ﴾ المرشدَ لكم إلى طريق التوحيد ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ وتفوزون بما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

حققنا بما أنت راضٍ عنا يا خير الناصرين.

ثم قال سبحانه تأييداً لنبيه ﷺ:

﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ﴾ ولا تظنن يا أكمل الرسل ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ بالله وأعرضوا عن توحيده هم صاروا بكفرهم وعنادهم ﴿ مُعْجِزِينَ ﴾ الله - القادرَ المقتدرَ عن أخذهم وإهلاكهم ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ التي هي مملكة الحق ومحل تصرفاته سبحانه، بل يأخذهم الله الرقيبُ عليهم بظلمهم وبغيهم، ويستأصلهم عن وجه الأرض في النشأة الأولى ﴿ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ ﴾ في النشأة الأخرى ﴿وَ﴾ الله ﴿ لَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ ﴾ مصيرهم ومرجعهم.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم﴾ ....

ثم أشار سبحانه إلى تتميم ما مضى من آداب الخلطة والمؤانسة بين المؤمنين، فقال منادياً لهم على وجه العموم ليقبلوا إلى امتثال ما نودوا فقال:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ من آداب المصاحبة والإخاء هذا ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ﴾ بالدخول على بيوتكم ويسترخص منكم أيها المؤمنون خدمتكم ﴿ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ سواءً كانوا عبيداً أو إماءً، وأنتم: رجالٌ أو نساءٌ ذكرَ الضمير على سبيل التغليب ﴿وَ﴾ كذا الصبيان ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ أي لم يبلغوا وقت الحلم، خص بالذكر لكونه أقوى أسباب البلوغ إلى وقت التكليف ﴿ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ يعني ليستأذنكم الخَدَمةُ والصبيانُ في ثلاث أوقات دخولهم: أحدها: ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾ إذ هو وقت الانخلاع والتجرد عن ثياب النوم والدخول فيه منهي، ﴿وَ﴾ ثانيها: ﴿حِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ للاستراحة والقيلولة، ﴿وَ﴾ ثالثها: ﴿مِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾ وقت التجرد عن الثياب للنوم، والأوقاتُ المذكورةُ ﴿ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ لا بد من تحفظكم فيها عما يشوشكم ويطلع على سركم ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ﴾ ضيقٌ ومنعٌ ﴿بَعْدَهُنَّ﴾ أي بعد الأوقات الثلاث لو دخلوا عليكم بلا إذن منكم، إذ هم خَدَمةٌ ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم﴾

بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ

ليخدموكم إذ جُبلتم على أن يظاهر ﴿بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ما ذكر ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ﴾ المدبرُ لمصالحكم ﴿لَكُمُ الْآيَاتِ ۗ﴾ الدالةَ على آداب المصاحبة والمؤانسة ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلعُ لأحوال عباده ﴿عَلِيمٌ﴾ بمصالحهم ومفاسدهم ﴿حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ في ضبطها وحفظها، بحيث لا يختل أمر النظام المتعارف.

﴿وَ﴾ كذا ﴿إِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ﴾ وظهر منهم أمارات الميل والشهوة سواء كانوا ذكراً أم أنثى ﴿فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأحرار البالغين، إذ هم حينئذ دخلوا في حكمهم بعد الحلم ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ۗ﴾ الدالةَ على آداب خلطتكم وحسن معاشرتكم ﴿وَاللَّهُ﴾ المصلحُ لأحوال عباده ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في ضمائرهم من المنكرات ﴿حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ في دفعها قبل وقوعها.

﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ﴾ عجائز ﴿النِّسَاءِ اللَّاتِي﴾ قعدن عن الحيض والحبل وشهوة الوقاع مطلقاً إلى حيث ﴿لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ وزواجاً لكبرهن وكهولتهن ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ﴾ أي ذنبٌ وكراهةٌ ﴿أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ أي الثياب الظاهرة التي يلبسنها فوق الأستار كالجلباب حال كونهن

غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٍۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾
لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ
أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ
أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ ....

﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍ﴾ أي مظهراتٍ ﴿بِزِينَةٍ﴾ مشهيةٍ للرجال، مثيرةٍ لشهواتهم، أي الزينة التي مُنعن من إبدائها في كريمة: ﴿ولا يبدين زينتهن...﴾ ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ﴾ عن الوضع ﴿خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ سواء كن عجائز[1] أم شواب؛ لأن العفة أبعد من التهمة في كل الأحوال ﴿وَٱللَّهُ﴾ المطلع لسرائرهن ﴿سَمِيعٌ﴾ لمقالتهن مع الرجال ﴿عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ بنياتهن منها.

ثم لما كانت العرب يتحرّجون عن مصاحبة ذوي العاهات والمؤاكلة معهم استقذاراً، وكانوا أيضاً يتحرّجون من البيوتات المذكورة تعظماً واستكباراً، بل يعدونه عاراً، ويستنكفون منه، ردَّ الله عليهم ونفى الحرج فقال:

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ أن يأكل مع البصراء ﴿وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ﴾ أن يأكل مع السويِّ السالم ويجلس معه ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ أن يأكل مع الأصحاء ﴿وَلَا﴾ حرجَ أيضاً ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ في أكلكم مطلقاً سواءً ﴿أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ وعند أهليكم ومحارمكم، سواءً كان من أكسابكم وأكساب أولادكم ﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ﴾ وأجدادكم لأنهم مستخلِفون لكم ﴿أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ لأن بينكم وبينهن مناسبة الكلية والجزئية ﴿أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ﴾ لاشتراككم معهم في المنشأ ﴿

(١) في المخطوط (سواء كانوا عجائز...).

أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ

أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ ﴾ لاشتراك آبائكم معهم في المنشأ ﴿ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ ﴾ لاشتراك أمهاتكم معهم في المنشأ،﴿ أَوْ﴾ بيوت ﴿ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ ﴾ يعني بيوت عبيدكم التي أنتم أسبابٌ لإنشائها سواءٌ كانوا معتَقين أم لا، والتعبير عنهم بما: للتمليك والرِّقية ﴿ أَوْ﴾ بيوت ﴿صَدِيقِكُمْ﴾ بالمناسبة المعنوية التي هي أقوى من القرابة النَّسَبية الصورية، كل ذلك المذكور مسبوقٌ بالإذن والرضا والتبسط والنشاط من أصحاب البيوتات.

ثم أشار سبحانه إلى أدب المؤاكلة فقال:

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا ﴾ مجتمعين في إناءٍ واحدٍ يأكل بعضكم سؤر بعض، إذ هو أدخل في التأليف والتحابب ﴿ أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ متفرقين كلٌّ في إناءٍ، وهذا أدخل في التزكية والنظافة ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا ﴾ أي كلٌّ منكم بيتاً من البيوتات التي رُخِّصتم بالأكل منها ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ أي فابدؤوا بالسلام على أهلها ؛ لأنهم منكم ديناً وقرابةً، حتى صار سلامكم إياهم ﴿تَحِيَّةً ﴾ وزيادة حياةٍ لهم ﴿ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ تفضلاً عليهم وإحساناً ﴿مُبَٰرَكَةً ﴾ كثيرةَ الخير والبركة النازلة من عنده على أهلها ﴿طَيِّبَةً ﴾

كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّمَا
ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟
حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ....

خالصةً صافيةً عن كدر النفاق وأثر الخلاف والشقاق ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدالة على آداب آثر الخلاف والشقاق ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ رجاء أن تتفطنوا منها إلى أحوالكم في النشأة الأخرى، فتزوَّدوا فيها لأجلها.

ثم أشار سبحانه إلى محافظة الآداب مع رسول الله ﷺ ورعاية حقوقه وكمال الإطاعة والانقياد إليه فقال:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الموحدون الكاملون المنكشفون بسرائر التوحيد الذاتي هم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ الجامع لجميع الأسماء والصفات المنسوبة إلى الذات الأحدية ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ الجامع لجميع مراتب المظاهر والمصنوعات، لا يخرج عن حيطة مرتبته الجامعة الكاملة مرتبةٌ من المراتب أصلاً ﴿وَ﴾ بعدما عرفتم جمعيته ﴿إِذَا كَانُوا۟﴾ مجتمعين ﴿مَعَهُۥ﴾ ﷺ ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ أي أمرٍ مشروطٍ حصولُه بالاجتماع والاقتحام كالزحف والجهاد والجُمَع والأعياد ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا۟﴾ ولم ينصرفوا من عنده ﷺ ﴿حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ بالانفضاض والانصراف، وإن كنتم مضطرين إلى الإياب والذهاب.

ثم كرر سبحانه أمر الاستئذان على وجه أبلغ تأكيداً ومبالغةً، فقال مخاطباً لحبيبه ﷺ:

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ
لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًاۚ

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ﴾ في الذهاب والانصراف محافظة على الأدب ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ السعداء المستأذنون هم ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ ﴾ حقاً ﴿ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ويراعون الأدب معهما من صفاء بواطنهم وخلوص طوياتهم ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ﴾ يا أكمل الرسل بعد اضطرارهم ﴿ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ وأمرهم المتعلق بمعاشهم ﴿ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ أي أنت مخيرٌ في إذنهم بعد اضطرارهم ﴿وَ﴾ بعدما أذنتَ لهم ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَۚ﴾ من ذنبهم الذي اختاروا من أمر الدنيا على أمر العقبى، واستأذنوا له واهتموا لشأنه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلع لاستعدادات عباده ﴿غَفُورٌ﴾ يغفر لهم أمثال هذه الفرطات الاضطرارية ﴿رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ مشفقٌ حينئذٍ عليهم بعدما ندموا في نفوسهم.

ومن جملة الآداب التي وجبت عليكم رعايتها ومحافظتها بالنسبة إلى رسول الله ﷺ:

﴿ لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ﴾ ونداءه ﴿ بَيْنَكُمْ ﴾ بين أظهركم ﴿ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًاۚ﴾ بالاسم واللقب فقط بلا ضميمةٍ تدل على تعظيمه وتوقيره، بل قولوا له وقت ندائه: يا نبي الله! أو خير خلق الله! أو يا أكرم الخلق على الله! وأمثالها.

قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ....

أو لا تجعلوا دعاءه ومناجاته مع الله ورفع حاجاته ﷺ إليه سبحانه في الإجابة والقبول كدعاء بعضكم بعضاً، فإن قبل مرة ردَّ أخرى بل ردّ مراراً كثيرة، فإن دعاءه ﷺ لا يرد عند الله أصلاً، أولا تقيسوا نداءه إليكم في الوقائع والأمور كدعاء بعضكم بعضاً، فإن تجيبوا مرة وتردوا أخرى، بل عليكم أن تبادروا لإجابة ندائه ﷺ سمعاً وطاعةً بلا مطلٍ وتسويفٍ، خافضين أصواتكم حين إجابته مسرعين إليها بالآلات والجوارح، ساعين إلى إنجاح سؤله[1] ومطلوبه ﷺ.

ثم أشار سبحانه إلى توبيخ المنافقين وتقريعهم حيث قال:

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ﴾ المطلع على سرائر عباده بمقتضى علمه الحضوري كيدَ المنافقين ﴿ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ﴾ أي يخرجون قليلاً قليلاً من جمعكم أيها المؤمنون ﴿لِوَاذًا﴾ أي حال كونهم ملاوذين ملتجئين بغيرهم بأن يستر بعضهم خلف بعض وحتى يخرج بلا إذنٍ ورخصةٍ منه ﷺ ﴿فَلْيَحْذَرِ﴾ أولئك الماكرون المخادعون ﴿ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ﴾ وينصرفون ﴿عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ سبحانه وأمر رسوله ﷺ بلا رخصةٍ ﴿أَن تُصِيبَهُمْ﴾ في الدنيا ﴿فِتْنَةٌ﴾ أي مصيبةٌ ومحنةٌ عظيمةٌ مثل القتل والنهب والأسر وأنواع البليات ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ لا عذاب أشدَّ منه.

(١) في المخطوط (مسؤوله).

أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿٦٤﴾

وكيف تعرضون وتنصرفون عن أمر الله وأمر رسوله أيها المسرفون المفرطون، أما تستحيون من الله الرقيب عليكم، أَلَا أي تنبهوا أيها الجاهلون الغافلون بقدْر الله وحق ألوهيته واستقلاله وبسطته ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ﴾ المظهِرِ الموجِدِ تصرفاً وملكاً مظاهرَ[1] ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أي العلويات والسفليات وما بينهما ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ﴾ سبحانه بعلمه[2] الحضوري ﴿مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ في نشأتكم هذه ﴿وَ﴾ يعلم أيضاً ما ستكونون عليه ﴿يَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ في النشأة الاخرى المعدَّة للعرض والجزاء، إذ لا يعزب عن حيطة حضرة علمه شيء مما جرى في عالم الغيب والشهادة والنشأة الأولى والأخرى ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾ ويخبرهم حينئذ ﴿بِمَا عَمِلُواْۗ﴾ في النشأة الأولى على التفصيل بلا شذوذِ شيء منها، ثم يجازيهم عليها ﴿وَٱللَّهُ﴾ المجازي لعموم عباده في يوم الجزاء ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾ صدر عنهم في أولاهم وأخراهم ﴿عَلِيمُۢ ﴿٦٤﴾﴾ محيطٌ بجميع أعمالهم وأفعالهم وشؤونهم وحالاتهم وجميعِ ما جرى عليهم، يجازيهم على مقتضى علمه، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

اصنع بنا يا مولانا ما أنت أهله يا ذا الفضل العظيم والجود العميم.

---

(١) في المخطوط (مظاهراً).

(٢) في المخطوط (بعلم).

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المستضيءُ المقتبسُ من المشكاة الجامعة المصطفوية والمصباح اللامع النبوي أرشدك الله إلى غاية ما أملك، ووفقك إلى كمال ما جبلك الحق لأجله:

أن تحسن الأدب مع نبيك الهادي إلى طريق التوحيد الذاتي، وتحافظَ على ملازمة ما أوجبك الحق من حقوقه وآدابه ﷺ، فلك أن تجعل رتبته ﷺ نصبَ عينيك، ولا تترك شيئاً من سننه المأثورة وأخلاقه المشهورة وشيمه المعروفة بين أهل الحق وأرباب المحبة من المنكشفين بعلو مرتبته ﷺ ورفعة قدره ومكانته، ولا تهمل شيئاً من الحدود والأحكام الموضوعة في دينه وشريعته، ولك أن تختار لنفسك من عزائم شرعه ودينه مهما أمكنك ولا تميلَ إلى رخصتها، إذ الرخصة لعوام أهل الإيمان والعزائم لخواصهم، فلك الإخلاص في العمل وعليك الاجتناب عن الرياء والسمعة وجميع الرعونات الواقعة في صدور الأعمال، سواءً كان عملك قليلاً أو كثيراً عزائمَ أو رخصاً.

وإياك إياك الحذر عن مداخل الرياء والتلبيس، فإنها من شباك إبليس، يضل بها ضعفاء الأنام عن نهج الرشاد وسبيل الاستقامة والسداد.

عَصمنا الله من تغريرات الشياطين وتسويلاتهم بفضله وجوده.

فهرس الجزء الثالث

التنفيذ الطباعي: دار القماطي للطباعة
٠١\٤٥٠٤٥٤-٠١\٤٥٠٤٦٧ - بيروت, لبنان



Bibliotheca Alexandrina
0667541